التراث المغدور

اغتيال ماضي البوسنة

روبرت ج. دينا - جون ف. أ. فاين



ترجمة: أحمد محمود

المجلس الأعلى للثقافة
المشروع القومي للترجمة

التراث المغدور

اغتيال ماضي البوسنة

تأليف

روبرت ج. دنيا

جون ف. أ. فاين

ترجمة

أحمد محمود

أهدى هذه الترجمة إلى كل من يحرصون على ألأيُغتال تراثهم المتسامح ، وأدعوهم إلى قراءة الكتاب ..

وأدعو قبلهم كل من أعمتهم مصالحهم الضيقة عن رؤية مايمكن أن ينال من وحدة أمتهم ..

ففى الصفحات التالية دروس وعبر.. لمن يعتبر.

هذه ترجمة كاملة لكتاب

BOSNIA AND HERCEGOVINA

By

Robert J. Donia

John V.A. Fine

Publisher

HURST AND COMPANY ، LONDON

1994

تقديـــم

عندما يُكتب التاريخ ، أى تاريخ ، ثم يقع فى أيدينا لنقرأه ، ينبغى أن تكون قراءتنا له قراءة المتلهف على معرفة الدروس المستفادة من هذا التاريخ ، لا قراءة من يتسلى بحكايات الماضى . وتاريخ البوسنة والهرسك منذ القرن السابع حتى تسعينيات القرن العشرين درس كبير لا بد أن تعيه شعوب كثيرة لها ظروف مشابهة لظروف البوسنة والهرسك . فعندما عاشت عناصر الأمة البوسنية قروناً عديدة فى تسامح وألفة ووئام كان الجميع يسعدون بحياتهم ، رغم تعددية المجتمع البوسنى . وما أن أطلت العنصرية والقومية المتشددة بوجهها القبيح وخرجت الأفكار التىتتسم بالغلو والانغلاق من قماقمها حتى استحالت حياة البوسنة إلى جحيم مزق البلاد شر ممزق ، وحتى بات فى وقت من الأوقات بإمكان سكان إحدى البنايـات الكبيرة أن يعلنوا أنفسهم منطقة حكم ذاتى .

وهذا الكتاب سياحة فى تاريخ البوسنة منذ القرنين السادس والسابع الميلاديين ، اللذين سكنت فيهما البوسنة تلك القبائل السلافية ، وهى القاعدة الأساسية التى ينتسب إليها كل أبناء البوسنة من صرب وكروات ومسلمين . وخضعت البوسنة بعد ذلك لحكم الصرب فى القرن العاشر وتلاهم البلغار ثم الهنغار وأعقبهم البيزنطيون وعاد الهنغار من جديد . وبعد ذلك استقل البوسنيون فى نهاية القرن الثانى عشر . وتعد الكنيسة البوسنية البوجوميلية المستقلة عن كنيسة روما أبرز أشكال ذلك الاستقلال ، وهذا ما جعل البوسنة هدفاً لحرب مقدسة دعا لها بابوات روما . وعندما اتسعت أراضي البوسنة فى عهد أسرة كوترومانيتش فى القرن الرابع عشر ، لم يكن أهل البوسنة يدعون أنفسهم " صرب " أو " كروات " ، بل بوسنيين . فى ذلك الوقت كان يعيش على أرض البوسنة الكاثوليك والأرثوذكس والبوجوميليون واليهود . ولم يحدث أن اضطهدت طائفة دينية او عرقية طائفة أخرى أو أجبرتها على اعتناق عقيدتها . بل كانوا يقاومون دعوات البابا لاضطهاد البوجوميليين الذين اعتبرهم هراطقة . ولم تشهد بوسنة العصور الوسطى قتالاً بين أبنائها على أسس عرقية أو دينية .

وعندما فتح العثمانيون البوسنة فى القرن الخامس عشر حدثت تحولات دينية ودخل البوجوميليون الإسلام ومعهم الأرثوذكس والكاثوليك بصورة تدريجية . وكان العثمانيون يحابون الأرثوذكس ، لوجود رأس الكنيسة الأرثوذكسية فى عاصمة إمبراطوريتهم

وطوال الحكم العثمانى ، الذى امتد حوالى أربعمائة سنة ، لم تكن الصفة العرقية واضحة ، سواء بالنسبة لوصف سكان البوسنة لأنفسهم أم للدولة التى كانت تتعامل معهم على أنهم ملل وليس عرقيات . ورغم أن غالبية مُلاَّك الأراضى كانوا من المسلمين وأكثرية الفلاحين من المسيحيين ، لم تشهد تلك الفترة أية حروب عرقية أو دينية . بل شارك المسلمون والمسيحيون معاً فى ثورات ضد الحكم العثماني . وكان أهل الكتاب فى العهد العثماني يعاملون بتسامح . كما أن كلاً من الملة الأرثوذكسية والملة اليهودية كانت تحكم نفسها بنفسها . وكان المسيحيون يصنفون على أنهم أرثوذكس وكاثوليك وليس على أنهم جماعتان عرقيتان من الصرب والكروات .

إلا أنه فى القرن التاسع عشر أصبح لدى الفرنسيسكان إحساس قوى بالهوية الكرواتية وأمل فى أن تتوحد البوسنة مع كرواتيا . وهذه النظرة القومية المتشددة هي التى ظهرت إبان الحرب العالمية الثانية فى صورة النشاط الإرهابي الذى مارسه نظام الأوستاشى الكرواتى المؤمن بالأفكار الفاشية والنازية . وفى منتصف ذلك القرن أصبحت تفصل كل طائفة دينية عن الأخرى هوة سحيقة ، حيث اتخذت كل منها ممارسات اختصت بها . وشيئاً فشيئاً بات لها سماتها الثقافية التى تميزها عما سواها . وأصبح كاثوليك البوسنة بمرور الوقت يرون أنفسهم ككروات وبات الأرثوذكس يعتبرون أنفسهم صرباً . أما المسلمون فنأوا بأنفسهم عن هذا المسلك وكانوا يرون أنهم أبناء طائفة دينية فى المقام الأول ولا ينتمون إلى أية قومية عرقية ، وظل هذا حالهم حتى القرن العشرين . ورغم كل هذا كانت العلاقات بين الطوائف الدينية والعرقية تقوم على التسامح المتبادل والاختلاط فى كل شئون الحياة . فكان الكاثوليك والأرثوذكس والمسلمون واليهود وغيرهم يشاركون فى نفس الأسواق ويساعد بعضهم البعض وتشارك كل طائفة منهم الأخرى فى الاحتفال بأعيادها .

وفى عهد الإمبراطورية النمساوية المجرية كان هناك تشجيع لفكرة " البوسنوية " والولاء الوطني للبوسنة نفسها ، كبديل للهوية الكرواتية أو الصربية أو الإسلامية . وأملاً من الحكام فى الحيلولة دون ضرب القومية الصربية أو الكرواتية لجذورها فى البوسنة ، ورغبة منهم فى الحصول على ولاء سكان البوسنة من الأرثوذكس والكروات ، شجعوا استكشاف تاريخ البوسنة الفريد وفسروا موروثاتها الثقافية تفسيراً رومانسياً . إلا أن

رجال الدين المسيحيين كانوا فى كثير من الأحيان وراء الحركات السياسية ذات الأسس العرقية التى تحدت سياسات الحكومة النمساوية . وفى بداية القرن العشرين سمحت السلطات النمساوية للبوسنيين بتأسيس الأحزاب السياسية القائمة على أسس عرقية واستخدام أسماء القوميات التى ينتمون إليها . بل كان التمثيل فى البرلمان الذى أُنتخب سنة 1910 تمثيلاً يقوم عل أسس عرقية .

وكان كل من الصرب والكروات يسعى إلى اكتساب المسلمين . فبدون ضم المسلمين لم يكن بوسع أى من الصرب أو الكروات تأكيد أحقيتهم المقبولة فى الأغلبية العددية فى البوسنة . وكانت المنظمة القومية الصربية تقول إن المسلمين البوسنيين صرب بالقومية اعتنقوا الإسلام ديناً . فى حين زعم الاتحاد القومي الكرواتي أن المسلمين كروات ودعا إلى الوحدة مع كرواتيا . وأكد الصرب أن البوسنة أرض صربية وأصر الكروات على أنها كرواتية . وكانت الحاجة إلى المسلمين الواقع الأساسي فى بوسنة ما بعد العثمانيين حتى سنة 1992 ، عندما أصبحت الغلبة للمتطرفين فى المعسكرين الصربي والكرواتي . إذ لم يعد لدى أى منهما رغبة فى المسلمين وقرر كل منهما تحقيق السيادة الديموجرافية من خلال طرد المسلمين .

والأمر الثابت فى السياسة البوسنية أن المسلمين البوسنيين لم يمكنهم العيش طويلاً دون ائتلاف أو تحالف مع شريك قومى سلافى جنوبى مهم . وطالب المسلمون بتحالف سياسي مستقر ودائم مع تأييد للكيانات متعددة القوميات . وتحالف المسلمون مع الكروات وأعلن بعض المثقفين من المسلمين أنهم كروات . كما أعلن البعض الآخر أنهم صرب . ولكن تلك الحالات كانت عابرة وسطحية . فقد احتفظ هؤلاء بهويتهم الأساسية كمسلمين ينتسبون إلى الطائفة الإسلامية القائمة على العقيدة الدينية . وفى ذروة التعاون الكرواتي المسلم سنة 1911 رفضت المنظمة القومية الإسلامية صراحة البرنامج القومي الكرواتي الذى دعا إلى جعل البوسنة جزءاً من كرواتيا .

ويرجع إخفاق الصرب والكروات فى اكتساب ولاء المسلمين إلى أن جذور الهوية الإسلامية البوسنية المنفصلة كانت قد تعمقت بحلول سنة 1900 ، بحيث لم يعد بإمكان أى حركة قومية كرواتية كانت أم صربية أن تحتويها . فقد فضَّل معظم المسلمين حتى العهد الاشتراكى الهوية الدينية القائمة على الأسس التاريخية والثقافية .

وخلال الفترة الملكية التى امتدت من 1918 حتى 1941 كان الكروات والسلوفينيون يرون يوغوسلافيا على أنها شراكة أكفاء ذات هيكل فيدرالى ، بينما اعتبر الصرب أنفسهم الحكام المؤهلين بناة الدولة . وبذلك كانت المملكة الجديدة منذ البداية انتصاراً للسيادة الصربية فى جوانب كثيرة . وأثناء ذلك دخل المسلمون فى الائتلافات الحاكمة . وحدث سنة 1921 أن ألغى الملك الكسندر كل الأحزاب السياسية والاتحادات القائمة على أساس عرقي أو دينى وأعاد تقسيم يوغوسلافيا إلى وحدات إدارية جديدة تجاهلت حدودها العرف التاريخي وقطّعت الحدود العرقية ليصبح للصرب الأغلبية العددية فى تسع وحدات ، أربع منها فى البوسنة . وفى الوقت نفسه كانت التعيينات الملكية تحابى الصرب ، وفى البوسنة حل عُمَد معينون محل العمد المسلمين المنتخبين .

وأثناء الحرب العالمية الثانية اصطنع النازيون " دولة كرواتيا المستقلة " التى حكمها الفاشيون المحليون من الأوستاشي بزعامة أنتي بافيلتش ، الذى دبر من قبل اغتيال الملك الكسندر سنة 1934 . وبذلك تحقق الحلم الكرواتي بوجود وطن كرواتى موحد . وباشر الأوستاشي القضاء على اليهود والغجر والصرب وصادروا أملاك اليهود وأرسلوهم إلى معسكرات النازى وذبحوا الصرب فى عملية إبادة جماعية تشير الروايات إلى أن ضحاياها تراوحوا بين 185 ألفاً و 700 ألف . و تصل روايات أخرى بالرقم إلى المليون . ورداً على ذلك ذبحت وحدات التشتنك الصربية الكروات والمسلمين وغيرهم ممن شكت فى تعاونهم مع الأوستاشي . وأثناء ذلك كانت هناك محاولة من الكروات لتحويل الصرب إلى المذهب الكاثوليكي . إلا أنهم لم يقوموا بأية محاولة ذات قيمة لتنصير المسلمين . بل إن وزير التعليم أعلن أن " كرواتيا المستقلة " دولة ذات ديانتين ، الكاثوليكية والإسلام . وأُقيم مسجد فى زغرب ليؤمه المسلمون البوسنيون . وكان فى ذلك تشجيع لكثير من المسلمين البوسنيين كي يعلنوا أنهم كروات . وشغل مسلمون مناصب حكومية محلية كثيرة وشاركوا فى حكومة الأوستاشي . وخلّف البطش الذى أبداه الأوستاشى ميراثاً من المرارة أحياه المشاركون فى ذلك الصراع الذى تفجر سنة 1991 .

وعندما تولى تيتو الحكم بعد الحرب العالمية الثانية لم يعترف بالمسلمين كقومية وكان يرى أنهم طائفة منفصلة بلا هوية قومية . وكان المسلمون فى الحقبة الاشتراكية من أكثر المؤيدين للقومية اليوغوسلافية التى تجمع كل أبناء البلاد على اختلاف طوائفهم ،

كبديل للصفات القومية التى تميز كل جماعة عرقية . ورغم كون تيتو كرواتياً ، كان الكروات يشكون من أنهم يعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية . وقالوا كذلك أنهم محرومون من حقوقهم الأساسية . إلا أن تيتو قمع تلك الحركة القومية بحزم وشدة . غير أن هذا لم يقض على النزعة القومية الكرواتية وإنما دفع بها إلى العمل السرى .

وخلال الفترة الاشتراكية تطور نمط الحياة فى المدن وظهرت العمارات الضخمة وتغير كذلك نمط الأسماء وبات من الصعوبة تحديد الصفة العرقية لأى من سكان البوسنة من خلال الاسم الذى يحمله . وغطت هذه التغييرات على الخلافات القائمة بين الجماعات العرقية القومية التقليدية وأصبحت الزيجات المختلطة بين أبناء القوميات المختلفة أمراً شائعاً فى كل مدن البوسنة ، حتى أنه بحلول سنة 1990 كان 40٪ من الزيجات مختلطاً. وكان الأطفال الذين يأتون من هذه الزيجات يعتبرون أنفسهم بوسنيين بلا أية انتماءات عرقية . إذ كان الولاء للبوسنة يفوق كل المشاعر العرقية.

ومات تيتو دون أن يترك الخليفة القوى وتخلت أجهزة الحزب المركزية والحكومة اليوغوسلافية الاتحادية عن سلطاتهما للجمهوريات ومنظمات الحزب فى كل جمهورية . وهنا بدأت كل جمهورية تتصرف وكأنها دويلة وأصبح التنافس بين الجمهوريات واقعاً سياسياً ملموساً .

وهكذا أصبح المناخ ملائماً لظهور القوميين المتشددين أمثال الرئيس الصربي ميلوشيفتش والزعيم الصربي البوسنى كاراجتش . وماتت اليوغوسلافوية تحت أقدام النزعات القومية الضيقة وبدأت كل جمهورية تسعى إلى الانفصال عن الاتحاد اليوغوسلافى ، وهي الخطوة التى عارضها ميلوشيفتش الذى كان يراوده حلم صربيا الكبرى . وتوالى انفصال الجمهوريات التى حصلت على الاعتراف الدولى . أما صربيا والجبل الأسود فظلتا معاً باعتبارهما " ماتبقى من " يوغوسلافيا . وهنا واجهت الأقليات فى كل جمهورية احتمال فقدانها المزايا التى حظى بها غيرها من أبناء قوميتها الذين يعيشون فى جمهورية ما يشكلون فيها الأغلبية . وهنا طالب ميلوشيفتش بتقسيم كرواتيا والبوسنة من أجل راحة من يقيم فيهما من الصرب . وفى حين عارض الرئيس الكرواتى توجمان تدخل أى إنسان فى معاملة كرواتيا لسكانها الصرب ، فقد كان يسعى لضم أجزاء من البوسنة والهرسك باسم سكانها من الصرب .

وخلف هذا كله كان المقاتلون الصرب غير النظاميين والقوات الإقليمية الكرواتية يتسلحون على عجل تحسباً لوقوع حرب أهلية . وشهدت كرواتيا قتالاً مريراً سنة 1991 كان بداية لحرب مدمرة استمرت أربع سنوات وكانت كل أطرافها خاسرة . ففي هذه الحرب اغتالت كل الأطراف المشاركة فيها ذلك التراث الرائع من التعايش ، الذى شهدته البوسنة على مر القرون رغم تعدديتها.

وأنا إذ أقدم هذه الترجمة للقـارئ العربى أجد لزاماً علىّ أن أرد الفضل إلى أصحابه. فهذا الكتاب يصدر ضمن المشروع القومى للترجمة الذى يرعاه المجلس الأعلى للثقافة وعلى رأسه أمينه العام **الأستاذ الدكتور جبر عصفور** ، الذى قيل يوماً ، وهى قولة حق، إنه جعل من المجلس «بيت الحكمة الجديد" بمشروعه الذى وضع أساسه ورعاه وحشد له كل الإمكانيات . ولا يمكن بحال أن أغفل جهود لجنة الترجمة بالمجلس وعلى رأسها مقررتها **الأستاذة الدكتورة فاطمة موسى** التى لا تخفى جهودها على كل مهتم بالترجمة والأدب المقارن فى مصر وخارجها ، إلى جانب ذلك العبء الكبير الذى تحمله فيما يتعلق بكل أمور اللجنة من نشر وأنشطة مختلفة . فللأستاذين الجليلين الشكر منى كل الشكر على ما لقيته منهما من رعاية واهتمام وتشجيع .

المترجم

الهرم/ أبريل 1998

مقدمة المؤلفين

فى السادس من أبريل 1992 تجمع حشد من المتظاهرين يربو عدده على الخمسين ألف شخص أمام مبنى برلمان البوسنة فى سراييفو مطالباً بالسلام فى البوسنة والهرسك . وكان المتظاهرون ينتمون إلى القوميات الثلاث الرئيسية الكبرى فى البوسنة : أى الصرب والكروات ومسلموالبوسنة . ومن الجانب المقابل من الشارع ، من الطوابق العليا فى فندق هوليداى إن بمبناه الحديث جداً الذى أُنشئ لاستضافة دورة الألعاب الشتوية سنة 1984، أطلق أفراد الميليشيا الصربية المدججين بالسلاح النار إطلاقاً عشوائياً على ذلك الجمع ، مما أدى إلى قتل وجرح العشرات من المتظاهرين من أجل السلام . وسرعان ما أدت هذه النوبة المقيتة من القتل إلى تمزيق الجماهير ، وكانت بمثابة الإعلان عن موت ما تبقى من أمل فى أن يسود الاعتدال والحلول الوسط البوسنة والهرسك.

والواقع أن مجزرة سراييفو فى السادس من أبريل تضمنت عناصر عديدة تكررت فى حرب البوسنة التى نشبت فى الأسابيع والشهور التالية . فقد كان الضحايا من المدنيين العزل ، الذين يأملون فى الحفاظ على المجتمع البوسنى متعدد الأعراق الذى تعود جذوره وتقاليده إلى قرون بعيدة مضت . أما الجناة فكانوا من غلاة القوميين الذين نظمهم وسلحهم زعماء سياسيون وبرلمانيون عقدوا العزم على تدمير المجتمع البوسني متعدد الأعراق ، ليحل محله التفوق القومي لمجموعة عرقية واحدة ، هى فى هذه الحالة الصرب . ومن الناحية الرمزية ، أسكتت مذبحة سراييفو الأصوات الداعية إلى السلام والتسامح المتبادل. فقد تحققت الغلبة لصيحات الكراهية والفُرقة القومية الحادة بقوة السلاح.

وأسفرت الحرب التى نشبت فى البوسنة سنة 1992 عن قدر من الموت والفظائع والإرهاب لم تشهده أوروبا منذ الحرب العالمية الثانية . ويبدو أن مرتكبى جريمة حرب البوسنة لم يعرفوا حدوداً للوحشية والقسوة والدمار تجاه خصومهم ونحو سكان البلاد الذين لا ذنب لهم . والتقطت كاميرات التلفزيون بعض أعمال القتل والوحشية . وفى كل يوم كانت نشرات الأخبار تكشف عن ذلك الخراب الرهيب الناجم عن الحرب . وكان المشاهدون فى أنحاء العالم يشاهدون الأسرى الذين يتضورون جوعاً ، وضحايا الاغتصاب المنظم والجثث التى مُثِّل بها والتدمير المحسوب للبيوت والآثار الثقافية ، والضحايا الذين

يعانون من الإصابات القاتلة من جراء القصف العشوائى ونتائج التطهير العرقى . وكانت مشاهد الحرب اليومية ، مع واقع قوات الأمم المتحدة فى المنطقة وتوقع زيادة تورط الناتو والولايات المتحـــدة ، يعيد إلى الأذهان حرب فيتنام التى وقعت فى الستينيات بصورة مزعجة .

ولكن البوسنة ليست فيتنام : فهي ليست تلك الأرض البعيدة التى لانعرف جميعاً شيئاً عنها . وحجة " الجهل الجماعي " ، التى قدمها كل من منتقدى التدخل الأمريكي فى فيتنام ومؤيدوه بشكل مقنع ، لا تصلح بكل بساطة لأراضى يوغوسلافيا السابقة . فبإيحاء من اشتداد الحرب الباردة ، خصص الكونجرس الأمريكى عدة ملايين من الدولارات فى العقود التالية للحرب العالمية الثانية لتمويل مراكز الأبحاث وتبادل البرامج ، مما يتيح للأمريكيين معرفة المزيد عن الأراضي التى تهيمن عليها الشيوعية .

وأصبحت يوغوسلافيا ، بحدودها المفتوحة وسهولة وصول الأجانب إليها ، مقصداً اختاره مئات الطلاب والباحثين الغربيين الذين درسوا كل جوانب تاريخ البلقان وحضارته. ومن أفضل الدراسات الخاصة بمجتمع يوغوسلافيا والبوسنة وتاريخهما ما أعده متخصصون غربيون وصدر باللغات الأجنبية . كما أن كثيرين من كبار الباحثين والقادة السياسيين فى البلاد اليوغوسلافية السابقة درسوا فى الجامعات الأمريكية ودرَّسوا بها. وفى ذروة اشتعال حرب فيتنام ، التى شارك فيها 600 ألف جندى أمريكى ، لم يكن عدد المتخصصين فى جنوب شرقي آسيا داخل الولايات المتحدة قد أخذ يقترب من عدد الباحثين والعلمــاء فى السبعينيات الذين كانوا على دراية بتاريخ جنوب شرقى أوروبا وثقافته .

ورغم ذلك المخزون الضخم من المعارف الخاصة بالبوسنة وجنوب شرقي أوروبا ، يبدو لنا أن الجدل العام بشأن خيارات السياسات ، التى يمكن اتباعها فى يوغوسلافيا السابقة ، غارق فى التقسيمات الزائفة والقياسات الخاطئة والمبالغات التاريخية الضخمة والشعارات البالية التى لا أساس لها فى الواقع التاريخى . وكثير من هذه الخرافات أفرزته الدعاية القومية التى نشرها خبراء الدعاية الصرب والكروات والمسلمون البوسنيون . إلا أنها حظيت بتأييد من يضعون السياسات أو يؤثرون عليها وترديدهم لهــا . وقد استغلت الدعاية والسابقة التاريخية والقياسات السطحية لتبرير اتباع سياسة ما أو

الحيلولة دون تنفيذها . والقياسات عند من يعارضون التدخل الغربى هي فيتنام وبيروت وأيرلندا الشمالية . فالبوسنة " مستنقع فيتنام " آخر.إنها مشكلة ميئوس من حلها لا يتوقع لها الغرب والولايات المتحدة نهاية إيجابية . أما الآخرون ، وعلى رأسهم هؤلاء الذين يؤيدون وجود دور غربي أكثر تأثيراً ، فيرون أن القياس المناسب هو نيفل تشمبرلين Neville Chamberlain العائد من ميونخ بعد أن خدع نفسه وغيره ليصدقوا أن الاسترضاء سوف يأتي بالسلام الدائم .

والبوسنة ملائمة لبضع قياسات بسيطة دون أن تكون هناك إجابات سهلة . ومع ذلك فلا ييأس المرء من فهم جذور الصراع ، أو تقييم خيارات السياسات المتوقعة للتدخل الأمريكي والأوروبي فى شئون البلقان . وفى إطار السعى إلى فهم الوضع المعقد والوصول إلى نقاط إرشادية للعمل ، تصبح دراسة التقاليد التاريخية والسلوك القديم بمثابة استبصار لمصادر الأحداث الجارية وترشدنا إلى الحلول الممكنة . وأضعف الإيمان أن تساعد على دحض ذلك الزيف الذى ينشره خبراء الدعاية وتمكن صانعي السياسة من تجنب الأخطاء الطائشة .

إننا نهدف من هذا الكتاب إلى استكشاف الجذور التاريخية للمجتمع البوسني ، منذ وصول القبائل السلافية فى القرنين السادس والسابع الميلاديين وحتى قيام يوغوسلافيا الاشتراكية ، وإلى تحديد التقاليد وأنماط العلاقات الاجتماعية والعرقية التى ميزت المجتمع البوسني على مر التاريخ . ونحن نصف العمليات التاريخية الكبرى التى يُعَّول عليها ، فيما يتعلق بالتركيبة العرقية الحالية فى البوسنة ، وهي اعتناق دين جديد فى العصور الوسطى والعثمانية المبكرة ، وما ترتب على ذلك من نشأة طوائف عرقية دينية مميزة وظهور القومية السياسية فى القرنين التاسع عشر والعشرين . كما أننا نعود لأصول الصراع الحالي فى البوسنة ، ونتتبع مسار الحرب البوسنية بصورة عامة .

ويتقاطع تاريخ البوسنة وسكانها مع تاريخ السلاف الجنوبيين الآخرين ويختلط به أحياناً. لذلك فإن جزءاً من بحثنا يقودنا إلى تناول علاقات البوسنة مع جاراتها . وفى القرن العشرين كان لظهور الدولة السلافية الجنوبية – يوغوسلافيا – وما لحق بها بعد ذلك من تفكك الأثر البالغ على حياة كل سكان البوسنة . ويركز بعض ما جاء فى الكتاب على يوغوسلافيا. فتجربة البوسنة ، على مدار السبعين سنة الماضية ، لايمكن فهمها دون تقييم لدورها فى السياق اليوغوسلافى .

وبصفتنا مؤرخين درسا تاريخ البوسنة وعاشا فى سراييفو فى أوقات مختلفة من الستينيات والسبعينيات ، فقد اعتمدنا على ملاحظاتنا وخبراتنا الشخصية منذ ذلك الوقت ، إضافة إلى بحثنا التاريخي فى تلك الحقبة. إننا متخصصان فى تاريخ البوسنة فى العصور الوسطى (جون فاين) والعصر الحديث (روبرت دنيا) . ورغم أن المادة التى نقدمها فى هذا الكتاب تاريخية فى منهجها وتقوم فى ترتيبها على التسلسل التاريخى بصورة كبيرة ، فهى كثيراً ما تعود إلى الماضى أو تنطلق إلى المستقبل لعقد المقارنات وتحديد التقاليد التاريخية طويلة المدى . وتتناول الفصول من 1 إلى 4 فى المقام الأول العصور الوسطى والعثمانية ، وكتبها جون فاين .أما الفصول من 5 إلى 11 فهى تتناول العصر الحديث (1994- 1875) وكتبها روبرت دنيا .

وهذا ليس تاريخاً تقليدياً . فقد سعينا إلى تمييز الأنماط بدلاً من مجرد وصف الأحداث، وإلى وصف خواص التطورات بدلاً من التسلل التاريخي للأحداث ، وإلى تحديد التقاليد طويلة المدى التى تتعدى أية حقبة تاريخية بعينها . بينما لم نشرع فى تقديم تاريخ مفصل للحرب ، فمقصودنا مما أوردناه فى هذا الكتاب هو إلقاء الضوء على مصادر الصراع البوسني الذى اندلع فى أوائل 1992 . وكلنا أمل فى أن الحرب المستمرة أثناء الكتابة (أبريل 1994) سوف تنتهى بسلام من أجل البوسينين وكل الطوائف العرقية .

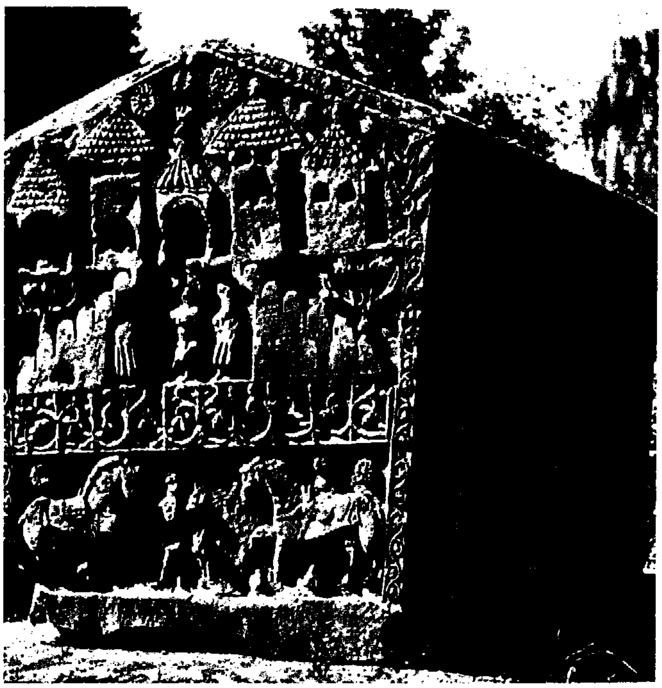
الفصل الأول

مجتمع أسيء فهمه
خيانة ماضي البوسنة المتسامح

الصراع الذى بدأ تحطيم البوسنة فى أبريل من سنة 1992 ، عندما اعترف المجتمع الدولي باستقلال البوسنة عن يوغوسلافيا التي انفصمت عراها ودمرت نفسها بنفسها ، كان فى جزء منه فقط صراعاً عرقياً . وكانت حكومة البوسنة ، رغم وصف الصحافة لها بالحكومة المسلمة ، تمثل هؤلاء الذين يرغبون فى الحفاظ على البوسنة ، بوصفها ذلك الكيان الذى كانته فى إطار يوغوسلافيا. ولأنها وعدت بالحقوق المتساوية لكل القوميات والديانات ، فقد حظيت بدعم كثير من سكان المدن من كل الطوائف العرقية . وفى الوقت الذى يُكتب فيه هذا الكلام من شهر أبريل 1994 ، مازال معظم صرب سراييفو الذين أعرفهم موجودين فى المدينة ، طبقاً لما لدى من معلومات ، ومازالوا يؤيدون الحكومة البوسنية . وكان مجلس وزراء البوسنة فى 12 فبراير 1993 يضم تسعة مسلمين وستة صرب وخمسة كروات . كما أن ثلث جنود قوة الدفاع الأرضي المدافعة عن سراييفو وقتها كانوا من الصرب . وهكذا نجد أن الصرب (وكذلك الكروات) كانوا على الجانبين . وبهذا التشكيل الذى كانت عليه الحكومة البوسنية ، فهي تمثل تراثاً من التسامح والتعايش السلمي يعود إلى قرون كثيرة مضت . وسوف نستكشف جذور ذلك التراث فى الصفحات التالية .

ويريد الشوفينيون الكروات والصرب تصوير الصراع الحالي على أنه حرب أهلية ليبرروا التوسع الإقليمي لصربيا وكرواتيا ، تلك الدولتان المجاورتان اللتان شاركتا فى الحرب مشاركة فعالة . وتدخُّل هاتين الجارتين التوسعيتين جعل من الصراع حرباً دولية أيضاً . ولكن وصف الحرب البوسنية بأنها " عرقية " يقلل من شأن القضية البوسنية ، بجعل الأمر يبدو وكأن " البوسنيين " أيضاً مجرد طائفة عرقية أخرى . بل إن وصف البوسنيين بـ "المسلمون العرقيون" لاينطوى فقط على تجاهل المسيحيين الصرب والكروات فى صفوف البوسنيين ، إلى جانب قرون من الكيان البوسني المشترك الذى ما يزال يشعر به كثيرون ممن تحت الحصار ، بل إنه كذلك يساعد على إثارة المخاوف التي لاأساس لها من الماضي التركى (أو العثمانى) ومن الأصولية الإسلامية.

ومن الأهمية بمكان أن نبرز خطأ كل الحلول المقترحة على طول خطوط تقسيم البوسنة بين جاراتها المعتدية ، وترحيل السكان لإقامة ثلاث دويلات تقوم على العرقية فوق أرض البوسنة . وعلى مر تاريخ البوسنة الطويل (عصور وسطى وعثمانى وحديث) كان لهذا البلد تاريخه وثقافته شديدا التميز . وهذه الثقافة يشارك فيها أهل كل طوائفها الدينية . وكانت شواهد قبورهم الضخمة الشهيرة ، التي تعود إلى العصور الوسطى (وهي ما تسمى شواهد قبور بوجوميل [1] أو Steci)، على سبيل المثال ، قد أقامها من ينتمون إلى كافة المذاهب المسيحية الثلاثة التي كانت موجودة وقتها فى البوسنة . ومع أن البوسنة تفاعلت مع جيرانها الصرب والكروات على مر القرون ، فقد كان لها تاريخها وثقافتها المختلفان عن تاريخهم وثقافتهم .



شكل 1-1 شاهد قبر يعود تاريخه إلى القرن الرابع عشر من زجوشتشى بالقرب من فيسوكو بوسط البوسنة . يعرض فى متحف زيماليسكى بسراييفو . دمره الصرب عند قصفهم للمدينة سنة 1992 .

---

(1) سيأتي الحديث بالتفصيل عن البوجوميل فيما بعد . (المترجم) .

وكان للبوسنة دولتها فى العصور الوسطى . كما كانت كياناً إقليمياً منفصلاً يحدده القانون طوال 400 سنة من الحكم العثماني . وحافظت كذلك على وضعها الخاص فى ظل الحكم النمساوى وعندما كانت جزءاً من يوغوسلافيا . وبصفة البوسنة إقليماً متكاملاً ، يشمل الهرسك ، فقد كانت لها حدودها الدائمة والمعترف بها على نطاق واسع على مر القرون ، بقدر يفوق ما حظيت به حدود كل من صربيا وكرواتيا . وتدّعي صربيا وكرواتيا أن لهما حقوقاً فى البوسنة تقوم على أسس عرقية . إلا أنه فى الفترات العديدة التي كانت فيها هاتان الجارتان دولتين مستقلتين ، أو كانتا إقليمين فى كيانات أكبر حجماً ، لم تسيطرا إلا على مساحات ضئيلة جداً من البوسنة ، وكان ذلك لايستمر إلا لفترات قصيرة . وباستثناء سنوات رعب الأوستاشي Ustashe الثلاث أثناء الحرب العالمية الثانية ، جاءت هذه الفترات القصيرة منذ ما يزيد على خمسمائة سنة . وبذلك لايكون لأى من الصرب أو الكروات أية حقوق تاريخية صادقة فى البوسنة . وعلى مر القرون كانت البوسنة كياناً متماسكاً . ورغم ما يقوله الصرب عن عكس ذلك ، ليس هناك شيء إصطناعى فيما يتعلق بالبوسنة . فما هو إلا تعصب القوميين الذى يصر على ضرورة قيام الدول على أسس عنصرية ، وعلى أن تكون دولاً قومية واعتبار التعددية أمراً مصطنعاً لايصلح بحال . وهؤلاء الجيران ووكلاؤهم المحليون كانوا يبذلون قصارى جهدهم كى يجعلوا الحقائق مطابقة لنظريتهم ، من خلال تهييج العامة ونشر الكراهية والعنف . إلا أن البوسنة – وهي مجتمع تعددى على مر القرون – أظهرت طوال تلك الأزمنة أن التعددية يمكن أن تقوم بنجاح ولو فى سياق البلقان[2] .

واستمر تميز البوسنة بأشكال عديدة على مر القرون وشارك فيه أبناء القوميات الثلاث جميعاً . وهذه الشخصية المميزة وذلك التعاطف المشترك بين البوسنيين الواعين من كل الطوائف الثلاث (تصبح أربعة إذا أضفنا اليهود) كانت موجودة فى المدن على وجه الخصوص . والواقع أنه منذ الحرب العالمية الثانية كان ما بين 30٪ و40٪ من

---

(2) تقع شبه جزيرة البلقان في الطرف الجنوبى الشرقي لأوروبا ويحدها من الشمال نهر الدانوب ومن الشرق البحر الأسود وبحر ايجة ومن الجنوب البحر المتوسط والبحر الأدرياتيكي والبحر الأيونى . وهي بهذا الموقع عند إلتقاء أوروبا وآسيا كانت معبراً بين الشرق والغرب ومدخلاً طبيعياً للقارة الأوروبية من جهة الشرق . وتغلب المرتفعات التى لاتتعدى الثلاثة آلاف متر على تضاريس البلقان . وهي تشمل ألبانيا وبلغاريا واليونان ومعظم يوغوسلافيا السابقة ، إلى جانب جزء من تركيا يقع داخل أوروبا وكذلك رومانيا ، رغم وقوعها شماليى نهر الدانوب (المترجم) .

الزيجات فى البوسنة مختلطة . وهؤلاء الأوروبيون المثقفون المتحضرون ، الذين يمثلون أفضل ما فى البوسنة ، لم تكن لديهم يوماً الرغبة فى التقسيم أو إقامة الكانتونات العرقية . ومازال هدف الكثيرين منهم ، إن لم يكن معظمهم ، حتى وضع هذا الكتاب ، هو عودة البوسنة الموحدة التي يسكنها شعب من كل الطوائف العرقية والدينية ، رغم أن هذا يبدو غير واقعي الآن . ومن أجل من ليسوا على دراية بالمنطقة ، يجدر بنا أن نؤكد فى البداية على أن ما تُسمى الطوائف العرقية الثلاث فى البوسنة تتحدث جميعاً نفس اللغة (وهى التى نسميها فى القرن العشرين بالصربوكرواتية)[3] ولها ماض تاريخي مشترك . الفرق الوحيد بينها هي خلفياتها الدينية المتباينة . وأود هنا أن أؤكد على كلمة خلفية . فذكر كلمة "أديان" قد يعطي انطباعاً خاطئاً . فبعد خمسين سنة من وجود دولة يوغوسلافية شديدة العلمانية والعلمنة ، نجد أن قليلاً من البوسنيين الحاليين متعمقون فى الدين (ومن المؤكد أنه ليس بينهم تقريباً من يتزعم طرفاً من أطراف الحرب الدائرة الآن) . كما أن طرق معيشتهم واحدة . وعندما يلتقي المرء بأى بوسني، دون أن يلاحظ اسمه ، قد يقضي وقتاً طويلاً معه ثم يمضى إلى حال سبيله دون أن يدرى شيئاً عن هويته العرقية .

وأخيراً ، وقبل أن ندخل فى فترات العصور الوسطى والعثمانية (أو التركية) من تاريخ البوسنة المتنوع ، يجدر بنا أن نؤكد على أنه رغم ما تكرر بصورة تثير الاشمئزاز فى الصحافة العالمية، فإننا لانجد فى أى مكان ما يدل على تلك القرون المزعومة من الكراهية (سواء أكانت دينية أم عرقية) بين الطوائف البوسنية العديدة التي يُفترض أنها تخللت تاريخها . ومع أن البوسنة دخلت خلال العصور الوسطى فى حروب مع صربيا والإمارات الخاضعة للكروات ، فلم يدخل البوسنيون يوماً فى حروب أهلية على امتداد تلك الحدود العرقية أو غيرها . والواقع أن عدداً قليلاً من البوسنيين وصفوا أنفسهم بأنهم صرب أو كروات . والذين فعلوا ذلك كانوا يقيمون فى المناطق الحدودية . وحيث إن العثمانيين قسموا الناس على أساس دينى ، لم يستخدم أهل البوسنة أسماء عرقية فى عهد العثمانيين ، إلى أن ظهرت شيئاً فشيئاً فى القرن التاسع عشر . إلا أنه من المؤكد أن

(3) اللغة السائدة في البوسنة هي الصربوكرواتية بلهجتها الشتوكافسكية وينطقها الإيكافسكى . وهذه اللغة الآن حافلة بالمفردات العربية والتركية والفارسية التي جلبها الأتراك العثمانيون معهم ورسخوها خلال وجودهم الذي دام قرابة أربعمائة سنة . وهذا يعكس توطد علاقات البوسنة بثقافة الشرق على الصعيدين المادى والروحي منذ قرون عدة . ويتحدث بهذه اللغة حوالي 20 مليوناً في صربيا وكرواتيا والجبل الأسود إلى جانب البوسنة والهرسك . (المترجم) .

أهل البوسنة فى بداية القرن التاسع عشر كانوا يدركون أنهم أفراد فى طوائف مميزة يحددها الدين . وخلال القرن التاسع عشر بدأ البوسنيون الأرثوذكس والكاثوليك يتخذون النعتين "صربى" و "كرواتى" العرقيين على الترتيب بشكل تدريجى . وهكذا كان الكثيرون من المسيحيين البوسنيين قد أصبح لديهم وعي عرقى يحدد تميزهم أكثر وأكثر مع نهاية العصر العثمانى . وفى بعض الحالات ، وبصورة أخص فى سبعينيات القرن التاسع عشر ، كان هذا الوعي العرقي يتحول إلى قومية شبيهه بتلك التي يعبِّر عنها فى الوقت الراهن الكروات عبر نهر سافا Sava والصرب عبر نهر درينا Drina . ومع انتشار هذه الهويات القومية الجديدة أصبح لها دور بالنسبة لهؤلاء الذين اتخذوها، وخاصة فى سبعينيات القرن التاسع عشر، داخل حركات التحرر من العثمانيين . وفى ظل الحكم النمساوى الذى أعقب ذلك ، أصبحت هذه الهويات القومية أكثر شيوعاً وقُدِّر لها أن تقوم بدور أكثر أهمية فى الحركات المناوئة للحكم النمساوى . إلا أن هذه القومية كانت موجهة فى المقام الأول نحو الإمبراطوريتين العثمانية والنمساوية المجرية ، ونادراً ما كانت تستهدف أية طوائف عرقية أخرى فى البوسنة (اللهم إلا إذا أيد أعضاؤها الحكومات المحتلة) . ورغم وجود ما يدل على التنافس العرقي الخطير اعتباراً من تسعينيات القرن التاسع عشر ، فهو لم يبدأ إلا فى أعقاب قيام يوغوسلافيا سنة 1918 . وفى البوسنة كان مرجعه فى المقام الأول إلى القتال الأشد خطورة ، وإن كان وقتها أمراً جديداً تماماً ، بين كروات كرواتيا والدولة اليوغوسلافية التى يسيطر عليها الصرب فيما بين الحربين . واندلع العنف العرقى فى البوسنة لأسباب عملية بحتة لأول مرة إبان الحرب العالمية الثانية ، عندما خضعت البوسنة لدولة الأوستاشا الكرواتية الفاشية التي أذكت نار الكراهية العرقية ومارست عمليات القتل الجماعي فيما يشبه ما يُعرف الآن بـ "التطهير العرقي" . وأعادت حركة الأنصار الناجحة بزعامة تيتو والدولة التي أقامها ، وهي التي كانت واضحة فى عدم تسامحها مع الشوفينية، شعب البوسنة المختلط إلى تسامحه التقليدى .

وكما سنرى ، لم يكن التنافس والعنف الدينيان كذلك جزءاً من تراث البوسنة . ورغم وجود ثلاث عقائد فى البوسنة فى العصور الوسطى ، فقد كان أتباعها متسامحين مع بعضهم البعض . ولم تقع قط حروب أهلية ذات بواعث دينية . ونجد فى السنوات الخمس الأخيرة فقط من دولة القرون الوسطى المثال الوحيد للاضطهاد الدينى ذى التوجيه المحلى

فى البوسنة . وكان قد أُكره عليه ملك بوسنى غير راغب فيه بضغط من بابوية غير متسامحة[4] جعلت إضطهاد مذهب محلي شرطاً لتقديم المساعدة الغربية ضد العثمانيين الذين كانوا عازمين على الغزو . وخلال القرن الأول من الحكم العثماني كان هناك قدر محدود من التوتر بين الكاثوليك والأرثوذكس البوسنيين الذين تقاتلوا على ملكية مبانى الكنيسة ومكوسها . ولكن مثل هذه الحالات كانت نادرة الحدوث ولاتدوم طويلاً ولم تؤد إلى حرب ، وإنما جرت تسويتها فى المحكمة . وأثار الدور القيادى للإسلام فى الدولة حفيظة المسيحيين . وبما أن البوسنيين المحليين اعتنقوا الإسلام ، فمن المؤكد أن بعضاً من هذا التذمر كان موجهاً إليهم . ومرة أخرى نجد أن مكانة الإسلام لم تنبع من عمل محلى ، وإنما فرضها الأتراك العثمانيون الفاتحون . ولم يقتتل البوسنيون كأعضاء فى طوائف دينية فى أية فترة من فترات العصر العثمانى . وعندما هبوا فى ثوراتهم المتعددة ضد الحكم العثمانى ، رغم وجود البوسنيين فى صفوف الثوار وصفوف الدولة العثمانية ، كانوا يخوضون تلك الحروب لمصلحة النظام الحاكم والنظام الإجتماعى الذى يفرضه وضدهما فى آن واحد . ولم تكن تلك اشتباكات عرقية أو دينية بين طوائف بوسنية . وبعد أن قامت يوغوسلافيا لم تقع حروب دينية هناك كذلك ، فيماعدا أثناء الحرب العالمية الثانية عندما كان الدين أحد بواعث السياسة التى فرضها الأوستاشى الكروات الفاشيون ، الأمر الذى أثار ردود أفعال محلية على طول الخطوط الدينية .

وهكذا فلا سند لمن يقول "فليصب الطاعون كل منازلهم" ، على أساس أن هؤلاء الناس يرتدون إلى ماض طويل من الكراهية والحروب الدينية أو العرقية أو كلاهما . هذه محض خرافة . فالمرء لايجد أية أمثلة لهذا السلوك فى تاريخ البوسنة ، قبل قرننا العشرين هذا الذى كثرت فيه الشرور . وهنا أيضاً نجد أن هذا السلوك كان بتحريض من الألمان ونفس الجيران الشوفينيين ، الذين جعلتهم غاياتهم يشجعون تلك الأعمال المروعة التى تدمر البوسنة ويطلقون لها العنان .

---

(4) دعا البابوات ! وخاصة هنوريوس الثالث (1221) وجريجورى (1238) وانوسنت الرابع (1240) إلى شن حروب صليبية ضد البوجوميليين . وتلى ذلك تأسيس ديوان التفتيش سنة 1291 ، وأرسل البابا يوحنا الثانى والعشرين رسالة إلى ملك البوسنة ستيبان يطالبه فيها بإستئصال شأفة الخوارج من البوجوميليين الذين تجمعوا فى البوسنة(المترجم) .

الفصل الثانى

التسامح الديني وتميز

بوسنة العصور الوسطى

كانت البوسنة والهرسك واحدة من جمهوريات يوغوسلافيا السابقة الست . وتحد الجمهورية الحديثة جبال دالماتيا Dalmatia والألب الدينارية فى الغرب ونهر سافا ، الذى تقع كرواتيا وراءه فى الشمال ، ونهر درينا ، الذى تقع صربيا على الضفة الأخرى منه فى الشرق ، وفى الجنوب تقع حدودها الجبلية مع جمهورية الجبل الأسود . واسمها باللغة الصربوكرواتية "بوسنا"[1] Bosna . وهى تحمل اسم نهر بوسنا الذى تقع منابعه خارج سراييفو ويتجه شمالاً ليصب فى نهر سافا . وفى بداية العصور الوسطى كانت تلك المنطقة تنقسم إلى وحدات صغيرة أو مقاطعات . وكانت المقاطعة القائمة حول منبع نهر بوسنا تسمى مقاطعة البوسنة Bosnia . وتصادف أن كان زعماء هذه المقاطعة أقوى الشخصيات المحلية. وانتهي الأمر بالأراضي الخاضعة لهم أن اتسعت لتشمل الأراضي التي تشكل الجمهورية الحالية . وبحلول القرن الثالث عشر أصبح الإقليم بكامله يطلق عليه البوسنة . وخلال ما تبقى من العصور الوسطى ، كانت البوسنة دولة مستقلة لها تقاليدها التي تنفرد بها وتميزها الشديد عن جيرانها الصرب والكروات ، مع أن أهل البوسنة وهذين الشعبين المجاورين يتحدثون جميعاً لغة واحدة .

المهاجرون السلاف

استقر السلاف[2] فى البوسنة (وكذلك فى صربيا وكرواتيا والجبل الأسود) فى أواخر

---

(1) اسم نهر البوسنة مشتق من الصيغة الإيليرية " بوسينوس " أو من أصل الكلمة " بوس " الذي يعني الماء الجارى.

ويقول الدكتور وسام عبد العزيز في كتابه " البوسنة – الصرب – الكروات " : " ويخطيء من يعتقد أن أهل البوسنة هم البشناق Patzinaks الترك الذين هددوا الدولة البيزنطية في القرن الحادى عشر الميلادى . فأهل البوسنة هم السلاف الذين استقروا حول نهر البوسنة في القرن السابع الميلادي وشكلوا دولة حاجزة بين الكروات والصرب قبل أول ظهور للبشناق فى وثائق التاريخ بثلاثة قرون على الأقل " . (المترجم) .

(2) تشير إليهم المصادر العربية بالصقالبة . ولعل العرب أخذوا هذه التسمية من البيزنطيين الذين سموهم " اسكلابوي " عندما هددوا أراضيهم . وربما يكون الاسم الغربي " سلاف " تحريفاً كذلك للاسم البيزنطى . وينقسم السلاف إلى ثلاث مجموعات ، هي السلاف الشرقيون ! وهم سكان روسيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء ، والسلاف الغربيون ، وهم سكان بولندا وسلوفاكيا وتشيكيا ، والسلاف الجنوبيون ، وهم سكان صربيا وكرواتيا وسلوفينيا وبلغاريا ومقدونيا . وكان السلاف في القرون الميلادية الأولى يسكنون إلى الشمال من جبال الكربات بالقرب من نهري دنيبر ودنيستر حتى سواحل بحر البلطيق . وكانوا من الشعوب المزارعة المتخلفة وكانوا متناثرين ولا يجمعهم تنظيم سياسي . بدأت هجراتهم في اتجاه نهر الدانوب في القرن الثالث . وكانت قلة الزرع وكثرة العدد وهجرات القبائل المغيرة عليهم وراء هبوطهم إلى حدود الدولة البيزنطية على نهر الدانوب في الفترة من القرن الثالث حتى نهاية القرن الخامس . وفي عهد هرقل ومن أتى بعده في القرن السابع تدفقت جموع السلاف وحلفاؤهم من الآفار والبلغار بطول شبه جزيرة البلقان ليسود العنصر السلافى على غيره من العناصر الإيليرية الأخرى التي لم تكن يهمها سوى جمع الغنائم ، في حين كان السلاف في الأصل شعوباً تميل إلى الإقامة والاستقرار . وكان السلاف في البداية يهدمون الكنائس . ولكنهم في النهاية تقبلوا المسيحية التي تعلموها على يدي اليونانيين شيريل وميتوديس . (المترجم) .

القرن السادس وأوائل القرن السابع . وظهر هؤلاء على هيئة وحدات قبلية صغيرة ، ولكنهم كانوا ينحدرون من تجمع قبلي سلافى واحد – السلاف (Slaveni) . وهكذا كانوا جميعاً شعباً واحداً ، وهو ما يعني أن البوسنيين ينتسبون إلى نفس القاعدة السلافية التي ينتسب إليها الصرب والكروات الحاليون . وفى الربع الثاني من القرن السابع ، غزا الكروات السلاف المقيمين فى كرواتيا وأجزاء من البوسنة وأكدوا سيادتهم عليهم . وفى الأقاليم الواقعة إلى الجنوب والشرق من البوسنة ، أصبح الصرب يسيطرون على السلاف هناك . وليس معروفاً إن كان هؤلاء القادمون الجدد أكدوا سيطرتهم على كل سلاف البوسنة أم لا. ومن المستحيل أيضاً أن نحدد أى الأجزاء من البوسنة خضعت للصرب ، وأيها خضع للكروات (بخلاف المقاطعات الشمالية الغربية التي جاء ذكرها فى المصادر البيزنطية) ، وأيها ظل بمنأى عن الطَرفين .

وربما كان الصرب والكروات من أصول إيرانية . فعلماء اللغة على الأقل توصلوا إلى أن اسميهما القبليين وكذلك أسماء قادتهم المحفوظة كانت إيرانية . إلا أنه رغم تلك التسميات ، فمن المحتمل أن يكون القادة وبعض أتباعهم أو كلهم قد سلُفّوا قبل ظهورهم فى البلقان . وفى النهاية تم استيعاب هؤلاء الغزاة اللاحقين وأعطاهم السلاف الأكثر عدداً الطابع السلافى ، إن لم يكونوا قد اكتسبوه من قبل . إلا أن أسماء الغزاة الإيرانيين أُطلقت على من نشأ من سكان القرون الوسطى فى المنطقة التى تعرف الآن بصربيا وأجزاء من كرواتيا وربما الجبل الأسود. وفى البداية لم يشكل الكروات والصرب دولاً منفصلة . فقد سيطر قادة مختلفون على وحدات مقاطعات صغيرة تسمى جويات Zupas ويشير الإمبراطور البيزنطى قنسطنطين بورفيروجينيتوس[3] Constantine Porphyrogenitus ، فيما كتبه فى القرن العاشر ، إلى إحدى عشرة جوبا كرواتية ، كانت أربع منها فى شمال البوسنة وغربها .

التاريخ القديم : الحكم الأجنبى

كانت البوسنة تقع على مسافة بعيدة من روما والقسطنطينية ، وهما المركزان اللذان

---

(3) هو الإمبراطور البيزنطي قنسطنطين السابع المعروف بـ " بورفيروجينتوس " (أي المولود في اللون القرمزي . والمعروف أن هذا اللون في العصور القديمة كان لون الملوك وهو اللون الذي ابتكره الفينيقيون واشتهروا به) . حكم هذا الإمبراطور الإمبراطورية البيزنطية بمفرده اعتباراً من سنة 495 . ومن أهم أعماله تلك الكتابات التى تعد مصدراً قيماً لتاريخ عصره ومنها De imperio adminstrando الذي يضم ثروة عظيمة من المعلومات عن الشعوب التى كانت تعيش على حدود الإمبراطورية . (المترجم) .

خرجت منهما السجلات المكتوبة . لذلك قَلّ ما نعرفه عن العصور الوسطى المتقدمة . إلا أنه فى معظم عصور القرون العاشر والحادى عشر والثاني عشر وجدت البوسنة نفسها تحت الحكم الأجنبي . وبما أن البوسنة أراض جبلية فى معظمها ، مما يجعل الاتصالات صعبة ، فقد يتساءل المرء عن مقدار التأثير الذى كان لهؤلاء الحكام والسادة الأجانب على سكانها . وعلى أية حال ، فالأمر باختصار هو أن البوسنيين وجدوا أنفسهم بدءاً من منتصف القرن العاشر وحتى أواخر القرن الثاني عشر خاضعين لسلسلة من الدول الغازية قصيرة الأجل : فى القرن العاشر كانت البوسنة بعض الوقت جزءاً من الدول الصربية وعلى رأسها حاكم اسمه "تشاسلاف" Caslav. وبعد أن قُتل فى إحدى المعارك حوالى سنة 960 ، دخلت البوسنة لفترة قصيرة فى دولة كريسيمير الثاني Kresimir II الكرواتية . ولم يمر زمن طويل حتى دخل صمويل البلغارى Samuel of Bulgaria البوسنة حوالى سنة 997 ، وربما أعلن سيادته على جزء منها . وبعد هزيمة البيزنطيين لصمويل وضمهم لبلغاريا سنة 1018 ، أعلنت بيزنطة سيادتها على البوسنة . واستمر ذلك حتى وقت لاحق من القرن عندما أُدخل جزء من البوسنة فى كرواتيا وجزء آخر فى دوكليا Duklia (وهى الجبل الأسود الحالية بشكل أساسى) . ويبدو أن الأجزاء البوسنية فى دوكليا قد انفصلت عنها حوالى سنة 1101 . وبعد ذلك بفترة قصيرة ، وفى سنة 1137 ، ضمت المجر معظم أراضى البوسنة أو كلها ، لتستولى عليها منها الإمبراطورية البيزنطية سنة 1167 . إلا أن المجر استردت قوتها سنة 1180 واستعادت سيادتها على البوسنة طبقاً لمعاهدة عقدتها . ودامت تلك السيادة بقية العصور الوسطى ، وإن كانت فى العادة سيادة اسمية .

واتضح الجانب الاسمى فى الأمر على الفور بعد سنة 1180 ، عندما بدأ حاكم البوسنة كولين Kulin تأكيد استقلاله . وحمل كولين لقب بان Ban ، وهو اللقب الذى كان يحمله باستمرار حكام البوسنة (سواء أكانت مستقلة أم خاضعة للسيادة الأجنبية) منذ منتصف القرن الثاني عشر حتى سنة 1377 عندما اتخذ بان تفرتكو (4) Pan Tvrtko لنفسه لقب ملك .

(4) سيأتى الحديث عنه لاحقاً . (المترجم)



خريطة 2-1 أراضى البوسنة فى عهد كولين (حوالى 1200)

ومع أن أجزاء من البوسنة فيما قبل 1180 وجدت نفسها لفترات قصار داخل وحدات صربية أو كرواتية ، فلم تكن أى من الجارتين قد سبق لها حكم البوسنة لفترة على قدر من الطول يسمح باكتساب ولائها أو تثبيت أية حقوق جادة لها فيها . ويبدو أن البوسنة تأثرت تأثراً طفيفاً بهؤلاء الحكام الأجانب . ويشير كيناموس Kinnamos ، المؤرخ البيزنطي الذى عاش فى أواخر القرن الثاني عشر ، إلى أن البوسنة فى زمنه لم تكن تحت حكم كونت صربيا الأكبر . بل إن البوسنيين كانت لهم طريقتهم المميزة فى الحياة والحكم . واعتباراً من القرن التاسع تدفقت البعثات المسيحية من روما والقسطنطينية على البلقان .

وفازت روما بكرواتيا ومعظم دالماتيا Dalmatia فى حين نجحت القسطنطينية فى بلغاريا ومقدونيا وأخيراً فى معظم صربيا . أما البوسنة الواقعة بينهما فغالبا ما تسمى أرض تلاقٍ بين الشرق والغرب . وحقيقة الأمر أن أراضيها الجبلية وصعوبة الاتصالات جعلت منها أرضاً غير خاضعة لسيطرة أحد بين العالمين . وقبل منتصف القرن الحادى عشر ، ورغم المنافسات التشريعية ، كانت لاتزال هناك كنيسة موحدة . إلا أن البعثات أقامت سلطة تشريعية دائمة لأساقفتها المتعاقبين على جزء كبير من البلقان فى تلك الفترة المبكرة . وبهذا العمل حددت المناطق التى ستصبح أرثوذكسية أو كاثوليكية بعد انفصال الكنيستين اليونانية والرومانية فى القرن الحادى عشر . ولم ينته الأمر بالبوسنة ، التى كان تأثير البعثات فيها سطحياً ، وكذلك ألبانيا ، إلى أن تصبح أسيرة فى معسكر إحدى الكنيستين بشكل دائم . بل ظلت قابلة للتحولات العقائدية .

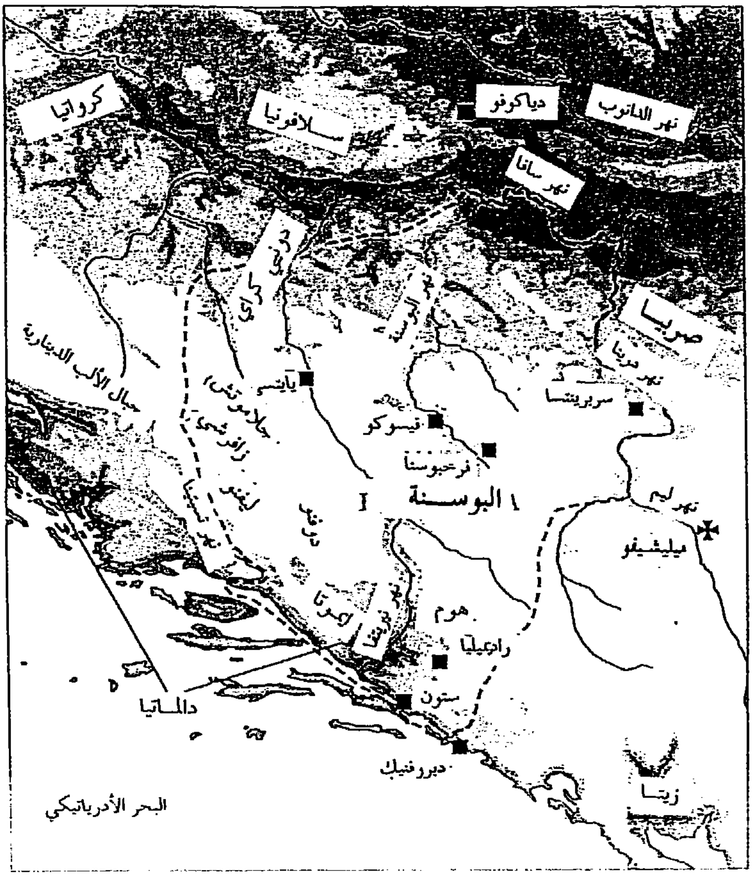
وعلى العموم ، فمن المحتمل أنه بحلول القرن العاشر كان معظم البوسنيين خاضعين لروما خضوعاً اسمياً ، وإن لم يكن ذلك ليستمر طويلاً بعد أن غيرت مذهبها البعثات التبشيرية القادمة من ساحل دالماتيا . وفى القرن الثاني عشر كان يرأس كنيسة البوسنة الكاثوليكية كبير أساقفة دوبروفنيك Dubrovnik . إلا أن كاثوليكيتهم كانت بدائية . فلم يكن البوسنيون يعرفون اللاتينية ، وكان قليلون منهم يمكنهم القراءة بأية لغة . وهكذا كان من المؤكد أن هناك الكثيرمما قد يجده البابا خطأ فى كاثوليكيتهم .

المحلية

شجعت جبال البوسنة على المحلية والانقسام إلى أقاليم عديدة (مثل البودرينا Podrina والبوسنة [الجزء الأوسط] وهوم Hum ودونيى كراى Danii Krai وغيرها) . وكانت لكل إقليم تقاليده المحلية وطبقة أشرافه المحليين . وظلت هذه التقاليد المحلية قائمة طوال العصور الوسطى وجعلت مهمة بان البوسنة فى حكم البلاد حكماً مركزياً شديدة الصعوبة . وهكذا كانت فترات التوسع تعقبها فى كثير من الأحيان الانفصالية . وكما سنرى فيما بعد ، كانت هناك عقائد دينية متباينة تسود فى مناطق مختلفة .

وكان وسط البوسنة الخاضع للسيادة المجرية يحكمه البان . فى حين كانت المناطق الواقعة إلى الشمال منه (وجنوب نهر سافا) يحكمها حتى القرن الرابع عشر بان واحد أو أكثر من نفس العائلة ويخضعون كذلك للسيادة المجرية . وفى الفترة من سنة 1168 حتى

سنة 1326 كانت هوم (وهى تقريباً الهرسك الحالية) منفصلة عن البوسنة فى ظل حكم أفراد العائلة الملكية الصربية من أسرة نيمانييتش Nemanjic . وبذلك ظل هذا الإقليم تحت الحكم الصربي فترة ممتدة من الزمان . وكانت المناطق الشمالية والوسطى من البوسنة ، كما أسلفنا ، كاثوليكية . إلا أن هوم (فيما عدا مناطقها الساحلية حول ستون Ston التي كان بها كاثوليك كذلك) كانت تابعة للكنيسة الأرثوذكسية الصربية وكانت لها أسقفيتها الخاصة بها . واعتباراً من سنة 1219 ، عندما أصبحت كنيسة صربيا الصربية مستقلة (أى أنها ترأس نفسها أو تستقل فى أمورها التشريعية عن بطريرك القسطنطينية ، وإن كانت لاتزال مشاركة لها فى العقيدة) كان أسقف هوم تابعاً لكبير أساقفة صربيا .



خريطة 2-2 التوسع البوسني فى عهد كوترومانيتش

إنشاء الكنيسة البوسنية

عندما أصاب الإحباط المجريين أوائل القرن الثالث عشر من جراء إصرار البوسنة على استقلالها ، نجحوا فى جعل العيوب التي فى كاثوليكية البوسنة تبدو وكأنها هرطقة ، مما يعطيهم ذريعة لإقحام أنفسهم أملاً فى إعادة تأكيد سلطتهم على البوسنة . وعندما فشلت مناورات كنسية عديدة ، أقنع المجريون البابا بإعلان الحرب المقدسة وغزوا البوسنة وظلوا يقاتلون فيها من سنة 1235 حتى سنة 1241 . وقد أصابوا نجاحاً متدرجاً ، حيث تقدموا جنوباً حتى فرخبوسنا Vrhbosna (سراييفو الحالية) التي واجهتهم فيها مقاومة عنيدة إلى أن وقع هجوم من التتار على المجر أجبرهم على الانسحاب . وفى ذلك الوقت جعل المجريون البابا ينقل كنيسة البوسنة الكاثوليكية من السلطة التشريعية لكبير الأساقفة فى دوبروفنيك ويخضعها لكبير أساقفة مجرى . ورفض البوسنيون الامتثال لهذا وطردوا الأسقف الذى عينه المجريون من البوسنة . وفى ذلك الوقت اتخذ أسقف البوسنة الكاثوليكي الرسمي مقراً له فى دياكوفو Diakovo بسلافونيا Slavonia (كرواتيا) ، حيث أقام فيها خلفاؤه طوال العصور الوسطى ، دون أن يكون له أى دور يذكر فى البوسنة . وبعد أن قطع البوسنيون كل علاقة لهم بالكاثوليكية العالمية أقاموا كنيستهم المستقلة المعروفة بالكنيسة البوسنية المنشقة على روما . ورغم ما يزعمه الباحثون من أن الكنيسة البوسنية كانت تؤمن بمذهب الثنوية أو المانوية الجديدة أو البوجوميلية [5] ، فإن الأدلة المحلية تظهر بجلاء أنها احتفظت بمذهبها الكاثوليكي الأساسي طوال القرون الوسطى .

---

(5) أخذت هذه الطائفة اسمها من مؤسسها القس بوجوميل الذي عاش ونشر تعاليمه فىبلغاريا والبلاد المجاورة لها أيام الملك بيتر Petar (927-968) . انتشرت تعاليم بوجوميل ، التى أعتبرت هرطقة ، فىالبلقان لتتصل عن طريق المدن الساحلية والبوسنية ببعض الحركات المثلية فىغرب أوروبا التى عُرفت بأسماء مختلفة مثل كاتاري Kathari (أي الطاهرون) فىألمانيا وفرنسا وباتاريني Patareni نسبة لأحد أحياء ميلانو (باتري) . وتطلق مصادر دوبروفنيك على طائفة البوجيوميل فىالبوسنة "بتاريني" . أما أبناء الطائفة فىالبوسنة فكانوا يطلقون على أنفسهم "كريستياني" Christiani (أي المسيحيون) أو "دوبرى يودى" Dobri Judi وتعنى باللغة المحلية "الطيبون" . وتأثر أتباع هذه الطائفة بالديانة المانوية الثنوية التى تقول إن الخير والشر مبدآن متساويان فىالتقديس فىالحياة الدنيا . وتعرض البوجوميليون لاضطهاد الكاثوليك وشرد الملك توماش أوستويا Tomas Ostoia (1443- 1461) حوالي أربعين ألف بوجوميلى لجئوا إلى هوم ودالماتيا ودوبروفنيك وصربيا ، التى كانت فى أيدى العثمانيين فىذلك الوقت . واعتنق معظم البوجوميليون الإسلام بعد فتح العثمانيين البوسنة والهرسك . **(المترجم)**



شكل 2-1 خاتم الملك البوسنى أوستيا من 1400

التوسع البوسني فى عهد كوترومانيتش

أصبحت البوسنة أشد قوة فى عهد بان ستيبان كوترومانيتش(6) Stiepan Kotromanic الذى تولى السلطة حوالى سنة 1318 . وقد أصلح علاقته بالمجر وظل فترة طويلة من حكمه حليفاً للملك المجرى فى المقام الأول . كما أنه وسَّع دولته بوقوفه فى صف المجر ضد العديد من النبلاء الكروات فى الشمال والغرب من البوسنة ، حيث استولى لنفسه على الأراضي الواقعة إلى الغرب من بلاده (وهى تلك الأراضي الواقعة بين نهرى تسيتينا Cetina ونيريتفا Neretva) وعلى زافريشيي Zavrsje (بما فى ذلك ايموتا Imota ودوفنو Duvno وجلاموتش Glamoc وليفنو Livno) . وكانت تلك الأراضي كاثوليكية ولها أسقفيتان كاثوليكيتان ، لم يتدخل البان فيهما وظلتا تقومان بوظيفتهما فى أبرشيتيهما . وعقب موت الملك ميلوتن Milutin الصربي سنة 1321 سادت الفوضى بين صرب صربيا . وكانت نتيجة ذلك أن استطاع كوترومانيتش غزو هوم والاستيلاء عليها سنة 1326 . وكما ذكرنا من قبل ، كان معظم سكان هوم من الأرثوذوكس . ولم يتدخل البان فى نشاط المؤسسات الأرثوذكسية كذلك .

(6) دام حكمه ثلاثين سنة وتُوفى سنة 1353 وكان على المذهب البوجوميلى . وتشير بعض المصادر إلى أن زوجته وبعض معاونيه كانوا على المذهب الكاثوليكى . وقد كان من الدهاء بحيث أمن مكر المجر بالاعتراف بحمايتهم له فى الظاهر ، بينما كان يكيد لهم الدسائس فى الباطن . وتحققت له السيطرة على أطراف الدولة التى ظلت قوية حتى وفاته . (المترجم)

الاعتراف بالفرنسيسكان

كانت الخطوة التالية التى اتخذها كوترومانيتش هى تأييده لبعثة من الفرنسيسكان ظهرت فى أربعينيات القرن الرابع عشر لمواجهة "هرطقة" مزعومة فى البوسنة [7] . ولم يكن هناك كاثوليك – على الأقل لم يكن هناك رجال دين كاثوليك أو منظمة كاثوليكية – فى وسط دولته طوال قرن تقريباً . وبحلول سنة 1324 اعترف بأبرشية الفرنسيسكان . وانتهى الأمر بأن شملت الأراضي التابعة لها كل تلك الأجزاء الواقعة فى جنوب شرقي أوروبا التي عمل بها الفرنسيسكان . وبحلول 1385 كان للفرنسيسكان أربعة أديرة فى البوسنة ذاتها . كما أنشىء اثنا عشر غيرها قبل الفتح التركي سنة 1463 . وطوال العصور الوسطى ، وخلال العصر التركي (1463–1878) ، كان الفرنسيسكان ، باستثناء حفنة من قساوسة القصر ، رجال الدين الكاثوليك الوحيدين فى البوسنة قاطبة . وبحلول سنة 1347 كان كوترومانيتش قد ارتضى الكاثوليكية مذهباً . ومنذ ذلك الوقت كان كل حكام البوسنة فى العصور الوسطى ، فيما عدا أوستويا Ostoia (1398–1404 ، 1409–1418) ، من الكاثوليك . وفى عهد كوترومانيتش فُتحت المناجم (وخاصة مناجم الرصاص والفضة) ، الأمر الذى مهد الطريق لنمو البوسنة الإقتصادى وازدياد اتصالاتها التجارية بالساحل . ونتيجة لذلك وفد إليها تجار كثيرون من دوبروفنيك ، حيث استقر بعضهم وأقام المستوطنات. وساند هؤلاء التجار الساحليون الفرنسيسكان . وكانت المدن التجارية التي قامت فى البوسنة ، وسيطر عليها هؤلاء التجار الساحليون ، كاثوليكية الطابع .

طبيعة الكنيسة البوسنية

وماذا عن الكنيسة البوسنية ؟ كانت تلك الكنيسة تلقى تسامحاً من الدولة ، حتى بعد أربعينيات القرن الرابع عشر ، حيث اعترف ببعثة الفرنسيسكان وأصبح الحكام كاثوليك . ورغم هذا التسامح ، لم يكن للكنيسة البوسنية دور كبير فى الدولة ، ولم تكن كنيسة رسمية . وفى أغلب فترة وجودها لم يكن لها أى دور سياسى ، سوى سماحها من حين لآخر

(7) المقصود به المذهب البوجوميلى . (المترجم)

لزعمائها بالشهادة على المواثيق . ومثل هذا الدور لم يتضح إلا فى أوائل القرن الخامس عشر – خاصة فيما بين 1403 و 1405 – عندما كان زعيمها ، الدييد Died ، مستشاراً له نفوذه في القصر وربما كان نفوذه فى ذلك الوقت راجعاً إلى التعاطف الخاص الذى كان يبديه أوستويا ، الذى كان ملكاً حينذاك ، إضافة إلى مزاياه الأخرى التي كان يتمتع بها . وحيث إنه بعد أربعينيات القرن الرابع عشر كان كل حكام البوسنة الآخرين كاثوليك ، فليس مستغرباً أن كنيسة البوسنة لم تكن إحدى مؤسسات الدولة الكبرى . ورغم ما يقوله بعض الباحثين عن وجود تحالف بين الكنيسة البوسنية وطبقة النبلاء ، فإن هذا أيضاً مبالغ فيه بشدة . فالروابط التي نشأت بين الكنيسة ونبلاء بعينهم لم تكن قائمة إلا مع حوالي عشر عائلات فقط . وكل هذه الروابط انهارت فى السبعين سنة الأخيرة من الدولة . وبالنسبة لمعظم هؤلاء النبلاء كانت الخدمات المعروفة التي تقدمها الكنيسة قاصرة على الأمور الدينية . وليس هناك سوى عدد صغير قدمت له الكنيسة البوسنية خدمات سياسية أو دنيوية (عادة فى شكل دبلوماسيين أو وسطاء فى المنازعات) . ولم يزد عمر هذه العلاقات على جيل واحد سوى مع عائلتين ، هما كوساتشى Kosace ورادينوفتش– بافلوفيتشي Radenovic – Pavlovici .

وظلت الكنيسة البوسنية قائمة – كمنظمة صغيرة فى بعض أجزاء الدولة – حتى سنة 1459 حين خيرً الملك ستيفان توماش StefanTomas (1443–1461) رجال الكنيسة (ويفترض أن هذه إشارة إلى رجال الدين) بين تغيير مذهبهم والنفي بضغط من البابا (حيث كانت المساعدة البابوية ضد الأتراك مشروطة باضطهاد الكنيسة البوسنية). فما كان من معظمهم إلا أن اعتنق الكاثوليكية – اسمياً على الأقل ، الأمر الذى يوضح أن معنوياتهم كانت فى حالة متردية . وفى الوقت نفسه لجأت أقلية منهم إلى الهرسك التي كان يحكمها هيرتسج ستيفان Herceg Stefan. وهكذا ازدادت الكنيسة ، التى كانت طوال وجودها مؤسسة ضعيفة ، وهناً على وهن عشية الفتح العثمانى . وسرعان ما اختفت تماماً بعد ذلك الفتح بسبب دخول أعضائها فى الإسلام والأرثوذكسية والكاثوليكية .

وهناك الكثيرمن الباحثين الذين صوروا الكنيسة البوسنية على أنها ثنوية المذهب ، واصفين إياها بالمانوية الجديدة أو البوجوميلية . إلا أن المصادر المحلية الخاصة بتلك الكنيسة (البوسنية والدالماتية ، وخاصة تلك الوثائق الثرية من دوبروفنيك الكاثوليكية)

لاتوحى بهذا . وتوضح تلك المصادر أن الكنيسة البوسنية ، بعكس البوجوميليين أو المانويين الجدد الغربيين ، كانت تؤمن بإله قادر على كل شيء وبالثالوث وبمباني الكنيسة وبالصليب وبتبجيل القديسين وببعض العهد القديم على الأقل . بينما نجد أن البوجوميليين البلغار واليونان أنكروا كل هذا . بل إنه لوكان البوسنيون مانويين لما كان هناك أى وجود للعلاقات الودية التي ذكرت تلك المصادر أنها كانت قائمة بين رجال الكنيسة البوسنية وكل من الكهنة والمسئولين الأرثوذكس والكاثوليك (بمن فى ذلك الكهنة والمسئولين من دوبروفنيك والمجر) .

ما يسمى بـ"شواهد القبور البوجوميلية"

أوضح ما تبقى من ملامح البوسنة والهرسك فى العصور الوسطى شواهد قبور المنطقة، التي تتميز بضخامتها وبنقوشها الجميلة فى أغلب الأحيان . وعندما رآها الباحثون فى القرن التاسع عشر كأحد ملامح البوسنة الثقافية المميزة ، انتهوا إلى ضرورة أن تكون ذات صلة بذلك الملمح الفريد الآخر الذى تميزت به البوسنة ، وهو الكنيسة البوسنية . واعتقاداً منهم بأن الكنيسة بوجوميلية ، فقد صنفوا الأحجار على أنها "شواهد قبور بوجوميلية" . وهذا التصنيف الذى كان يروق لرجال الإدارة النمساوية فى القرن التاسع عشر ويستهويهم – بسبب سعيهم إلى إبراز تميز البوسنة عن جيرانها الداعين إلى ضمها فى صربيا أو كرواتيا – ويتمشى مع رغبات السياحة المحلية مؤخراً ، مازال قائماً حتى يومنا هذا . إلا أنه ليس صحيحاً بالمرة. السبب الأول هو أنه لا يبدو أن الكنيسة البوسنية كانت بوجوميلية أو ثنوية . الأمر الثاني هو أن النقوش التى على عدد من الأحجار تشير إلى أن من أقامها هم أتباع المذاهب المحلية الثلاثة . وهكذا فإن الكاثوليك والأرثوذكس وأعضاء الكنيسة البوسنية الذين كان فى مقدورهم إقامة تلك الشواهد هم من أقاموها . وكانت النخبة من الفرسان بارزة بروزاً مميزاً فى إقامتها . وكانت أكثر الموتيفات تنوعاً وإتقاناً من إنتاج الهرسك . وأشهر جبانة هناك هى راديميليا Radimlia بالقرب من ستولاتس Stolac وفيها العديد من الأحجار التي تصور محارباً يرفع يداً حجمها كبير مقارنة بجسمه . ومع أن هذا الشكل ذا اليد المكبرة غالباً ما يُقدم على أنه صورة من الفن البوجوميلى ، فهو ليس بوجوميلياً . فراديميليا كانت جبانة عائلية لعشيرة أرثوذكسية اسمها ميلورادوفيتشى Miloradovici . وهكذا فإن "الشاهد البوسنى"

يعد مصطلحاً أكثر دقة . إذ إن الأحجار ملمح إقليمى مميز من إنتاج أهل البوسنة والهرسك على السواء ، بغض النظر عن مذهب كنيستهم . وبعد الفتح التركى أقام كثيرون ممن اعتنقوا الإسلام حجارة ظلت ، رغم كونها تركية إسلامية فى شكلها، تصور العديد من الموتيفات والأساليب البوسنية التى تعود للعصور الوسطى .



شكل 2-2 شواهد قبور من العصور الوسطى من جبانة عائلة ميلورادوفتش

فى راديميليا بالقرب من ستولاتس فى الهرسك

توزيع المذاهب فى العصور الوسطى

لنتوقف قليلاً كى نتدبر تلك الهويات التي قد تُلصق بطوائف العصور الوسطى فى البوسنة . وإذا استثنينا بعض من كانوا يقيمون فى تخوم هذه البوسنة الموسعة (بعضهم فى الشمال والغرب قد يصفون أنفسهم بأنهم كروات ، وآخرون فى هوم قد يقولون إنهم صرب أو أتباع للكنيسة الصربية) ، فإننا لا نجد بوسنيين يدعون أنفسهم صرباً أو كرواتاً .

وإذا أرادوا لأنفسهم صفة عامة ، فإنهم يدعون أنفسهم بوسنيين . ولا يسعنا القول بأنهم يرون هذا المصطلح على أنه عرقى . والأمر الأكثر إحتمالاً هو أنه كان يحدد الإقليم الجغرافى الذى ينتسبون إليه ، أو كان يشير إلى أنهم يخدمون الدولة البوسنية ، أو يُعرِّفهم كرعايا للملك البوسنى . وغالباً ما كان هؤلاء الناس من البوسنة يستخدمون الهوية الإقليمية مثل هوم ودونيي كراى وغيرهما .

وإذا انتقلنا إلى المواقع الجغرافية للمجموعات الدينية العديدة ، نجد الكاثوليك فى الشمال والغرب من البوسنة الكبرى ـ المناطق التي ضمها كوترومانيتش لدولته . وبعد ظهور الفرنسيسكان فى الأربعينيات من القرن الرابع عشر بدت دلائل على وجود الكاثوليك فى وسط الدولة على مقربة من مجموعة أديرة الفرنسيسكان وفى المدن التجارية . وبالطبع كان الكاثوليك الأجانب من التجار و الفنيين الذين لهم علاقة بالمناجم يستقرون فى تلك المدن . ونجد مؤمنين أرثوذكس إلى الجنوب والشرق فى هوم ، حيث ينتشرون شيئاً فشيئاً وعلى نطاق صغير عبر نهر درينا داخل غربي البوسنة . كما نجد أن الكنيسة البوسنية فى وسط الدولة، بينما تمتد مؤسساتها شرقاً حتى نهر درينا وجنوباً حتى هوم .

وفى الوقت الذى اتسعت فيه الدولة ، لم يتنقل سكانها أو يختلطوا بقدر كبير . كما أن توزيع المِلل ظل على ما كان عليه طوال العصور الوسطى . وكان الحكام والنبلاء (على عكس معاصريهم فى معظم بلاد أوروبا ، بما فى ذلك طبقة النبلاء فى صربيا وكرواتيا) غير عابئين بالقضايا الدينية . وكانوا يتصاهرون و يقيمون تحالفات عبر الخطوط الطائفية. وعندما كانت أهدافهم الدنيوية تستدعي تغيير عقائدهم كانوا يفعلون ذلك بكل سهولة ويسر. ولم يقوموا بأية محاولة للدعوة إلى عقائدهم أو لاضطهاد الآخرين و كانوا يتعمدون مقاومة دعوات البابا أو المجريين إلى اضطهاد أصحاب العقائد الأخرى . و لم يؤد اتساع الدولة إلى توسيع منطقة عمليات كنيسة البوسنة ، فيما عدا التقدم إلى هوم على نطاق ضيق . وخلال هذه العملية كان توسع الدولة معناه خضوع الأعيان المحليين للحاكم ، وإن ظلوا يديرون مناطقهم الخاصة . ولا نجد حكاماً مركزيين لهم حاشية يرسلهم البان لحكم الأقاليم البعيدة .

طبيعة العنف والحروب فى العصور الوسطى

خاضت البوسنة حروباً كثيرة فى العصور الوسطى ، على المستويين الخارجى والمحلي . و كان خصومها الخارجيون هم الصرب والمجر ، والعديد من النبلاء الكروات

المجاورين و الأتراك العثمانيين . ووقعت الحروب الداخلية بين النبلاء أو بين طبقة النبلاء والملك ، حيث كان قتالهم بسبب الأرض . ولم يقاتل بوسنيو العصور الوسطى بعضهم مرة واحدة كطوائف دينية أو عرقية .

وكان كثير من العنف في كل العصور الوسطى و العصر العثماني مجرد أعمال سلب و نهب محضة . فقد شجعت جبال البوسنة ، بطرقها الضيقة عبر الممرات ، قُطَّاع الطرق ، مما جعل أعمال السلب داء مستوطناً، وخاصة في الهرسك . ففي ذلك الإقليم ذي التربة الفقيرة التي لا تشجع على الزراعة ، كان الرعي (رعي الأغنام في المقام الأول) الحرفة السائدة في المناطق الجبلية القاحلة . وهناك كانت العائلات ، التي اتخذت شكل عشائر وقبائل ، تربي الخيول إلى جانب الأغنام وتهاجر على مدار السنة عبر طرق منتظمة - هي غالباً في حاجة إلى حماية – تمتد من الأودية في الشتاء إلى المراعي الجبلية في الربيع والصيف . وغالباً ما كانوا يمتطون خيولهم وهم يحرسون القوافل التجارية التي كانت تأتي من دوبروفنيك وغيرها من المدن الساحلية عبر الهرسك والبوسنة إلى داخل البلقان . وبينما كانت بعض العشائر تقود القوافل ، وجدت أخرى أن نهب تلك القوافل أكثر ربحاً . فكان حراس قافلة ما لصوص قافلة أخرى . وبما أنهم كانوا منظمين على هيئة عائلات ممتدة ، فقد دفعوا بوحدات كبيرة من الركبان الذين كانوا ، بصورة أو بأخرى ، يعيشون على التجار العابرين وكانوا يدافعون عن مراعيهم وطرقهم التي كانوا يحمونها وقت النزاعات . وعندما كانت الأمور غير مستقرة ، كما هو الحال في سنوات الغارات والغزوات التركية ، لجأ الكثيرون من البوسنيين إلى الجبال الأكثر أمناً ، حيث كان العنف سبيلهم للتفوق على خصومهم . وليس مستغرباً أن العشائر المسلحة كانت تؤجر نفسها ، ليس فقط كحراس للقوافل ، بل كذلك كأتباع مسلحين لعديد من النبلاء وكرديف للجيوش التركية في زمن الفتح التركي . وحصلت بعض هذه العائلات رغم مسيحيتها على كل أشكال الامتيازات ، بما في ذلك حق حمل السلاح ، طوال العهد التركي . وكما هو الحال بين أهل الجبل الأسود والجيج(8) Gheg في شمال ألبانيا ، تأصلت روح المحارب في

(8) –الجيج طائفة عرقية كبيرة في جبال الشمال وراء شكوميي . ويتميز الجيج بقوة الشكيمة واستطاعوا الحفاظ على قدر كبير من الحكم الذاتي في إطار النظام القبلي التقليدي . وكانت الوحدة الأساسية هي العشيرة التي يقودها أكبر الذكور سناً . وكانت العشيرة الواحدة أو عدة عشائر معاً تشكل وحدة إقليمية مستقلة (لواء) يترأسها "حامل لواء" وهو زعيم بالوراثة يصدر الأحكام بموجب أعراف غير مكتوبة . وتشكل عدة لواءات القبيلة التي يقودها أحد أفراد الأسرة السائدة فيها . (المترجم)

نفوس الكثيرين من الرعاة ، وخاصة هؤلاء الذين يعيشون فى شرقي الهرسك . وكثيراً ما كانوا يقومون بأعمال السلب والنهب أو يثورون ضد ملاَّك الأراضى المسلمين المحليين . وبعدها كانوا معارضين للدولة النمساوية ، عندما لم يعجبهم نظام الضرائب وسياسات التجنيد الإجبارى . وهم يقومون الآن بدور فعال فى ذلك العنف الذى يضع نهاية ليوغوسلافيا . وكسكان جبال مسلحين غير متعلمين نسبياً ، وبما لديهم من عداء نحو ثقافى الحضر ومؤسسات الدولة التي ترتبط بها (بما فى ذلك الضرائب) ، فقد تأثروا بدعاية الصرب الشوفينية وسمحوا لأنفسهم بالانخراط فى الوحدات شبه العسكرية الصربية . وهم يشكلون جزءاً مهماً من هؤلاء الذين يقصفون المدن البوسنية حالياً بالقنابل .

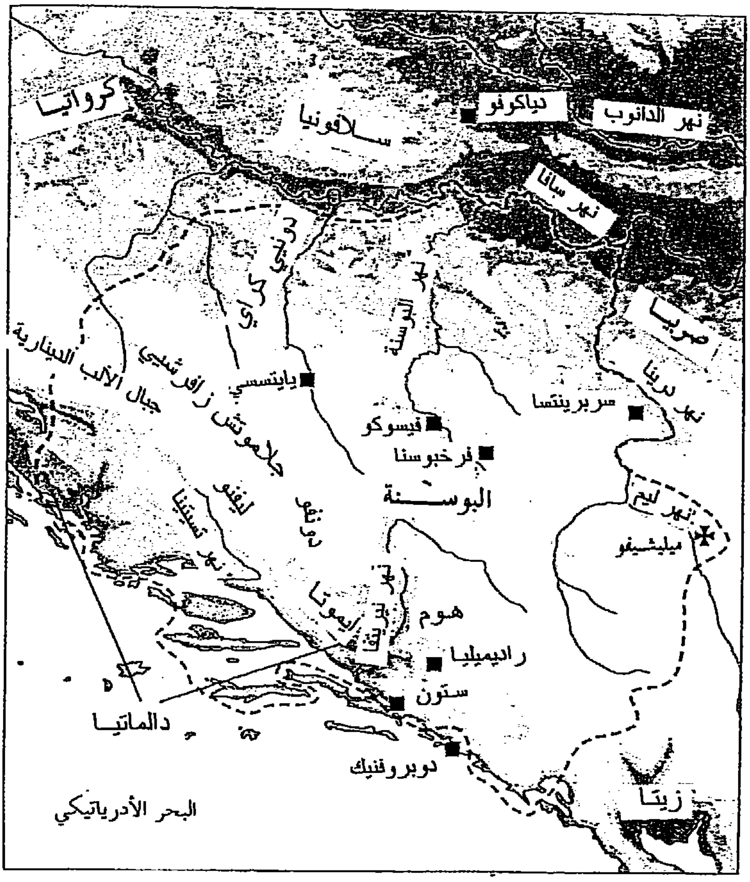
ذروة الدولة البوسنية فى العصور الوسطى
فى عهد تفرتكو

لنعد مرة أخرى إلى البوسنة فى منتصف القرن الرابع عشر : توفى كوترومانيتش سنة 1353 ليخلفه ابن أخيه اليافع تفرتكو الأول [9] TvrtkoI (1391 – 1353) . وكان كوترومانيتش قد أنشأ جهاز دولة صغير ، وغالباً ما كان يترك أتباعه فى الأصقاع البعيدة يديرون شئون بلادهم . وهكذا فقد تفرتكو السيطرة على جزء كبير من ميراثه ، إلا أنه نجح فى استعادة تلك السيطرة بحلول أوائل ستينيات القرن الرابع عشر . وبعد تأكيده لسلطته على البلاد الشمالية أعقب ذلك بتدخله فى نزاعات طبقة النبلاء الصربية إلى الجنوب الشرقى من البوسنة واستطاع أن يضم المزيد من الأراضي فى سنة 1374 ، ومنها إقليمي أعالي نهر درينا ونهر ليم Lim . وجعلـه هـذا يسيطر على هوم بكاملها ، إلى جانب معظم أراضى ما نعتقد الآن أنه سنجق Sandzak . وبناء على استيلائه على تلك الأراضي الصربية وزوال أسرة نيمانييتش Nemanjic فى صربيا سنة 1371 ، طالب تفرتكو بالعرش الصربي لانتمائه إلى هذه الأسرة (إذ كان جده زوج ابنة ملك صربيا ستيفان دراجوتين نيمانييتش Stefan Dragutin Nemanjic) . تُوِّج ملكاً على صربيا والبوسنة سنة 1377 فى الدير الصربي الأرثوذكسي فى ميليشيفو Milesevo على نهر

---

(9) الملك تفرتكو الأول (1391-1353) هو أول من تصدى للعثمانيين من أسرة كوترومانيتش . وفى عهده كانت البوسنة فى أوج مجدها السياسى والاقتصادى والثقافى . كما كانت أكثر الدول السلافية اتساعاً فى البلقان فى ذلك الوقت . ولحسن سياسة تفرتكو وقوة شخصيته نجح فى التصدى لملوك المجر الذين حاولوا مراراً فرض سيادتهم على البوسنة . وفى الداخل نجح فى جمع كبار الإقطاعيين حوله وسيطر عليهم ، وخاصة فى السنوات الأخيرة من حكمه . **(المترجم)**

ليم وكان قد استولى عليه منذ وقت قصير . ومنذ ذلك الحين صار حكام البوسنة ملوكاً ، لا بانات ، وحملوا هذا اللقب المزدوج ، رغم سيطرتهم على جزء صغير جداً من الأراضى الصربية . وبعد ذلك شارك تفرتكو فى حرب أهلية من أجل عرش المجر، حيث اجتذب الصراع الكثير من النبلاء الكروات ليقفوا مع هذا الجانب أو ذاك . وبعد أن استغل تفرتكو ما لديه من أوراق استغلالاً جيداً ، نجح فى الاستيلاء على جزء لا بأس به من الأراضي الكرواتية بينها مدن دالماتيّة . وبحلول سنة 1390 كان تفرتكو قد أضاف "كرواتيا ودالماتيا" إلى لقبه الملكى .

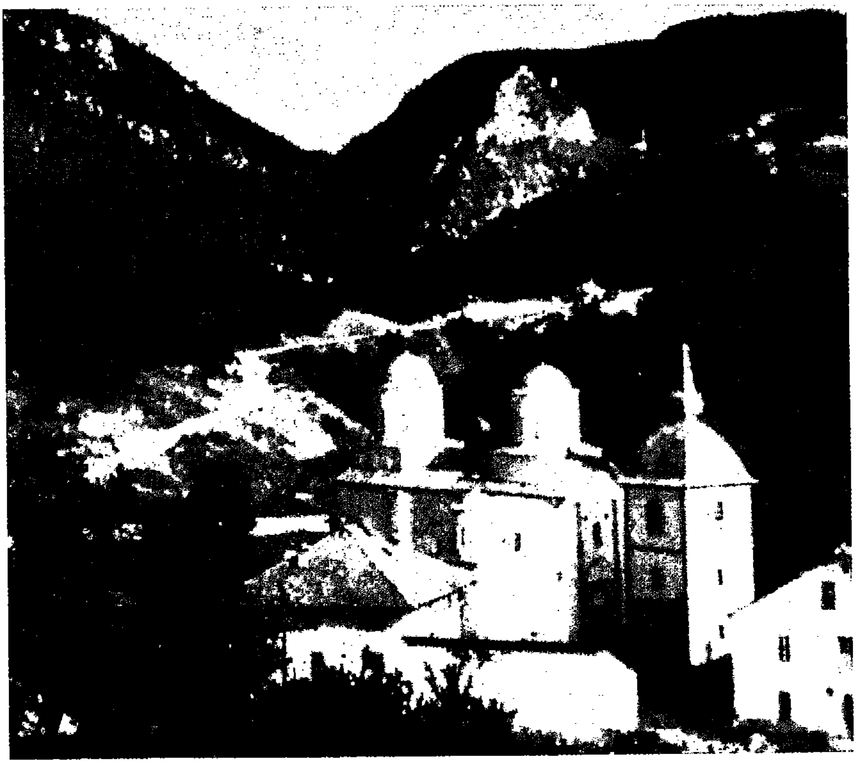


خريطة 2-3 المملكة البوسنية فى العصور الوسطى فى أوج اتساعها

سنة 1391 ، آخر سنة من حكم تفرتكو

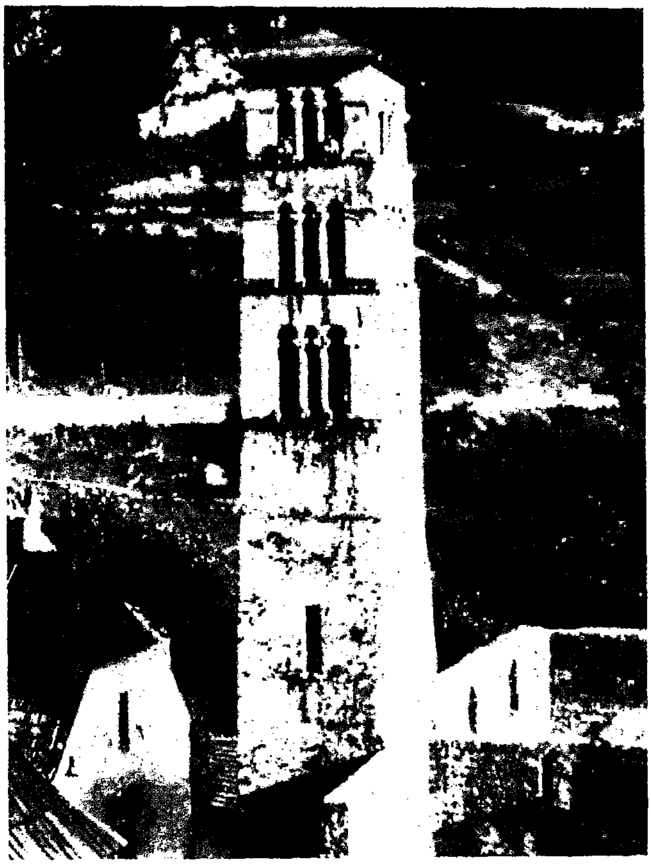
البوسنة فى أوائل القرن الخامس عشر

فى القرن الخامس عشر شاعت المنازعات بين الملك والنبلاء . وأقحم الأتراك العثمانيون التوسعيون أنفسهم فى هذه الصراعات أكثر وأكثر . وكذلك فعل المجريون الذين تحالفوا من حين لآخر مع حكام صربيا . ونتيجة لذلك ، كانت المجر كثيرة الانتصارات تهب فى بعض الأحيان الحاكم الصربي أراض على الجانب البوسني من نهر درينا (خاصة منجم الفضة الغنى فى سربرينتسا Srebreneca) . وعندما ضاعت سربرينتسا رفض البوسنيون الاعتراف بملكية الصرب لها . ووقعت اشتباكات كثيرة بين صربيا والبوسنة بسببها . ولم يكن للخلافات العرقية أى دور فى تلك الحرب . وهكذا نجد أن الأمر بكل تفاصيله لا علاقة له بما يدعيه الصرب والكروات فى الوقت الحالى من حقوق .



شكل 2-3 الدير الأرثوذكسى فى ميليشيفو حيث جرت مراسم
تتويج تفرتكو كأول ملك للبوسنة سنة 1377

وفى ثلاثينيات القرن الخامس عشر ازداد عدد الفرنسيسكان فى البوسنة وكثر نشاطهم فيها ، بإقامتهم العديد من الأديرة الجديدة . وفى ذلك العقد والذى تلاه أُقيمت كنائس كاثوليكية جديدة واعتنق نبلاء كثيرون الكاثوليكية . وكانت المدن التى نشط فيها الفرنسيسكان ، حيث كان ، جزء كبير من سكانها تجاراً كاثوليك جاءوا من الساحل ، كاثوليكية فى المقام الأول . ورغم المكاسب الكاثوليكية ظلت الكنيسة البوسنية ، التى كانت أغلب أديرتها فى المناطق الحضرية ، تُعامَل بتسامح . واحتفظت الكنيسة الأرثوذكسية بهيمنتها فى هوم ، رغم دعم العائلة الرئيسية فى هوم للكنيسة البوسنية .



شكل 2-4 برج أجراس القديس لوقا (يايتسى) وهى كنيسة كاثوليكية

أقيمت فى العقود الأخيرة من المملكة البوسنية فى القرون الوسطى

الفتح العثمانى

فى ثلاثينيات القرن الخامس عشر أيضاً ، ومع تزايد الضغط العثماني على صربيا ، أخذ اللاجئون الصرب يفرون إلى شرقي البوسنة . وهكذا ازداد عدد الصرب / الأرثوذكس فى الإقليم الواقع بين نهر درينا وما يعرف الآن بسراييفو . وفى سنة 1448 أسقط ستيفان فوكشيتش كوساتشا Stefan Vukcic Kosaca حاكم هوم لقب فويفودا Voivodaالبوسنة ، الذى يعكس تبعيتـه لملك البوسنة ، واتخذ لنفسه لقب هرتسج Herceg (دوق) هوم والساحل ، تأكيداً لاستقلاله . وفى العام التالى غيّره إلى هرتسج القديس سافا (وهو قديس صربى توجد مخلفاته فى دير ميليشيفو على أرض الهرتسج) . وسرعان ما صارت بلاده تعرف بهرتسجوفينا Hercegovina (الهرسك) ، وهو الاسم الذى استخدمه الأتراك أيضاً واستمر حتى يومنا هذا . وفى الوقت نفسه ازداد الضغط العثمانى على البوسنة وأخذ العثمانيون يقتطعون أجزاء من شرق البوسنة . وفى سنة 1451 استولوا على فرخبوسنا . وقُدِّر لهذه المدينة ، التي تحمل اسم سراييفو الذى اتخذته فى عهد العثمانيين ، أن تنمو لتصبح المدينة الرئيسية فى البوسنة فى العصر التركى .



شكل 2-5 حصن الهرتسج ستيفان فى لاجاى (منتصف القرن الخامس عشر)
بالقرب من موستار فى الهرسك

وفى سنة 1463 شن العثمانيون هجوماً مباغتاً واسع النطاق على البوسنة ، مستغلين علاقات ملك البوسنة المتنامية مع البابوية والمجر . وكانت دفاعات البوسنة ضعيفة فى إدارتها ، فسقطت المملكة كلها فى غضون أسابيع قليلة . وأُسر آخر الملوك ، وهو ستيفان توماشيفتش[10] Stefan Tomasevic وأطيح برأسه . وفى نهاية الحملة سحب الأتراك جزءاً من قواتهم الفاتحة ، الأمر الذى أتاح للمجريين الفرصة لشن هجوم واسترداد أجزاء من المملكة بعد وقت قصير . إلا أن ذلك الاسترداد لم يدم طويلاً . فبحلول نهاية سنة 1465 كان العثمانيون قد استعادوا معظم البوسنة ، وإن لم يسقط آخر حصون الهرسك إلا سنة 1481 . وكانت بالبوسنة حامية مجرية فى يايتسى Jajce ظلت صامدة حتى سنة 1527 . وكان السبب االرئيسى لفشل المجريين هو ذلك العداء القديم الذى يكنه الكثيرون من البوسنيين للمجر ، بسبب محاولاتها المتكررة على مر السنين للقضاء على استقلال البوسنة وفرض المذهب الكاثوليكى على أهل البوسنة من أصحاب العقائد الأخرى . ويتضح ذلك العداء فى زيارة مجموعة من النبلاء البوسنيين للبندقية ، عقب سقوط البوسنة سقوطاً نهائياً سنة 1463 ، طلباً للعون . وقد أعربوا عن استعدادهم للخضوع لسيادة البندقية ، إلا أنهم أضافا أنهم لن يفكروا تحت أى ظرف من الظروف فى الخضوع للمجر . والواقع أنهم عوضاً عن ذلك – وكانوا جميعاً من المسيحيين – آثروا البقاء تحت حكم العثمانيين[11] .

(10) عندما اشتعلت الحرب الأهلية ضعف موقف الملك الكاثوليكى ستيفان توماشيفتش آخر ملوك البوسنة وتعرضت وحدة البلاد للتفكك . فما كان من البابوية (البابا كاليكست التاسع) إلا أن تدخلت من أجل تثبيت العرش وإبقاء الملك راعياً للمسيحية ومجاهداً ضد الهراطقة البوجوميليين فى أراضي البوسنة . وزار البابا ملك البوسنة سنة 1461 وحرض الأهالى والأقنان – وأغلبهم من البوجوميل– على الدفاع عن وحدة البوسنة ووعدهم بالحرية . **(المترجم)**

(11) تشير المصادر التاريخية إلى أن زعيمي البوجوميل فوكتشتش وبافلوفتش استغاثا بالمسلمين لنصرتهم بعد أن سمعوا بتسامحهم ورحمتهم ورقى شأنهم . **(المترجم)**



شكل 2-6 رسم يبين يايتسى آخر عاصمة بوسنية فى العصور الوسطى

الفصل الثالث

التحول الديني ووضع البوسنة

المتميز فى عهد العثمانيين

انتقل الفتح العثمانى بالبوسنة إلى حقبة من التحولات الدينية واسعة النطاق، تُعد أهم الفترات بسبب ذلك العدد الكبير ممن اعتنقوا الإسلام خلالها. ومما يؤسف له أن التفسير القديم الذى طرحه الباحثون لكيفية حدوث ذلك ، وكان تبسيطاً مبالغاً فيه ،يلقى قبولاً كبيراً لدى البوسنيين فى الوقت الراهن . وقد أصبح هذا التفسير على وجه التحديد وجهة النظر الشائعة بين المسلمين عن ماضى ذلك المجتمع . ووجهة النظر هذه تتكون من ثلاث نقاط رئيسية :(1) كانت الكنيسة البوسنية بوجوميلية . وقد أوضحنا أنه من المؤكد تقريباً أن الأمر لم يكن كذلك ، وإن كان من المحتمل أن غالبية الباحثين اليوغوسلاف مازالوا يؤمنون بهذا .(2) كان أغلب البوسنيين أعضاء فى الكنيسة البوسنية (أو بوجوميليين كما يقولون). ومن المؤكد أن هذه العبارة الخاصة بحجم عضوية الكنيسة البوسنية تنم عن مبالغة كبيرة.(3) عند الفتح انتقل البوجوميليون ، الذين أحبطهم المذهب الكاثوليكي واضطهاد الملك والكنيسة الكاثوليكية ، على الأخص فى سنوات المملكة الأخيرة ، إلى الإسلام على الفور وبأعداد غفيرة[1] . وسوف نتفحص هذه النقطة الأخيرة ونوضح كيف أنها هي الأخرى خاطئة . الأمر الأول هو عدم حدوث تحول دينى بأعداد غفيرة وقت الفتح . فالتحول الديني كان عملية تدريجية امتدت على مساحة زمنية كبيرة . أما الأمر الثاني فهو أن رجال الكنيسة البوسنية لم يتحولوا إلى الإسلام وحده ، بل إلى عقائد مسيحية أخرى . والأمر الأخير هو أن الكثيرين من الكاثوليك والأرثوذكس أيضاً أصبحوا مسلمين . ولكن نظرية النقاط الثلاث هذه أفادت المسلمين المحدثين . ومــن خلال جعلهم ذرية أتباع الديانة التي زعموا أنها ســادت البوســنة فى العصــور الوســطى ، أظهــرت هــذه النظــرية أنهم ليسوا وافدين جدد وأعطت لجماعتهم قدراً أعظم من الشرعية . ولقيت هذه الفكرة تشجيعاً كذلك من النمســاويين بعد إحتلالهم للبوسنة ســنة 1878،إذ إنهــم أيــضاً كــانوا يريدون تقوية سلطة الطائفة الاسلامية [2] والحد من نفوذ الصرب المحليين ، باعتمادهم على

---

(1) لعل البوجوميليين سمعوا عن الإسلام من التجار أو الفاتحين المسلمين ورأوا فى تعاليمه مخرجاً لهم من الاضطهاد الذى كانوا يلاقونه . والمعروف أن طائفة البوجوميل لديها بعض الأفكار الخاصة بالتوحيد وغيره من مسلمات العقيدة الإسلامية ، التي يقال إن بوجوميل أخذها وخلطها ببعض معتقداته المسيحية وأتى بمذهبه . والبوجوميليون يرفضون تقديس البشر وأغلب الطقوس المسيحية (الكاثوليكية والأرثوذكسية) وخاصة التعميد وينكرون أن عيس ابن الله ولا يؤمنون بالتثليث وينتقدون التنظيم الكنسي وتزيين الكنائس ولا يبجلون الصور والتماثيل ، بل يعدون ذلك نوعاً من عبادة الأوثان . كما أنهم يكرهون النواقيس ويسمونها نواقيس الشيطان ويذمون الخمر **(المترجم)**

المسلمين – وكان الصرب فى ذلك الوقت أكبر الطوائف العرقية ذات التوجه القومى فى البوسنة وأكثرها تميزاً .

ودعونا الآن نتفحص الطوائف الدينية المتعددة فى البوسنة فى عهد العثمانيين . وحيث إن التحولات الدينية فى العصر العثماني انبثقت عما كان عليه الوضع فى العصور الوسطى ، فلابد لي من مراجعة بعض الأمور الرئيسية المرتبطة بتلك العصور. فقد كان باليوسنة ثلاث عقائد وكانت كل منها موجودة فى منطقة جغرافية بعينها : الكاثوليك إلى الشمال والغرب ، واعتباراً من أربعينيات القرن الرابع عشر فى الوسط (خاصة المدن) . الأرثوذكس فى الجنوب والشرق . الكنيسة البوسنية فى الوسط ، وتمتد شرقاً إلى نهر درينا وجنوبياً على طول نهر نيرتفا حتى هوم. وكانت الكنيستان الكاثوليكية والبوسنية تتمركزان بصورة كاملة تقريباً فى الأديرة . ولأغراض عملية بحتة ،لم يكن لهما رجال دين غير رهبان فى البوسنة . وكان لكل من الكاثوليك ورجال الكنيسة البوسنية عدد قليل من الكنائس . وكانت كنائسهم صغيرة الحجم . كما كان عدد ما لهما من اكليروس قليلاً جداً. وبسبب تركز هؤلاء فى الأديرة ، كان هذا العدد القليل يتجمع فى أماكن محدودة . وبحلول سنة 1400 لم يكن هناك سوى ما بين عشرين وثلاثين من الفرنسيسكان فى كل أنحاء الدولة (وكان ذلك فى الأساس هو إجمالي عدد رجال الدين الكاثوليك) ، موزعين على أربعة أديرة . وبحلول وقت الفتح (1463) كان هناك اثنا عشر ديراً.إلا أن هناك شكاً فى أنها كانت تضم ما يتعدى الخمسة والسبعين أو الثمانين من الفرنسيسكان الذين توزعوا عليها . وبذلك كانت هناك مناطق خالية تماماً من رجال الدين . ولم يكن لأى من الكاثوليك أو رجال الكنيسة البوسنية تنظيم إقليمي ، كأن يكون هناك أسقف مسئول عن إقليم ما أو أبرشية . ولم يكن للكنيسة البوسنية أساقفة بالمفهوم الإقليمي . أما الكاثوليك فكان لديهم ذلك من الناحية النظرية ، إلا أن أسقف البوسنة كان يقيم خارج البوسنة فى سلافونيا ، ولم يكن له دور فى البوسنة ذاتها إلا نادراً وربما لم يروه بالمرة. وكثيراً ما كان الفلاحون لا يعيرون اهتماماً للدين بشكله التقليدى ، طالما أن ذلك لم يُفرض عليهم فرضاً . ورغم وجود أساقفة وبعض الكهنة من غير الرهبان لدى الأرثوذكس ، فقد كان لديهم كذلك عدد

(2) الطائفة الإسلامية هى الإدارة الدينية الموحدة للمسلمين ويأتى على قمتها رئيس العلماء ومقرها سراييفو . وللطائفة الإسلامية شبكة واسعة من الهيئات والمؤسسات والموظفين . وتخضع لإدارة الطائفة أعداد كبيرة من المساجد والكتاتيب إلى جانب عدد من المدارس الثانوية . ويخدم بها الأئمة والخطباء والمعلمون والقائمون على الفتوى . ومهمة الطائفة الإسلامية الرئيسية الاهتمام بنشر التعليم الدينى وتقوية الوعي الإسلامى والمحافظة على الهوية الإسلامية وتأمين الشروط اللازمة لتطبيق الأحكام الإسلامية والعناية بحماية حقوق المسلمين ومصالحهم . (المترجم)

محدود نوعاً ما من الكنائس والاكليروس فى مناطقهم . وبذلك لم تكن هناك عقيدة ذات تنظيم قوى يربط أتباعها بالكنيسة ، سواء من خلال الإيمان والعقائد أم وجود إحساس بالجماعة .

التحول الدينى فى عهد العثمانيين

أحدث الفتح العثماني تغيرات فى التركيبة السكانية والديانة . ومن الأهمية بمكان أن نشير أولاً إلى أن العثمانيين لم يقسموا الناس تبعاً لأصولهم العرقية . فهم لم يتحدثوا عن الصرب والكروات والبوسنيين وغيرها من هذه المسميات . بل تحدثوا عن طوائف دينية . ونحن نرى منذ البداية أمارات الأسلمة فى البوسنة . إلا أن الوجود الإسلامى ظهر على الساحة شيئاً فشيئاً . كان ذلك يجرى ببطء ، ولكنه كان يتزايد باطراد فى أواخر القرن الخامس عشر وخلال القرن السادس عشر . وكانت الأسلمة فى المراحل الأولى نتيجة لهجرة المسلمين من بلاد أخرى واستقرارهم هناك واعتناق أهل البلاد للإسلام(3) . وعلى المدى الطويل كان اعتناق السكان المحليين للإسلام هو المصدر االرئيسى لمسلمي البوسنة ليكون أغلبهم بذلك منحدرين من أصلاب من اعتنقوا الإسلام من الناطقين باللغة الصربوكرواتية . وفى زمن الفتح ، كانت هناك هجرة عكسية واسعة النطاق قام بها الكاثوليك، الذين فروا إلى المناطق الكاثوليكية التى لم تُفتح بعد فى كرواتيا ودالماتيا . وأخلى هؤلاء الأراضى التي عمّرها بصورة جزئية الوافدون الجدد من المسلمين ، وإن شاركهم فى ذلك أيضاً الصرب الأرثوذكس . وكان الصرب قد بدأوا الفرار إلى البوسنة فى عقود الضغط العثمانى على صربيا (التى سقطت قبل البوسنة)(4) . وشجع الأتراك

---

(3) التقى المسلمون بالسلاف (الصقالبة) فى جيش البيزنطيين فى موقعة اليرموك وأسروهم وأصبحوا عبيداً فى بلاد المسلمين ومنهم من أسلم وأُعتق . وفى عهد الدولة الأموية هرب من جيش الإمبراطور جستنيان عشرون ألف صقلبيى ليلحقوا بصفوف المسلمين حيث أسلم أكثر ذلك ومنهم من استقر بالشام . ويعتقد أن من هؤلاء من عادوا إلى مواطنهم للتجارة أو الزيارة أو نشر الدين الجديد بلغتهم . وهذا يفسر تأثر المذهب البوجوميلى بتعاليم الإسلام . وفى العصر الأموى بلغ عدد الحراس الصقالبة في قرطبة 13750 رجلاً . وبرز من كتاب قرطبة الكاتب الصقلبى فاطن وكذلك نديم الواصف . وفى مصر عيِّن رمضان الصقلبى قائداً لحرس الخليفة . أما ما يقال عن وصول الإسلام إلى بلاد يوغوسلافيا السابقة بعد الفتح العثمانى فى القرن الرابع عشر الميلادى فيصدق على وصول المسلمين بأعداد كبيرة . **(المترجم)**

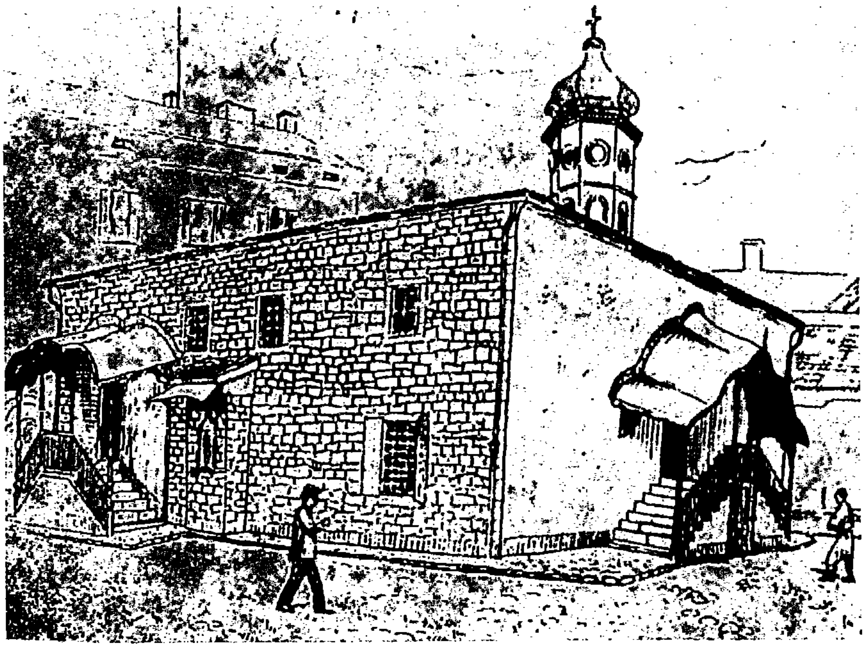
(4) كان جورج برنكوفتش أمير صربيا عندما فتحها السلطان مراد الذى جرده من امارته ثم أعادها إليه مرة أخرى على أن يدفع الجزية السنوية للعثمانيين . ولكن جورج برنكوفتش لم يكن مخلصاً للعثمانيين فى تبعيته لهم . بل إنه كان حسب وصف السلطان محمد الفاتح "يظهر الصداقة ويبطن العداوة" . ولما أتاه رسل يوحنا هنيادى الذى عرض عليه الاشتراك فى حلف يعقد ضد محمد الفاتح ، الذى عظم خطره على أوروبا بعد فتحه القسطنطينية ، وافق على الدخول فى هذا الحلف . وعندما علم السلطان محمد الفاتح بأمر هذا التحالف زحف على صربيا واستولى على معظم مدنها فى ربيع 1455 وهرب جورج برنكوفتش إلى المجر ليعود مع هنيادى . ويعقد السلطان معاهدة مع برنكوفتش الذى تنازل عن اقليم نوفو برادو وتعهد بدفع الجزية وتوطيد علاقاته مع الباب العالى على حساب المجريين . **(المترجم)**

المزيد من الهجرة الأرثوذكسية الصربية إلى البوسنة بعد فتحهم لها ، حيث أرادوا تعمير الأراضي التى أُخليت . ولم يأت بعض هؤلاء المهاجرين الأرثوذكس أو الصرب من صربيا وإنما من الهرسك ، التى كانت تربتها أكثر فقراً من تربة البوسنة . وحملت هذه الهجرات بعض الصرب إلى ماوراء حدود البوسنة داخل كرواتيا . وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر وطّنت سلطات هابسبورج[5] Habsburg بعضاً من ذرية هؤلاء الصرب كمستوطنين فى كراايينا Krajiua حيث قدمت لهم الأرض والحكم الذاتي المحدود وحرية اتباع المذهب الأرثوذكسى - مقابل الخدمات العسكرية على طول الحدود مع العثمانيين . وقام هؤلاء الصرب سنوات طويلة بدور كبير كمراكز متقدمة للجبهة العسكرية الكرواتية ، دفاعاً عن المسيحية ضد التوسع الإسلامى . وصرب كراايينا - الذين يثورون اليوم ضد كرواتيا الانفصالية الجديدة ويسعون إلى الانفصال عما صارت دولة شوفينية ، واصفة نفسها بأنها دولة للكروات بدلاً من كونها دولة كرواتيا الإقليمية ، أو الحصول على الحكم الذاتى فى إطارها - ينحدرون من أصلاب هؤلاء المهاجرين .

وأوضح تحول دينى فى البوسنة كان من المسيحية إلى الإسلام . ولكن بإمعان النظر فى الأمر نجد أن البوسنة تميزت بالتحول الديني بصورة عامة . فإذا نظرنا إلى البوسنة والهرسك حوالي سنة 1550 لا نرى فقط مسلمين كثيرين ، بل أيضاً الكثير من الأرثوذكس. والأرثوذكس موجودون فى كل أنحاء البوسنة وفى أماكن كثيرة لم يكونوا فيها من قبل ، لأنه كما نذكر لم يكن الأرثوذكس فى بوسنة العصور الوسطى موجودين إلا فى إقليم درينا وفى هوم . ويعود جزء من انتشار المذهب الأرثوذكسى إلى الهجرات المشار إليها ، إلا أن تعداد الأرثوذكس ازداد نتيجة لتلك الأعداد الكبيرة من أبناء الكنيسة البوسنية والكاثوليك الذين اعتنقوا المذهب الأرثوذكسى ، حيث كانت تلك هى المجموعة المسيحية التى تحظى برضا العثمانيين .

---

(5) لم يكن الهابسبورج يتميزون بأى بطولة أو ذكاء وانما كان نجاحهم يكمن فى عنادهم وطموحهم وحظهم . وفى سنة 1463 عُقدت اتفاقية بين النمسا والمجر تؤول بمقتضاها المجر إلى الهابسبورج بموت الملك ماتياش دون وريث . وعندما تُوفى مايتاس سنة 1490 دون وريث انتقل تاج المجر إلى بوهيميا . وكان حصار السلطان سليمان القانوني لفيينا سبباً فى اهتمام أسرة هابسبورج بمستقبل أوروبا الدانوبية . (المترجم)



شكل 3-1 الكنيسة الأرثوذكسية القديمة فى سراييفو
التى اكتمل بناؤها سنة 1530

ويمكننا أن نفهم بسهولة أسباب تفضيل العثمانيين الأرثوذكس على الكاثوليك . فزعيم الأرثوذكس ، وهو بطريرك القسطنطينية ، كان مقيماً فى العاصمة العثمانية ، حيث كان من السهل السيطرة عليه . كما أن كل أساقفته كانوا يقيمون داخل الإمبراطورية ، بينما كان البابا يقيم فى روما خارج الإمبراطورية ، وكان الراعى الرئيسى للحملات الصليبية ضد العثمانيين . وكانت البابوية قد أرسلت حملة صليبية فى 1443 - 1444 وكان البابا بيوس الثانى Pius II (1458 - 1464) يسعى إلى إرسال حملة جديدة وقت فتح العثمانيين للبوسنة ولكن خاب مسعاه . كما كان يُنظر للفرنسيسكان على احتمال أنهم طابور خامس . وأدلة محاباة العثمانيين للأرثوذكس قد نجدها فى سجلات المحاكم المعاصرة لتلك الفترة . فقد كانت هناك مدن ليس فيها سوى كنيسة واحدة من العصور الوسطى ، وكانت كنيسة كاثوليكية يستولى عليها الأرثوذكس الوافدون حديثاً. فما كان من الكاثوليك ، الذين يرغبون فى الاحتفاظ بها ، إلا أن لجأوا بالشكوى إلى القاضى التركى. وكان القاضي دوماً يحكم لمصلحة الأرثوذكس . وعندما حصلت الكنيسة الكاثوليكية على فرمان عثمانى يتيح لها تحصيل مكوس الكنيسة من المسيحيين ، كان جباتها يطالبون

الكاثوليك أيضاً بالضرائب . وعندما كان الكاثوليك يجدون أنفسهم مطالبين بضرائب مضاعفة ، أى العشور التى يدفعونها والضرائب الأرثوذكسية ، كانوا يتقدمون بالتماس للقاضى الذى يأمرهم بأن يدفعوا لرجال الدين الأرثوذكس المبالغ التى يطلبونها . ولم يكن القانون العثمانى يسمح ببناء كنائس جديدة وكان ينص على ضرورة الحصول على إذن خاص من الحكومة بإصلاح تلك التى أصابها الخراب (6) . ونجد فى القرن السادس عشر كذلك أن الأرثوذكس فى البوسنة والهرسك يبنون الكثير من الكنائس الجديدة ، بينما يحصل الكاثوليك بشق الأنفس – وفى أحيان قليلة – على إذن بإصلاح الكنائس المتداعية. والمثال الواضح للكنيسة الأرثوذكسية المقامة بهذه الطريقة هى الكنيسة الأرثوذكسية القديمة فى سراييفو التى اكتمل بناؤها سنة 1530 . وهكذا كانت هناك أسباب كثيرة لدى الكاثوليك (أو لدى أبناء الكنيسة البوسنية الصغيرة المنهارة) الذين يرغبون فى بقائهم مسيحيين كى يصبحوا أرثوذكس . فقد كان ذلك يتيح لهم دفع ضريبة كنسية واحدة وحضور القداس فى مبنى الكنيسة المحلية التى صارت أرثوذكسية – وكانت بالنسبة للكاثوليك فى كثير من الحالات نفس المبنى الذى تعودوا على دخوله .

وبصورة عامة نجد أن التحول الديني ظاهرة واسعة النطاق ومتعددة الاتجاهات . فأعضاء الكنيسة البوسنية يعتنقون الإسلام والمذهب الأرثوذكسى والمذهب الكاثوليكى . وأدى هذا إلى اختفائهم تماماً من على الساحة . كما نجد أن أعداد الكاثوليك كانت تتناقص تناقصاً كبيراً بسبب هجرة الكثيرين للخارج ، وكذلك لاعتناق البعض للإسلام وغيرهم للمذهب الأرثوذكسى . ونلاحظ أن هناك تزايداً فى أتباع المذهب الأرثوذكسى ، الذى خسر بعض أتباعه لاعتناقهم الإسلام بصورة أساسية واعتناق قليل منهم المذهب الكاثوليكي . وبذلك يكون التحول الدينى ظاهرة عامة متعددة الاتجاهات . ومن المؤكد أن الإسلام فاز بأغلب من تحولوا عن دينهم ، إلا أن المذهب الأرثوذكسى فاز أيضاً بكثيرين .

(6) جاء فى الخط الهمايونى الذى أصدره السلطان العثماني عبد المجيد فى 18 فبراير 1856 : " ... ولا ينبغي أن تقع موانع فى تعمير وترميم الأبنية المختصة بإجراء العبادات فى المداين والقصبات والقرى التى جميع أهاليها من مذهب واحد ولا فى باقى محلاتهم كالمكاتب والمستشفيات والمقابر حسب هيئتها الأصلية لكن إذا لزم تجديد محلات نظير هذه فيلزم عندما يستصوب البطرك أو رؤساء الملة أن تعرض صورة رسمها وإنشائها إلى بابنا العالى لكى تقبل تلك الصورة المعروضة ويجرى اقتضاؤها على موجب تعلق إرادتى السنية الملكونية أو تتبين الاعتراضات التى ترد فى ذلك الباب بظرف مدة منفردين يعنى غير مختلطين بغيرهم فلا يقيد بنوع ماعدا إجراء المنصوصات المتعلقة بالعبادة فى ذلك الموضع ظاهراً وعلناً أما فى المدن والقصبات والقرى التى تكون أهاليها مركبة من طوائف مختلفة الأديان فتكون كل طائفة مقتدرة على تعمير وترميم كنائسها ومستشفياتها ومكاتبها ومقابرها اتباعاً للأصول السابق ذكرها فى المحلة التى تسكنها على حدتها لكن متى لزمها أبنية يقتضى انشاؤها جديداً يلزم أن تستدعى بطاركتها أو طائفة مطارنتها الرخصة اللازمة من جانب بابنا العالي فتصدر رخصتنا عندما لا توجد فى ذلك موانع ملكية من طرف دولتنا العلية ... " . (المترجم)

وكان للإسلام مزاياه العديدة فى واقع الأمر : فهو دين الدولة الفاتحة . وكانت هناك مزايا دنيوية فى الدخول فى عقيدة الحكام الجدد ، أولها وأهمها الضرائب المخفضة . يضاف إلى ذلك أن النجاح الذى حققه الإسلام على المستوى الدنيوى كان بمثابة دليل على رضا الإله .

ويجدر بنا فى هذا المقام أن نلاحظ أن النظرية الخاصة بدوافع التحول الدينى التى ظلت شائعة زمناً طويلاً بين الباحثين – وهى اعتناق كثيرين من ملاّك الأراضى فى بوسنة العصور الوسطى للإسلام حفاظاً على أطيانهم وممتلكاتهم (7) – لم تثبت صحتها بمرور الوقت . فالمصادر ليس فيها ما يشير إلى وجود أية صلات نسب بين أرستقراطية بوسنة العصور الوسطى المالكة للأراضى وتلك الأرستقراطية المسلمة بعد الفتح . وأبرز نموذجين لاعتناق الإسلام ، وهما ابن آخر الملوك وابن هرتسج ستيفان ، قد تقلدا منصبين إداريين عثمانيين رفيعى المستوى ، لكن ليس فى البوسنة . فابن الملك أصبح حاكماً فى الأناضول وابن هيرتسج ستيفان تقلد العديد من المناصب غير البوسنية ، قبل تقلده لأرفع المناصب الإدارية المركزية كوزير فى عهد السلطان سليم الأول .

الجدول 3–1 : الطبيعة التدريجية للأسلمة فى ليبينتسا

تاريخ الاستطلاع	أسر مسيحية	أسر مسلمة
1468	279	0
1485	329	18
1489	165	65
1509	160	393

(7) هذه المزاعم لو حُققت لن تكون صحيحة . فقد تحمل أبناء طائفة البوجوميل العنت ورضوا بالذل والاستبعاد حفاظاً على مذهبهم أمام تعصب الكاثوليك . ومنهم من هاجر بمعتقده . ولو آثروا الراحة و كان الأمر مجرد الخلاص من العنت والذل لاعتنقوا الكاثوليكية . ولكنهم لم يفعلوا ذلك . فكيف يتخلون بعد ذلك عن مذهبهم مقابل أراض ربما نالوها بغير التخلى عن دينهم لو أرادوا . (المترجم)

الجدول 3-2 : تنوع فى أعداد المسلمين والمسيحيين
فى القرى المحيطة بسراييفو سنة 1485

البلدة	أسر مسيحية	أسر مسلمة
Dolac دولاتس	84	13
Hodidjed هوديديد	35	9
Glavogodina جلافوجودينا	3	29
Doljani دوليانى	19	16
Butmir بوتمير	21	14
Otes أوتيس	3	17
Presjenica بريسينتسا	38	39

ونلاحظ أيضاً أن تغيير الديانة حدث بصورة تدريجية وتنوعت السرعة التى تم بها من مكان لآخر . وتظهر الدفاتر (سجلات الضرائب التركية) كلاً من التدرج والتنوع اللذين اتسمت بهما هذه العملية . دعونا أولاً نسير مع مدينة ليبينتسا Lepenica البوسنية عبر الزمان ، كمثال لتدرج الأسلمة . وينبغي ملاحظة أن الدفاتر لا تميز بين الأرثوذكس والكاثوليك . (انظر الجدول 3-1) .

ويمكننا ملاحظة التوازن بين المسلمين والمسيحيين فى استطلاع سنة 1485 . (انظر الجدول 3-2) . وتوضح دفاتر 1528 / 1529 الزيادة التى حققها الإسلام حتى ذلك الوقت. ومع ذلك كان المسيحيون لايزالون يشكلون أغلبية (انظر الجدول 3-3) . ولم يقدر للإسلام أن تكون له أغلبية إلا فى القرن السابع عشر . ووقتها كان يمثل أغلبية صغيرة . وبحلول زمن احتلال النمساويين للبوسنة سنة 1878 كان المسلمون قد فقدوا موقع الأغلبية.

وفى الوقت نفسه توفرت لنا التقديرات المأخوذة من تقارير الزيارات التفقدية الكاثوليكية معلومات تتعلق بالتحول الديني . وهي تعطينا أرقاماً تقديرية تتعلق بالأفراد وليس بالأسر

(انظر الجدول 3-4) . وكتفسير لتناقص أعداد الكاثوليك ، كان الزوار يؤكدون المرة تلو الأخرى على نقص الكهنة وجهل الموجودين منهم ولامبالاة الأساقفة المحليين .

الجدول 3-3 : دفاتر 1528 / 1529 للمنطقة بكاملها (بالأسر)

الإقليم	أسر مسيحية	أسر مسلمة
سنجق البوسنة	19619	16935
سنجق زفورنك	13112	2654
سنجق الهرسك	9588	7077

الجدول 3-4 : انطباعات لمسئولية الأجانب عن أعداد المسيحيين والمسلمين فى البوسنة فى القرنين السابع عشر والتاسع عشر

التاريخ	الاسم	المسلمون	الكاثوليك	الأرثوذكس
1624	ماساريتشي* Masarecci	900000	300000	150000
1626	جيورجيئيفتش Georgijevich	(أقل من المسيحيين مجتمعين)	250000	(أكثر من الكاثوليك)
1655	مارافتش Maravich	(أغلبية)	73000	(بلا أرقام)
1809	القنصل الفرنسي	600000	120000	500000
* تقديره: البوسنة بدون الهرسك				

فلماذا كان هذا العدد الكبير ممن تحولوا عن عقيدتهم الدينية فى البوسنة والهرسك ، وليس فى أى مكان آخر من البلقان (باستثناء ألبانيا) ؟ السبب الذى أراه أنا لا يصعب العثور عليه ولا علاقة له بفحوى معتقدات الكنيسة البوسنية السابقة ، وإن كانت وجهة النظر هذه قد تقدم بها كثيرون . فالحقيقة هى أن البوسنيين لم يكونوا يوماً مسيحيين

شديدى التمسك بدينهم . فإذا ما ألقى المرء نظرة على صربيا وكرواتيا وبلغاريا واليونان لوجد كنائس رسمية منظمة تنظيماً جيداً وتتبعها أديرة كبيرة مزدهرة وتتميز بهيكلها الأسقفى النشط الذى يفرض قدراً كبيراً من الولاء . كما نجد أيضاً أنه فى كل من هذه المناطق كان هناك تنظيم كنسى واحد ليس له أى منافس ويرتبط برباط وثيق بالدولة ، أو بطبقة النبلاء ، أو بكلتيهما . أما فى البوسنة ، فبدلاً من وجود كنيسة واحدة على قدر جيد من التنظيم ، كما هو الحال فى سائر بقاع البلقان ، كانت هناك ثلاثة تنظيمات متنافسة اتسمت جميعها بالضعف . ولم يحدث قط أن كان لأية كنيسة فى البوسنة أو الهرسك تنظيم إقليمى قوى وكانت ثلاثتها تفتقر إلى الكهنة . بل إن كل مبانى كنائس بوسنة العصور الوسطى التى أُكتشفت كانت أصغر من أن تستوعب طائفة المصلين ، مهما كان عددها . ويوحى هذا بأن النبلاء ، الذين يفترض أنهم أقاموها ، شيدوها لتكون كنائس عائلية صغيرة ، ولم يكونوا يتوقعون ارتياد الفلاحين المحليين لها . وبذلك يحتمل أنه حتى هؤلاء الذين كانوا يقيمون على مقربة من إحدى الكنائس كانوا نادراً ما يرتادونها ، وربما لم يرتادوها بالمرة . وكانت نتيجة ذلك أن قليلاً من المسيحيين توثقت صلتهم بواحدة من الكنائس أو الطوائف الدينية المسيحية ، سواء من خلال العقيدة أم من خلال الإحساس بالجماعة .

وظهر الإسلام على الساحة بعد سنة 1463 . وكان ديناً جديداً يتسم بالديناميكية وتتخذ الدعوة إليه شكلاً جيداً . كما كانت له ميزة كونه دين الدولة الفاتحة . لذلك فليس مستغربا فى مثل هذه المنطقة ، التى كانت المسيحية فيها تفتقر إلى التنظيم واتسمت الدعوة إليها بأنها غير فعالة فى عمومها ، أن نجد هؤلاء الناس الذين تنقصهم الوشائج الدينية القوية على استعداد لاعتناق عقيدة جديدة . وبما أن البوسنيين ظلوا زمناً طويلاً مسيحيين ضعيفي الإيمان تعاملوا مع الأتراك على مدى خمسين سنة قبل الفتح ، فلم تكن لديهم أية دوافع قوية للتحامل على المسلمين . بل ربما لم تكن الدوافع الدينية فى كثير من الحالات صاحبة اليد العليا فيما يتعلق بجعل الناس يعتنقون الدين الجديد . وأخيراً فإن كلمة **اعتناق** أفضل من **تحول** لوصف ما حدث فى البوسنة . وربما تعرض قليل من المسلمين عند اعتناقهم الإسلام لتحولات عميقة فى أنماط تفكيرهم أو أسلوب حياتهم .

ويحتمل أن معظم الذين صاروا مسلمين ظلوا يعيشون كما كانوا من قبل ، محتفظين بمعظم عاداتهم المحلية وكثير من الممارسات المسيحية . ومع تحولهم ، اكتسبوا بضع ممارسات إسلاميـة سرعان ما أصبحت ذات قيمة رمزية عظيمة واعتبروها بعد فترة وجيزة من أسس الإسلام.

دور مسلمى البوسنة
فى الدولة العثمانية

ويمكن تغطية التاريخ السياسي فى البوسنة إبان العصر العثمانى ، من 1463 إلى 1878 ، بإيجاز نسبى ، إذ كان البوسنيون ، كأبناء إقليم فى إمبراطورية كبيرة ، جزءاً من مشروع واسع النطاق تُتخذ قراراته الكبرى فى مكان آخر . ومع أنه كان للبوسنيين المسلمين دور كبير فى الأمور الداخلية ، كما سنرى ، فقد كانوا لا يزالون مضطرين للمشاركة فى السلطة مع مسئولى السلطان الذين كانوا يفرضون عليهم دوماً ما يريده السلطان ، عندما تضطرهم الظروف لذلك . وقد تقلد بوسنيون آخرون مناصب عليا فى الحكومة المركزية ومؤسسات الدولة الدينية وكان لهم فيها تأثير كبير . ولكنهم أدوا تلك الأدوار بصفتهم عثمانيين لا بوسنيين .الأمر الذى لم يجعلهم من شخصيات التاريخ المحلى .

حياة محمد سوكلُّو العملية
ومنجزاته

ومع ذلك كان لمثل هؤلاء تأثير كبير على المستوى المحلي . وكثيراً ما تمثل ذلك فى صورة وقف المساجد والمدارس والحمامات فى مدنهم الأصلية . والحالة وثيقة الصلة بهذا، وكانت لمصلحة المسيحيين بصورة خاصة ، نراها فى أعمال محمد سوكلُّو (سوكولوفتش)[8] Mehmet Sokullu (Sokolovic) . وكان محمد طفلاً مسيحياً

(8) ولد محمد سوكولوفيتش فى قرية سوكولوفيتشى Sokolovici القريبة من بلدة فيشيجراد سنة 1500 فى أسرة مسيحية ودخل الديفشرمة (سيأتي شرحها) فى أدرنة وعمره خمس سنوات ثم نُقل إلى اسطنبول حيث تربى هناك . وأبرز محمد ميزات شخصيته المختلفة مما جعله يترقى من منصب إلى آخر حتى وصل إلى منصب الوزير الأعظم (أى رئيس الوزراء بلغة عصرنا) الذى شغله فى عهود ثلاثة من السلاطين العثمانيين ، هم سليمان القانونى وسليم الثانى ومراد الثالث . وظل سوكولوفتش يتولى أمور الدولة زهاء 15 سنة ، فى وقت كانت هذه الدولة فى أوج مجدها وقوتها . أُغتيل سنة 1579 ودُفن فى اسطنبول قرب جامعه الذى بناه . (المترجم)

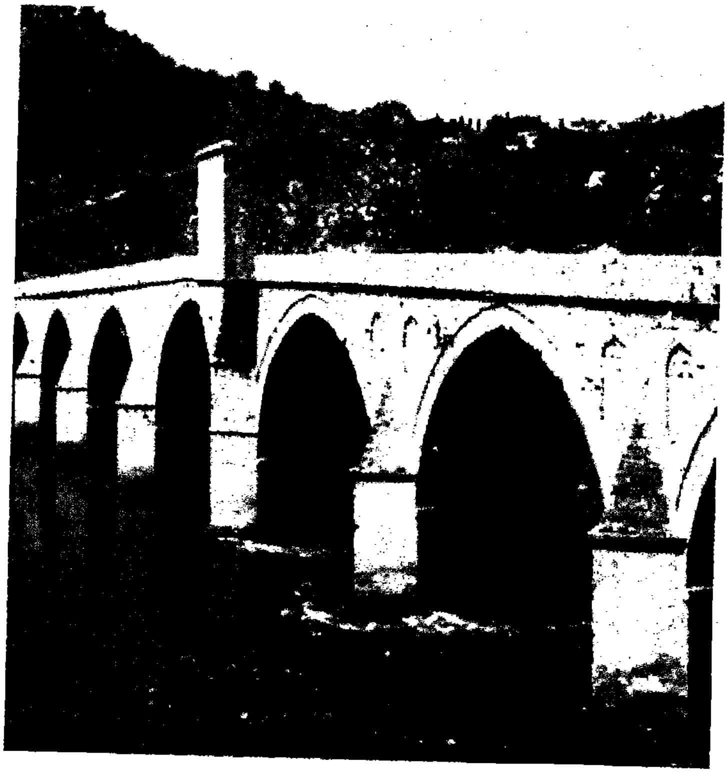
أرثوذكسيا من فيشيجراد Visegrad – على الجانب البوسني من نهر درينا . وقد تربى فى الديشفرمة[9] ، وهي مؤسسة عثمانية كانت تأخذ الأطفال المسيحيين من أسرهم وتجعلهم مسلمين وتضعهم طبقاً لمؤهلاتهم فى وحدات عسكرية معينة أو فى خدمة القصر. ولأنه أبدى مقدرة خاصة ، فقد التحق بمدرسة القصر فى اسطنبول وكُلف بالعمل فى الحكومة العثمانية . وعن طريق الموهبة والمحسوبية والحظ عُيِّن فى آخر المطاف وزيراً، وهو أعلى منصب إدارى يلي السلطان . (ومنصب الوزير يتساوى تقريباً مع منصب رئيس الوزراء ، وإن كان لابد أن نعى أن أى رئيس وزراء لايبقى فى منصبه إلا إذا ظل يحظى برضا السلطان المستبد) . وعلى أية حال ، فقد تذكر محمد مدينته الأصلية ، فيشيجراد[10] ، التى كرَّمها ببناء جسر رائع على نهر درينا[11] يربط إقليم البوسنة بإقليم صربيا . (هذا الجسر محور رائعة الروائى ايفو اندريتش Ivo Andric الفائز بجائزة نوبل "جسر على نهر درينا") .

---

(9) الديفشرمة هي تجنيد الفتيان غير المسلمين بهدف الخدمة فى قوة الانكشارية (سيأتي شرحها) . والواقع أن تجنيد هؤلاء الأطفال كان صورة من صور الضرائب المفروضة على أهل البلاد التى فتحها العثمانيون من غير المسلمين . وفى القرن السادس عشر كان تجنيد مثل هؤلاء الفتيان يتم كل ثلاث إلى سبع سنوات ، حسب الحاجة . وكان كل تجنيد يستوعب ما بين ألف وثلاثة آلاف من الفتيان . ومع أن هؤلاء الفتيان كانوا ينخرطون فى سلك الانكشارية ليتولوا فى نهاية الأمر أعلى المناصب فى جهاز الدولة ، فقد كان تجنيدهم أمراً شديد القسوة على أهلهم وبقى فى التراث الشعبى رمزاً لوجوه صرامة العثمانيين . ويذكر ستيفان جيرلاش (1577) أن عدداً من المسيحيين " يزوجون أطفالهم لنساء وهم فى الثامنة أو التاسعة ، وذلك لمجرد تمكينهم من الإفلات من التجنيد ، فالمتزوجون لا يجندون ." وفى عهد السلطان محمد الفاتح اقتصر أخذ الأولاد على مسلمي البوسنة والهرسك فقط ، حيث حصلوا على هذا الامتياز بطلب منهم . ولم يكن هؤلاء المسلمون يُعطون للفلاحين الأتراك لتربيتهم ، شأن غيرهم ، بل كانوا يخصصون لخدمة السراى فى وحدة البوستانجي . وكانت عملية التربية هذه شكلاً من أشكال الامتياز فى نظر أهل البوسنة . واستثنى منها المتزوج ويتيم الأبوين وابن كتخدا القرية والأجرب والراعى وابنه والأقرع والكسيح والأجرودى والمطهر منذ الولادة وصاحب المهنة وابن الطريقة البكتاشية . ولم يكن الزواج من حق أفراد الديفشرمة إلى أن ألغى السلطان سليم الأول (توفى فى 22 سبتمبر 1520 بعد أن حكم تسع سنوات) هذا الحظر . وتضاءلت ممارسة الديفشرمة شيئاً فشيئاً خلال القرن السابع عشر ، حيث يرجع آخر ذكر لها إلى سنة 1705 . **(المترجم)**

(10) تشمل أوقاف سوكولوفتش فى فيشجراد الجامع والحمَّام والحنفيات والجسر والدكاكين والخان ، الذى يمكن اعتباره مركزاً للقوافل (كروان سراي) لضخامته ، حيث كان يستقبل عدداً كبيراً من المسافرين مع خيولهم وبغالهم وإبلهم . **(المترجم)**

(11) بناه محمد باشا سوكولوفتش فيما بين 1571 و 1578 وهو من تصميم المهندس العثمانى الشهير سنان . وهو مشيد من الحجر على تسعة أقواس كبيرة بسبب أهميته لباقي المؤسسات ، إذ إن البلدة كلها ازدهرت بسببه . وربط هذا الجسر صربيا بشرقى البوسنة ووسطها ، أى أهم مراكز الدولة . ويعد جسر فيشيجراد خير مثل على اتفاق مصلحة الدولة الاستراتيجية والاقتصادية مع رغبة صاحب الوقف الخيرى الذى يبنى فى وطنه الأوقاف والمنشآت . **(المترجم)**



شكل 3-2 جسر على نهر درينا

كما أنه تذكر أبناء ديانته السابقة . فقد كانت الكنيسة الصربية فى العصور الوسطى مستقلة وكان لها بطركها الذى اتخذ من مدينة بيتش Pec فى إقليم كوسوفو Kosovo* الحالي مقراً له . (الكنيسة المستقلة ، كما سبق وأشرنا ، كانت تتمتع باستقلالها التشريعي ، وإن ظلت مرتبطة بالكنائس الأرثوذكسية الأخرى ، دون أن يحق لها تغيير مذهبها الذى ظلت حمايته بيد بطريرك القسطنطينية) . وتبعاً لطبيعة الفتح العثماني المتدرج ، أصبحت المنطقة التى كانت تسيطر عليها الكنيسة الصربية مقسمة بين عدة أساقفة رفيعي المقام . وفى الربع الأخير من القرن الخامس عشر كانت المناطق الصربية الجنوبية ، التى سبق سقوطها فى أيدى العثمانيين ، خاضعة لكبير أساقفة أوخريد Ohrid فى مقدونيا . وكانت منطقة أوخريد تشمل أبرشية بيتش ، التى هبطت مرتبة بطركها إلى

* أعلن المركز الإعلامى لكوسوفا فى نشرة بالفاكس على وسائل الإعلام فى ٢٧ مارس ١٩٩٨ بأن صحة أسم جمهوريــــة (كوسوفو) هى" جمهورية كوسوفا Kosova (المترجم)

أسقف وأصبح خاضعاً لأوخريد . أما البلاد التى فتحت بعد ذلك (شمال صربيا والبوسنة والهرسك والجبل الأسود Montenegro) فقد خضعت لأسقفية منفصلة . وفى عشرينيات القرن السادس عشر نشب صراع على السلطة بين الأسقفيتين تورط فيه بطريرك الأسقفية والعديد من المسئولين العثمانيين المحليين . وفى سنة 1557 تدخل الوزير محمد سوكولو وأنهي الموقف بإعادة بتش وأوخريد إلى وضعهما قبل الفتح . وبعد أن ألحق بهما أراضي أبرشياتهما التى كانت لهما قبل الفتح ، أوجد منصب كبيرأساقفةأوخريد (ويخضع له سلاف مقدونيا) وبطريركية بتش الصربية ، التى لم تسيطر فقط على أبرشياتها السابقة فيما كان يعرف بصربيا ، وإنما كل الأبرشيات الأرثوذكسية فى البوسنة والهرسك .





الشكلان 3-3 و 3-4 الأخوان سوكولوفيتش ، محمد (الوزير الأعظم العثمانى)

ومكاريى (بطريرك الكنيسة الصربية العائدة)

ومن الواضح أن محمداً حصل على حق تعيين كهنة بطريركية بيتش التى استعيدت حديثاً . وكان أول ثلاثة بطاركة ينتمون لعائلته ، أولهم شقيقه (مكاريي Makarje) ومن بعده اثنان من أبناء أخوته (أنتونيى Antonije وجيراسيم Gerasim) . كما تولى آخرون من أفراد العائلة منصب الأسقف فى الهرسك فى ذلك الوقت . وهكذا تذكر هذا البوسني الذى اعتنق الإسلام مجتمع طفولته (وخاصة عـــائلته) وأعلن عن إصلاح كان له أثر عظيم فى تحسين الظروف التى أمـــكن لأفراده أن يمارسوا فى ظلها شعائر مذهبهم الأرثوذكسى .

البوسنة كإقليم عثمانى

قُسمت البوسنة والهرسك بعد الفتح إلى ثلاثة ألوية منفصلة (أو سناجق Sandzak) تضمها ولاية (أو بكلربكليك Beglerbeglik) روميلى Rumeli الكبرى وتخضع للبكلربك (الوالي) فى صوفيا . والسناجق البوسنية الثلاثة التى يرأس كل منها سنجق بك[12] هى : البوسنة (وكانت قيادته أول الأمر فى سراييفو التى فُتحت سنة1451 ، أى قبل الفتح الرئيسى للبوسنة) وزفورنك Zvornik (التى كانت تشمل الجزء الشرقي من صربيا الحالية) والهرسك (التى أُنشئت قيادتها فى فوتشا سنة 1470 ثم نُقلت إلى بلفليا Plevlja سنة 1572 وظلت بها حتى سنة 1833) . وكان السلطان يُعين السنجق بكوات (وكذلك الحال بالنسبة للحكام العثمانيين ، أو البكلربكوات الأرفع مقاماً) الذين يبعث بهم من اسطنبول إلى البلقان لفترات حكم قصيرة نسبياً دون تحديد لفترة الولاية .

وفى حوالى سنة 1554 أعاد العثمانيون بناء هيكلهم الإدارى الإقليمى . وهنا ارتفعت مرتبة البوسنة لتصبح بكلربكليك [13] وأصبح حاكمها بكلربك [14] وسرعان ما أصبح يُسمى وزيراً أو والياً . ومع أن المؤرخين كثيراً ما يشيرون إلى صاحب هذا المنصب على أنه "باشا" وإلى البوسنة على أنها "باشليك" ، فإن لقب "باشا" كان رتبة رسمية (مثل "جنرال") وليس اللقب الذى يرتبط بحكم البوسنة . وتشير كلمة "باشليك" ببساطة إلى ممتلكات رجل ما يحمل لقب "باشا" . وهي لاتشمل فقط الأرض التى يحكمها ، وإنما أيضاً ضياعه الخاصة أينما كانت . وبناء عليه سوف نشير إلى الحاكم فيما بعد سنة 1554 بـ "وزير" . وظل كل من سنجق الهرسك وزفورنك يحكمها اثنان من السنجق بكوات بعد إعادة التنظيم الإدارى . ولكنهما نُقلا من سلطة بكلربك روميلي ليصبحا ضمن إقليم البوسنة الأشمل الجديد الذى كان وزيره يشرف على أنشطة السنجق بكوات . وكذلك أُلحق بالبكلربكليك البوسنية فى ذلك الوقت الأراضى العثمانية الواقعة إلى الغرب من البوسنة وتتكون من ثلاثة سناجق هى بيخاتش Bihac وليكا Lika وكليس Klis . واستمر وضع

---

(12) السنجق بك هو الرئيس العسكرى للمقاطعة ويعد مسئولاً كذلك عن الاشراف على النشاط الاقتصادى والإدارة الحضرية . كما أن عليه تأمين حسن سير العمل فى القضاء . وفى بعض الأحيان يجرى التحريات لحساب الإدارة المركزية . (المترجم)

(13) يتألف البكلربكليك (وتنطق كذلك بيلر بيليك) من دوائر ذات مستوى أدنى ، هي المحافظات (السناجق أو الألوية) ويرأسها سنجق بكوات لا يحمل علمهم سوى طوغ واحد . (المترجم)

(14) يحمل البكلربك لقب باشا والسلطة التي يمنحها السلطان له يرمز لها بلواء (سنجق) وهو يتكون من عصا طويلة على رأسها كرة من الذهب وتحمل طوغين . (المترجم)

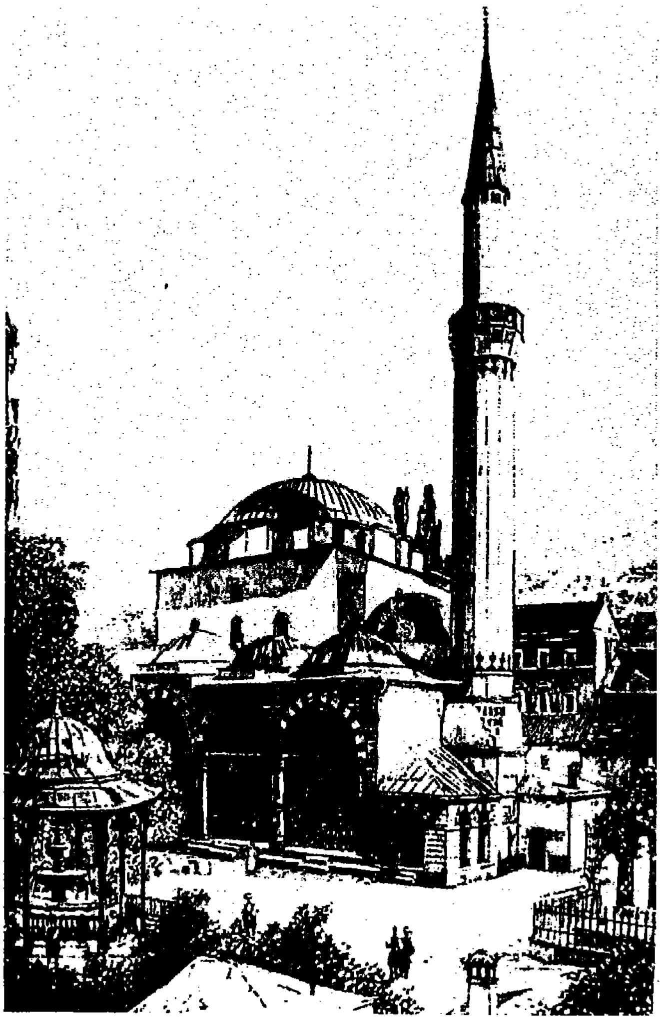
الأول والثانى كسنجق فترة قصيرة . وفى سنة 1700 كان وضع كليس وحده هو الذى لايزال قائماً على ما كان عليه، وإن تغيرت حدوده . وكان البكلربك (والسنجق بك على نطاق أضيق) يأتى لتولى منصبه بصحبة حاشية كبيرة من مسئولى الدولة (مثل الخزندار) الذين يعينهم السلطان . وكذلك القوات التى يخصصها له السلطان . إلى جانب أتباعه الشخصيين ، ومنهم حارس خاص مسلح وخدم شخصيون وكتبة . وكان البكلربك وهؤلاء المسئولون يشكلون معاً المجلس الحاكم المحلي (أو الديوان) . وكانوا مسئولين عن حماية الإقليم وعن القانون المحلى وعن جباية الضرائب وعن تجنيد المسلمين فى الجيش بالأعداد التى تطلبها الحكومة المركزية .

نمو سراييفو

وجدت البوسنة نفسها بعد الفتح منطقة حدودية واتخذ حاكمها (وكان وقتها سنجق بك) من فرخبوسنا مقرأً رئيسياً له . وكان مقر إقامته يسمى سراى Sarai . وبحلول نهاية القرن الخامس عشر أصبح يطلق على المدينة كلها سراييفو(15) . وفى عهد العثمانيين لم تتم سراييفو من بلدة صغيرة بها حصن إلى أكبر مدن البوسنة فحسب ، بل صارت كذلك واحدة من أكبر المدن فى أوروبا العثمانية وأكثرها أهمية . فكانت تضارع سالونيك Thessaloniki وادرنة Edirne من حيث الحجم والأهمية ولم يفقها سوى اسطنبول نفسها . وسرعان ما اكتسبت سراييفو كل ملامح أى مركز حضرى عثمانى . وأُنشئت أبهى مبانيها ، ومنها بيكوفاجامي Begova Dzamjia (مسجد البك) الرائع ، فى عهد الغازى خسرو بك Gazi – Husref Beg ، وهو القائد الجسور النابه الذى تولى حكم البوسنة ثلاث مرات كسنجق بك فى الفترة ما بين 1521 و 1541 . وأقيمت مؤسسات إسلامية دينية وتعليمية . وليس مستغرباً أن كثيراً من المسيحيين فى المنطقة دخلوا فى الإسلام عندما تبينوا قدر المؤسسات الإسلامية الحيوية الرائعة . إلا أن مسيحيين كثيرين فى المدينة وما حولها لم يحذوا حذوهم . وفى الفترة من 1515 إلى 1530 سُمح

(15) تقع سراييفو على نهر ميلياتسكا والذى وضع أساسها هو حاكم المنطقة الغربية عيسى بك اسحاقوفتش خرانوشتش . ويروى أنه أنشأ لنفسه قصراً (سراى) ثم أطلق على المنطقة المحيطة به "سراييفو بولى" (المنطقة الخاصة بالسراي) ثم اختصرت إلى سراييفو . ومن المؤكد أن ذلك حدث فى بداية النصف الثاني من القرن الخامس عشر وقبيل سنة 1462 ، وهو التاريخ الذى ظهرت فيه وصية وقفية عيسى بك التي تعد الوثيقة الأساسية الخاصة بإنشاء مدينة سراييفو . وفى أواخر القرن الخامس عشر أصبحت سراييفو من أهم مدن البلقان وبلغت ذروة تطورها المعمارى فى القرن السادس عشر . ويشهد على ذلك عدد الأحياء التى كانت تضمها المدينة وقتها . (المترجم)

للأرثوذكس ببناء كنيستهم فى المدينة . وظل هذان البناءان الدينيان الرائعان من القرن السادس عشر قائمين يؤديان وظيفتهما حتى سنة 1992 .



شكل 3-5 مسجد الغازى خسرو بك فى سراييفو



خريطة 3-1 الثلاثة سناجق التى استمرت زمنا طويلا فى ولاية

البوسنة (حوالى سنة 1560) : البوسنة وزفورنك والهرسك

وعندما اتسعت الإمبراطورية العثمانية لتشمل كرواتيا وتمتد إلى المجر (فُتحت بودابست سنة 1541) ، انتقل كرسى الحاكم إلى بانيالوكا Banja Luka بالقرب من الأحداث . وكان على البك ، الذى رُقى ليصبح لقبه بكلر بك / وزير أو والى حوالي سنة 1554 ، أن يتخذ له مقراً هناك فى الفترة من 1583 إلى 1640 . إلا أن سراييفو ظلت أهم المدن ، فيما يتعلق بالمؤسسات الدينية بما فيها التعليمية . كما رُقى قاضيها إلى مرتبة مُلاًّ Mulla سنة 1578 ، وهي الترقية التى جعلته يرأس سائر القضاة الشرعيين

فى البوسنة[16] . وبحلول سنة 1750 قُسِّمت البوسنة إلى تسعة عشر قاضيليك Kadilik (وهي مناطق المحاكم الشرعية التى يشرف عليه القضاه) . وكانت سراييفو ، وهي حتى ذلك الوقت أكبر مدن البوسنة ، مركزاً للتجارة والصناعة . وأُنشىء فيها تنظيم دقيق لطوائف التجار والصناع[17] . وكان مشايخ الطوائف من الأعيان المحليين الذين قاموا بدور فعال فى شئون المدينة ، ومعهم النخبة من مُلاَّك الأراضي المحليين إلى أن ألغت الحكومة المركزية الطوائف (التى كانت قد تحولت إلى قواعد للمقاومةالمحلية) سنة 1850. وكانت سراييفو تختلف عن سائر المدن البوسنية الأخرى لكون الصفوة الحضرية المحلية (التجار والمشايخ) تشارك فى المهام التى كانت صفوة ملاَّك الأراضي تحتكرها لنفسها فى العادة.

دور نخبة ملاَّك الأراضى
فى البوسنة

كانت أصول الكثير من عائلات نخبة ملاَّك الأراضي تعود إلى أفراد طبقة الجيش العثماني الذين حصلوا على أراضيهم مقابل الخدمة العسكرية . ولأنهم مقاتلون مسلمون على قدر نسبي من الثراء ، ولهم أتباع فى كثير من الأحيان ، فقد كانوا منذ البداية فى وضع يسمح لهم بالتأثير فى الشئون المحلية . وبمرور الوقت تمكن أفراد هذه الطبقة من حائزى الأراضي العسكريين بشتى السبل من تحويل حيازتهم المشروطة للإقطاعيات

(16) كان نشاط القضاة يتعلق فى المقام الأول بالمسلمين حيث كانت الدولة تعترف للطوائف غير المسلمة باستقلالها القضائي فى المجال المدني ومجال العقوبات . إلا أنه يظل بمقدور الذمي أن يلجأ إلى القاضي المسلم فى حالة نشوب خلاف بين اثنين من غير المسلمين ينتميان إلى طائفتين مختلفتين . وهذا اللجوء يعد وجوبياً فى أية قضية يكـون أحد طـرفيها مسلماً . (المترجم)

(17) كان أصحاب الحرف منظمين في طوائف تنظيماً إسلامياً أساسه نظام الفتوة الإسلامية الذى كان ذا علاقة وثيقة بالطريقة البكتاشية الصوفية التي أصبحت على مر الأيام قوة عقائدية إلى جانب السلطات الادارية والقضائية والعلماء . وقامت طوائف أصحاب الحرف على أساس اختيار الأعضاء وانتقائهم . فكان لا يسمح لفرد بعضويتها إلا بعد تقديم ما يكفي من أدلة على كفاءته وولائه الديني واخلاصه السياسي ، فضلاً عن مهارته الفنية . وتعمل كل طائفة على الحفاظ على مصالح أهل الحرفة والتضامن المهني المتعارف عليه . كما أنها تتولى توزيع المواد الأولية والمنتجات المستوردة وتتحكم فى الأسعار. وتتكون قاعدة الطائفة من المعلمين والعمال والصبيان وتحتل القمة القيادات المسئولة ، أى الشيخ والنقيب والدوعاجي والتشاووش والييت باشي والكتخدا الذين يساعدهم مجلس من قدماء العاملين فى المهنة (اختيارلار) . وتستتبع الطوائف صرامة معينة للحياة الاقتصادية ، لأن كل طائفة لها امتيازاتها الخاصة أو أماكن البيع التي لا يشاركها فيها غيرها أو أماكن الصنع القاصرة عليها . (المترجم)

(تيمار Timar)[18] إلى أملاك حرة تقريباً . كما استطاع الناجحون منهم زيادة إقطاعياتهم عن طريق الهبات والاغتصاب والشراء . وبذلك لم يكن مستغرباً أن الأثرياء منهم ، وبينهم كثيرون ظلوا يقومون بنشاط فعال فى الجيش ، كان بمقدورهم اكتساب نفوذ ضخم فى مناطقهم والسيطرة على تلك الأمور المحلية التى لا تشغل الحكومة نفسها بها . وكانت سراييفو استثناء ، لأن شخصياتها التجارية الرئيسية نجحت فى أن يكون لها من النفوذ ما يجعلها تشارك النخبة المالكة للأراضي فى السلطة المحلية .

القباطنة

كان الأكثر أهمية من بين المحاربين المحليين حائزى الأراضي يتولون قيادة الحصون المتناثرة حول البوسنة والهرسك فى مواقع عديدة ، حيث لم يكن العثمانيون قد أقاموا حاميات دائمة مشكلة من الجنود المحترفين . وقد حافظ هؤلاء ومعهم أتباعهم على النظام وحموا أراضيهم من غارات هابسبورج وقطّاع الطرق . وبذلك كان قادة الحصون البوسنية المحليون ، وكان الواحد منهم يحمل لقب قبطان Kapetan ، يشكلون جزءاً رئيسياً من هيكل الدفاع المحلى بمقتضى براءة Breat (أو مرسوم) تعيين صادر من السلطان .

ويبدو أن بعض القباطنة أعطوا لأنفسهم حق توريث شغل هذا المنصب . وفى القرن السابع عشر ، عندما وجدت البوسنة نفسها مرة أخرى إقليماً على حدود أراضي هابسبورج ، ازدادت أهميتهم . وفى سنة 1730 كانت هناك ثلاثون قبطانية Kapetanije فى البوسنة والهرسك . وبحلول سنة 1800 بلغ عددها ثمان وثلاثين . ولأن القباطنة كانوا رجالاً أقوياء محليين لديهم أتباع مسلحون ويتولون مسئولية النظام المحلى ، فقد أقاموا السجون واستطاعوا ، من خلال الشراء وأحياناً عن طريق الاغتصاب وغيره من الوسائل غير المشروعة ، أن يزيدوا حيازتهم من الأراضى . ولسنا بحاجة إلى القول بأنه أصبح لهم قدر كبير من النفوذ فى مناطقهم . وعندما لم يكن عليهم رقيب ، وهو ما كان عليه الحال

---

(18) كان الاقطاع العثمانى يقوم على النظام الاجتماعى المعروف بالتيمار ، وهو إقطاع لا يورث وانما يتقلده السباهي (الفارس المحارب) مقابل خدماته الحربية . وكان هذا النظام ، من وجهة نظر الفلاحين ، ذا مزايا عديدة . فالسيد الإقطاعى غالباً فى المعارك طوال موسم الصيف ، حيث ينكب على جمع الغنائم والأسلاب . وجعلت الطبيعة غير الوراثية للتيمار السباهى أقل اهتماماً بتوسيع رقعة ما يحوزه من أراض وأقل اكتراثاً بتكديس الثروة لورثته . (المترجم)

كثيراً ، كانوا "أمراء" مستبدين إلى حد ما . ولكن لأنهم كانوا مضطرين أيضاً للإنشغال بالحفاظ على استقلالهم فى مواجهة جور حكومة الدولة وتعديها ، رأى بعضهم أن هناك حاجة للدعم الموالي لهم من جانب أهل منطقتهم ، فأقاموا علاقات جيدة مع هؤلاء الذين كان يبدو لهم أن دعمهم ذو قيمة (فى بعض المرات كان بينهم هؤلاء المسيحيون الذين كانوا يوماً ضمن أتباع بعض القباطنة المسلمين فى القرن التاسع عشر) . وبذلك حددت هذه الحاجة الترخيص المحلي لبعضهم . ومع أن بعض القباطنة كانوا من أهل البلاد الذين يضعون يدهم على حصون معينة على مر أجيال عديدة ، كان هناك آخرون من تعيين الوزير البوسني. لهذا تشير السجلات خلال القرن الثامن عشر إلى تعيين الوزير للقباطنة وعزله لهم ونقلهم فى بعض الأحيان من حصن لآخر . وفى بعض الحالات كانت فترة بقائهم فى منصب معين قصيرة جداً .

دور المسلمين المحليين
فى البوسنة العثمانية

وعلى أى الأحوال ، فقد كان للنخبة المسلمة المحلية فى أوائل القرن السابع عشر ، حيث كان مقر الوزير فى مدينة بانيالوكا ، مع وجود نائب له فى سراييفو (التى كان يزورها كثيراً ويتولى تنفيذ بعض الأعمال الرسمية منها) دور متزايد فى الشئون المحلية .

ومع تحول ميزان القوى فى أوروبا ، بدأت عائلة هابسبورج فى الانتقاص مما حققه العثمانيون من مكاسب . وفى سنة 1699 ، وبمقتضى معاهدة كارلوفتس Karlowitz[(19)]، استردت عائلة هابسبورج معظم أراضي كرواتيا وأصبح نهر سافا الحد الفاصل بين الهابسبورج والعثمانيين . وقبل تلك المعاهدة بعدة عقود ، وفى سنة 1640 ، كان الوزير قد

---

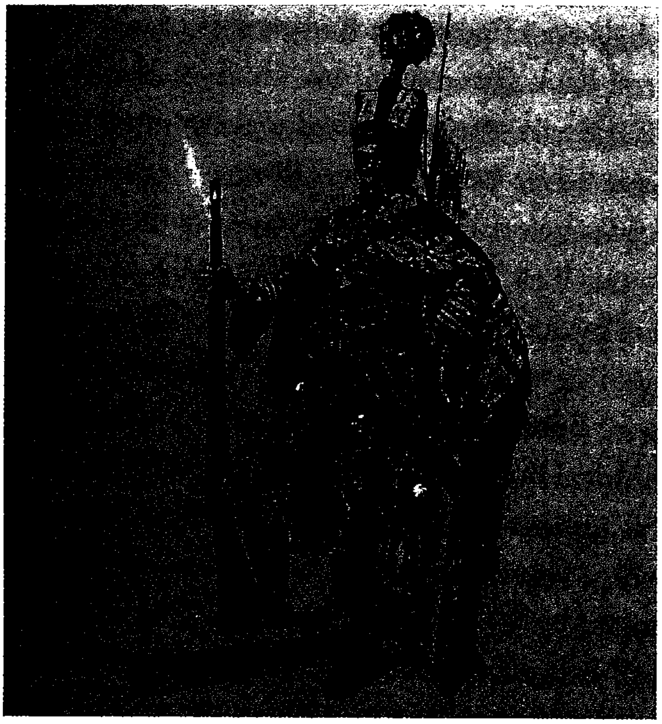
(19) فى أعقاب هزيمة جيش العثمانيين بقيادة الوزير قره مصطفى على يد جيش الدوق شارل دى لورين والجيش البولندى بقيادة الملك يان سوبيسكي فى 12 سبتمبر 1683 وتراجعه عن فيينا ، تعرض العثمانيون لسلسلة من الهزائم العسكرية أمام الامبراطورية النمساوية فى المجر وصربيا والبوسنة وأمام البنادقة فى دالماتيا والمورة . وحين هزم الجيش العثمانى هزيمة نكراء عند بلدة زنتا Zenta المجرية على يد قائد الجيش النمساوى الأمير أوجين دى سافوا حيث قُتل الصدر الأعظم ألماس محمد باشا ، أضطر العثمانيون للتوسل ، بكل ما تعنيه هذه الكلمة . فكان عليهم أن يقبلوا بنوداً صعبة فى معاهدة كارلوفتس التي أبرمت فى 26 يناير 1699 . وبناء على تلك المعاهدة تنازلت الدولة العثمانية عن كامل المجر العثمانى واقليم ترانسلفانيا ، ماعدا منطقة تمسفار الرومانية ، لدولة النمسا . كما تنازلت عن ميناء أزوف لروسيا وعن كاميتك وإقليمى بودوليا وأوكرانيا إلى مملكة بولندا وعن المورة وإقليم دالماتيا على البحر الأدرياتيكى وجزر بحر إيجة للجمهورية البندقية (فينسيا) . وبموجب هذه المعاهدة لم يعد للدولة العثمانية شمالى نهر الدانوب سوى مقاطعة تمسفار الرومانية على نهر البجا Bega . ويعد هذا أول تقطيع لأوصالها . (المترجم)

أعاد مقر حكمه إلى سراييفو . وبعودة البوسنة إلى وضع الإقليم الحدودى أصبحت على قدر كبير من الأهمية . وبما أن أعداداً كبيرة من أهل البلاد كانوا مسلمين ، كان للبوسنيين دور فعال فى الدفاع عن البوسنة وفى الجيش النظامي العثماني . وأدى ذلك إلى قيام الأعيان البوسنيين المحليين بدور فى الإدارة المحلية يفوق ذلك الدور الذى قام به أهل تلك المناطق التى كان عدد من اعتنقوا الإسلام فيها أقل . وكان الوزير يشاور الأعيان المحليين بشكل منتظم . واعتباراً من سنة 1735 كانوا يحضرون اجتماع كل البوسنيين مرة كل سنة على الأقل مع ديوانه . ولا ينبغي للمرء أن يبالغ فى قدر التشاور : فهناك ما يدل على أنه فى إحدى المناسبات استدعاهم الوزير ، كإحدى الوسائل الفعالة لإبلاغهم بالأوامر التى كان ينتظر منهم تنفيذها . بل إن الوزراء والمسئولين على مستوى الأقاليم ظلوا من الأجانب الذين تعينهم الحكومة المركزية . إلا أنه من الواضح أن الحكومة العثمانية حاولت عدم إيذاء مشاعر المسلمين المحليين ، الذين كانوا يدافعون عن أرضهم بحماس شديد فى مواجهة عائلة هابسبورج المسيحية على حدودهم . لذلك يُفترض أن مسئولي الدولة لم يدققوا فى مراقبة العلاقة بين ملاَّك الأراضي المحليين من المسلمين وفلاحيهم المسيحيين ، بل كان للأعيان المحليين دور كبير فى حكم المدن (غالباً فى المجالس المحلية) .

الإنكشارية[20]

بحلول القرن الثامن عشر شملت الصفوة المحلية فى العديد من المدن الكبرى ، وخاصة البوسنة ، الإنكشارية . وكان هؤلاء الإنكشارية ، الذين لم تعد تنشئتهم تتم من خلال الديفشرمة ، قد أصبحوا طائفة وراثية من الجند . كما كانوا أيضاً فى ذلك الوقت لايُنقلون من مهمة عسكرية إلى أخرى إلا فيما ندر . وكانت نتيجة ذلك أن كثيراً منهم أصبحوا مرتبطين ارتباطاً دائماً بحامية بعينها . وفى سنة 1751 كان 961 منهم يتولون

(20) أنشأ هذا النظام السلطان أورخان بن عثمان ابن أرطغرل(تولى الحكم من 1326 إلى 1360) باقتراح من أخيه علاء الدين الذى كان وزيره . وعهد علاء الدين بمهمة تنظيم هذا الجيش إلى قاضي عسكر جندرلى قره خليل . والاسم الأصلي هو " ينى تشار " أو " ينى تشرى " ويقال أن أول من أطلقه عليه الحاج بكتاش شيخ الطريقة البكتاشية ، وذلك إثر دعائه لهم بالبركة والنصر . ويعتمد النظام على فضل أبناء المسيحيين فى البلاد المفتوحة عن ذويهم وتربيتهم على الدين الإسلامي بحيث لا يعرفون بعد ذلك أباً لهم سوى السلطان ولا حرفى إلا الجهاد فى سبيل الله . والانكشارى الذى يكون له دور مميز يحصل على تيمار. والأوفر حظاً من الانكشارية ، ومن يبدى منهم قدرات خاصة ، يصبح من كبار وجهاء الدولة وقد يتولى منصب الصدر الأعظم . (المترجم)



شكل 3-6 أحد قادة الإنكشارية من القرن الثامن عشر

الدفاع عن حصن سراييفو . ومع أنهم كانوا من أهل البلاد ، فقد كان أغاهم (أو قائدهم) يبعث به السلطان من اسطنبول . وفى كثير من الأحيان كان يجد نفسه محاصراً بين مسئولياته العسكرية والتوجيهات التى يتلقاها من السلطان أو الوزير البوسنى . وكان الإنكشارية يشاركون مشاركة كبيرة فى التجارة وتملك الأراضي . ولأنهم كانوا مسلحين وتصعب السيطرة عليهم ، كما كانوا فى العادة أكثر اهتماماً بأنشطتهم الإقتصادية من القتال ، فقد أخذت فائدتهم للدولة كقوة عسكرية تقل شيئاً فشيئاً . ولأنهم كانوا يحصلون على مزاياهم الكثيرة بالوراثة ، فقد كان فى البوسنة 78 ألفاً منهم وكان 16 ألفاً منهم مسجلين ويتقاضون الرواتب (التى كانت فى الغالب لا تدفع لهم لسنوات) ومن ثم كانوا مطالبين بأداء الخدمة من الناحية النظرية . كما كانوا يقاومون التدريب . وعندما كانوا يخرجون فى إحدى الحملات ، لم يكونوا منظمين وكانوا يعيشون فى فوضى . وكانت تلك مشكلة خطيرة أثناء حملتهم ضد النمساويين داخل البوسنة .

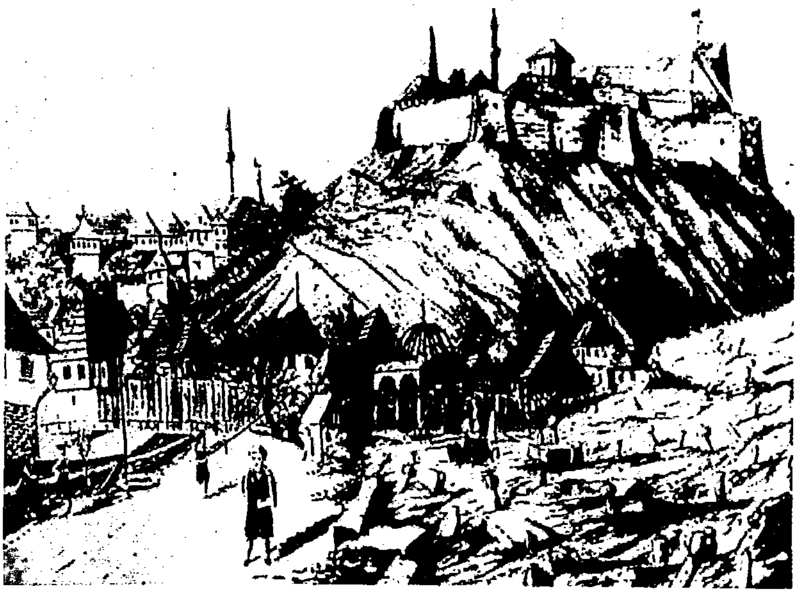


شكل 3-7 أحد قادة حرس الوزير البوسني ، حوالى 1730

الـوزراء يـنـتـقـلـون إلـى ترافنك

فى سنة 1698 انتقل الوزير إلى مدينة ترافنك Travnik الصغيرة . ويفسر معظم الباحثين اليوغوسلاف هذا على أنه انتصار للمسلمين البوسنيين المحليين (وخاصة أهل سراييفو) على الوزير والحكومة المركزية . ولأنهم يرون هذا الإجراء على أنه نفي للوزير ، فهم يقولون إن السرايليي Sarajlije (وهو ما يشير به أهل سراييفو إلى أنفسهم) أداروا مدينتهم والإقليم التابع لها بأنفسهم مع قيام نائب الوزير بأقل دور ممكن . ولا ندرى سبباً لتغيير الوزير لمقر إقامته ، وإن جاء قيامه بذلك فى أعقاب غارة نمساوية كبيرة سنة 1697 أدت إلى احتراق جزء كبير من سراييفو . ومن المفترض أن الحاجة إلى مقر جديد هي مادفعه إلى الانتقال . ولكن ربما كان من المتوقع أن يكون ذلك انتقالاً مؤقتاً لحين إعادة بناء مقره فى سراييفو . وعلى عكس الفكرة التى تقول بأن نخبة سراييفو المحلية عقدت العزم على تأكيد وجودها ومنع الوزير من إعادة تشييد مقره فى المدينة ، هناك حقيقة تشير إلى أن الوزراء طوال القرن الثامن عشر كانوا فى الغالب من الشخصيات القادرة

التى حققت مهامها الرئيسية من جباية للضرائب وتجنيد للجنود بصورة فعالة . وبذلك كانوا يحصلون على ما تريده الدولة . ومن المفترض أنهم إذا كانوا يرغبون فى العودة إلى سراييفو لفعلوا ذلك . وبما أن الأمور كانت تسير على ما يرام معظم سنوات القرن الثامن عشر ، مع إقامة الوزير فى ترافنك ، فلم يكن هناك أى سبب يدعوه للإقامة فى سراييفو .



شكل 3-8 رسم من القرن التاسع عشر يبين ترافنك مقر الوزير البوسنى

من 1698 حتى 1850

والأمر الذى يستحق التأكيد ، فيما يتعلق بالقضايا الرئيسية الخاصة بتدعيم الإسلام والدفاع عن الإقليم فى مواجهة الأعداء المسيحيين ، هو اشتراك الوزير والأعيان فى اهتمامات متشابهة . لذلك فقد يكون من المناسب النظر إلى التعاون بين الوزير وأعيان سراييفو على أنه نموذج خاص بالقرن الثامن عشر ، وليس تنافساً أوصراعاً .

توترات بين المسلمين المحليين والدولة العثمانية

كان لابد فى القرن التاسع عشر من تبدل الأحوال وأن يصبح نموذج الصراع بين

البوسنيين والدولة المركزية (ممثلة فى الوزير) أكثر احتمالاً . فى ذلك الوقت بدأت الدولة العثمانية ، التى كانت تسعى إلى الحيلولة دون انهيارها وإلى الحفاظ على السلام مع القوى العظمى التى كانت تطالب بحقوق المسيحيين ، برنامجاً للإصلاح . وكان الكثير من هذه التغييرات يهدد سيادة المسلمين فى المجتمع ويلقى معارضة المسلمين العثمانيين (وبينهم معظم البوسنيين البارزين) . كما رأوا أن الكثير من الإصلاحات سوف يضعف الدولة بدلاً من أن يقويها ، كما أغضبهم تهديد القوى المسيحية الكبرى لهم . يضاف إلى ذلك أن بعض الإصلاحات انتقصت من مزاياهم المحلية . ومن بين أشياء أخرى قصد بها السلطان تقوية دولته ، كان سعيه إلى ترشيد حكومته ووضع معايير ثابتة لها . وكان يسعى بصورة خاصة إلى تحديث جيشه . وأى نظام ذى معايير ثابتة يُدار من المركز كان سيضيق الخناق على قوات الدفاع الخاصة ، كتلك التى لدى بعض القباطنة . وربما أمعن النظر فى الألقاب الحائزة على الأراضي . بل إن الانكشارية رفضوا قبول أى من التغييرات المقترح إجراؤها على وضعهم ومهامهم . ولذلك انتهي الأمر بالسلطان إلى أن



شكل 3-9 رسم من التاسع عشر يبين ستولاتس فى الهرسك
ويظهر فيه حصن على باشا رضوان بيجوفيتش

قرر سنة 1826 ، وبعد تهديدات وطول تفكير، إلغاء هذا النظام بالكامل . إلا أن الإنكشارية فى البوسنة رفضوا هذا الفرمان. وبصفتهم جزءاً من النخبة المحلية، فقد حصلوا على قدر كبير من التعاطف مع قضيتهم.

وهكذا نجد أن البوسنة فى مناسبات عديدة فى تلك الفترة (وخاصة بعد حظر الإنكشارية) قاومت بشدة تنفيذ الإصلاحات . ونتيجة لذلك كان الوزراء يُرسَلون ومعهم أتباع مسلحون لحمايتهم وأوامر لتنفيذ تلك الإصلاحات . ووقعت مصادمات عديدة بين الوزراء وأهل البلاد . ومن ثم نجد فى تلك الفترة ، وخاصة فى الربع الثانى من القرن التاسع عشر ، أن هناك توتراً متزايداً وعدداً كبيراً من المصادمات بين الوزير (والدولة العثمانية التى يمثلها الوزير) وأهل البلاد البوسنيين الذين رأوا فى الإصلاحات تهديداً لأسلوب الحياة المعتاد . كما أنهم شعروا أنها تضعف الدولة ومكانة الإسلام فيها . وهكذا نجد أن صورة الوزير المعزول فى ترافنك ، بينما السرايليي يتصرفون بالطريقة التى تحلو لهم فى المدينة إلى أن يفقد وزير (أو سلطان) تملك منه الغضب صبره ويتخذ إجراء عسكرياً (يكون ناجحاً تارة وتقل فرص نجاحه لنقص الجنود تارةً أخرى) ، صورة صادقة عن تلك الفترة . وذكر القناصلة الفرنسيون فى تلك السنوات ، وكانوا يقيمون أيضاً فى ترافنك ، وربما بشىء من المبالغة ، أن السرايليى لم يكونوا ليطيعوا أوامر الوزير لولم يقرها مجلس المدينة . ذلك أن المدينة كانت جمهورية أقلية تفعل ما يحلو لها وما لايرضاه الوزير . وإذا لم يكن الوزير مزوداً بقوات إضافية فإن نفوذه يظل قاصراً على ترافنك ، حيث كان يجلس متجهماً مع جنوده الألبان .

وكان على الدولة العثمانية أن تسير فى ذلك الطريق شديد الحساسية كي تحقق ما تريد دون استبعاد البوسنيين استبعاداً تاماً ، حيث إن ولاءهم للإسلام قد يشجعهم على الانفصال كما فعل المسلمون الأقوياء فى بعض الأقاليم الأخرى الواقعة على مسافة بعيدة من المركز فى تلك الفترة (مثل على باشا Ali Pasha فى يانينا Janina وباسفان أوغلو Pasvanoglu فى فيدين Vidin) . بل كان هناك الكثيرون من المسلمين المحافظين فى اسطنبول الذين كان لبعضهم نفوذه فى القصر وكانوا يتعاطفون تعاطفاً شديداً مع البوسنيين.وهكذا نجح هؤلاء فى بعض الأوقات فى اتخاذ قرارات فى مصلحتهم ، أو تآمروا فى القصر ضد الوزير المبعوث لتنفيذ الإصلاحات فى البوسنة . وعليه ، فإن لم يكن هناك أمر جلل معرض للخطر ، لم تكن الدولة تخاطر عادة بشن هجوم تحشد له كل

طاقاتها . إلا أن الدولة اعتبرت إلغاء الإنكشارية أمراً جللاً . وقد تدخلت بقوات من الخارج وبكثير من العنف ، بما فى ذلك تنفيذ أحكام بالإعدام على نطاق واسع ، ونفذت سياستها . ومع أن عدداً قليلاً من الإنكشارية الأفراد ظلوا على قيد الحياة ، فقد قُضى على تلك الفرقة كهيئة منظمة في البوسنة بحلول نهاية 1827 . والواقع أن كل تدخل (وخاصة إذا كان العنف مستخدماً فيه) كان يخلف ميراثاً من الضيق والعداء فى نفوس المسلمين من أهل البلاد ، مما يجعل مسألة قبولهم لأى إصلاح جديد ، أو حتى تقديم العدد المطلوب منهم من الجنود ، أمراً أقل احتمالاً .

وحقيقة الأمر أنه بعد القضاء على الإنكشارية ، كان العثمانيون بحاجة إلى تكوين جيش جديد. وعندما حاولوا تجنيد بوسنيين لهذه القوة سنة 1830 ، أشعل حسين قبطان Husein Kapetan ثورة ضخمة احتاج العثمانيون إلى ثلاث سنوات لإخمادها . والواقع أنها لم تُخمد إلا عندما ألقى على باشا رضوان بيجوفتش Ali Pasha Rizvanbegovic قبطان ستولاتس Stolac القوى فى الهرسك بثقله وراء الوزير . وكان الثمن الذى تقاضاه لقاء ذلك فصل الهرسك عن البوسنة كولاية قائمة بذاتها ، على أن يكون هو الوزير ويكون له حق توريث منصبه .

وبما أن معظم القباطنة أيدوا ثورة حسين ، فقد أرسل السلطان سنة 1835 وزيراً جديداً إلى البوسنة يحمل أوامر بإلغاء القبطانيات وإنشاء مناطق إدارية جديدة خاضعة للرقابة المركزية فى هذا الإقليم . وأدى هذا الأمر إلى نشوب المزيد من الحروب التى انتصرت فيها الدولة . وكانت نتيجة ذلك إلغاء القباطنة ومناطقهم بحلول سنة 1837 . ونُفى القباطنة الذين ظلوا على قيد الحياة إلى الأناضول ، وشعر من بقى بعدهم من عائلات وأصدقاء بمزيد من النفور من الحكومة المركزية وبرنامجها الإصلاحى . وبعد كل هذه الحروب والاشتباكات اللاحقة فى أربعينيات القرن التاسع عشر وفى سنة 1850 ، وما صاحبها من محاولات على المستوى الدبلوماسى ، أقلعت الدولة العثمانية عن مسعاها ، أو لنقل إنها فعلت ذلك على الورق على أقل تقدير . إذ إن بعض الإصلاحات التى اعتبرها بعض المسلمين المحافظين شديدة الاستفزاز (وخاصة تلك التى أعطت المسيحيين حقوقاً أو أتاحت لهم المشاركة فى مجالات كان يحتكرها المسلمون حتى ذلك الوقت) لم تُطبق قط فى البوسنة . إلا أن الوزير لم يعمِّر مقره فى سراييفو من جديد . وفى تلك الصدمات التى

سبقت سنة 1850 كانت المواجهة بين أهل البلاد المسلمين (وكانوا أيضاً محافظين مدنيين) ضد الدولة التى تسعى إلى شىء من التحديث . ولكن الأمر لم يخرج عن كونه طرفاً مسلماً ضد طرف مسلم آخر . صحيح أن بعض المسيحيين شاركوا فى ذلك ، ولكنهم فعلوا ما فعلوه بصفتهم أتباعاً للمسلمين المحليين .

ثورات الفلاحين

بعد سنة 1850 أدت مجموعة من الإصلاحات (التى كانت تطالب الفلاحين حينذاك بمزيد من الانتظام فى دفع الضرائب[21] نقداً لا عيناً ، مما زاد الأمر مشقة عليهم) إلى جانب عدم رغبة الدولة فى مزيد من استعداء الأعيان من ملاّك الأراضى المحليين الذين يشعرون بنفور شديد منها (بإعادة النظر فى العلاقة بين ملاّك الأراضى والفلاحين) إلى سوء أوضاع الفلاحين . وفى الفترة التى تلت 1850 كانت نتيجة ذلك أن تغير نمط الفوضى فى البوسنة . فحتى سنة 1850 كانت الاضطرابات تثير فى العادة الصفوة المسلمة المحلية ضد سلطة الحكومة المركزية . ولكن فى السنوات التى أعقبت 1850 اتخذت القلاقل شكل ثورات[22] يقوم بها الفلاحون (وهم مسيحيون فى الغالب) ضد الملاّك المحليين والمسئولين المحليين. وأصبحت تلك الثورات ، التى تبدأ فى إحدى المناطق ثم تمتد إلى غيرها ، أكثر حدوثاً وأوسع انتشاراً . إلى أن انتهي الأمر باندلاع ثورات ضخمة سنة 1875. وأدت انتفاضة 1875 إلى تدخل القوى العظمى الذى وضع البوسنة تحت احتلال النمساوى سنة 1878 .

وضع المسيحيين البوسنيين
فى ظل حكم العثمانيين

بالنظر إلى الصراع الدائر حاليا فى البوسنة ، فإن أهم جوانب العصر العثماني هي

(21) كان الفلاحون المسيحيون مكلفين بدفع ضريبة الرأس والاسبنجى . وكانت ضريبة الرأس تعود للدولة وتُترك ضريبة الاسبنجي للمسئول عن التيمار . وتحل الضريبة الأخيرة لدى المزارعين المسيحيين محل رسم الانتفاع الواجب أداؤه على الفلاحين المسلمين . ويستفاد من سجلات ضريبة الرأس فى القرن السادس عشر ، فى مجمل البلقان ، أن حالات التحول إلى الإسلام لم تتجاوز ما بين مائة وثلاثمائة حالة فى السنة الواحدة . وهذا يعنى أن حركة التحول إلى الإسلام لم تكن بالسرعة الكبيرة التي قال بها البعض . فهى على العكس من ذلك كانت بطيئة وتدريجية ، حيث وصلت أولاً إلى المدن والأرياف المحيطة بها . وفى سنة 1489 لم تكن الأسر المسلمة أكثر من نحو 4500 أسرة مقابل 25 ألف أسرة مسيحية . إلا أنه فى عهد السلطان سليمان القانونى كان مجموع اقطاعيى البوسنة قد أنجز تحوله إلى الإسلام . **(المترجم)**

(22) قامت حركة ثورية فى الهرسك سنة 1861 قدم لها الأمير نيقولا أمير الجبل الأسود المساعدة انتقاماً من الدولة العثمانية ، إلا أن عمر باشا نجح فى اخمادها . **(المترجم)**

تلك المتعلقة بالأمور الاجتماعية ووضع المسيحيين فى البوسنة العثمانية . والأمر الأكثر أهمية هو تلك الحقيقة الساطعة الخاصة بغلبة الإسلام فى ظل العثمانيين . وبذلك حكم المسلمون المسيحيين . يضاف إلى ذلك أنه طالما كانت هناك أعداد كبيرة من السكان المحليين الذين اعتنقوا ديناً جديداً ، فقد كان دور المسلمين فى الإدارة المحلية أكبر بكثير مما كان عليه الحال فى كثير من المناطق العثمانية الأخرى . بل إن كثيرين من أهل البلاد تمكنوا من حيازة أراض زراعية شاسعة . وبذلك وجد المسيحيون أنفسهم خدماً فى ضياع المسلمين . ومع انهيار الإمبراطورية العثمانية تلاشت قدرة الحكومة المركزية على مراقبة الظروف المحلية . وفى الوقت نفسه ساءت العلاقة بين المالك والمستأجر ، إلى أن تدهورت فى نهاية الأمر ، كما أسلفنا ، إلى حد قيام الفلاحين المسيحيين بالثورات التى أدت آخرها وأكبرها (1875–1878) إلى تدخل القوى الكبرى ونهاية الحكم العثماني . بل وصل الأمر فى بعض مناطق البلقان الأخرى (ماعدا ألبانيا) إلى طرد طبقة ملاَّك الأراضى المسلمين (وهي فى العادة عنصر أجنبى بشكل أساسي) عندما قُضى على الحكم العثمانى . أما فى البوسنة فإن بعض هؤلاء الأفراد لم يظلوا فيها وحسب ، بل احتفظوا بمكانتهم فى المجتمع بعد انتهاء الحكم العثماني ، لأنهم من أهل البلاد ولأن المحتلين النمساويين الجدد كان يرغبون فى احتفاظهم بنفوذهم لمواجهة نفوذ الصرب بأعدادهم الكبيرة ، وهم الذين اعتبرهم االنمساويين بحق الطائفة الأكثر احتمالاً لمناوأة الحكم النمساوى . والواقع أن النمساويين أقروا نظام ملكية الأراضي العثمانى (مع القنانة) وكثيراً من النظام القضائي التركي السابق .

وفى ظل الحكم التركى ، كان المسيحيون واليهود (الذين يعتبرهم الإسلام من أهل الكتاب) يُعاملون بتسامح . وكان الأرثوذكس واليهود يُعرفون بأنهم أعضاء اثنتين من الطوائف المعترف بها التى تحكم نفسها بنفسها ، وكانت كل منها تُعرف بالملَّة Millet . ولم يكن الكاثوليك ينتمون إلى طائفة تمتد عبر الإمبراطورية ، إلا أن طوائف كاثوليكية محلية بعينها ، بما فى ذلك كاثوليك البوسنة ، حصلت عى فرمانات تعطي وضعها الشرعية . وهكذا كان المسيحيون يُصنَّفون على أنهم كاثوليك أو أرثوذكس ، وليس بصفتهم منتمين إلى جماعتين

عرقيتين . وحصل الفرنسيسكان [23] سنة 1463 على فرمان من السلطان يعطي الشرعية لبعثتهم ولوضع شعبهم الكاثوليكي . ومع أن الصرب عانوا من المعوقات العامة التى فُرضت على كل من ليسوا مسلمين (كما سنرى لاحقاً) ، وظلوا ، كما أسلفنا ، يعانون من الغبن حتى القرن التاسع عشر (عندما هبت حركة الإستقلال الصربية) مقارنة بالأرثوذكس ، فقد ظل كاثوليك البوسنة طائفة معترفاً بها من الناحية الشرعية تخضع لإدارة الفرنسيسكان . وجدير بالذكر أن الفرنسيسكان فى البوسنة كانوا فى معظمهم كرواتاً من كرواتيا أو بوسنيين تلقوا تعليمهم فى كرواتيا . وبدأ ظهور الأفكار القومية فى كرواتيا فى القرن التاسع عشر . وأدى ذلك إلى إصابة فرنسيسكان كثيرين من أصول كرواتية بعدوى تلك الأفكار . فى حين أصابت ذوى الأصول البوسنية فى كثير من الحالات أثناء دراستهم فى كرواتيا . وكانت النتيجة أن الفرنسيسكان الذين كانوا يعملون بالتدريس فى البوسنة والهرسك ، وبأعداد متزايدة بمضي سنوات القرن ، قد أصبح لديهم إحساس قوى بالهوية الكرواتية والأمل فى أن البوسنة قد تتوحد يوماً ما مع كرواتيا . وليس مستغرباً أن مدارسهم فى تلك الفترة أخذت تروج للقومية الكرواتية بنفس قدر ترويجها للكاثوليكية . لذلك فإنه حتى قبل الاحتلال النمساوى كان بعض تلاميذها قد أصبح لديهم إدراك قوى بأنهم كروات إلى جانب كونهم كاثوليك . وظلت القومية المتشددة (التى كثيراً ما تصبح شوفينية) أحد ملامح فرنسيسكان البوسنة حتى وقتنا الحالي ، كما يتضح فى ارتباط كثيرين منهم ارتباطاً وثيقاً بالأنشطة الرهيبة التى تميز بها نظام الأوستاشا Ustasha الكرواتى (فى كل من كرواتيا نفسها والبوسنة) إبان الحرب العالمية الثانية.

وكان الأرثوذكس جزءاً مما يسمى بالملة الأرثوذكسية . وسمح العثمانيون للملل المختلفة بحكم نفسها بموجب قوانينها وتحت قيادة زعمائها ، مع قدر ضئيل من التدخل فى شئونها ، طالما أنها تدفع الضرائب ولا تحدث أية اضطرابات . وكان على رأس الملة الأرثوذكسية بطريرك القسطنطينية الذى كان ، فى أعقاب إلغاء بطريركية بيتش المستقلة سنة 1766 ، يرعى الكنيسة الأرثوذكسية فى البوسنة رعاية مباشرة ويعين أساقفتها

(23) طائفة دينية تتبع تعاليم القديس فرنسيس دى أسيسى . والفرنسيسكان الأوائل كانوا يتبعون مثالاً يقوم على الفقر التام . فكانوا لا يمتلكون شيئاً ملكية فردية أو جماعية وكان محظوراً عليهم تلقي الأموال وكانوا يعيشون على ما يكتسبونه من عملهم اليومى . وبعد وفاة القديس فرنسيس (1226) انتشروا من إيطاليا إلى أنحاء أوروبا . وعندما بدأوا الدراسة والعيش فى الجامعات كان عليهم أن يعدلوا مثالهم الصارم الخاص بالفقر . **(المترجم)**

ويُحصل ضرائب الكنيسة من البوسنيين . وعلى المستوى المحلي كان الأسقف ومجلسه (المكون من رجال الدين البارزين وبعض الأعيان العلمانيين) مسئولين عن الطائفة المحلية. وكان للأسقف محكمة لم يقتصر عملها على معالجة الأمور الدينية أو التى لها علاقة بالدين (كالزواج والميراث) ، وإنما تعاملت أيضاً فى القضايا المدنية فيما بين شعبه.

وكان تعليم الملة الأرثوذكسية أيضاً مسئولية زعماء الكنيسة المحلية . ولسنا بحاجة إلى القول بأن نقص الأموال ورداءة نوعية الاكليروس الذين حملوا المسئولية كان معناه أن التعليم لم يكن متاحاً فى كثير من البقا ع . وكانت المراكز الأسقفية وحدها يُعتمد عليها فى توفير المدارس التى كانت نوعياتها تتوقف على مدى اهتمام الأسقف المعني بذلك . وبما أن أساقفة قليلين كان لهم اهتمام كبير بالتعليم ، فنادراً ما كانت المدارس التى بلغت مستويات معينة قادرة على تحقيق أى قدر من الاستمرارية . وكانت فى أحيان كثيرة تتدهور أحوالها ، بل وتُغلق أبوابها فى أعقاب وفاة الأسقف المحدد الذى كان يهتم بها أو رحيله . وعندما استعاد بطريرك القسطنطينية سيطرته على الأبرشيات السلافية سنة 1766 ، شرع فى تعيين أساقفة لها من اليونان(24) . وكان عدد قليل من الاكليروس اليونانى الذى عينه يعرف أياً من اللغات السلافية . وكان عدد أقل منهم لديه اهتمام ما برعاية المدارس التى تستخدم اللغة المحلية فى التعليم . وبذلك لم يكن التعليم فى أغلب الأحيان متاحاً إلا لأطفال المدن . وحتى فى المدن كان فى الغالب لا يتوفر إلا على مستوى المدرسة الابتدائية . وبتخلى الأساقفة عن التعليم بدأت المدارس فى الاعتماد على دعم أبناء الطائفة الأرثوذكسية فى المدينة من العلمانيين . وكانت المدن التى بها مجموعة من التجار الأرثوذكس الناجحين والأثرياء بعض الشيء ومشايخ الطوائف وحدها القادرة على إنشاء المدارس من أى نوعية وصيانتها لتعليم أطفالها . وفى القرن التاسع عشر كان كثيرون من مدرسي مدارس المدن ، الذين تأثروا بالإمارة الصربية التى تمتعت حديثاً بالحكم الذاتى والواقعة على الجانب الآخر من نهر درينا ، يعتبرون أنفسهم صرباً ويعلمون

(24) أدى جعل الباب العالي بطريرك الأرثوذكس منذ عهد السلطان محمد الثاني شريكه المسيحي المميز إلى تدعيم الهيمنة اليونانية على جميع الكنائس القومية القديمة . وبذلك حلت اليونانية محل السلافونية شيئاً فشيئاً فى أداء الشعائر . كما حُرِّقت كتب الشعائر المكتوبة بالسلافونية . وحل اليونانيون محل البلغار والصرب والرومان فى المراكز الأسقفية والمطرانية ورئاسة الأديرة . (المترجم)

من عُهد إليهم بتربيتهم أن كون الإنسان أرثوذكسياً يعني أنه صربي . وبمرور سنوات القرن ، وبما طرأ على الدولة العثمانية من انهيار أكثر وأكثر ، أصبح لدى الكثيرين من الأرثوذكس ، وخاصة أهل تلك المدن التى بها شيء من التعليم ، أمل فى التحرر من العثمانيين والاتحاد مع صربيا .

وعلى أية حال ، فقد كان التعليم ونظام المحاكم المدنية فى أيدى الطائفة ، حيث يديرهما زعماء الملة المحليون وكبار رجال الدين وكذلك الأعيان من العلمانيين بقدر ما لديهم من مؤهلات . وحيث إن الدولة لم تضع نظاماً للمدارس العامة ، كانت مهمة السلطة الكهنوتية الأرثوذكسية والفرنسيسكان والحاخامات المحليين توفير ما ينبغى لطوائفهم من التعليم ، أياً ما كان ، ومن القضاء المحلى . ولسنا بحاجة إلى القول بأن عدم وصول الطوائف غير المسلمة إلى المهن التى تدر دخلاً (بخلاف الحرف والتجارة التى كانت متاحة لهم) كان يعني نقص الموارد بالقدر الذى لا يتيح تلبية تلك الاحتياجات .

وكان النظام الدينى الإسلامى للمحاكم والمدارس ، الذى تدعمه الدولة ومؤسسة ملاَّك الأراضي المسلمين الأثرياء ، هو فقط الذى لديه الدخل الكافى لإيجاد نظام للمدارس . وكان الكثير من المساجد والمدارس قد أقامه محسنون من الأفراد وكان يُنفَق عليه من الهبات والأوقاف الكثيرة غير محددة المدة ويشرف عليه فى الغالب ورثة من تبرع بها ويراقبها الزعماء الدينيون المسلمون. ومع أن تلك المدارس قد أُجرى عليها ما يكفي من الأوقاف فى بعض الأحيان ، فإن أى ناقد حديث سوف يجد أن نظام المدارس الإسلامية قاصر ، لأن منهجه كان دينياً إلى حد كبير ويقوم على التعليم بالتلقين .

وفى بعض الأحيان استفاد المسيحيون من المؤسسات القضائية الإسلامية . فعلى سبيل المثال ، رفضت كل من الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية إتمام الزيجات المختلطة (التى كان بوسنيون كثيرون ، وقتها والآن ، ممن يرتفعون فوق حدود الطائفة الضيقة ، يرغبون فى عقدها) أو الزواج مرة أخرى بعد الطلاق . ولم يكن لدى القضاة أية مشكلة فيما يتعلق بتقديم خدمات فى مثل هذه القضايا . وبذلك أثبتوا أنهم على قدر كبير من الفائدة للمسيحيين البوسنيين ، الذين لم يكن كثيرون منهم يقبلون تعاليم الكنيسة التابعين لها بأن الزواج سر مقدس . وفى إحدى الحالات سنة 1618 أقر قاضي فوتشا Foca مشروعية إحدى الزيجات التى كان العريس فيها كاهناً كاثوليكياً.

وعندما أرادت السلطات العثمانية التعامل مع الأرثوذكس تعاملت مع زعيم الملة : الحكومة المركزية مع بطريرك القسطنطينية والوزير المحلي مع الأسقف المحلى والنظير العثمانى لمسئول الأمن فى المدينة الصغيرة أو القرية مع الكاهن المحلى . ومن الناحية النظرية نجد أنه طالما كان هناك التزام بتسديد الضرائب وأداء الخدمات المطلوبة وكان الشعب يتبع النظام ، كانت الملة تُترك فى حالها . غير أن المسيحيين كانوا رغم ذلك يعانون من معوقات كثيرة . فلم يكن بمقدروهم الخدمة فى دوائر الدولة الإدارية أو الالتحاق بالجيش (وإن كان بإمكانهم تشكيل ميليشات تقرها الدولة لحفظ النّظام والقضاء على اللصوص وقطّاع الطرق أو الانخراط فى صفوفها) . بل واجه غير المسلمين كل صنوف الحظر المزعجة : على الملبس (والألوان التى يمكنهم ارتداءها) وعلى ركوب الخيل وعلى ارتفاع الكنائس مقارنة بالمساجد وغيرها . يضاف إلى ذلك أنه رغم ظهور النظام القضائي بمظهر المتسامح ، فواقع الأمر أنه كانت هناك حالات كثيرة من إساءة استخدام القضاء . وكان من حق ملاّك الأراضي مطالبة فلاحيهم بمنتجات وخدمات على قدر كبير من التنوع . وفى كثير من الأحيان كانوا يأخذون ما يزيد عما هو مفروض شرعاً . ولم يكن لدى الفلاحين وسيلة خطيرة يلجأون إليها . فإلى جانب النفوذ الأعلى الذى كان يتمتع به الأعيان المسلمون طبقاً لمكانتهم ، لم تكن شهادة المسيحيين مقبولة فى المحاكم الإسلامية ، إلا إذا أعطى القاضي استثناءاً خاصاً لقبولها . كما ازدادت ضرائب الدولة على مر القرون وكانت الدولة تطالب على الدوام بجباية (مثل الخيل) أو خدمات (مثل إصلاح الجسور والطرق) إضافية . وفوق ذلك كله كان المسلمون فى وضع يتيح لهم السيادة على المسيحيين فى كل شئون الحياة . فأى نزاع قضائي بين مسلم ومسيحي كان لابد من نظره أمام محكمة إسلامية ، حيث كان المسيحى ، كما أسلفنا ، لا حول له ولا قوة . كما أن الملة الأرثوذكسية كان بها قدر كبير من إساءة استخدام السلطة ، وخاصة بعد سنة 1766 ، عندما استعاد بطريرك القسطنطينية حق تعيين الأساقفة فى البوسنة . ومنذ ذلك الحين كان الأساقفة دائماً من اليونان (وكانوا فى الغالب لا يعرفون السلافية) الذين اشتروا منصبهم وكانوا يأملون فى استعادة استثمارهم فى أسرع وقت ممكن وبأكبر فائدة تتاح لهم .

ميراث الحكم العثماني

خلَّف كل هذا ميراثاً سلبياً . فطوال 400 سنة كان للسكان المسيحيين دور صغير في إدارة شئونهم ، أو لم يكن لهم أى دور بالمرة فى ذلك . ولهذا يشير كثيرون من اليوغوسلاف إلى العصر العثماني على أنه 400 سنة بلا تاريخ . وأدى وضع الدرجة الثانية والظروف السيئة (التى تمثلت عادة فى القهر ، كما كان يحدث أحياناً) إلى تصوير تلك الحقبة على أنها قرون تحت النير التركي . وفى البوسنة طبعاً لم يكن الأمر مجرد حكم أجنبي ، حيث ساهم المسلمون المحليون فى إدارة المنطقة . ولذلك خلَّف الحكم العثماني فيما بين مسيحيى البلقان بغضاً كبيراً كبيرا للأتراك والإسلام . وإذا كان هذا الشعور قد تناقص تناقصا كبيرا على مدى القرن الماضي ، فإن الديماجوجيين الذين ظهروا مؤخراً والدعاية التى تبثها وسائل الإعلام استفادوا من تلك الصور المتحيزة والمشوهة التى تصف تلك السنوات وربطوا الإساءات المختلفة بالإسلام . ويمكن لخبراء الدعاية استخدام هذه الأفكار بنجاح ، لأن الخوف من الإسلام (يشجعهم على ذلك الطريقة التى صُورت بها الحقبة التركية فى الكتب المدرسية والفلكلور)[25] يكمن تحت السطح مباشرة فى كثير من عقول كثيرين من المسيحيين أنصاف المتعلمين ، رغم الروابط الودية والتجارب التى عاشها هؤلاء المسيحيين مع جيرانهم المسلمين . وهذا التراث ليس كراهية تعود لقرون مضت ومازالت تعيها الذاكرة ، بل هو أمر يمكن استغلاله واللعب به وتشويه خبراء الدعاية له . ولذلك فإنه ليس التاريخ نفسه وإنما استغلاله ، من جانب زعماء لهم دوافع خفية ، هو الذى يسمم فى الوقت الراهن العلاقة بين أناس اعتادوا العيش فى سلام وتسامح مع جيرانهم من القوميات والعقائد الأخرى .

لم تكن هناك اشتباكات ضخمة على امتداد الخطوط العرقية فى البوسنة العثمانية ، تماماً كما كان الحال فى العصور الوسطى . وعندما كانت تقع حروب محلية كان المسلمون المحليون يحاربون ضد الحكومة العثمانية المركزية . وفى المرات النادرة التى شارك فيها المسيحيون كانوا يتخذون جانب المسلمين المحليين . وفيما بين 1850

(25) كان الكُتاب ورجال الدين يصفون العثمانيين بكل صفات الكفار ومثالبهم ، كما أكدوا على أن الأتراك قوم ميئوس من هدايتهم ، ليس إلى المسيحية وحسب بل إلى طريق الحضارة الإنسانية . وانتشرت هذه الأفكار بين العامة خلال القرن السادس عشر ، بسبب حرب الدعاية التي شنها بارتلميو جورجوفتش الكاتب الكرواتى الذى أصدر كتاباً حقق انتشاراً واسعاً أسماه " الويل والثبور للمسيحى إذا وقع فى أيدى الترك كعبد أو دافع ضريبة " . صدر هذا الكتاب سنة 1544 وتوالت طبعاته بعدة لغات . **(المترجم)**

و 1878 كانت هناك لأول مرة ثورات كبيرة يقوم بها المسيحيون . وبدأت تلك كثورات فلاحين ضد الظروف الاجتماعية ثم تطورت إلى ثورة من أجل الاستقلال عن الحكم العثماني . ومع أن ملاّك الأراضي كانوا مسلمين ومعظم الفلاحين مسيحيين ، فلا ينبغي النظر إلى هذه الحالة على أنها حرب دينية . وبما أن الأسباب التى دفعتهم للثورة كانت ظروف العبودية التى كانوا يعانون منها ، فمن العقل أن نرى الأسباب الرئيسية على أنها اجتماعية أو ذات أسس طبقية . وعندما اندلعت الثورة وشارك فيها أهل المدن من الصرب الأرثوذكس ، أخذ هؤلاء المدنيون فى التأكيد على الصربية وضرورة تحويل الحرب إلى حروب تحرير . ذلك التحرير الذى كان صرب البوسنة وصرب صربيا (وبعد وقت قصير الكثير من فلاحي صرب البوسنة كذلك) يأملون فى أنه قد يعني الاتحاد مع صربيا . ولكن القوى الكبرى أحبطت مخططهم ووضعت المنطقة تحت الاحتلال النمساوى . وهو الأمر الذى لم يكن يرغب فيه أى من الصرب أو المسلمين . ويتضح لنا كيف أن الثورة السابقة لم تكن بحق حرباً عرقية أو دينية ، عندما نجد أن صرب البوسنة والمسلمين ، كل لأسبابه المختلفة ، تحالفوا فى محاولة لمقاومة القوات النمساوية عندما جاءت لاحتلال البوسنة . وكانت مقاومتهم رائعة واحتاجت القوات النمساوية الحديثة البالغ عددها 268 ألف جندى إلى أربعة أشهر للتغلب على ذلك الجهد الذى أظهرته قوات مقاومة صرب البوسنة ومسلميها .

الفصل الرابع

ميراث ما قبل الحداثة

والهوية المعاصرة فى البوسنة

تنحدر الغالبية العظمى من سكان البوسنة فى الوقت الحاضر من أصلاب هؤلاء المهاجرين السلاف الذين وفدوا فى القرنين السادس والسابع . وهؤلاء السلاف يعودون إلى مجموعة سلافية واحدة ، السلافينى Slaveni . أما اسما "صرب" و "كروات" فيعودان إلى مجموعة ثانية من المهاجرين ، ربما كانت قبيلتين إيرانيتين تحملان هذين الاسمين ، ظهرت فى وقت لاحق من القرن السابع فى الجزء الشمالي الذى أصبح يوغوسلافيا بعد ذلك بزمن طويل . وأكد هؤلاء سيطرتهم على السلاف فى أجزاء كثيرة من شمال يوغوسلافيا ووسطها . إلا أنه من غير المعروف مدى سيطرتهم على السلاف الذين كانوا يعيشون فى البوسنة . وعلى أية حال ، فهذا الأمر لايهم كثيراً ، إذ إن أعدادهم كانت محدودة وسرعان ماذابوا واكتسبوا الطبائع السلافية بعد أن جاءوا بإسمى الشعبين ("الصرب" و "الكروات") اللذين عاشا إلى الشمال الغربى والشرق من البوسنة . ولكن الناس فى البوسنة فى العصور الوسطى لم يحملوا هذين الاسمين ولم يعتبروا انفسهم صرباً أو كرواتاً ، فيما عدا تلك القلة التى عاشت فى المناطق الحدودية أو كانت قد هاجرت إلى البوسنة.

وفى العصور الوسطى أطلق سكان البوسنة على أنفسهم "البوسنيون" أو استخدموا أسماء أكثر محلية (نسبة إلى المقاطعة أو الإقليم) . وبالنسبة لتسمية أنفسهم بـ "البوسنيون" ، فالأكثر احتمالاً أن ذلك كان يعكس الهوية الجغرافية المشتركة أو المشاركة فى دولة ما أو كيان جغرافى ما (كأن يكونوا رعايا للملك البوسني) ، ولم يكن ذا علاقة بالعرقية الحديثة . ولكن لكي لايبدو هذا على أنه هوية منتصف الطريق وحسب ، ولا يأخذه القوميون المحدثون مأخذ الجد ، لابد من الإشارة إلى أن نفس المضامين غير العرقية يمكن أن تَصْدُق على اللافتات "القومية" الخاصة بكروات وكرواتيا العصور الوسطى وصرب وصربيا العصور الوسطى . ففي بوسنة العصور الوسطى كانت تلك الأسماء المحددة للهوية ، سواء أكانت "بوسنى" أم ذات صفة إقليمية أضيق مثل "هومي" ، تتعدى الطوائف الدينية : فأى كاثوليكى محلى كان بوسنياً بقدر ما هو عضو فى الكنيسة

البوسنية . وبفضل البيئة البوسنية ، فإن من كانوا يسمون أنفسهم بالبوسنيين ، بغض النظر عن ملتهم ،اشتركوا فى قيم كثيرة بعينها وفى صفات عديدة كانت تميزهم عن سلاف دالماتيا ومن أقاموا فيما وراء نهرى درينا وسافا .

وطوال العصور الوسطى المتأخرة ، حافظ البوسنيون على تقليد متطور نسبياً للدولة يرتبط بمنطقة مستقرة استقرارا نسبياً . وقد احترمت الدول الكبرى التى احتوت البوسنة فيما بعد – الإمبراطورية العثمانية ثم النمسا والمجر وأخيراً يوغوسلافيا – هذا التقليد وزادت من قوته ، من خلال الاعتراف بالبوسنة كوحدة إدارية . وبذلك احتفظت البوسنة بتكاملها الإقليمى ، فيما عدا فترات قصيرة ، على مدى 500 سنة أعقبت زوال المملكة البوسنية فى العصور الوسطى . ورغم ادعاءات القوميين الصرب والكروات بأن البوسنة كيان مصطنع يفتقر إلى التقاليد ، تكشف لنا سجلات التاريخ أن البوسنة ، بثبات حدودها التقريبية منذ القرن الثالث عشر حتى الآن ، أظهرت قدراً من الاستمرارية يفوق ما لأى دولة أو وحدة إقليمية تولى تجميعها الصرب أو الكروات .

فتح العثمانيون البوسنة والهرسك فى القرن الخامس عشر، حيث اعترفوا فى هيكلهم الإدارى بالبوسنة وحدة متماسكة . وعلى مدى الجزء الأكبر من حكمهم ، الذى امتد من 1554 إلى 1878 ، كانت البوسنة بكلربكليك أو ولاية فى حد ذاتها (تتكون من ثلاثة سناجق على الأقل : البوسنة وزفورنك والهرسك) . ولم يقسِّم العثمانيون الناس تبعاً للافتاتهم العرقية وإنما حسب مللهم : مسلمون وأرثوذكس وكاثوليك ويهود . وحدثت فى العصر العثماني أيضاً هجرات كبيرة وتغيير عقائد متعدد الاتجاهات . وأخيراً فى القرن التاسع عشر ، وبصفة خاصة فى ظل الاحتلال النمساوى الذى بدأ سنة 1878 ، أخذ مروجو القومية يبثون أفكارهم . وطبقاً لتعاليمهم ، التى وجدت بالتدريج آذاناً صاغية تزايدت أعدادها ، إذا كان المرء كاثوليكياً فهو كرواتي ، وإذا كان أرثوذكسياً فهو صربي . ولكن فيما يتعلق بالأصول الحقيقة لهؤلاء الكاثوليك والأرثوذكس البوسنيين ، كانت تلك المحصلة هراء . فالناس كانوا على قدر كبير من الاختلاط والتداخل نتيجة للهجرات العديدة وكثرة من اعتنقوا عقيدة غير عقيدتهم الأصلية . لذلك كان من المستحيل أن نحدد على وجه الدقة ، مثلاً ، إن كان المسيحي الأرثوذكسى الحديث ينحدر من صلب مؤمن أرثوذكسى من العصور الوسطى أو أحد أتباع الكنيسة البوسنية . بل إن ترجمة ملة المرء

إلى القومية الصربية أو الكرواتية لاعلاقة له كذلك بسكان المنطقة ، طالما أن البوسنيين فيما قبل القرن التاسع عشر لم يصفوا أنفسهم بالصرب أو بالكروات .

وهوية البوسني كبوسني – وإن كانت تشير في الأصل إلى موطنه الجغرافي أو كونه فرداً في الدولة – لها جذور تعود إلى قرون بعيدة في الماضي . بينما يعود تصنيف أي مسيحي بوسني على أنه صربي أوكرواتي بالكاد إلى قرن واحد مضى . بل إن فكرة المسلم البوسني بمعناها "القومي" (مقابل المعنى الديني) أحدث بكثير . وليس المقصود بهذا الإيحاء أن على المرء أن يسقط من حساباته المشاعر "القومية" لدى أي بوسني يصف نفسه اليوم بأنه صربي أو كرواتي أو مسلم . الأمر ببساطة يعني أن مصطلح "بوسني" ليس مصطنعاً ولابد أيضاً من أخذه مأخذ الجد . وإذا قال أحد القوميين إن الكثيرين الذين يرفعون لافتة "بوسني" المحددة للهوية ، حتى في وقتنا الراهن ، لا يستخدمونها استخداماً عرقياً وإنما يريدون بها فقط الإشارة إلى الانتماء للدولة أو المواطنة ، فإن ذلك لا يقلل من شأن المصطلح مع كل هذا ولا ينبغي أن تكون العرقية المعيار الأساسي كي يكون للمرء صوت في شئون الدولة . وأهل أمريكا ليسوا أمريكيين "عرقياً " ، ولكنهم يعملون في دولة تعددية تضم خليطاً من الناس الذين يشعر بعضهم بالهوية العرقية ، في حين لا يهتم كثيرون بالعرقية بالمرة . وهذا النموذج قد يبدو ملائماً لمنطقة ذات عرقية مختلطة مثل البوسنة .

وحقيقة أن تقاليد البوسنة منذ العصور الوسطى والعصر العثماني ما تزال صالحة للتسعينيات تعني أن هذه التقاليد السابقة للحداثة ظلت محفوظة ، وإن لم يزد أحد من قوتها خلال فترة الحكم النمساوي (1878 – 1918) وتلك السنوات التي كانت فيها البوسنة جزءاً فعالاً وشديد الإيجابية من يوغوسلافيا . أما كيف استمرت هذه التقاليد فيما بعد 1878 ، طالما أن المجتمعات التي كانت تقوم على أساس ديني في العصر العثماني أصبحت علمانية وذات أسس عرقية بمرور الوقت ، فهذا هو ما سنتناوله في الفصل التالي.

الفصل الخامس

البوسنة عشية الحقبة الحديثة

الاقتصاد

كانت البوسنة فى منتصف سبعينيات القرن التاسع عشر واحدة من أكثر مناطق أوروبا تخلفاً. فقد تناقص عدد سكان مدنها التي فقدت حيوتها وريادتها . وكان الريف زراعياً فى الغالب الأعم ، وكان معظم الفلاحين غارقين فى الفقر والأمية . وكان أفراد الطبقة المسيطرة ، وملاَّك الأراضي المسلمين ، غير متعلمين بالقدر الكبير طبقاً للمفهوم الغربي ومشغولين بالحفاظ على وضعهم المتميز فى المجتمع . كما أن عملية الإنتاج كانت تتم من خلال أساليب أصحاب الحرف العتيقة . فالتصنيع لم يكن معروفاً بالمرة .

وكان البوسنيون من الناحية الاقتصادية أرق حالاً من جيرانهم بصورة عامة . ففي صربيا شرقاً أدى ازدهار التجارة فى المواد الزراعية التجارية إلى انتعاش أحوال فلاحين كثيرين . وفى البلاد التي يسكنها الكروات من إمبراطورية هابسبورج إلى الشمال والشرق ، كان التصنيع يخطو خطواته الأولى ويجرى تحديث الأساليب الزراعية من أجل محاصيل أفضل . وكان بوسنيون كثيرون ، أغلبهم من المسيحيين الأرثوذكس ، يكسبون رزقهم من خلال التجارة داخل أراضى البوسنة ومع البلاد الأجنبية . ولكن الاقتصاد عموماً كان فى حالة كساد شديد .

المجتمع

كانت البوسنة فى القرن التاسع عشر مجتمعاً زراعياً بصورة كبيرة . وطبقاً لتعداد 1895 كان 80٪ من السكان يعملون فى الانتاج الزراعى بشكل أساسى . وكانت الطبقة العليا فى المجتمع الريفي البوسني تتكون من عدد صغير إلى حد ما من البكوات ، أو مُلاَّك الأراضى ، المسلمين. ويمكن معرفة نسبتهم العددية إلى سائر السكان من خلال تعداد 1910 ، وهو التعداد الأكثر اتساعاً وصدقاً فيما قبل الحرب العالمية الأولى . وكان ملاَّك الأراضي المسلمون وعددهم 12560 (رؤساء العائلات) يمثلون 2٪ من إجمالى عدد المسلمين ، وهو 612137 ، و 7.0٪ من إجمالى سكان البوسنة ، وكان 1898044 نسمة . ومع أن العثمانيين حدوا من نفوذ ملاَّك الأراضى المسلمين السياسى سنة 1851 بقدر كبير جداً ، فقد ظل هؤلاء الملاَّك يسيطرون على الريف اقتصادياً واجتماعياً على مدى القرن



شكل 5-1 بك مسلم (مالك أراضى) من شرقى الهرسك

التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وعاش كثيرون منهم فى الأراضى التي يملكونها وأداروها من هناك ، فى حين عاش بعضهم فى المدن الكبيرة والصغيرة تاركين لغيرهم مهمة جمع مستحقاتهم الثقيلة التي يدفعها الفلاحون المسيحيون .

وكان الفلاحون الذين يمثلون غالبية السكان ينقسمون حسب مللهم وممارساتهم إلى ثلاث طوائف دينية : الكاثوليك والأرثوذكس والمسلمون . وكان الفلاحون المسيحيون فى الفئتين الأولى والثانية "كمت" Kmet . وكانوا فى العادة يسلمون ثلث محصولهم السنوى أو أكثر إلى مالك الأرض إلى جانب عُشر آخر للدولة. ومصطلح Kmet أشيع أنه مرداف لكلمة Serf (قن)[1] الانجليزية ، وإن كان أحد المتخصصين يرى أن مزارع

---

(1) القن هو الشخص الذي يولد ليجد أباه مرتبطاً بأرض معينة فيرتبط هو كذلك بالأرض نفسها ولا يستطيع تركها ، متحملاً بذلك كل ما يفرض عليه من أعباء ومهام شاقة .وكان الأقنان مقيدين بقيود شديدة تجعلهم غير أحرار . كما أن الواحد منهم لم يكن باستطاعته إدعاء حق الملكية الشخصية . فكل ما لديه ملك للسيد الاقطاعى صاحب الضيعة . إلا أنه لابد أن نعرف أن هذا القن لم يكن رقيقاً بمعنى الكلمة . فسيده لم يكن باستطاعته التصرف فيه بالبيع مثلاً أو بالإيذاء البدنى دون ذنب أو محاكمة . وبذلك لا يكون القن عبداً ولا حراً .

وخلافاً لما كان عليه حال قن الغرب القروسطي ، لم يكن الكمت مرتبطاً بالأرض على نحو مطلق . إلا أن حريته في الحركة كانت مقيدة على نحو صارم بتشريع يحرص على ضمان دخل التيماري المسجل لحسابه . ولذلك فإن قانون البوسنة والهرسك لسنة 1539 ، على سبيل المثال ، ينص على أن الفلاح الذي يخرج لزراعة أرض في قرية غير قريته عليه أن يدفع عشرين : عشر لصاحب تلك الأرض وآخر للسباهي الأصلي الذى يتبعه . كما أن قانون بوزيجا لسنة 1545 ينص على أنه في حالة ترك الرعية للعمل الزراعي لكي يصبح عاملاً في الغابات أوصياداً أوطحاناً أو حرفياً في الريف أو المدينة ، فإن عليه أن يدفع لتيماريه " ضريبة نزوح " . (المترجم)

Sharecropper أو " مستأجر عرفى " Customary Tenant أكثر دقة (2) . وكان وضع هؤلاء المزراعين فى ظل القانون العثماني مختلفاً عن وضع الأقنان فى النظام الاقطاعى الأوروبي التقليدى ، حيث إن الكمت لم يكن مربوطاً بشكل شخصي بمالك الأرض وكان يتمتع بحرية الحركة ويحظى بحماية قانونية من ظلم المالك فى المحاكم العثمانية . ولكن الواقع اليومي كان مختلفاً فى كثير من الأحيان عما يتضمنه القانون . فكثيرون من الفلاحين كانوا لا يدرون شيئاً عن حقوقهم القانونية . كما كانت المحاكم فى كل الأحوال تقف فى صف مالك الأرض المسلم ، وإن تقدم الكمت بشكوى لها ما يبررها للسلطان العثمانية .

ورغم عشرات السنين من الإصلاحات العثمانية والقوانين التي منحت الفلاحين الكاثوليك والأرثوذكس حقوقاً كثيرة ، ظل هؤلاء يتعرضون لقدر كبير من سوء المعاملة على أيدى ملاّك الأراضي المسلمين فى أواخر سنوات العثمانيين .



شكل 5-2 كمت بوسنيون

ويوضح الجدول 1 - 5 القوة العددية النسبية لهؤلاء سنة 1910 ، حسب أعداد " رأس العائلة " . وكانت الغالبية العظمى من " حائزى الأراضي الذين لديهم مزارعون " مسلمين. إلا أنه كان هناك " فلاحون أحرار " مسلمون يزيد عددهم على عدد " حائزو الأراضي ". ولم يكن الفلاحون الأحرار مثقلين بالمستحقات الإجبارية التى لابد من دفعها لمالك الأرض، كما هو الحال بالنسبة للكمت . وكان عدد الفلاحين الأحرار يزيد على عدد الكمت ، ولكن ما يزيد على نصف الفلاحين الأحرار كانوا مسلمين . ومن الناحية الأخرى نجد أن 74٪ من الكمت كانوا أرثوذكس صربياً و21٪ كاثوليك و5٪ مسلمين .

(2) Ivo Banac. *The National Question in yogoslavia : Origins . History Politics*
(Ihaca Cornell University Press ,1984) . p.367

الجدول 1 – 5 : الفئات المهنية الزراعية حسب الديانة ، 1910 (أرباب الأسر)

المهنة	مسلمون	صرب أرثوذكس	كاثوليك	الاجمالى
ملاك أراضي لديهم أقنان	9537	633	267	10430
ملاك أراضي بلا أقنان	3023	760	458	4281
فلاحون أحرار	77518	35414	22916	136854
أقنان	3653	58895	17116	79667

× يشمل الاجمالى فئة أخرى غير مذكورة
المصدر : Die Erebnisse DerVolkszalung in Bosnien Und Der
Vom 10 Hercegovina Oktober1910
(Sarajevo : Landesdrukerei.1912) ، الجدول ، 90– VIII pp. 68 .

أصبح استمرار هذه الأعباء القديمة المفروضة على الفلاحين حتى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين المصدر االرئيسي للصراع الذي شهدته الحياة السياسية البوسنية والمجتمع البوسنى . وأشار الساسة والدبلوماسيون إلى هذا الموضوع بـ " المسألة الزراعية " . وفى أوائل الخمسينيات من القرن التاسع عشر كانت مثل هذه الممارسات قد أصبحت شيئاً قد عفا عليه الزمن فى كل أوروبا وفى البلاد السلافية الجنوبية، باستثناء دالماتيا . وكانت المستحقات التى يدفعها الفلاحون قد أُلغيت فى صربيا سنة 1817، وفى كرواتيا وسلوفينيا بحلول سنة 18. وأصبحت المسألة الزراعية بالنسبة للفلاحين المسيحيين فى البوسنة ومؤيديهم مسألة ظلم اجتماعى مُلحة. وتقدموا باقتراح بأن تكون الأرض لمن يزرعها.وكان ملاك الأراضى المسلمون ، من ناحية أخرى ، يعارضون بشراسة أى تغييرات تنتقص من مزاياهم ويدافعون عن أساليبهم فى تحصيل ما يخصهم ويخص الدولة من مستحقات لدى الفلاحين(3) .

نشوء الطوائف العرقية الدينية

أثرت التحولات الدينية التى شهدتها القرون العثمانية الأولى على ميراث التنوع الديني والتسامح فى البوسنة أكثر وأكثر. وكانت تلك التحولات الخطوة الأولى ضمن عملية ذات أربعة خطوات أدت إلى تركيبة المجتمع البوسنى متعددة القوميات ، التى ظلت قائمة حتى سنة 1992 . وشملت الخطوة الثانية تحول الاختلافات الدينية تدريجياً إلى فوارق مزمنة فيما بين الطوائف العرقية الدينية . وعلى النقيض من تلك المرونة فى الانتساب إلى الملل

(3) للاطلاع على ملخص العلاقات الزراعية في البوسنة في ظل حكم العثمانيين والنمساويين انظر :
JoNoTomasevich . *Peasants . Politics and EconomicChange in Yugoslavia* (Stanford University Press1955). pp .96- 111

التى شهدتها العقود الأولى من الحكم العثمانى ، كانت الخطوط التى تفصل الطوائف الدينية عن بعضها قد استقرت وازدادت صلابة بحلول منتصف القرن التاسع عشر وتكونت لدى كل من الكاثوليك والأرثوذكس الصرب والمسلمين واليهود وجهات نظر دنيوية متباينة وأصبحت تفصل كل طائفة عن الأخرى هوة سحيقة . واتخذت كل طائفة دينية ممارسات اختصت بها وشيئاً فشيئا أصبحت لها سماتها الثقافية المميزة . وأصبح الانتقال من طائفة دينية إلى أخرى صعباً ولا يحتمل حدوثه . وفى المرات النادرة التى حدث فيها ذلك ، كانت تصاحبه بعض التعقيدات والجدل .





شكل 5-3 و 5-4 شابتان كاثوليكيتان

وكانت الخطوة الثالثة فى هذه العملية نمو الوعى العرقى داخل كل طائفة دينية . وتأثراً من كاثوليك البوسنة بالتطورات الشبيهة فى البلاد المجاورة ، أخذوا ينظرون شيئاً فشيئاً إلى أنفسهم على أنهم كروات . وكان ذلك أيضاً حال البوسنيين الأرثوذكس الذين اعتبروا أنفسهم صرباً . وتسارعت هذه العملية فى العقود الأخيرة من الحكم العثماني ، كما قطعت شوطاً كبيراً – وخاصة فى المناطق الحضرية – مع بداية الحكم النمساوى سنة 1878 . وكان مسلمو البوسنة هم وحدهم من نأوا بأنفسهم عن هذا المسلك . وبدلاً من ذلك ، كانوا يُعرفون أنفسهم بأنهم أبناء طائفة دينية فى المقام الأول ، ولا ينتمون إلى قومية ما . وظلوا على ذلك حتى القرن العشرين . وبالنسبة لسائر البوسنيين ، كان الأمر بحلول نهاية القرن التاسع عشر يقضى بأنه إذا كان الإنسان كاثوليكيا ، فالاحتمال الأكبر أنه ارتضى التعريف العرقى بأنه كرواتى. كما أن كون المرء أرثوذكسياً قد يعنى أنه قبل تعريفه على أنه صربى. وبذلك تحولت الطوائف الدينية شيئاً فشيئاً إلى طوائف عرقية دينية يدرك أفرادها الفوارق التى بينها إدراكاً شديداً .

وأعقب نمو الهويات العرقية مباشرة وزاد من قوته الخطوة الرابعة فى العملية ، ألا وهى ظهور القومية السياسية ، التى عبأت فى القرنيين التاسع عشر والعشرين أفراد هذه الطوائف كى يؤيدوا برامج سياسية محددة وشجعت نمو الهويات القومية .

وكانت الأهمية المتزايدة للانتماء الدينى كـ " علامة فارقة " لهوية أية طائفة تلقى تشجيعاً من سياسات الدولة العثمانية وممارساتها . إذ كان الحكام العثمانيون يقدرون الأهمية السياسية تقديراً كبيراً . ولأنهم صنفوا رعاياهم حسب الملة ، فقد صار للمؤسسات الدينية وظائف سياسية مهمة فى البوسنة فى ظل الحكم العثماني . وكان التعليم فى واقع الأمر قاصراً على الموظفين الدينيين . وفى كثير من الأحيان كانت الهيئة الدينية المحلية فى كل طائفة هي زعيمها الفعلى . وأصبحت الديانة ، أو بالأحرى الانتماء الديني ، العامل الأساسى الذى يحدد عضوية أى مجموعة فى المجتمع البوسنى .




الشكلان 5-5 و 5-6 امراة أرثوذكسية وشاب مسلم

وفى قرى الريف البوسني أصبح الدين أساساً لعديد من الممارسات الثقافية المرتبطة بمجموعة عرقية فى حد ذاتها . وفى الدراسة التى قام بها عالم الأنثروبولوجيا ويليام لوكوود William Lockwood عن الفلاحين من سكان القرى البوسنية فى الستينيات أشار إلى أن : " كل تجمع ديني تميزه أيضاً ثقافى تحتية لا علاقة لها بأنشطته الدينية "(4) . وهكذا أصبح الانتماء الديني مصدر عدد كبير من الاختلافات البسيطة ، وإن كانت على قدر كبير من الأهمية ، فى الملبس والمطبخ واللهجة والمأثورات الشفاهية والموسيقى الشعبية وأسلوب المسكن والمفروشات وغيرها من ممارسات الحياة اليومية الثقافية . ويصف

(4) WilliamG.Lockwood *European Moslems* : *Economy and Ethnicity inWestern Bosnia* (New York: Academic Press.1975)p. 49

يشرح لوكوود دور الملابس التقليدية واالمطبخ واللغة كعلامات عرقية فارقة ويشير إلى أن الاختلافات " صغيرة المدى " ولكنها " الأكثر أهمية وتلقى تقديراً كبيراً في داخل الاقليم " .

لوكوود الفروق الضيئلة فى ملابس الرجال التقليدية فى المنطقة التى درسها بقوله:"[إنها] متطابقة تقريباً فى كل المناطق الثلاث. فهى تختلف فقط فى لون الوشاح (أحمر عند المسيحيين وأخضر عند المسلمين) ولون شريط رفيع مطرز عند اسورة السروال (أحمر عند الكروات وأبيض عند الصرب ولا وجود له عند المسلمين) وأسلوب غطاء الرأس "(5) .

وهذه الخصائص والممارسات الثقافية نشأت نتيجة للولاء الديني ، دون أن يكون لها مغزى دينى فى حد ذاتها . لقد صارت علامات فارقة للتمييز بين المجموعات وكانت بمثابة "رمز " لتأكيد انتماء الفرد وهويته له أهميته الكبرى بالنسبة للأفراد الذين يحملونه ، سواء أكان هؤلاء الأفراد متمسكين بتعاليم دين من الأديان أم لا،أو يمارسون الشعائر الدينية أم لا. وتتيح لنا المصادر التاريخية فرصاً قليلة جداً لرؤية الطريقة التى تأصلت بها تلك السمات الثقافية المميزة . إلا أن المصادر تؤكد بكل وضوح أن تلك المميزات كانت جزءاً من الحياة اليومية فى مناطق البوسنة الريفية بحلول منتصف القرن التاسع عشر . وكان الرحالة الغربيون الذين سافروا إلى البوسنة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر يدركون تمام الإدراك تلك العلامات الفارقة ؛ ذلك أن أهل الريف من البوسنيين كانوا يعبرون بطريقة بصرية عن موطنهم الأصلي وانتمائهم إلى طائفة عرقية دينية بعينها . وكان الزوار الأجانب يرون دائماً أن هذه الممارسات الثقافية غير مألوفة لديهم وغريبة عنهم. وكانوا يميلون إلى وصفها ، وفى بعض الأحيان تصويرها ، بشيء من التفصيل .

لذلك كـانت انتماءات البوسنيين الدينية المتباينة قد أدت ، بحلول منتصف القرن التاسع عشر ، إلى ظهور فوارق ثقافية واقتصادية وسياسية كان من شأنها تحويل الطوائف الدينية شيئاً فشيئاً إلى طوائف عرقية يمكن تمييزها . وبينما كانت العرقية بين البوسنيين فى القرن التاسع عشر متأصلة تأصلاً كبيراً فى التراث الدينى والممارسات الدينية ، كانت " الهوية " توليفة معقدة من الانتماء الدينى والعقيدة الدينية والممارسات الثقافية والوضع الإجتماعى الإقتصادى والولاء لمسقط الرأس . ولم تكن الفروق العرقية قد سُيّست بعد بالمعنى الذى يؤدى إلى تكوين أحزاب جماهيرية أو الإعلان عن برامج قومية مفصلة. ولكن بحلول سنة 1875 كانت البوسنة ، بلا شك ، مجتمعاً متعدد الأعراق شديد التباين .

Lockwood ،p .49 (5)

إلا أن ملاحظة تلك الاختلافات أبعد كثيراً عن توصيفها على أنها كراهية قبلية تتسبب فى حدوث مجازر متبادلة بشكل موسمى . وكانت العلاقات بين المجموعات العرقية تتميز بالتسامح المتبادل والاختلاط وتتكرر مراراً فى الحياة اليومية . إذ كان الكاثوليك والأرثوذكس والمسلمون واليهود وغيرهم يشتركون فى نفس الأسواق وغالباً ما كانوا، فى المناطق الحضرية بوجه خاص ، يتعارفون بعضهم ببعض ويميلون إلى تبادل المساعدة والتعاون فى أوقات الشدة. وكثيراً ما شاركوا فى الاحتفال بأعياد بعضهم البعض . وكما أسلفنا ، حدثت صراعات عارضة بعد سنة 1850 بين ملاَّك الأراضي والفلاحين الذين كان يُنتظر منهم التخلى عن جزء من محصولهم . إلا أنه لا يمكن من الناحية المنطقية التعامل مع هذه الصراعات الإجتماعية الإقتصادية على أنها صراع عرقى متصل .

وبينما يتمسك كثيرون من الغرباء عن المنطقة بذلك التعميم الذى لا سند له ، والقائل بأن الكراهية القبلية والحروب العرقية ميزت البوسنة عدة قرون ، فإن من هم على دراية بالتاريخ البوسنى لهم وجهة نظر مخالفة . وهؤلاء يتساءلون كيف ينقلب البوسنيون ، الذين عاشوا فى هدوء نسبى وتسامح متبادل قروناً طويلة ، فجأة على جيرانهم وأصدقائهم ويرتكبون أعمال القتل العنيفة تلك التى أصبحت شائعة فى الصراع البوسنى الحالى . وكما سنرى ، يستغلق علينا فهم تلك التطورات التى حدثت خلال السنوات القليلة الماضية دون فهم القوى الخارجية التى عمَّقت الصدع العرقى وجعلت تناقضات المجتمع البوسنى أكثر من أى وقت سبق .

وينظر الكثيرون من الغربيين إلى فكرة الدين ، بوصفها أحد بواعث الكراهية بين الجيران على أنها أمر منفر إلى حد كبير ويثير المخاوف من الدوافع غير المنطقية البدائية التى تودى بأرواح البشر. وفى البوسنة ، التى أدت العلمنة إلى جعل الممارسات الدينية بالنسبة لكثيرين لا تزيد كثيراً على كونها ذكرى تاريخية ، و طغى الانتماء العرقى القائم على الثقافى المميزة والأيديولوجيا فى كثير من الأحيان على الدين بوصفه عقيدة شخصية. وكما هو حال اليهود العلمانيين فى أمريكا ، تظل اللافتات العرقية دينية فى مظهرها (على الأقل فيما يتعلق بالمسلمين البوسنيين) أما المحتوى الثقافى والأسس التاريخية للهوية الشخصية فقد بعدت كثيراً عن أصولها الدينية الصرفة.

التركيبة السكانية

كانت البوسنة عشية الحقبة الحديثة مجتمعاً يكاد يتعدى سكانه المليون نسمة . ويوضح الجدول 2-5إجمالى الزيادة فى عدد السكان الذى تضاعف أربع مرات فى الفترة من 1851 إلى 1991 . (كان التعداد متفاوتاً فى مصداقيته . فتعداد 1851 وتعداد 1879 لابد من التعامل معهما بحرص) .

وتظهر القوة العددية للمجموعات العرقية فى البوسنة فى الجدول 3-5 (يوضح الجدول الديانة المعلنة من 1879 إلى 1948 ،حيث تحولت الفئات إلى القومية من 1953 إلى 1991.) ورغم بعض المشاكل الإحصائية والتفسيرية ، يشير الجدول إلى أن البوسنة من 1879 إلى 1991 كانت بحق مجتمعاً متعدد الأعراق أو متعدد القوميات ، ليس فيه مجموعة واحدة تتمتع بأغلبية عددية واضحة . وظل الحال هكذا خلال حربين عالميتين وعديد من موجات الهجرة وإعادة التوطين الكبرى.

جدول 5-2 : عدد سكان البوسنة والهرسك ، 1851-1991

1851	9300000	1948	2563767
1879	1158164	1953	2847459
1885	1336091	1961	3277984
1895	1568092	1971	3746111
1910	1898044	1981	4124256
1921	1890440	1991	4354911
1931	2323555		

المصدر: Hercegovine BosieI Stanovnistov Pejanovic Akademiia ،Nauka1955jordje Srpska 1851 : Belgrade) ، Table III .
ويأتي هذا التقدير عقب بعض التعديلات الحدودية .
1879- 1910 : التعداد النمساوي لسنة 1910 جدول 30 صفحة LIII .
1921- 1981 Godisnjak Statisticki الجدول 3-6 صفحة 40. وهذه الأرقام تتطابق مع حدود البوسنة والهرسك سنة 1981 .
1991 : تقرير التعداد اليوغوسلافى .

وتشير الأرقام الخاصة بإجمالى أراضى البوسنة والهرسك إلى تلك التوليفة المعقدة التي كانت موجودة فى كل إقليم من أقاليم البلاد تقريباً . وبحلول النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت البوسنة نسيجاً عرقياً معقداً تتميز خيوطه بعضها عن بعض تميزاً حاداً، وإن كانت متداخلة ومختلطة بطريقة تتحدى أشد واضعى الخرائط مهارة . واتحد كل من تغيير العقيدة والهجرة والأحداث التاريخية الطارئة معاً لتخلق تجمعاً كبيراً لطائفة بعينها فى مناطق غير محتملة ، ولتترك فى بعض المرات مساحات من الأراضى ليس فيها من أبناء الطوائف الثلاث الكبرى أحد . ولم يقتصر الأمر على عدم تمتع مجموعة واحدة بالأغلبية العددية فى كل من البوسنة والهرسك ، بل كان من المستحيل تحديد مناطق جغرافية متقاربة ذات حجم كبير كانت تسيطر عليها مجموعة عرقية واحدة سيطرة محلية . ولم تسمح تركيبة البوسنة السكانية المعقدة بتقسيمها إلى " ملاذات عرقية آمنة " .

جدول 3 . التركيبة العرقية الدينية فى
البوسنة والهرسك ، 1879-1991

السنة	الأرثوذكس	المسلمون	الكاثوليك	اليهود		آخرون
1879	496485	448613	209391	3426		249
1885	571250	492710	265788	5805		538
1895	673246	548632	334142	8213		3859
1910	825418	612137	434061	11868		14560
1921	829162	588247	443914	غير معلوم		28606
1948	1136116	890094	614123	غير معلوم		26635
السنة	الصرب	المسلمون	الكروات	اليهود	اليوغوسلاف	آخرون
1953	1264372	غير معلوم	654229	310	891800	37079
1961	1406027	842248	711665	381	275883	41714
1971	1393184	1482430	772491	708	43796	53538
1981	1320738	1630033	758140	343	326316	88686
1991	1369528	1905829	755895	غير معلوم	329945	93747

* يشمل هذا الرقم 71125 مسلماً أعلنوا أنهم صرب بالقومية و 24914 مسلماً أعلنوا أنهم كروات بالقومية .

ملحوظة : الفئات الدينية والقومية ليست متطابقة تمام التطابق ، ولكننا نقدمها بغرض المقارنة . وقد عرف الغالبية العظمى من السكان الكاثوليك أنفسهم بأنهم كروات والأرثوذكس بأنهم صرب . واختار معظم المسلمين فئة واحدة فى كل تعداد ، إلا أن الفئات تغيرت بمرور الوقت على النحو التالى : "مسلم ، غير محدد" (1948) "يوغوسلافى ، غير محدد" (1953) "مسلم بالمفهوم العرقي" (1961) "مسلم بمفهوم القومية" (1971) "مسلم" (1981 و 1991).

المصدر : 1879 - 1910 : التعداد النمساوي لسنة 1910 جدول 39 .
1921 - 1981 : Statistički Godisnjak جدول10- 3 صفحة 4s
1991 : تقرير التعداد اليوغوسلافى .

كان كثيرون من السكان تفصلهم الطائفة العرقية فصلاً مكانياً ، حتى وإن كانت كل المجموعات الكبرى متناثرة جغرافياً ومتداخلة فى أنحاء البوسنة والهرسك . ففي المناطق الريفية كانت أغلبية القرى يسكنها أبناء طائفة عرقية دينية واحدة : أرثوذكسية أو كاثوليكية أو مسلمة. فى حين كانت بعض القرى خليطاً ، وإن كان هذا هو الاستثناء . أما المدن الصغيرة فكانت منفصلة جزئياً . فكانت العادة أن كل طائفة عرقية لها منطقتها السكـنية ("محلة" بالتركية) حيث تكون الكنيسة أو المسجد أو المعبد بؤرة أنشطة الطائفة . (كانت دور العبادة الموجودة فى وسط المدن الكبرى هي الأخرى مستودعات رئيسية للتراث الثقافى الخاص بطوائفها العرقية الدينية على وجه الخصوص) وفى كثير من المدن الصغيرة كانت البيوت المملوكة لأفراد كل طائفة عرقية متناثرة فى أنحائها ، مما يعني أن نمط التجمعات السكانية كان فى كثير من الأحيان موجوداً جنباً إلى جنب مع اختلاط المساكن الأكثر شيوعاً . وتسنى للزوار ملاحظة الهوية العرقية الدينية لصاحب أى بيت بمجرد النظر إليه . وبذلك لم يكن الاختلاط يعني أن المساكن غير مميزة .

وانعكست المكانة البارزة للمسلمين فى المجتمع البوسني على تركيبة المدن الكبيرة والصغيرة ، حيث كان المسلمون البوسنيون يشكلون فى العادة أغلبية كبيرة . إذ كانوا

يسيطرون على الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية بصفتهم أصحاب الأملاك الأساسيين وحلفاء النظام العثماني (وبعد 1878 النمساوى المجري) الحاكم . ومع أن قوى التحديث أدت إلى نشوء تنوع كبير فى تركيبة مدن البوسنة على مدار القرن الماضي ، فلا تزال المدن فى ذهن كثيرين من البوسنيين معقل النخبة المسلمة البوسنية . ويختص بذلك وسط المدن بمساجده ومدارسه الرائعة وغيرها من مؤسسات العمارة والتعليم الإسلاميين.

الجغرافيا السياسية

كان تخلف البوسنة الإقتصادى تقابله عزلتها الجيوبوليتكية . فبحلول منتصف القرن التاسع عشر كانت البوسنة أبعد ما تبقى غرباً من الفتوحات العثمانية ، حيث كانت تحيط بها تقريباً دول أكثر فتوة أو أشد قوة تنتظر بفارغ الصبر زوال الحكم العثمانى (6) .

فإلى الغرب والشمال كانت هناك مملكة هابسبورج ، التى قُسِّمت بعد 1867 إلى قسمين ، نمساوى ومجرى ، وكثيراً ما يشار إليها بـ " المملكة الثنائية " . وحكم التاج المجرى كرواتيا وسلافونيا ، وتقع كلتاهما على حدودالبوسنة . ومن خلال ترتيب يتحدى المنطق ، كانت أراضي دالماتياالتابعة للتاج جزءاً من النصف النمساوى وكانت تُحكم بشكل منفصل عن البلدين الآخرين . وإذا كانت كل من كرواتيا وسلافونيا تمتعت بقدر من الحكم الذاتي النظرى بعد 1868 ، فواقع الأمر أن المجريين الذين عينوا البان (الحاكم) كانوا يحكمونها بيد من حديد نسبياً. ورغم الجهود المجرية للحد من الوعي القومي لدى الكاثوليك فى كرواتيا وسلافونيا ، فقد أخذ ينمو فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

وكانت دالماتيا ، الأرض التابعة للتاج النمساوى بلداً فقيراً نسبياً ذا مدن سياحية مشمسة يسكنها خليط من الإيطاليين والسلافيين وأراض داخلية قاصرة تقريباً على السلاف (الكروات الصرب) .

وكانت البوسنة على الخريطة وفى غرف الجلوس الإمبراطورية تمثل عقبة كؤود فى سبيل أحلام هابسبورج بغزو شبه جزيرة البلقان ونفوذها الكبير فيها . وبما أن العثمانيين أُخرجوا من أوروبا ، فقد بدت البوسنة فى أعين الكثير من الأوروبيين أبعد نقطة غرباً تابعة لإمبراطورية شهدت أياماً أفضل حالاً.

(6) للاطلاع على استعراض لهذه البلاد وتاريخها انظر :

Barbara Jelavich *History of the Balkans : Eighteenth and Nineteenth Century* ,1.Vol . (Cambridge University Press ,1983)

وإلى الشرق من البوسنة كانت تقع صربيا ، حيث قاد مربو الماشية من أصحاب العقلية المستقلة ثورة ناجحة فى أوائل القرن التاسع عشر أدت إلى ظهور إمارة صربية تتمتع بالحكم الذاتى . وكان سكان صربيا ، الذين يفخرون بنجاحهم فى طرد العثمانيين ، يطمعون فى أراضى البوسنة ، مدركين أن البوسنيين من أتباع العقيدة الأرثوذكسية الصربية قد يقتنعون يوماً بمساعدتهم فى ضم كل أراضى البوسنة أو بعضها وإقامة صربيا الكبرى .

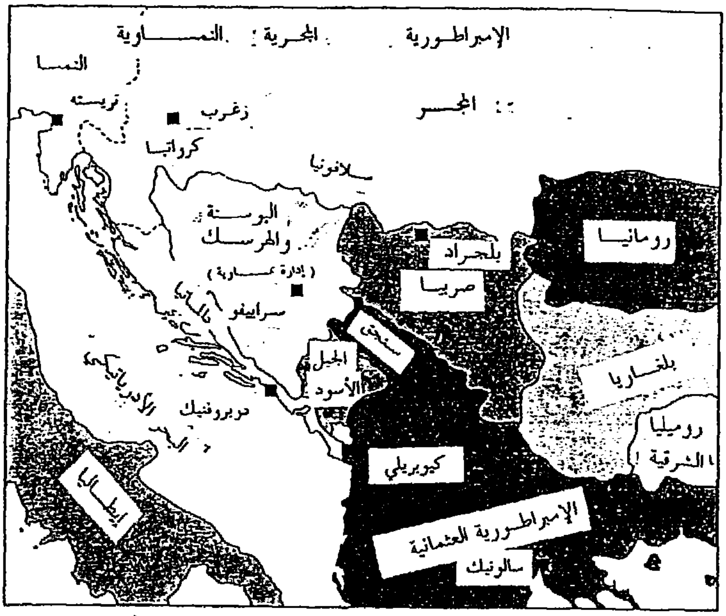
وإلى الجنوب الشرقى كانت إمارة الجبل الأسود ، وهي دويلة تقع على سلسلة جبال الألب الدينارية الوعرة . وكان سكانها ، وكثيرون منهم رعاة ، قد تربوا على تراث من الاستقلال الشديد . ولكون سكان الجبل الأسود مؤمنين بالعقيدة الأرثوذكسية الصربية ، فقد تعاطف معظمهم مع صربيا وكانوا يكنون مشاعر الود لإخوانهم الصرب ، وإن كان الولاء القبلــى بالنسبة لمعظمهم الجزء الأكثر أهمية فى هويتهم . وبما أن سكان الجبال قاوموا الهيمنة العثمانية قروناً عديدة ، فقد شجعوا قُطَّاع الطرق المسيحيين فى المناطق الحدودية فى شرقى الهرسك وفى البوسنة وأيدوهم فى كفاحهم ضد العثمانيين وملاَّك الأراضى المسلمين البوسنيين .

وكان ما يفصل صربيا عن الجبل الأسود ممر ضيق من الأرض يحمل اسماً غريباً هو سنجق نوفى بازارBazar Novi (البازار الجديد) . وكان هذا الإقليم ، وهو الرابط المشترك الوحيد بين البوسنة وسائر الإمبراطورية العثمانية ، ذا أهمية استراتيجية للسيطرة العثمانية .

فى هذه البيئة الخطرة ، كان حتماً أن يسترعى أى انشقاق كبير تشهده البوسنة اهتمام جيرانها وسائر أوروبا . وهكذا بدأت أزمة البوسنة فى الفترة من 1875-1878 .

سـنوات الـثورة 1875-1878

كان 1875 فى تاريخ البوسنة عام إراقة الدماء ، يقابله عام 1776 فى أمريكا وعام 1789 فى فرنسا وعام 1917 فى روسيا . وبالنسبة للبوسنيين ، كان هذا العام بداية نهاية الإمبراطورية العثمانية . فبعد ذلك بثلاث سنوات فقط حلت النمسا والمجر محل الإمبراطورية العثمانية سنة 1878 .



خريطة 5-1 الحدود السياسية فى البلقان عقب مؤتمر برلين (1878)

وفى 1875 تحولت انتفاضة للفلاحين فى الهرسك ضد سوء معاملة الملاَّك المسلمين بسرعة إلى ثورة للفلاحين المسيحيين فى أنحاء البوسنة والهرسك . ومع أن الانتفاضة بدأت كاحتجاج اجتماعى موجَّه ضد سوء معاملة العثمانيين وملاَّك الأراضى المسلمين ، فسرعان ما عبَّر بعض قادتها عن رغبتهم فى الوحدة السياسية مع صربيا ، وهو ما يعد مؤشراً على نمو القومية السياسية الصربية داخل المجتمع العرقى الدينى الأرثوذكسى وانتشار المثل القومية الصربية فى البوسنة والهرسك . وحظى الفلاحون الثائرون بدعم صربيا وتشجيعها ، وكذلك تأييد أعضاء الحركات السلافية فى روسيا ، الذى كانوا يأملون فى استغلال تلك المناسبة لبسط النفوذ الروسى على البلقان وفشلت القوى العظمى من خلال الدبلوماسية فى إجبار العثمانيين على تنفيذ الإصلاحات. وأعلنت صربيا والجبل الأسود الحرب على الإمبراطورية العثمانية فى صيف 1876. وعندما هزم العثمانيون الصرب هزيمة سهلة على أرض المعركة ، تدخلت روسيا فى الصراع إلى جانب صربيا والجبل الأسود ، معلنة الحرب على الإمبراطورية سنة 1877 . وبحلول ربيع 1878، كانت القوات الروسية قد تقدمت حتى وصلت إلى ضواحى اسطنبول . وسرعان ما شعرت بريطانيا وفرنسا بالخطر من احتمال تحقيق الروس لمكاسب على حساب العثمانيين ، وخاصة بعد فرض الروس للسلام فى سان ستيفانو فى مارس 1878، وهو السلام الذى أوجد بلغاريا ضخمة، يُفترض عالمياً أنها دولة ألعوبة فى يد الروس ، إلى الشرق والجنوب من صربيا .

ولكي تقضى القوى العظمى على المكاسب الروسية وتعيد تشكيل توازن القوى فى أوروبا ، عقدت اجتماعاً فى برلين فى يونيو 1878(7) . وأدى مؤتمر برلين إلى عقد اتفاقية تعيد توزيع خريطة جنوب شرقى أوروبا . ونصت اتفاقية برلين على تقليص حجم بلغاريا وأعادت الكثير من أراضيها إلى العثمانيين . ولكي تحمى الاتفاقية المصالح النمساوية المجرية فى البلقان ، أعطت البوسنة والهرسك لمملكة هابسبورج كي " تحتلها وتديرها ". الأمر الذى أصاب الصرب بخيبة أمل مريرة، وهم الذين كانوا يأملون فى أن يسفر التمرد الفلاحى فى سنة 1875 عن ضم البوسنة إلى صربيا.

(7) عقد مؤتمر برلين في 13 يونيو 1878 برئاسة المستشار الألماني أوتو فون بسمارك Otto Von Bismarck لإعادة التوازن بين القوى . وكانت معاهدة سان استيفانو (3 مارس 1878) التي انهت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية قد زادت من النفوذ الروسى في البلقان . كما أن تلك المعاهدة لم تحظ باعتراف انجلترا وفرنسا . لذلك دعت هاتان الدولتان إلى مؤتمر يعقد في برلين لمراجعة هذه المعاهدة بالتالي تسوية نتائج الحرب التركية الروسية . وفي المؤتمر اتُفق على توقيع معاهدة برلين التى نصت على منح الاستقلال التام لرومانيا والجبل الأسود والحكم الذاتى لبلغاريا ، على أن تدفع جزية سنوية للسلطان العثمانى وتنتزع منها مقدونيا . أما بلغاريا الجنوبية فصارت ولاية مستقلة تتمتع بالحكم الذاتي تحت سيادة الدولة العثمانية ويحكمها والٍ مسيحى وتخضع لرقابة الدول العظمى . وأعطيت النمسا حق احتلال البوسنة وسنجق نوفى بازار عسكرياً وإدارة هذه المناطق دون فصلها رسمياً عن الدولة العثمانية . وقع على معاهدة برلين مندوبو ألمانيا والنمسا والمجر وفرنسا وبريطانيا العظمى وإيطاليا وروسيا وتركيا . (المترجم)

الفصل السادس

الحكم النمساوى المجرى

1918 - 1878

دام الحكم العثمانى فى البوسنة ما يربو على 400 سنة . غير أنه منذ نهاية الحقبة العثمانية سنة 1878 حكمت البلاد خمس حكومات مختلفة : النمسا والمجر (1878-1918) ويوغوسلافيا الملكية (1918-1941) و " دولة كرواتيا المستقلة " الفاشية (1941-1945) ويوغوسلافيا الاشتراكية (1945-1991) وجمهورية البوسنة والهرسك التى ولدت ميتة (1992-؟) . وكان لأطول فترتين ، وهما النمسا والمجر ويوغوسلافيا الاشتراكية ، أبلغ الأثر فيما يتعلق بالوضع الراهن فى البوسنة .

الاحتلال العسكرى النمساوى المجرى، 1878

اعتباراً من الوقت الذى وُقعت فيه اتفاقية برلين فى 13 يوليو 1878 تعامل المسئولون فى الإمبراطورية النمساوية المجرية مع البوسنة على أنها أراض تابعة للمملكة وتحركوا بسرعة للاستيلاء على أراضيهم التى ظفروا بها حديثاً فى البلقان . عبرت أربع فرق إمبراطورية مؤلفة من 72 ألف جندى حدود البوسنة والهرسك يوم 31 يوليو 1878 . وتوقع دبلوماسيو المملكة وقادتها العسكريون أن تواجه الجيش مقاومة بسيطة ، أو ألا يلقى مقاومة بالمرة ، عند تقدمه فى المناطق الجبلية .

لقى خبر الاحتلال النمساوى المجرى الوشيك ترحيب معظم الكاثوليك البوسنيين ، فى حين تلقاه كثيرون من المسلمين البوسنيين بفزع . وأزاح مسلمو سراييفو السلطات العثمانية ، التى نال منها الضعف والوهن ، واستولوا على الذخيرة والأسلحة من الحاميات العثمانية ونظموا مقاومة حرب عصابات ضد دخول قوات النمسا والمجر . ومن بين الكتائب العثمانية الإحدى والأربعين المرابطة فى البوسنة فى صيف 1878 ، كانت ثلاثون تتكون من المجندين المسلمين البوسنيين الذين كانوا مستعدين للقتال من أجل وطنهم ضد المحتل " المسيحى " . وكانت تلك الوحدات ، بأسلحتها وذخيرتها ، نواة لقوات المقاومة . وانضم إلى الوحدات العثمانية مقاتلون غير نظاميين يدافعون عن المناطق المحلية . وفى مواضع

كثيرة انضم إليها الصرب المتعاطفون معها ، بما فى ذلك عصابات اللصوص فى شرقي الهرسك (1) .



شكل 6-1 جنود بوسنيون فى الجيش الإمبراطورى النمساوى المجرى

كانت مواجهة القوات النمساوية المجرية بأساليب حرب العصابات التقليدية ، التى تفضلها القوات المحلية فى كفاحها ضد المستعمر الأجنبى . وهاجم البوسنيون القوافل النمساوية المجرية من التلال المطلة على الطرق البدائية المؤدية إلى المناطق الداخلية . وتحرش القناصة بقوات المملكة وأجبروها على نشر وحدات حماية كبيرة لتوفير الأمن لصفوف القوات الرئيسية . وحتى بعد دخول القوات الإمبراطورية سراييفو من خلال القتال من بيت إلى بيت فى 19 أغسطس 1878 ، ظلت المقاومة فى الريف تزداد . وبما أن الجيش النمساوى المجرى كان قد عقد العزم على أن تكون له السيطرة قبل حلول فصل الشتاء ، فقد بلغت قواته مداها بوصول 268 ألف جندى قبل هزيمة القوات البوسنية فى خريف 1878 . ورغم الانتفاضة الكبرى التى تحدت السيطرة العسكرية النمساوية المجرية مرة أخرى فى 1881 / 1882 وبقاء العصابات الصربية كمشكلة دائمة فى شرقى الهرسك فى تسعينيات القرن التاسع عشر ، فقد هُزمت قوات المقاومة الرئيسية بحلول نوفمبر 1878 أمام أسلحة الجيش الإمبراطورى النمساوى المجرى وأساليبه المتفوقة .

(1) للاطلاع على موضوع انتصار الجيش النمساوي على حركة المقاومة انظر :

Robert Donia . « TheBattle for Bosnia : Habsburg Miletary Strategy in 1878» A ademija nauka i umjetnosti Bosne i Hercegovine. Posebna Izdanja. XLIII (Sarajevo .1979)pp .109- 21

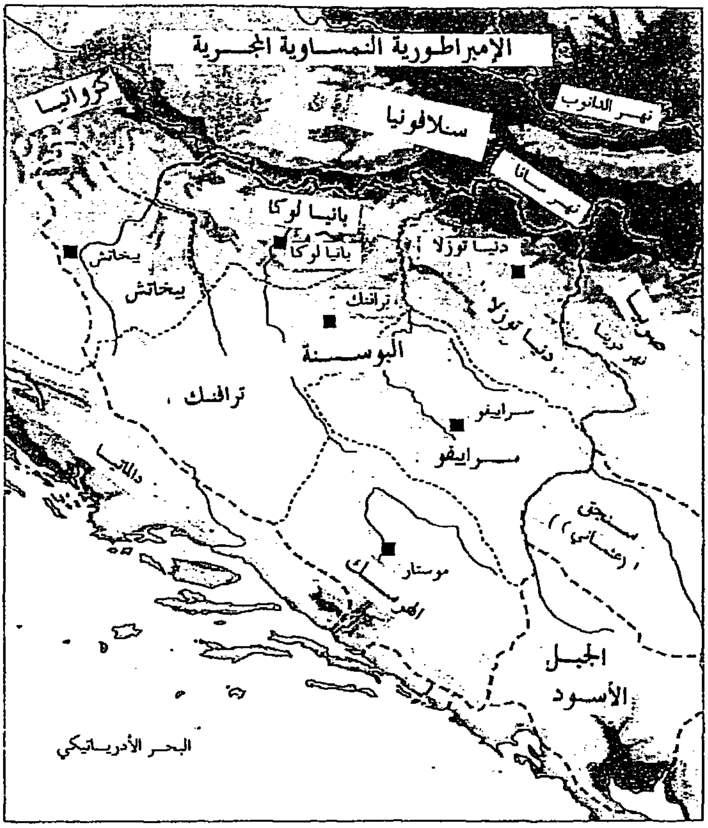
وعلى عكس فشل الألمان فى تأمين البوسنة عسكرياً فى الحرب العالمية الثانية ، كان بمقدور النمساويين كذلك الاستيلاء على المنطقة وتهدئتها تماماً . إلا أن ثمن ذلك كان باهظاً، حيث خصصت المملكة ما يربو على ثلث قدرتها القتالية المعبأة تعبئة كاملة لحملة البوسنة ومجنيت بخسائر قدرها 5 آلاف قتيل . والواقع أن هناك اختلافات كبيرة بين الموقفين ، بما فى ذلك نيف وستون سنة من التطور فى فنون القتال ووجود مقاومة فى الحرب العالمية الثانية اجتذبت متطوعين على قدر كبير من الحماس ينتمون إلى الطوائف القومية البوسنية الثلاث . وبالنسبة لهؤلاء المراقبين الذين لا يرون إلا اليأس فيما ينتظر من التدخل العسكرى الأجنبى فى الوضع البوسني الراهن ، يُعد النجاح النمساوى سنة 1878 حالة إرشادية للغزو الناجح الذى تقوم به قوة أجنبية وتستولى على الأرض .

الإدارة النمساوية المجرية

وألقى إمبراطور هابسبورج فرانتس يوزيف Franz Josef بمسئولية احتلال البوسنة وادارتها على عاتق وزارة المالية المشتركة ، وهى واحدة من الوزارات التى لا تدين بالولاء إلا للتاج . وبوضع الأراضى التى ضُمت حديثاً تحت إدارة وزارة المالية المشتركة ، تحاشى الإمبراطور حدوث نزاع دستورى حول أى شطر من شطرى الإمبراطورية النمساوية المجرية سيفوز بالأرض على حساب الشطر الآخر . كما أنه ضمن بذلك أن السياسات المتبعة فى البوسنة سوف تعكس فى المقام الأول مصالح التاج ، وليس مصالح قوميات الإمبراطورية المتنافسة .

وما أن باتت السلطة فى يد الإدارة النمساوية حتى فاجأت المراقبين الأوروبيين وخيبت آمال المسيحيين البوسنيين بإبقائها على الهيكل الإجتماعى القائم ، مع بعض التغييرات الطفيفة . ولأن السلطات الجديدة كانت تخشى حدوث فوضى اجتماعية قد لايمكن السيطرة عليها إن هى قضت على الوضع الريادى لطبقة ملاَّك الأراضى المسلمين ، فقد أبقت على التزامات الفلاحين المسيحيين الثقيلة نحو ملاَّك أراضيهم المسلمين . وأجرى النمساويون إصلاحات محدودة لتقنين طبيعة التزامات الفلاحين وتنظيمها ووضع نظام ثابت لتسجيل الأراضي وتشريع الإجراءات القضائية التى توفر للفلاحين بعض الحماية من سوء معاملة ملاَّك الأراضي المسلمين . وفى سنة 1911 صدر قانون يعتمد على أحد الإجراءات الإصلاحية العثمانية الذى يعود لسنة 1876 ، حيث شجع الفلاحين على شراء الأراضي التى يزرعونها . إلا أن الفلاح كان عليه أن يدفع تعويضاً كاملاً لصاحب الأرض ، وهو عبء قل من يتحمله . وكان لتلك الإجراءات المتواضعة دور بسيط فى حل المشكلة الأساسية . فقد امتد النظام البوسنى الغريب لتبعية الفلاحين إلى أوائل القرن العشرين. وأخذت المسألة الزراعية تتفاقم وظلت المصدر الرئيسى للمنازعة والصراع فى ظل الحكم النمساوى .

ورغم تحفظ سلطات المملكة الإجتماعى ، فقد حققت نجاحاً نسبياً فى تطوير البنية الأساسية لاتصالات البوسنة ومواصلاتها وفى تشجيع التصنيع(2) . ومُدت خطوط السكك الحديدية ، وإن كان ذلك فى ظل النفوذ القومي الغاشم لساسة المملكة الذين سعوا إلى أن يكون المسار مفيداً لدوائرهم الانتخابية . وتعود صناعة الصلب فى زينيتسا Zenica ، وسط البوسنة شمال غربي سراييفو ، إلى العهد النمساوى . وحققت مدن كبيرة وصغيرة كثيرة نمواً اقتصادياً وسكانياً جديداً ، حيث تضاعف عدد سكان سراييفو ثلاث مرات فى الثلاثين سنة الأولى من الحكم النمساوى . وأدى تدفق الكاثوليك من المملكة ، وأغلبهم من السلاف ، إلى إضعاف سيادة المسلمين فى سراييفو وغيرها من المدن الكبيرة والصغيرة.



خريطة ٦ – ١ البوسنة والهرسك فى ظل الحكم النمساوى المجرى (١٨٧٨ – ١٩١٨)

---

(2) Peter Sugar, *Industrialization of Bosnia-Hercegovina, 1914-1978* (Seattle: University of Washington Press, 1963).

ومرت السياسات النمساوية نحو المجموعات العرقية القومية الرئيسية فى البوسنة بثلاث مراحل . ففي المرحلة الأولى (1878 – 1903) شجعت السلطات النمساوية إحياء طبقة رجال الدين ونمو التعليم الديني فى البوسنة [3] . كما أنها دعمت المنظمات الدينية الخاصة بالأرثوذكس والكاثوليك والمسلمين البوسنيين ، أملاً فى منع ظهور الحركات السياسة . وفى الوقت نفسه شجع المسئولون الذين كانوا يعملون تحت إدارة بنيامين فون كالاى Benjamin Von Kallay وزير المالية النمساوى المجرى فى الفترة من 1882 إلى 1903 فكرة "البوسنوية" Bosnjastvo . وشجع هذا المفهوم الولاء الوطنى للبوسنة نفسها كبديل للهوية الكرواتية أو الصربية أو الإسلامية. وأملاً منهم فى منع القومية الصربية والكرواتية من ضرب جذورها فى البوسنة وفى الحصول على ولاء سكان البوسنة الأرثوذكس والكاثوليك ، شجعوا على استكشاف تاريخ البوسنة الفريد وفسروا موروثاتها الثقافية تفسيراً رومانسياً . ومن بين مؤسسات أخرى أقاموها ، أُنشيء المتحف الإقليمى فى سراييفو لحفظ شواهد قبور العصور الوسطى الضخمة وغيرها من الأعمال الفنية التى تعود لماضي البوسنة .

ومع أن الجهود النمساوية أسفرت عن نتائج ملموسة مهمة فى شكل مؤسسات ثقافية وتعليمية فى البوسنة ، نجد أن البوسنوية لم يكن لها صدى قوى لدى أهل البلاد . فقد كان تحديد الهوية حسب الطوائف العرقية الدينية على قدر من التقدم لدى عدد لا بأس به من البوسنيين ، بحيث لا يمكنهم إنكار هويتهم العرقية لمصلحة الوطنية الإقليمية . وبدلاً من أن يشكل الاكليروس التقليدى توازناً أمام النفوذ القومى الصربى والكرواتى ، كانوا فى كثير من الأحيان باعثاً على الحركات السياسية ذات الأسس العرقية التى تحدت سياسات الحكومة النمساوية . وكانت لجهود كالاى لمنع اختلاف الأراء أثرها الضعيف فى الحد من نمو الحركات السياسية . وعند وفاته سنة 1903 ، كانت الطوائف القائمة على أسس عرقية أقوى من أى وقت مضى وكانت تطالب بالحكم الذاتى لدوائرها وبصوت أقوى فى الحكومة.

(3) نظراً لكون الخليفة العثماني (السلطان) الزعيم الروحى جميع المسلمين ، أُضطرت الدول الأوروبية إلى الاعتراف له في كثير من الاتفاقيات الدولية الخاصة بالأراضى التى كانت تابعة للدولة العثمانية بحق الرقابة الدينية على شئون تلك البلاد بعد خروجها من نطاق الدولة العثمانية . وطبقاً لذلك كان للسلطان العثمانى حق السيادة الروحية والدينية على البوسنة والهرسك والاشراف على حياة المسلمين أثناء الاحتلال النمساوي . وكفلت الاتفاقيات التى أبرمت مع تركيا فى سنوات 1774 و 1878 و 1879 هذه الحقوق ونظمت العلاقة بين الخليفة المسلم وبعض التجمعات الإسلامية الواقعة تحت إدارة دول غير إسلامية . (المترجم)

وبدأت المرحلة الثانية من السياسات النمساوية نحو المجموعات البوسنية سنة 1903 بموت كالاى وتعيين خلفه استفان فون بوريان Istvan Von Burian وزيراً مشتركاً للمالية. واستمرت هذه المرحلة حتى نشوب الحرب سنة 1914 . وفى عهد بوريان أخذت السلطات تحرر سياساتها شيئاً فشيئاً وتسامحت مع الأنشطة السياسية والتعبير عن الرأى بشكل كبير . فسمحت للبوسنيين بتشكيل الأحزاب السياسية (4) وإصدار مجموعة من الصحف واستخدام أسماء قومياتهم التى ينتسبون إليها . وتفاوضت الحكومة مع ممثلى كل الأحزاب الكبرى ومنحت قدراً كبيراً من الحكم الذاتى الدينى والثقافى لكل من صرب البوسنة والمسلمين البوسنيين .

وفى سنة 1908 ، وبعد ثلاثين سنة من الكذبة القانونية التى تقول بأن المملكة كانت فقط تحتل الأرض بالنيابة عن القوى الأوروبية ، أعلنت النمسا والمجر ضم البوسنة والهرسك ضماً رسمياً . ومع أن هذا أثار عاصفة من احتجاجات القوى العظمى وأجج غضب البوسنيين فى الداخل ، فقد مرت الأزمة فى هدوء دون وقوع صراع مسلح . وفى العامين التاليين اعترفت القوى العظمى والإمبراطورية العثمانية وكل الأحزاب السياسية البوسنية الكبرى بالضم اعترافاً رسمياً ، الأمر الذى مهد الطريق أمام حقبة دستورية فى البوسنة دامت من 1910 إلى 1914 . وفى سنة 1910 أعلن المسئولون النمساويون دستوراً وشكلوا برلماناً وسمحوا بإجراء انتخابات تقوم على محدودية من لهم حق التصويت وعلى نظام " مجلس الشيوخ الرومانى " Curia المعقد الذى يضمن تمثيل الأحزاب السياسية القائمة على أسس عرقية ودوراً بارزاً لمرشحي الطبقتين الوسطى والعليا . وكان النمساويون يأملون بذلك زرع أحزاب معتدلة يسهل قيادها تتعاطف مع مصالح المملكة .

وفى المرحلة الثالثة اضطهدت السلطات النمساوية مجموعة واحدة ، هى صرب البوسنة ، من سنة 1914 وحتى انهيار المملكة سنة 1918 (انظر المزيد من المناقشة فى نهاية هذا الفصل) . ويكمن السبب وراء هذا التغيير الجذرى إلى شك السلطات فى أن صرب البوسنة كانوا يسعون إلى تقويض الدولة النمساوية فى زمن الحرب .

---

(4) بدأ التنظيم السياسى للمسلمين مع تكون الأحزاب السياسية للصرب والكروات زمن الاحتلال النمساوى . فقد ظهرت الهيئة القومية للمسلمين سنة 1906 وكانت من أقوى التنظيمات الحزبية . (المترجم)

كانت المرحلتان الأوليان من السياسة النمساوية المجرية ، فيما يتعلق بالقومية ، تنذران من عدة وجوه بمنهج تيتو والشيوعيين فى تناول قضايا القومية اليوغوسلافية والبوسنية فى حقبة يوغوسلافيا الاشتراكية (1945 - 1991) . فكما كان كالاى يأمل فى ظهور قومية بوسنية ، كان ما يتمناه تيتو هو نمو ولاء " يوغوسلافى " و ليس ظهور القومية الإقليمية من جديد . وعندما ثبت عدم جدوى تلك الآمال ، تحول كل من النظامين إلى التغاضى عن الأنشطة السياسية القومية فى إطار حدود كبيرة للقبول ، وإن رسم كل نظام تلك الحدود بطريقة مختلفة .

أما المرحلة الثالثة من السياسة النمساوية المجرية ، والخاصة باضطهاد مجموعة واحدة بعينها ، فلم تُمارس قط فى حقبة الاشتراكية . و لم يصل الاضطهاد خلال الفترة النمساوية المجرية فى مداه الى حملات الإبادة الجماعية التى شنها الأوستاشى إبان الحرب العالمية الثانية أو التطهير العرقى ، الذى أصبح جزءاً من بوسنة زمن الحرب سنة 1992 وما بعدها .

الحركات السياسية الحديثة
فى البوسنة

انعكس تخلف البوسنة الإقتصادى و الإجتماعى النسبي فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر على الحياة العامة أيضاً : فكانت الأحزاب السياسية والمنظمات الرسمية والصحف والأيديولوجيات التى صيغت صياغة جيدة ، وغيرها من الأمور التى تتميز بها حياتنا السياسية الحالية ، أكبر عدداً وأكثر تقدماً فى البلاد الكرواتية والصربية المجاورة عما هو الحال فى البوسنة عند بدء الاحتلال النمساوى المجرى سنة 1878 . ورغم التشجيع القوى من جانب أعضاء الطوائف السياسية فى الخارج فيما يتعلق بحالة الصرب والكروات ، فقد كان تطور القومية السياسية – بمفهوم الحركات السياسية المنظمة – بطيئاً جداً وغير متسق مع بداية القرن العشرين وما تلاها(5) .

(5) لمزيد من المعلومات المتعلقة الحركات السياسية في العهد النمساوي انظر :
Robert Donia, *Islam Under the Double Eagle*: *The Muslims of Bosnia and Hercegovina, 1878-1914* (Boulder Colo East European Monographs1981)

صرب البوسنة

أصبحت كوميونات[6] الكنائس والمدارس الأرثوذكسية مؤسسات محلية مهمة فى سنوات الإمبراطورية العثمانية الأخيرة . وبما أن الكوميونات كانت تتلقى الأموال والمساعدات من صربيا نفسها ، فقد وفرت التعليم وتولت صيانة منشآت الكنيسة على أفضل وجه ممكن . كما أنها انتعشت فى ظل الحكم النمساوى وأصبحت أساس أول تشكيل سياسى حديث فى البوسنة ، وهو الحركة المطالبة بالحكم الذاتى للكنائس والمدارس الصربية .

وتقدم زعماء الكوميونة الصربية فى موستار بأول التماس لهم إلى السلطات النمساوية سنة 1881 ، احتجاجاً على قانون يفرض التجنيد الإجبارى على أبناء البوسنة . ولكن الحركة لم تكن تتمتع بقدر كبير من التأييد حتى أواخر تسعينيات القرن التاسع عشر . ومع أن صرب موستار كانت لهم الريادة ، فقد انضم إليهم ممثلون لكوميونات الكنائس والمدارس من كل مناطق البوسنة والهرسك الرئيسية . وقد وزعوا الالتماسات وتفاوضوا مع الحكومة وبدأوا إصدار صحيفة "سربسكا رييتش" Srpska Rijec (الكلمة الصربية) وعقدوا اجتماعات لحشد التأييد الصربى فى المدن العديدة . وبعد صراع طويل أسفرت جهودهم عن اتفاقية مع الحكومة . وفى سبتمبر 1905 أصدر النظام تشريعاً يقضى بمنح الحكم الذاتى لكوميونات الكنائس والمدارس الصربية فى أنحاء البوسنة .

ووفرت حركة الحكم الذاتى للجماعة الصربية فى البوسنة التجربة السياسية والزعماء المعترف بهم وصحيفة وأولى منظماتها السياسية الرسمية ، إلى جانب تحقيق هدفها المعلن الخاص بحكم الكوميونات الذاتى . وفى الوقت نفسه عبأت حركة الحكم الذاتى العديد من المسيحيين الأرثوذكس كى ينظروا إلى أنفسهم على أنهم صرب . وفى أكتوبر 1907 اجتمع أعضاء الحركات الصربية وأعلنوا رسمياً تشكيل المنظمة القومية الصربية ، حيث شجعهم على ذلك الموقف النمساوى المتحرر إزاء التعبير عن الأراء السياسية . وكانت تلك المنظمة مظلة تنضوى تحتها ثلاث فصائل وظلت أقوى حزب صربي وفازت بكل المقاعد الواحد والثلاثين المخصصة للصرب فى البرلمان الذى انعقد سنة 1910 . وتعبيراً عما كان يقوله

---

(6) إصطلاح " كوميون " أو " قومون " يعني المدينة التي ارتبطت عناصر سكانها فى حلف وحصلوا على استقلالهم عن طريق ثورة مسلحة . إلا أن المؤرخين درجوا على إطلاق هذا الاصطلاح على كافة المدن التى تمتعت بنفوذ سياسى واسع . على أنه يمكن تحديد الكوميون بأنه المدينة ذات السلطة السياسية المستقلة ، بمعنى أن أهلها هم حكامها وموظفوها ، دون أن يكون هناك مندوب من قبَل سيد أو حاكم خارجى يتحكم فيها . (المترجم)

الصرب فى صربيا نفسها ، أكدت المنظمة القومية الصربية بشجاعة فى برنامجها السياسي أن البوسنة والهرسك أراض صربية ، وأن المسلمين البوسنيين صرب بالقومية كانوا قد اعتنقوا الإسلام .

واعتمدت المنظمة القومية الصربية ، شأنها فى ذلك شأن الأحزاب الرائدة التابعة للمجموعات العرقية الأخرى فى العهد النمساوى ، على قاعدة اجتماعية ضيقة بعض الشيء. ومع أن معظم الفلاحين الصرب كانوا يؤيدون الحزب ، فقد دخلت المنظمة القومية الصربية فى ائتلاف مع ملاَّك الأراضي المسلمين البارزين فى البرلمان وتراجعت عن الضغط من أجل إصلاح زراعى لإنهاء التزامات الأقنان المسيحيين الثقيلة . ومع ذلك كان الحزب أقل طاعة مما كانت السلطات النمساوية تأمله وظل يتابع القضية الصربية فى البرلمان والصحافة . وأصبحت المنظمة القومية الصربية أساس الأحزاب القومية الصربية البوسنية التى ظهرت فيما بعد فى يوغوسلافيا الملكية .

كروات البوسنة

بسبب قلة عدد الكاثوليك الذين دخلوا الطبقة الوسطى فى البوسنة عمن انضم إليها من الأرثوذكس الصرب، كانت للحركة القومية الكرواتية قاعدة اجتماعية أضعف من قاعدة الحركة الصربية . ولأن الحركات السياسية الكرواتية كانت تفتقر إلى مؤسسات مثل كوميونات الكنائس والمدارس الأرثوذكسية كى تجمع بين مصالح السكان الكاثوليك الدنيوية والدينية ، فقد نشأت الحركات السياسية الكرواتية بين المثقفين والطبقة الوسطى الصغيرة ، المتنامية ، وجماعة الفرنسيسكان .

وتنافس فصيلان على الزعامة ، حيث تبنى أولهما ، وكان ليبرالياً علمانياً ينتمى للطبقة الوسطى ، برنامجاً كان فى كثير من جوانبه النظير الكرواتى للمُثُل القومية المعتدلة الخاصة بالمنظمة القومية الصربية . وفى فبراير 1908 اجتمعت مجموعة صغيرة من الكاثوليك الكروات بالقرب من ترافنك وأنشات الاتحاد القومى الكرواتى . وزعم برنامجها الحزبى أن البوسنة والهرسك أراض كرواتية ، وأعلن أن المسلمين كروات ودعا إلى الوحدة مع الكروات فى بلاد المملكة الأخرى . وبذلك كان هؤلاء الكروات متماشين إلى حد كبير مع المجموعات الليبرالية الأخرى فى كرواتيا نفسها، فيما يتعلق بالدعوة إلى حل سلافى جنوبى شامل لمشاكل القومية فى المملكة ، وهي وجهة النظر التى عُرفت بـ " الثلاثية " . (وكانت الثلاثية فكرة تقوم على ضرورة توحيد الأراضى السلافية الجنوبية فى ظل حماية إمبراطور

هابسبورج ، لإيجاد بُعد سلافى جنوبى ثالث للمملكة ، إضافة إلى الكيانين المجرى والنمساوى.) واعترافاً من الاتحاد القومى الكرواتى بعجز الكروات عن تحقيق أغلبية فى البوسنة ، فقد سعى إلى ائتلاف مع حزب مـلاَّك الأراضى المسلمين البوسنيين . وتشجيعاً لهذا الائتلاف ، تحاشى الاتحاد المطالبة بإنهاء التزامات الفلاحين .

أما الصنف الثانى من الساسة الكروات ، ويمثله كبير الأساقفة يوزيف ستادلر Josef Stadler، فأصر على الكاثوليكية كأساس للهوية الشخصية لكل الكروات . وبصفة ستادلر مروجاً متحمساً للدعاية والدعوة الكاثوليكيتين ، فقد أنشأ الاتحاد الكاثوليكى الكرواتى فى يناير 1910 . وأكد برنامج حزبه على المثل الاكليركية والخصوصية الدينية . وبسبب التزام الاتحاد الكاثوليكى الكرواتى بالمذهب الكاثوليكى وجهوده لتحويل المسلمين إلى العقيدة الكاثوليكية ، كان الإئتلاف مع المجموعات السياسية المسلمة أمراً غير محتمل .

وفى انتخابات البرلمان البوسني سنة 1910 ، فاز الاتحاد القومي الكرواتي الليبرالى بإثنى عشر مقعداً . وفاز اتحاد ستادلر الكاثوليكى الكرواتى الإكليركى بأربعة فقط ، وهو ما يعكس التأييد الضخم لمنهج الاتحاد القومى الكرواتى الوطنى العلمانى . وفى بادىء الأمر استبعدت الأحزاب الكرواتية من الائتلاف الحاكم الذى ضم المسلمين والصرب البوسنيين. إلا أنه فى سنة 1911 تكون ائتلاف يضم المسلمين والكروات وظل قائماً إلى أن حُل البرلمان فى يونيو 1914 .

المسلمون البوسنيون

أكد كل من القوميين الصرب والكروات فى برامج أحزابهم المسيطرة على ادعاءات متطابقة ولكنها شديدة التضارب ، حين أصر كل فريق منهما على أن المسلمين البوسنيين جزء من أمته . فبدون ضم المسلمين لم يكن بوسع أى من الصرب أو الكروات تأكيد أحقيتهم المقبولة فى الأغلبية العددية فى البوسنة . وبدون المسلمين ، كان على كل من هاتين المجموعتين أن تلجأ (وهو مازال يحدث الآن) إلى المزيد من الحجج التاريخية أو الجيوبولتيكية الواهية لعرض قضيتها القومية . كان كل طرف يرغب فى المسلمين البوسنيين ، أو بالأحرى يحتاج إليهم . وكان ذلك هو الواقع الأساسى فى بوسنة فيما بعد العثمانيين حتى 1992 ، عندما أصبحت الغلبة للمتطرفين فى المعسكرين الصربى والكرواتى . وهنا لم يعد لدى أى منهما رغبة فى المسلمين . وما أثار رعب العالم أن

المتطرفين الصرب والكروات قرروا ، كل على حدة ،تحقيق السيادة الديموجرافية من خلال طرد المسلمين وخلق لاجئين دائمين فى أوروبا .

والأمر الثابت الثاني فى الحياة السياسية البوسنية ، ومازال قائماً حتى يومنا هذا ، هو أن المسلمين البوسنيين لايمكنهم العيش طويلاً دون تحالف أو ائتلاف مع شريك قومى سلافى جنوبي معهم . وحدث أكثر من مرة فى القرن الماضي أنهم كانوا نقطة ارتكاز الحياة السياسية ويدعمون الوسط ، سواء أكان وسط الحكومة البوسنية أم يوغوسلافيا ، ضد القوى المتطرفة . وإذا كان من المؤكد أن هناك تعصباً بين المسلمين ، وأنهم شاركوا أحياناً فى تحالفات معارضة فى مواقف برلمانية ، فقد كانت الفكرة السائدة فى سياسة المسلمين البوسنيين هي مطالبتهم بتحالف سياسى مستقر ودائم وتأييد للكيانات متعددة القوميات يحمي مصالحها . ومنذ الحقبة النمساوية إلى الآن ، عاش المسلمون البوسنيون كخبراء وبناة تحالفات براجماتيين ، وكانوا المجموعة " المرجحة " التى تتحمل أكبر قدر من الخسارة . ومع أنه كثيراً ما كان لهم دور حيوى فى خلق تحالفات ناجحة ، فقد كانت لهم أيضاً سمعة سيئة بين غيرهم من السلاف الجنوبيين بأنهم انتهازيون تحكمهم مصالحهم الذاتية .

وكانت نهاية الحكم العثمانى صدمة لمسلمين بوسنيين كثيرين . ورغم أن ملاَّك الأراضي المسلمين كانوا يتحدثون اللغة الصربوكرواتية ويعارضون فى بعض الأحيان حكم البلاد من اسطنبول ، فقد كانوا يعتبرون أنفسهم جزءاً مهماً من النخبة المتميزة التى كانت تهيمن على الإمبراطورية العثمانية . وكانت احتمالات العيش فى ظل محتل غربى مسيحى تخيف الكثيرين . وفى السنوات الأولى من الاحتلال النمساوى ، هاجر الآلاف من البوسنة متجهين شرقاً إلى اسطنبول وغيرها من المناطق التى ظلت خاضعة للحكم العثمانى . وثار بعض المهاجرين سياسياً ضد السياسات النمساوية ، واحتفظوا بعلاقات بالمسلمين الذين ظلوا فى البوسنة .

وكما هو حال صرب البوسنة ، أصبح المسلمون قلقين بشأن قدرة مؤسساتهم الدينية والتعليمية والثقافية على البقاء وبدأوا حركة تطالب بالحكم الذاتى(7) فى تسعينيات القرن

---

(7) كانت إحدى هيئات الحكم الذاتي للمسلمين قد تكونت فى البوسنة بالمرسوم القيصرى النمساوى الصادر فى 17 أكتوبر 1882 ويكفل قيام السلطة الدينية العليا للمسلمين تحت اسم " مجلس العلماء " برئاسة أجدرهم ، وهو " شيخ العلماء" وأول شيخ للعلماء هو جمال الدين شاأوفتش وكانت له مواقف صلبة ومشرفة فى الدفاع عن أحوال المسلمين ورعاية مصالحهم وتخليص شعب البوسنة من نير الاستعمار النمساوى المجرى . **(المترجم)**

التاسع عشر . ومما أثار مخاوفهم تلك الجهود العدوانية من جانب كبير الأساقفة ستادلر وأتباعه الكاثوليك لتنصير المسلمين . وفى معظم الحالات كان التنصير مرتبطاً بزيجات مختلطة محتملة أو غيرها من مواقف الضرورة الاجتماعية . ومع أن جهود ستادلر لم تلق إلا نجاحاً محدوداً ، فقد دفعت المسلمين إلى العمل السياسي دفاعاً عن عقيدتهم وكيان طائفتهم العرقية الدينية .

وفى سنة 1899 اختفت فتاة مسلمة (8) عمرها ست عشر سنة تُدعى فاتا أومانوفتش Fata Omanovic من قريتها القريبة من موستار وهربت إلى دالماتيا تحت حماية الكنيسة ، حيث اعتنقت المذهب الكاثوليكى لتتزوج خطيبها الكاثوليكى . وعندما رفض كبير الأساقفة ستادلر وغيره من المسئولين الكاثوليك الإفصاح عن مكانها ، طالب مسلمو موستار الحكومة بالتدخل وإعادة الفتاة إلى بيت أسرتها . وتحت قيادة المفتى علي جابتش Ali Dzabic أعد مسلمو موستار التماسات وأرسلوا وفوداً إلى السلطات النمساوية المجرية ، مطالبين بقدر أكبر من السيطرة على المؤسسات التعليمية والثقافية التى يتلقى فيها أبناؤهم تعليمهم . وهكذا حوَّل المفتى الجاد الورع مخاوف مسلمى موستار إلى حملة من أجل النقاء الديني والسلفية الإسلامية .

وسرعان ما اجتذبت الحركة دعم ملاَّك الأراضى المسلمين الذين يعيشون فى المدن البوسنية الصغيرة . وتمشياً مع سياسة كبت الأنشطة السياسية من أى نوع ، التى اتبعها كالاى ، تحرشت سلطات النظام النمساوى بقادة الحركة وأرهبتهم . وفى سنة 1902 هاجر المفتى جابتش إلى اسطنبول احتجاجاً على تحرشات الحكومة . وبعد ذلك تولى ملاَّك الأراضى المسلمون قيادة الحركة وطالبوا الحكومة باحترام أحقيتهم فى تحصيل مستحقاتهم لدى الفلاحين المسيحيين .

وبعد وفاة كالاى وتعيين بوريان سنة 1903 ، أدى منهج الحكومة الأكثر تساهلاً مع الحركات السياسية إلى إجراء مفاوضات مع زعماء الحركة . وطالب المفاوضون المسلمون بإنشاء مؤسسات إسلامية منفصلة تتمتع بالحكم الذاتي ، لحماية مصالح كل المسلمين والبوسنيين . وبعد سنوات من المفاوضات المتقطعة ، أصدر النظام الحاكم فى مايو 1909 تشريعاً يلبي كل مطالب المسلمين تقريباً . وأوجد هذا التشريع منصب رئيس العلماء فى

---

(8) جاء اسمها فى مصادر عربية " فاطمة عثمان " وأشارت المصادر نفسها إلى أن " علي أفندى جابتش الذى سُميت هذه الحركة باسمه " كان على رأس من وقعوا الالتماس . (المترجم)

البوسنة . وكان رئيس العلماء زعيماً للطائفة الإسلامية ويتولى مسئولية الحفاظ على المؤسسات الثقافية والدينية . وإلى جانب ذلك ، نص التشريع على أن تدير المؤسسات الخيرية الإسلامية ، المعروفة بالأوقاف ، لجنة أوقاف ينتخبها السكان المسلمون(9) . وأصبحت تلك المؤسسات جزءاً دائماً من الحياة الإسلامية البوسنية وظلت قائمة حتى يومنا هذا ، وإن أُدخلت عليها تعديلات مهمة .

وعن طريق الدفاع عن مبادىء الشريعة الإسلامية وحماية الكيان الإجتماعى الإسلامي، نجحت النخبة الإسلامية فى تمثيل مصالح كل المسلمين ، حتى وإن لم يشكل ملاَّك الأراضى سوى أقلية صغيرة العدد . وفى الوقت نفسه أعلن ملاَّك الأراضى المسلمون الذين اتخذوا جانب حركة الحكم الذاتى أن الشريعة الإسلامية ينبغى أن تسود فى العلاقة بين ملاَّك الأراضى والفلاحين الذين يعملون فى أراضيهم .

وكان تشريع الحكم الذاتى يزيد على مجرد كونه انتصاراً لطائفة المسلمين الدينية . فقد ضمن كذلك بقاء طبقة ملاَّك الأراضي المسلمين وامتيازاتها . ورغم الفوائد التى حققها المفاوضون لطبقة ملاَّك الأراضى ، فقد ظلوا يحتفظون بتأييد الفلاحين المسلمين والطبقات الدنيا الحضرية . كما أن حركة الحكم الذاتى الإسلامية أقرت سابقة تقديم مصالح الزعماء السياسيين الدنيوية على هموم الطائفة الدينية ، رغم أهمية هذه الهموم عند الشروع فى العمل السياسى . وتكرر هذا النمط على مدى القرن العشرين وكان يعنى أن المسلمين البوسنيين أصبحوا مجتمعاً على قدر كبير من العلمانية لا يميل إلى تبني الأصولية الدينية التى اجتذبت المسلمين فى أماكن أخرى .

وفى ديسمبر 1906 أنشأ ملاَّك الأراضي المسلمين حزباً سياسياً رسمياً باسم المنظمة القومية الإسلامية . وكما كانت المنظمة القومية الصربية نتاجاً مباشراً لحركة الحكم الذاتى الصربية ، كانت المنظمة القومية الإسلامية التجسيد الرسمى للقيادة التى

---

(9) يرجع انشاء الأوقاف فى البوسنة كمؤسسات خيرية دينية إلى بداية النصف الثانى من القرن الخامس عشر بعد دخول العثمانيين واعتناق أهلها الإسلام . ومن خلال الأوقاف ، شيدت أضخم المنشآت الإسلامية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر وساهم فى ذلك السلاطين العثمانيون ووزراؤهم وولاتهم إلى جانب التجار والصناع والعلماء ، رجالاً ونساءً . والأوقاف دينية ثقافية ، كالجوامع والكتاتيب والمدارس ، واجتماعية خيرية ، كالمسافر خانة والعمارات والطرق والجسور ، واقتصادية ، كالعقارات والبزستانات (المراكز التجارية) والدكاكين والكروان سراى (مراكز القوافل) والحمامات . وفى 1909 وقع الامبراطور النمساوى فرانيو يوزيف اللائحة الخاصة بإدارة الأوقاف فى البوسنة والهرسك التى تكونت بناء عليها الجمعية العامة للأوقاف والمعارف وتضم مجلس الأوقاف وإدارة الأوقاف . (المترجم)

كانت تسيطر على الحكم الذاتى الإسلامى منذ سنة 1900 . وسيطرت المنظمة القومية الإسلامية وخليفتها فيما بعد 1918 ، المنظمة الإسلامية اليوغوسلافية ، على السياسية الإسلامية البوسنية حتى سنة 1941 .

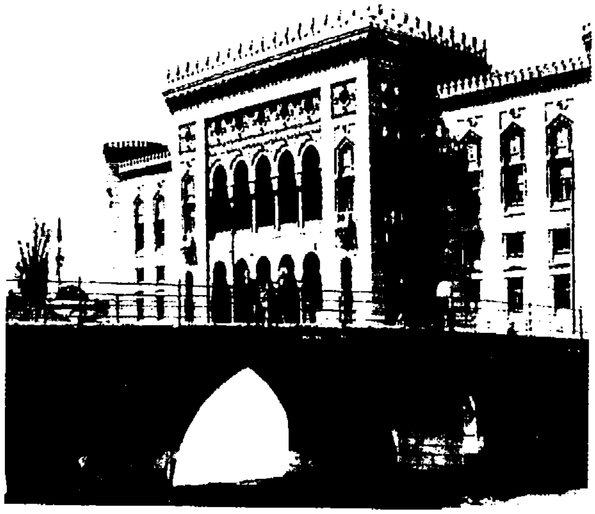
أثار قرار النمسا ضم البوسنة سنة 1908 غضب المنظمة القومية الإسلامية وألهب مشاعرها. وفى فبراير 1910 ، وبعد كثير من القلاقل والاضطرابات، أصبح الحزب آخر الأحزاب الكبرى التى تقوم على أساس عرقى فى البوسنة ، فيما يتعلق بالاعتراف رسمياً بالأمر الواقع النمساوى . ومهَّد إعلان الولاء هذا الطريق لمشاركة المسلمين فى برلمان البوسنة . وفى انتخابات البرلمان الذى انعقد سنة 1910 ، فازت المنظمة القومية الإسلامية بكل مقاعد المسلمين الأربعة والعشرين. وكما حدث فى مفاوضات الحكم الذاتى الثقافى ، كانت مهمة المنظمة القومية الإسلامية الأولى حماية الامتيازات القديمة التى يتمتع بها ملاَّك الأراضى المسلمون فى مواجهة مطالبة الفلاحين المسيحيين بالإصلاح الزراعى .

وبعد أن ضمن الزعماء المسلمون البوسنيون الحكم الذاتى الثقافى والدينى ، وتأييد الحكومة لامتيازات ملاَّك الأراضى ، أصبحوا أكثر مؤيدى النظام الحاكم النمساوى فى البوسنة ولاء فى الحقبة الدستورية من حكم المملكة (1910 – 1914) وكانت قصيرة ولكنها شديدة الاضطراب . ففى السنة الأولى كان المسلمون متحالفين مع المنظمة القومية الصربية ، التى وافق زعماؤها بصورة غير منطقية على عدم ادراج مسألة الإصلاح الزراعى فى جدول الأعمال . وانتهى ذلك التحالف سنة 1911 عقب انتفاضة فلاحية كانت تستهدف ملاَّك الأراضى المسلمين . وشك زعماء المنظمة القومية الإسلامية فى أن يكون القوميون الصرب هم َمن أشعل الثورة . وفى سنة 1911 دخلت القيادة المسلمة ، المؤمنة بمهمتها التاريخية كحارس للائتلافات تأييداً للحكم المركزى ، فى تحالف مع الاتحاد القومى الكرواتى. وفى المقابل ، وافق الكروات على عدم معارضة بقاء مزايا ملاَّك الأراضى المسلمين . وأصبح الصرب فى المعارضة وظلوا حزباً معارضاً بقية الحقبة الدستورية ، حيث شجعهم نجاح صربيا المجاورة فى حروب البلقان فى عامى 1912 و 1913 .

وسرعان ما تحولت جلسات البرلمان البوسنى إلى مواجهات عاصفة . وأصبحت الشتائم والاعتراض الإيجابي والخروج من القاعة هى الأشكال الشائعة للتعبير عن اختلاف الأراء السياسية . لقد ولت الحياة الدستورية فى البوسنة لتفسح الطريق أمام بداية صعبة.

المسلمون البوسنيون والتعبئة القومية

عندما دخلت البوسنة الحقبة السياسية الحديثة ، خطب الكثير من القوميين الصرب والكروات ود المسلمين ، أملاً فى أن يتخذ بعضهم أو كلهم هوية قومية صربية أو كرواتية . وصادفت حملات التعبئة تلك نجاحاً محدوداً فى كل من العهدين النمساوى واليوغوسلافى الملكي. ومن ناحية أخرى، كان الفشل التام لتلك الجهود تعبيراً صادقاً عن مدى عمق الهوية الإسلامية بعد العهد العثمانى.



شكل 6 - 2 مبنى بلدية سراييفو فى ظل الحكم النمساوى المجرى . تحول فيما بعد إلى مكتبة . وقد احترق المبنى بما فيه من جراء القصف الصربى سنة 1992 .

واجتذبت القضايا القومية الصربية والكرواتية بعض الكوادروالمثقفين المسلمين . وأكد معظم المسلمين على أن هويتهم مرتبطة بالعقيدة الدينية ، تاركين مسألة هويتهم القومية سؤالاً بلا جواب حتى الحقبة الاشتراكية . وبناء على ذلك ، امتدت يد كل من الصرب والكروات بما يعد دعوة مفتوحة للمسلمين كي يعلنوا أنفسهم صرباً أو كرواتا . وبينما أشهر ذلك عدد قليل من المسلمين ، فإن من فعلوه كانوا عادة من المثقفين أو أعضاء الحركات

السياسية البارزين . وكثيراً ما كانت القومية التى تحظى بهم تحتفي بتلك الإشهارات علناً ، كدليل على قوتها وتفوقها .

وعموماً ، كان عدد المسلمين الذين أشهروا أنهم كروات قبل بداية القرن أكبر . وكان كثيرون منهم مثقفين صغار سبق أن تلقوا تعليمهم فى زغرب أو فيينا ، حيث تعرضوا للمُثُل القومية الكرواتية . إلا أنه بعد سنة 1900 ازدادت الفرص العالمية أمام صربيا المستقلة ، واجتذب الخيار الصربي عدداً أكبر من الإشهارات .

ولكن الأيام أثبتت أن إشهارات المسلمين البوسنيين عابرة وسطحية . فقد كان المسلمون ينتقلون من هوية قومية إلى أخرى ، تقريباً بنفس السهولة التى ينتقل بها أى أمريكي من حزب سياسي إلى آخر . وهؤلاء الذين أشهروا صربيتهم أو كرواتيتهم احتفظوا بهويتهم الأساسية كمسلمين وأعضاء فى الطائفة الإسلامية القائمة على العقيدة الدينية . وفى حين أصبح لهم دور فعال فى المنظمات الصربية أو الكرواتية بعضاً من الوقت ، استمر معظمهم فى القيام بدور سياسى نشط فى المجموعات المسلمة ، مؤدين بذلك دوراً مزدوجاً تكتيكياً . وحتى فى ذروة التعاون الكرواتي المسلم سنة 1911 ، رفضت المنظمة القومية الإسلامية صراحةً البرنامج القومى الكرواتى الذى دعا إلى جعل البوسنة جزءاً من كرواتيا .

وأصبحت الصفة القومية المميزة كصربى أو كرواتى أمراً مقبولاً . بل كانت سمة سائدة بين الساسة والمثقفين المسلمين من العهد النمساوى حتى زمن يوغوسلافيا الاشتراكية . ومن بين المسلمين الذين انتخبوا لعضوية المجلس التأسيسى فى يوغوسلافيا الملكية فى نوفمبر 1920 ، أشهر ثلاثة عشر كرواتيتهم وخمسة صربيتهم وأعلن واحد أنه يوغوسلافى وآخر أنه بوسنى وبقى أربعة لم يعلنوا شيئاً.[(4)] إلا أنه بحلول السبعينيات من هذا القرن عبَّر عدد قليل من المسلمين عن " الصفة " كصربى أو كرواتى . ومع ذلك ظل القوميون الصرب والكروات متمسكين بالاعتقاد بأن أى مثقف مسلم بوسنى له صلة روحية بأى من الصرب أو الكروات ، رغم نفيه لذلك فى العلن .

ويوضح إخفاق الصرب والكروات فى الإيحاء بأى ولاء له قيمته نحو قضاياهم بين المسلمين البوسنيين ، إلى جانب ميل المسلمين الذى لايخفى على أحد إلى العمل بشكل منفصل فى سعيهم نحو مصالحهم السياسية ، أن الهوية الإسلامية البوسنية المنفصلة تعمقت جذورها بحلول سنة 1900 ، بحيث لم يعد بإمكان أى حركة قومية كرواتية أو صربية

Atif Purivatra, Jugoslavenska Muslimanska Organizacija u Politickom Zivotu (4) Kraljevine, Srba, Hrvata i Slovenaca (Sarajevo : Svjetlost 1967)p.III.

أن تحتويها . ولم ير مسلمون كثيرون أن هناك عدم توافق بين هويتهم كمسلمين بوسنيين والقبول العارض لأى "صفة مميزة" قومية صربية أو كرواتية ، بل إن مثل هذا القبول لم يكن له أثر كبير على تغيير ولائهم السياسي الأساسي وسلوكهم كمسلمين بوسنيين . وكان وراء انصراف بعض المسلمين ذلك التشدد القومي لدى القادة السياسيين الصرب والكروات ، وخاصة هؤلاء الذين كانوا يصرون على أن الدين (المذهب الأرثوذكسى بالنسبة للصرب والكاثوليكى للكروات) جزء لا يتجزأ من الهوية القومية . ومع ذلك كان معظم المسلمين ، حتى العهد الاشتراكى ، يقاومون بإصرار مقترحات تحديد هويتهم على أسس قومية ، واختاروا عوضاً عن ذلك الهوية الدينية القائمة على الأسس التاريخية والتراث الثقافى .

الانتفاضات والثورات الشعبية

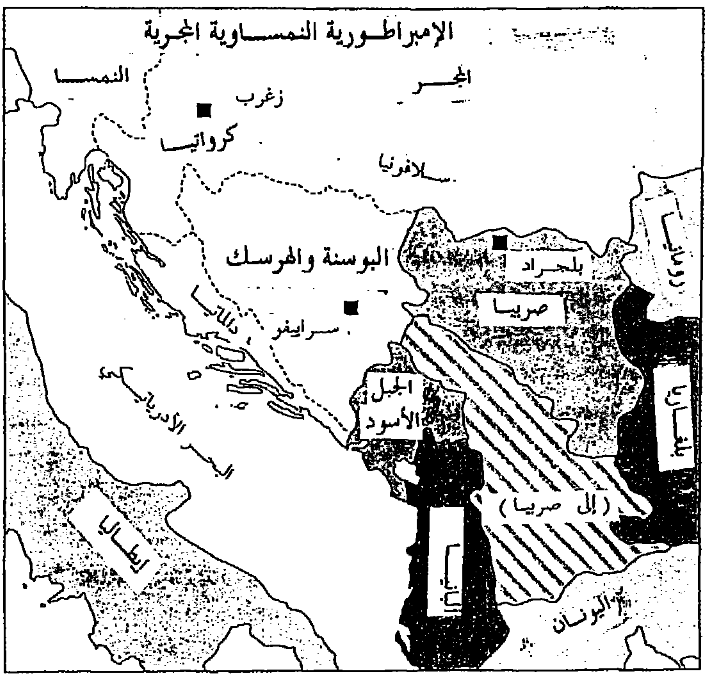
بالإضافة إلى الحركات السياسية واسعة المدى التى أدت إلى نشوء الأحزاب السياسية ، كانت هناك بعض أحداث العنف المتفرقة التى تناثرت على الرقعة التاريخية البوسنية فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وكانت أحداث العنف تلك صراعات اجتماعية فى معظمها . إذ كانت بالدرجة الأولى عبارة عن فلاحين يهبون اعتراضاً على تجاوزات ملاّك الأراضي المسلمين أو لمقاومة الدولة العثمانية أو النمساوية . أما الصراعات وأعمال العنف العرقية أو القومية بحق فلم تكن معروفة حتى أوائل القرن العشرين .

وكان أكل حقوق الفلاحين أمراً شائعاً فى البوسنة رغم جهود الإصلاح العثمانية – فى قوانين وفرمانات 1839 و 1856 و 1858 – لتقنين حقوق الفلاحين ووضع حد لجشع ملاّك الأراضى المسلمين . وثار الفلاحون مرات عديدة فى السنوات الأخيرة من الحكم العثمانى. وكان سكان شرقى الهرسك ، المجاور للجبل الأسود ، من الفلاحين والرعاة الأصعب مراسا. وكان لهؤلاء دور رائد فى الثورة الكبرى التى اندلعت سنة 1875 وأدت إلى نشوب الحرب الروسية التركية وإلى زوال النفوذ العثمانى من البوسنة فى نهاية الأمر .

وكما أشرنا آنفاً ، لقى الاحتلال العسكرى النمساوى سنة 1878 مقاومة شديدة من القوات البوسنية التى قادها مسلمون . ومع أن الغلبة كانت للنمساويين فى نهاية الأمر ، فقد كانت تهدئة الأوضاع فى شرقى البوسنة على وجه الخصوص مسألة صعبة . وفى محاولة من النظام الحاكم النمساوى للحصول على دعم القوات المحلية لحكمه ، سُمح لها بالاحتفاظ بقادتها. وفى سنة 1881 أعلن النمساويون أن التجنيد الإجبارى سوف يمتد إلى الأراضى المحتلة ، مما أدى إلى تمرد شرقى البوسنة من جديد . ومع أن المقاومة الرئيسية أُخمدت بحلول سنة 1882 ، فقد استمرت المعركة مع رجال العصابات والخارجين على

القانون شرقى البوسنة مدة تربو على العشر سنوات. ومرة أخرى ثار فلاحو البوسنة سنة 1910 ، لخيبة أملهم فى المحاولة النمساوية غير المخلصة للإصلاح الزراعي سنة 1906 التى "وضعت متوسطاً" لالتزامات الفلاحين على مدى عدة سنوات دون أن تلغيها . وشك المسلمون فى المنظمة القومية الإسلامية أن يكون القوميون الصرب وراء الثورة .

وفى أوائل القرن العشرين تصاعدت حدة الاحتكاك بين النمسا وصربيا المستقلة ، الأمر الذى شجع صرب البوسنة على حل ائتلافهم البرلمانى مع المسلمين البوسنيين . وفى سنة 1906 ، وفى إطار محاولة فاشلة لإجبار صربيا على إلغاء اتفاقية اقتصادية مع بلغاريا ، أغلقت مملكة هابسبورج حدودها فى وجه الماشية الصربية . وانتهت أزمة ضم البوسنة سنة 1908 بانتصار دبلوماسى نمساوى . إلا أنها أدت فيما بعد إلى تزايد حدة التوتر بين المملكة وصربيا أكثر فأكثر . وفى حروب البلقان عامى 1912 و 1913، ضاعفت صربيا أراضيها تقريباً على حساب الإمبراطورية العثمانية . وعندما مرت تلك الحروب دون التدخل العسكرى النمساوى ، توصل سلاف جنوبيون كثيرون إلى أن هناك مبالغة فى قوة النمسا العسكرية وأصبحوا يزدرون مملكة هابسبورج .



خريطة 6 - 2 خريطة سياسية للبلقان توضح المكاسب الصربية فى حروب البلقان (1912 - 1913)

وبحلول سنة 1914 كانت أصداء الأحداث العالمية تتردد فى البوسنة وكان تأثيرها أكثر تدميراً من أى وقت مضى . فقد كانت حروب البلقان فاتحة عهد من التوتر الدائم فى مناطق البوسنة والهرسك الحدودية المجاورة لصربيا والجبل الأسود . وكان حرس الحدودالنمساويون يعترضون سبيل المتسللين الذين يحملون القنابل والبنادق ومواد الدعاية. واكتشفت الشرطة بوسنيين مدججين بالسلاح يحملون مؤناً وملابس جنود من صربيا والجبل الأسود . وكان رجال العصابات يشتبكون مع دوريات الحدود النمساوية ويفرون دون أى عقاب إلى الملاذات الآمنة الجبلية فى الدول المجاورة . وفى تلك الأقاليم الريفية الحدودية ، شملت القلاقل التى سادت عشية الحرب العالمية الأولى توليفة من سخط الفلاحين وأعمال اللصوصية وتأجج الشعور القومى الصربى .

القلاقل الطلابية واغتيال فرانتس فرديناند

لاشك فى أن أكثر أحداث العنف شهرة فى تاريخ البوسنة هو اغتيال الأرشيدوق النمساوى فرانتس فرديناند Franz Ferdinand فى سراييفو يوم 28 يونيو 1914(10) . وكان الأرشيدوق الوريث الشرعى لعرش هابسبورج الإمبراطورى الذى كان يجلس عليه فرانتس يوزيف ، الذى كان قد مضى عليه فى الحكم ست وستون سنة . وكان لدى القوميين الصرب شك فى تعاطف الأرشيدوق مع الثلاثية . وحيث إن هذا البرنامج الذى يقتضى بالضرورة حصول صربيا المستقلة على مزيد من الأراضى سوف يحال دون تنفيذه ، فقد رأى الذين نفذوا عملية الاغتيال أن الأرشيدوق كان يمثل تهديداً للمطامح القومية الصربية .

ومن بين الثمانية الذين قاموا بالعملية كان سبعة من الصرب البوسنيين ، أما الثامن فكان مسلماً بوسنياً . وأُلقى القبض على الثمانية جميعاً . وتوفى القاتل الفعلى ، ويدعى جافريلو برنتسيب Gavrilo Princip بالسل داخل سجن هابسبورج فى تيريزينشتات Theresienstadt سنة 1918 . وأظهرت التحقيقات النمساوية أن الجناة كانوا أعضاء فى " بوسنة الفتاة " Mlada Bosna ، وهى طائفة طلابية سرية ترتبط بالجمعية السرية الصربية " اليد السوداء " ومجموعة تعرف بـ " الدفاع القومى " Narodna Odbrana . وقد وفرت " اليد السوداء " ، التى كان من بين أعضائها عدد من كبار ضباط الجيش الصربى ،

(10) تجدون رواية رائعة للاغتيال وملابساته التاريخية فى :
Dedijer, The Road to Sarajevo (London: Mac Gibbon and Kee, 1967)

السلاح والتدريب والدعم لمرتكبى الاغتيال . ورغم ارتباط المتآمرين بالجمعيات السرية الصربية ، فقد كانوا بوسنيين . وكان كثيرون على اتصال بالحركات الطلابية النامية فى موستار وسراييفو ، التى اتهمت أحزاب البوسنة التقليدية بعدم الجرأة وقبولها الحلول الوسط بتعاونها مع النمسا .

وأدى الاغتيال إلى اندلاع مظاهرات معادية للصرب فى سوق سراييفو . وضربت جماهير المسلمين البوسنيين والكروات الكاثوليك ، التى لم يعقها تدخل الشرطة فى أول الأمر ، الصرب البوسنيين ونهبت متاجرهم . وفى برلمان البوسنة أصدرت الأحزاب الكبرى قراراً يدين الاغتيال . ووقتها حلت الحكومة البرلمان ولم تعده مرة أخرى . وبذلك انتهت المحاولة النمساوية لإقامة نظام سياسى قابل للبقاء ، يقوم على دستور وحكم برلمانى محدود فى البوسنة .

الحرب وزوال مملكة هابسبورج

لم يشعل قتل الأرشيدوق الحرب بين مملكة هابسبورج وصربيا على الفور ، ناهيك عن الحرب العالمية التى كان احتمالها يكمن فى أن كلاً من الطرفين ينحصر بشدة فى أحد تحالفين أوروبيين متنافسين . وكان هذا يعني أن أى صراع محلي يمكن تأجيجه بسهولة ، ليصبح جحيماً يشمل كل أوروبا ويدفع ألمانيا والنمسا والمجر وحلفاءهما (قوى المحور) ضد فرنسا وانجلترا وروسيا (قوى الحلفاء) . وأشعل الفتيل يوم 23 يوليو 1914 عندما قدمت النمسا والمجر انذاراً من عشر نقاط مدته أربع وعشرون ساعة لصربيا ، تطالبها فيه بوقف الأنشطة المعادية للنمسا فى صربيا وبحق الاشتراك فى تحقيقات الاغتيال التى تُجرى على الأرض الصربية .

وجاء رد الحكومة الصربية فى الموعد المحدد ، وكان تصالحياً إلى حد يثير الدهشة . إذ وافقت على قمع الجماعات المعادية للنمسا وتكميم أفواه الإصدارات العدائية وإلقاء القبض على بعض مثيرى الشغب الذين جاء ذكرهم فى الإنذار النمساوى . بل إن الصرب وافقوا على إطلاع النمسا على التحقيقات الخاصة بعملية الاغتيال ، ولكنهم رفضوا الاشتراك النمساوى المباشر ، بدعوى أن فى ذلك انتهاكاً لسيادتهم . وتجاهلاً للجهود الرهيبة التى قامت بها الدبلوماسية الأوروبية لحفظ السلام والدعوة الصربية الصريحة لمزيد من المفاوضات ، حثت المجموعة المؤيدة للحرب فى فيينا الإمبراطور العجوز فرانتس يوزيف على معاقبة الصرب . وأعلن النمساويون الحرب على صربيا يوم 28 يوليو . بدأت

روسيا التعبئة العامة فى أول أغسطس وسرعان ما أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا وفرنسا . وبعد بضعة أيام تدفقت القوات الألمانية على بلجيكا . وتوقعت كل الأطراف المتحاربة حلاً سريعاً والعودة إلى الوضع الطبيعى . ولكن الذى حدث أن الحرب تحولت إلى صراع مرير باهظ التكاليف دام أكثر من أربع سنوات .

وفى الضربة الأولى على مسرح الصراع فى البلقان ، غزت قوات هابسبورج صربيا يوم 11 أغسطس ، بعد عبورها نهر درينا من البوسنة . ورغم النجاح الذى حققه النمساويون فى مستهل الحرب ، سرعان ما ردتهم القوات الصربية على أعقابهم . وفى هجوم ثان أثبت النمساويون من جديد عجزهم عن هزيمة القوات الصربية . وبحلول شهر ديسمبر سنة 1914 كان الصرب قد أخرجوا القوات النمساوية من أراضيهم مرة أخرى . ولم يتكبد الصرب خسائر كبيرة على أرض المعارك وحسب ، بل سقط مئات الآلاف من الصرب فريسة لوباء التيفوس فى شتاء 1914 / 1915 .

وفى أكتوبر 1915 انقلب الحال على الصرب . فقد غزت صربيا قوات ألمانية نمساوية بلجيكية مشتركة ، واحتلت قوى المحور البلاد طوال السنوات الثلاث التالية . وفى ظل ظروف الشتاء الرهيبة، قامت فلول الجيش الصربى بمسيرة بطولية فى الجبل الأسود وألبانيا ، حيث تصدت للهجمات الألبانية ، كى تصل إلى ساحل البحر الأدرياتيكى . ومن هناك أبحرت إلى جزيرة كورفو Corfu اليونانية . وفى الهجوم الأخير للحلفاء من سالونيك ، قادت تلك القوات الحملة التى طردت قوى المحور من صربيا للمرة الثالثة .

وفيما عدا اشتباكات قصيرة شرقى البوسنة ، لم تدخل الأطراف المتحاربة فى عمليات كبيرة على أرض البوسنة . إلا أن حكم هابسبورج أصبح أشد قسوة بعد اغتيال الأرشيدوق . فقد أصبح الفلاحون البوسنيون مطالبين إجبارياً بتوريد المحاصيل لإمدادات الجند وإطعام أهل مدن المملكة. وهرب البوسنيون الذين كانوا يخدمون فى القوات الإمبراطورية ومعهم بعض الجنود – الصرب البوسنيون فى المقام الأول – إلى المنفى ، للانضمام إلى الجيش الصربى كمتطوعين فيه.

وأثناء الحرب لجأت السلطات النمساوية إلى اجراءات قمع موسعة ضد الصرب البوسنيين ، الذين اعتبرتهم طابوراً خامساً عازماً على تقويض أركان مملكة هابسبورج . وأُودع ما يزيد على 5 آلاف المعسكرات . وأُسيئت معاملة كثيرين مات بعضهم جوعاً . ولكى تتغلب السلطات على حالة التمرد التى كادت أن تكون دائمة فى المناطق الحدودية شرقى

الهرسك وشرقى البوسنة ، وطّنت آلاف الأسر أو أبعدتها فى محاولة أخيرة لا طائل من ورائها لتهدئة الأحوال فى المنطقة . كما أصدرت المحاكم النمساوية أحكاماً بالإعدام ونفذتها ضد 250 شخصاً ، بتهمة الخيانة أو التجسس أو تقديم العون للعدو وتشجيعه . واستمرت محاكمات الصرب السياسية التى بدأت فى أوائل 1909 طوال سنوات الحرب وأسفرت عن إصدار أحكام بالسجن ضد المئات . وأسرت السلطات العسكرية أو قتلت صربيا آخرين دون أن تتيح لهم الاستفادة من الإجراءات القضائية الرسمية(11) . وفى أبريل 1916 صدرت أحكام بالإعدام ضد ستة عشر صربياً بعد محاكمة مطولة فى بانيا لوكا Banja Luka . إلا أن الإمبراطور كارل الأول Karl I ، الذى اعتلى العرش عقب وفاة فرانتس يوزيف سنة 1916 ، خفف الأحكام . وبذلك تمثل الحرب العالمية الأولى أول سابقة فى تاريخ البوسنة يُقتل فيها عدد كبير من الناس من أجل انتمائهم القومى أو العرقى .

وانتهت الحرب بشكل غير مشرف لمملكة هابسبروج . وفى 16 أكتوبر 1918 أعلن الإمبراطور كارل قيام اتحاد فيدرالى ، كان بالنسبة لمعظم رعاياه بمثابة هزيمة للمملكة ونهاية لها . وترك الجنود الجبهة ولزم البيروقراط بيوتهم . وبعد السيطرة على جزء كبير من شرقى أوروبا الوسطى مدة تربو على500 سنة ، اختفت إمبراطورية هابسبورج ، التى كانوا يتباهون بها ، من على وجه الأرض بين عشية وضحاها تقريباً .

---

(11) Osman Nuri - Hadzic, "Borba Muslimana za versku i vakusko-mearifsku autonomiju," in *Bosna i Hercegovina pod austro - ugarskom- upravom* (Belgrade Geca Kon.1938), pp 156 -9

الفصل السابع

يوغوسلافيا الملكية

1918 - 1941

المثل اليوغوسلافى والواقع الملكى

في وقت لاحق من الحرب أصبح وودرو ويلسون[1] Woodrow Wilson وحلفاء أمريكا الأوروبيون مفتونين بفكرة تقرير المصير القومى ، وكانوا يأملون فى جعلها المبدأ الذى يطغى على أى اتفاق سلام . ولقى هذا النهج ترحيب معظم السلاف الجنوبيين ذوى الوعى السياسى ، حيث صادف ذلك أفكار الوحدة السلافية الجنوبية التى كانت تحظى بقدر كبير من الشعبية ، على أقل تقدير بين المثقفين الصرب والكروات والسلوفينيين . وأعطت هزيمة قوى المحور المرتقبة الأمل للكثيرين فى أن بلداً للسلاف الجنوبيين ، أو يوغوسلافيا ، سوف يقوم كدولة حرة مستقلة تجسد آمال الصرب والكروات والسلوفينيين القومية. وتحققت هذه الآمال فى إعلان كورفو فى يوليو 1917 ، الذى تفاوض عليه ممثلو الحكومة الصربية برئاسة نيقولا باشتش Nikola Pasic واللجنة اليوغوسلافية ، وهى مجموعة الكروات والصرب والسلوفينيين الذين فروا من الأراضى الخاضعة لهابسبورج ليمثلوا المصالح الصربية فى الخارج . وفى إعلان كورفو اتفق الموقعون عليه على إقامة " مملكة دستورية ديمقراطية وبرلمانية" تحكمها أسرة كراديورديفتش Karadjordjevic الصربية[2] .

ولكن الوحدة كانت تعنى شيئاً عند باشتش والقيادة الصربية وشيئاً مختلفاً تمام الاختلاف لدى الكروات والسلوفينيين فى اللجنة اليوغوسلافية . وكانت تلك الآمال المتضاربة، التى ساهم فى تفاقمها فهم كل مجموعة للأخرى بطريقة شديدة الاختلاف ،

(1) الرئيس الثامن والعشرون للولايات المتحدة (1913—1921) . سعى إلى ايجاد تسوية سلمية فى الحرب العالمية الأولى تقوم على حق تقرير المصير الذى تضمنه عصبة الأمم . اسمه بالكامل توماس وودرو ويلسون وُلد سنة 1856 وتوفى 1924 . عمل بالتدريس فى الجامعة وله مؤلفات منها " جورج واشنطن " و " تاريخ الشعب الأمريكى " و " أوراق وودرو ويلسون" . حصل على جائزة نوبل لسنة 1919 . حاول وودرو ويلسون انهاء دبلوماسية الدولار الأمريكية وشجع التوسط فى النزاعات . (المترجم)

(2) للاطلاع على تناول شامل ليوغوسلافيا ما بين الحربين مع التركيز على التطورات السياسية ، انظر :
Joseph Rothschild, *East Central Europe Between The Two World Wars* (Seattle: University of Washington Press, 1974) pp. 80 - 200)

السبب وراء الاشتباكات المتكررة فى حقبة يوغوسلافيا الملكية (1941 - 1918) . وكان الصرب ، الذين أوشكوا على تحقيق النصر بعد سنوات من المعاناة والخسائر ، يرون يوغوسلافيا على أنها تحقيق لحلمهم الخاص بصربيا الكبرى ، وليس أمراً مخالفاً لتوسع الأراضى الصربية فى حربى البلقان(3) . فقد كانت يوغوسلافيا فى عيون الصرب بمثابة تجسيد المركزية الصربية التى يجب أن تحكمها أسرة صربية ويقودها ضباط الجيش والبيروقراط وأعضاء البرلمان الصرب . وشعر الصرب بميل خاص نحو البوسنة ، التى اعتبروها أرضاً صربية خالصة ولابد أن تصبح وقتها جزءاً لايتجزأ من دولتهم . وغالباً ما كان الصرب يرون أبناء عمومتهم السلوفينيين والكروات على أنهم ضعيفو الإرادة ويقبلون الحلول الوسط وأن التأثيرات الغربية المهلكة قد أفسدتهم . وكانوا يعتقدون أنهم خضعوا للحلول الوسط الدستورية مع سادتهم هابسبورج قروناً عديدة .

أما الكروات والسلوفينيون فكانوا يرون يوغوسلافيا على أنها شراكة أكفاء ذات هيكل فيدرالى ، وأنها سوف توحد الأراضي الكرواتية والسلوفينية التاريخية التى فى إمبراطورية هابسبورج البائدة مع مملكة صربيا . وفى حين أُعجب الكروات والسلوفينيون بتفوق صربيا العسكرى ، كانوا يميلون إلى اعتبار الصرب أجلافاً ريفيين يفتقرون إلى التطور الثقافى الذى حققوه هم على مر القرون ، من خلال اتصالهم بالغرب . ومع اعتراف الكروات والسلوفينيين بفضل الصرب ، لتميزهم فى المعركة ، اعتبروا أنفسهم الحكام المؤهلين وبناة الدولة . وهى المواهب التى كانوا يتعشمون استغلالها فى الدولة اليوغوسلافية الجديدة .

ونظر بوسنيون كثيرون إلى مستقبلهم فى الدولة السلافية الجنوبية الجديدة من منظور المسألة الزراعية المزمنة التى لا حل لها . وحقيقة الأمر أن الأراء اتبعت خطاً قومياً خاطئاً . فكانت الأسرة الحاكمة الصربية ملتزمة بإنهاء كل العلاقات الإقطاعية بعد إلغائها القنانة

---

(3) فى عامى 1912 و 1913 وقعت حربان قصيرتان بسبب أملاك الدولة العثمانية فى البلقان . كانت الأولى فى 8 أكتوبر 1912 بين عصبة البلقان وتركيا ، حيث حقق الحلفاء فوزاً سريعاً وحاسماً وأجبرت الدولة العثمانية على التنازل عما تبقى لها من أراضى أوروبا لدول البلقان . فقد استولى الصرب على بريستينا ثم على كيركليسا وسكوبيى كما دخل اليونانيون سالونيك بعد استسلامها واستولى أهل الجبل الأسود على أليسو . وبعد ذلك تنازع الحلفاء البلقانيون فيما بينهم حول تقسيم الغنائم من الممتلكات العثمانية . وعندما هاجمت القوات البلغارية المراكز التى يحتلها اليونانيون والصرب فى مقدونيا يومى 29 و 30 يونيو 1913 قامت حرب البلقان الثانية وإن لم تعلن رسمياً . وبدأ الحلفاء السابقون القتال وانتهز الأتراك هذه الفرصة واستعادوا أدرنة التى أخلاها الجيش البلغارى . وبعد هزيمة بلغاريا أعيد تقسيم أملاك الدولة العثمانية طبقاً لمعاهدة بوخارست فى 10 أغسطس 1913 . (المترجم)

قبل ذلك بقرن ، عندما أقام الصرب لأول مرة إمارة صغيرة وحصلوا على الحكم الذاتى من العثمانيين . وفى سنة 1914 أعلنت الحكومة الصربية أن أهدافها الحربية تشمل " تحرير كل اخواننا المستعبدين وتوحيدهم "[4] . وفى فبراير 1917 وعدت الحكومة الصربية فى المنفى كل مقاتل بخمسة هكتارات من الأرض بعد التحرير . واندفاعاً وراء تلك الوعود وانتظاراً لوقف ما يدفعه الفلاحون لملاَّك الأراضى المسلمين ، تطوع بعض الصرب البوسنيين للقتال من أجل صربيا وشاركوا فى الإجهاز على قوى المحور .

وإذا كان الزعماء المسلمون شاركوا فى الحماس العام لإقامة دولة يوغوسلافية ، فقد سعوا إلى تخفيف أثر أى إصلاح اقتصادى ، أو إلغائه تماماً إن أمكن . وظلت المسألة الزراعية محور جزء كبير من الجدل السياسى فى البوسنة عقب الحرب العالمية الأولى .



خريطة 7 - 1 الأجزاء المكونة لمملكة الصرب والكروات والسلوفينيين
(1929 - 1918)

Tomasevich p . 219 (4)

وكان المزيد من تعهدات الأسرة الصربية وراء توقف الكثيرين من الفلاحين المسيحيين البوسنيين عن دفع ما عليهم لملاك الأراضى المسلمين ، عندما اتضح أن الحرب حُسمت لمصلحة الصرب وقوى الحلفاء سنة 1918 . واستولى بعض الفلاحين على الأرض من ملاك الأراضى المسلمين ، وتزايدت الاعتداءات البدنية على المسلمين . وكان معظم الجناة من الصرب . فى حين عمت الفوضى وأعمال العنف بصورة خاصة شرقى الهرسك .إلا أن الحركة سرعان ما شملت جزءاً كبيراً من البوسنة وبعض كرواتيا . وفى 3 نوفمبر 1918 دعت الحكومة البوسنية ، التى كانت تواجه ثورة فلاحية عارمة ، القوات الصربية لدخول البوسنة لقمع الاضطرابات . وفى 6 نوفمبر لقيت القوات الصربية عند دخولها سراييفو ترحيباً بصفتها قوات تحرير . ورغم رد الفعل العسكرى ، استمر الأفراد الصرب البوسنيون فى مهاجمة المسلمين والاستيلاء على ممتلكاتهم ، حتى بعد احتجاج المسلمين لدى حكومة بلجراد على عدم اتخاذ الجنود والمسئولين الصرب أى إجراء ضد من قاموا بذلك .

وفى 1 ديسمبر 1918 أعلن الأميرالكسندر Alexander الوصى على العرش (الذى تولى الحكم نيابة عن والده المسن المُقَعد الملك بيتر الأول Peter I) إقامة الدولة اليوغوسلافية وأسماها " مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين ". وكان الإعلان فى حضور اللجنة اليوغوسلافية ، التى كانت تمثل السلاف الجنوبيين من بلاد هابسبورج السابقة . وتقرر أن تكون الدولة الجديدة مملكة برلمانية ديمقراطية طبقاً للخطوط التى حددها إعلان كورفو.إلا أنها كانت منذ البداية انتصاراً للسيادة الصربية فى جوانب كثيرة . وبعد أن استدعى الجيش الصربى لقمع اضطرابات الفلاحين ومواجهة انتزاع الإيطاليين للأراضى فى الشمال الغربى ، احتل الكثير من أراضى هابسبورج السابقة فى الدولة الجديدة . وأسرع المسئولون الصرب باللحاق به وأخذوا يحلون محل المسلمين فى المناصب الرئيسية فى البوسنة .

السياسة البرلمانية والإصلاح الزراعى

يمكن تقسيم الحقبة اليوغوسلافية الملكية إلى فترتين : البرلمانية الملكية (ديسمبر1918-6 يناير 1929) والدكتاتورية الملكية (6 يناير 1929 - أبريل 1941) التى

أعلنها الملك الكسندر . وهاتان الفترتان تشتركان فى أمور كثيرة . ففى كليهما أُجريت انتخابات دورية فى الدولة السلافية الجنوبية الجديدة ، وكانت الحكومة تضم وزراء يمثلون تحالفات برلمانية هشة قصيرة الأجل ، وسادت الحياةالسياسية نزاعات دائمة حول مسألة الهيمنة الصربية فى المملكة .

وطوال حقبة يوغوسلافيا الملكية ، أظهر المسلمون البوسنيون تماسكاً سياسياً رائعاً بتصويتهم بأعداد ضخمة لمصلحة المنظمة الإسلامية اليوغوسلافية ، كما يتضح من الجدول 1-7 . ومع أن ثلاثة أحزاب مسلمة أخرى سعت للحصول على أصوات الناخبين فى انتخابات المجلس التأسيسى سنة 1920 ، فقد حصلت مجتمعة على أقل من 2٪ من مجموع الأصوات . وسرعان ما اختفت من على الساحة . وتفاوت عدد الأصوات التى حصلت عليها المنظمة الإسلامية اليوغوسلافية من انتخابات لأخرى بمقدار 20٪ فقط على مدى سبع سنوات، وهو ما يُعد شهادة على متانة أسس الهوية البوسنية واستقرار أنماط التصويت الإسلامية .

جدول 7 - 1 مقدار التأييد الانتخابى للمنظمة

الإسلامية اليوغوسلافية

الانتخاب	التاريخ	أصوات المنظمة	مقاعد المنظمة
المجلس التأسيسى	28 نوفمبر 1920	110895	24
البرلمان	18 مارس 1923	122494	18
البرلمان	8 فبراير 1925	132296	15
البرلمان	11 سبتمبر 1927	132326	18

المصدر *Joseph Rothschild, East Central Europe Between the World Wars, pp. 215, 219, 224 and 229*

وكان يقود المنظمة الإسلامية اليوغوسلافية مسلمون حضريون من الطبقة الوسطى، مثل موظفى الحكومة والتجار والصحفيين وغيرهم من المهنيين . إلا أن الحزب كان فعالاً بصورة كبيرة فى دعم مصالح طبقة ملاّك الأراضي المسلمين . وقامت المنظمة الإسلامية اليوغوسلافية بزعامة الدكتور محمد سباخو Mehmed Spaho ، وهو سياسى قدير دخل الائتلافات الحاكمة وخرج منها على امتداد الحقبة اليوغوسلافية الملكية ، بالدور التاريخى للمسلمين البوسنيين كمجموعة مرجِحة فى سياسة الائتلاف ، حيث اعتادت دعم الوسط ضد الاتجاهات المتطرفة .

ولم يبد الصرب والكروات مثل هذا التماسك فى حقبة المركزية البرلمانية . فقد كان الصرب منقسمين بالتساوى تقريباً فى دعمهم لحزبين. ووجد الراديكاليون الصرب ، بزعامة السياسى المخضرم نيقولا باشتشNikola Pasic الداهية والمؤيد النشط للمركزية الصربية ، دعمهم فى الدولة الصربية السابقة دون سواها تقريباً . فى حين حصل الديمقراطيون الصرب على أصوات الصرب فى كل مكان ، ولكنهم كانوا يتمتعون بشعبية لدى الصرب فى أراضى هابسبورج السابقة من المملكة بصورة خاصة . وكان الصرب البوسنيون يؤيدون كلا الحزبين ، ولكنهم كانوا يصوتون بإعداد كبيرة لمصلحة الحزب الزراعى البوسنى ، وهو حزب صغير يركز برنامجه على المسألة الزراعية وما يرتبط بها من قضايا الإصلاح الزراعى .

وأيد معظم الكروات البوسنيون حزب الفلاحين الكرواتي بزعامة ستيبان راديتش Stjepan Radic . وحيث إن الحزب كان يؤيد برنامجاً راديكالياً للإصلاح الزراعى يعطى الأرض لمن يفلحها ، فقد فاز بتأييد كبير من الكروات فى كل مكان ماعدا المدن الكبرى. وقاطع راديتش وأتباعه المجلس منذ البداية ولم يشغلوا مقاعدهم فى البرلمان إلا سنة 1924، حيث خلقوا لدى الأحزاب الصربية حاجة إلى شركاء فى الائتلاف ، وهى الحاجة التى لبتها المنظمة الإسلامية اليوغوسلافية والشعبيون السلوفينيون بشغف .

وكان الحزب الشيوعى اليوغوسلافى ثالث الأحزاب الكبرى فى المجلس التأسيسي وله ثمانية وخمسون مقعداً . وحيث إن الحزب حبس نفسه فى أنشطته المحلية ، فلم يتحقق له قط تأييد شعبى كبير بين العمال الحضريين والفلاحين . وكما فعل الديمقراطيون الاجتماعيون ، انسحب الشيوعيون من المجلس سنة 1921 . وبعد ذلك بوقت قصير حظر

قانون أمن الدولة الحزب الشيوعى سنة 1921. وتعقبت السلطات قادة الحزب وألقت بهم فى السجون ، وأصبح الحزب يعمل بصورة سرية بقية الحقبة اليوغوسلافية الملكية . ولم تبدأ أحوال الحزب فى التحسن إلا بعد تعيين يوسيب بروز (تيتو) Josip Broz (Tito) سكرتيراً عاماً له سنة 1937 .

وفى 28 يونيو1921 أُقر دستور فيدوفدان Vidovdan بموافقة 223 صوتاً ، وإن قاطع 163 عضواً من بين 419 عضواً عملية التصويت . وقد صوت لمصلحة الدستور كل نواب الجبهة الإسلامية اليوغوسلافية ، بعد حصولهم على تنازل كبير من الراديكاليين الصرب يبقى على حدود البوسنة والهرسك كوحدة إدارية مميزة . وبذلك انقسمت يوغوسلافيا الملكية إدارياً حسب الحدود التاريخية لأراضى هابسبورج السابقة ، رغم أن الإدارة اليومية للبلاد كانت ممارسة دائمة فى الإدارة المركزية الصربية . ورغم تقديم شكاوى عديدة بخصوص أعمال العنف الصربية ضد ملاَّك الأراضى المسلمين واحتجاجاً على سلبية الحكومة فى تعقب الجناة الصرب ، فقد أيد سباخو وقيادة الجبهة الإسلامية اليوغوسلافية الدستور الجديد . والواقع أن أصواتهم كانت جزءاً مهماً من أغلبية المجلس التى أقرت الوثيقة.

وبرز النفوذ السياسى الإسلامى فى الدولة الجديدة كذلك فى الإصلاحات الزراعية التى أُعلنت فى سنوات المملكة الأولى . ففى المرسوم المؤقت الصادر فى 25 فبراير 1919 حدد الملك الكسندر ثلاثة مبادىء لحل المسألة الزراعية : (1) إنهاء القنانة (2) تقسيم ملكيات الأراضى الكبيرة (3) دفع الدولة تعويضات للملاَّك السابقين . وحدد التشريع اللاحق حجم نقل ملكية الأراضى والمبالغ التى تُدفع تعويضاً لملاَّك الأرضى المسلمين . وتفاوض ممثلو اللجنة الإسلامية اليوغوسلافية حول شروط التعويض ، التى بدت سخية ، مقابل تأييدهم لدستور فيدوفدان . ولم تكتمل شرعية الإصلاحات حتى سنة 1931 . إلا أنها أسفرت عن حصول ما يربو على 150 ألف أسرة من الفلاحين على أراضٍ تتعدى مساحتها المليون هكتار . أما الملاَّك السابقون فحصلوا على مبالغ نقدية وسندات طويلة الأجل ، بضمان الحكومة اليوغوسلافية.

وبذلك أنهت الإصلاحات الزراعية فى سنوات 1931- 1919 مؤسسة القنانة فى البوسنة.إلا أن أهدافاً كبيرة أخرى من تلك التغييرات لم تتحقق . وحيث إن معظم الفلاحين

لم يحصلوا إلا على الأرض التى كانوا يفلحونها من قبل ، فقد ظل متوسط الحيازة صغيراً ولم تطرأ زيادة كبيرة على الإنتاجية الزراعية . واستمر المطالبون بإصلاح أكثر راديكالية ، مثل زعماء حزب الفلاحين الكرواتى ، فى قولهم بأن الإصلاحات لم تكن بالقدر الكافى . ولم يكن التعويض الذى دُفع لملاَّك الأراضى المسلمين يكفى لأن يبدأوا من جديد . كما أن التعامل فى السندات ، التى أخذوها كجزء من قيمة التعويض ، كان يتم بأقل من قيمتها الاسمية . وكان ملاَّك الأراضى المسلمون الذين تحولوا إلى المهن الحضرية والمشروعات التجارية الأخرى هم الذين سارت أحوالهم بشكل أفضل . وانتهى الأمر بالكساد الأعظم[5] الذى قضى على كل اقتصاد زراعى فى أوروبا ، بما فى ذلك البوسنة وسائر يوغوسلافيا ، وأدى إلى فقر فلاحين كثيرين رغم الإصلاحات .

واستمرت سياسية الائتلاف حتى سنة 1919 فى مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين . وكثيراً ما كانت المنظمة الإسلامية اليوغوسلافية طرفاً من أطراف الائتلاف الحاكم فى بلجراد . وفى أوقات أخرى كانت تُستبعد من السلطة ، فى إطار البحث شديد اليأس عن تحالف سياسى مستقر . ورغم الجهود المضنية للم شمل الحزبين الصربي والكرواتى الكبيرين فى يوغوسلافيا ، تدهورت العلاقات بينهما وهبط السلوك داخل قاعة البرلمان إلى مستويات أدنى من قبل .

وظل زعيم حزب الفلاحين الكرواتى ستيبان راديتش زمناً طويلاً يعترض على الاتفاق التشريعى ، ويقاطع البرلمان ، ويسعى للحصول على تأييد المواقع الكرواتية الانفصالية فى لندن وموسكو وغيرها فى الخارج . وتحولت المناقشات البرلمانية الساخنة إلى أعمال عنف

---

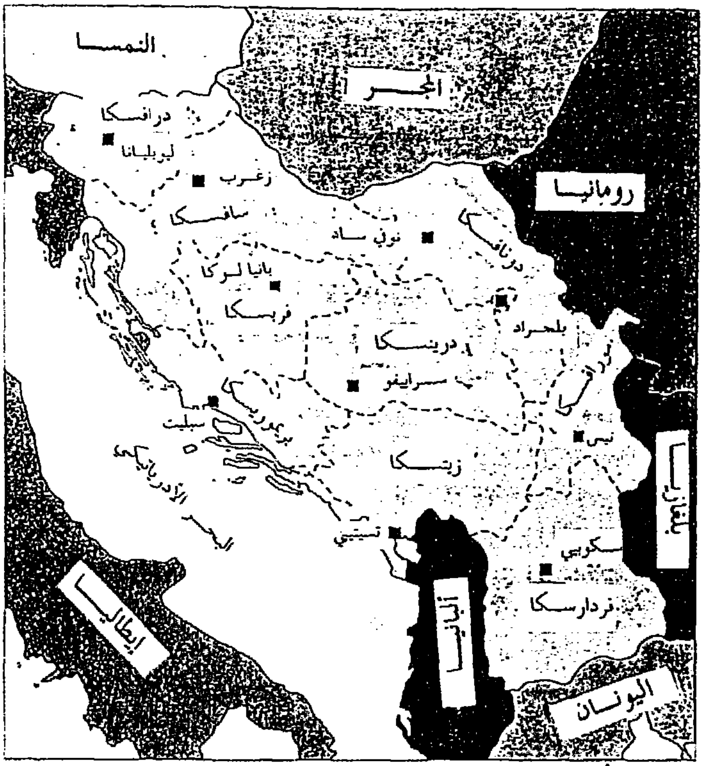
(5) تعرضت الدول الصناعية فى أوروبا وأمريكا لضائقة اقتصادية فى الفترة من 1919 إلى 1938 ، أى ما بين الحربين العالميتين . إلا أن حلقات تلك الضائقة استحكمت فى الثلاثينات ، حيث ظهرت البطالة بصورة كبيرة فى تلك الدول . فبلغ عدد العاطلين سنة 1932 حوالى 12 مليوناً فى الولايات المتحدة و2.7 مليون فى بريطانيا و 5.6 فى ألمانيا . وكان وراء ذلك الهبوط الذى شهدته الصناعات الأساسية فى تلك الدول . فقد عانت ألمانيا ، التي كانت أوروبا بحاجة إلى قوتها الصناعية ، من التسوية السلمية للحرب العالمية الأولى حيث انكمش اقتصادها نتيجة لخسارتها المناطق الصناعية الرئيسية وأصبح ثمن الرغيف الواحد ملايين الماركات . وفى أمريكا ، أعقب ازدهار العشرينيات ذلك التدهور الذى شهدته سوق الأوراق المالية فى وول ستريت ، مما جعل الآلاف يهرعون لبيع أسهمهم وسنداتهم فيما عُرف بـ " فوضى البيع " . وكانت نتيجة ذلك زيادة البطالة واختفاء التسليف وانخفاض الاستهلاك وتضاعف حالات الافلاس والاستغناء عن العمال . ومن التداعيات السياسية لتلك الأزمة فوز فرانكلين روزفلت (-1945–1882) فى انتخابات الرئاسة الأمريكية بسبب دعوته إلى ما عرف بـ " البرنامج الجديد " الذى استهدف خلق فرص عمل للعاطلين من خلال المشروعات الطموحة ، فى حين خرج الرئيس هربرت هوفر (1874 – 1964) من البيت الأبيض لعدم الرضا عن الطريقة التى عالج بها الأزمة الاقتصادية . أما فى بريطانيا فأتت انتخابات 1931 بحكومة ائتلافية تسيطر عليها أغلبية محافظة . كما أدت البطالة المتزايدة فى ألمانيا إلى وصول الحزب النازى إلى الحكومة وانهيار أسس جمهورية فايمار . (المترجم)

جسدى ، عندما أطلق الرصاص على راديتش وأربعة نواب كرواتيين آخرين أثناء إحدى المناقشات الحامية فى البرلمان يوم 20 يونيو 1928 . وتوفى راديتش فى 8 أغسطس. ومرة أخرى خرج النواب الكروات من البرلمان . وسرعان ما أعقبت تبادل الاتهامات المرير بين الساسة مظاهرات فى الشوارع ، بينما انهار النظام العام . وفى النهاية ، حل الملك البرلمان فى 6 يناير 1929 ، وعطل الدستور ، وأعلن نفسه المصدر الوحيد للسلطة فى المملكة .

الدكتاتورية الملكية وظهور الفاشية

تلى إعلان الملك الكسندر الدكتاتورية الملكية إعلانات عديدة جعلت مملكته دولة أكثر أحادية ومركزية يحكمها الصرب . وأصبح اسم " مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين " هو " مملكة يوغوسلافيا " . وألغى الكسندر كل الأحزاب السياسية والاتحادات التى تقوم على أساس ديني أو عرقى مجال الحظر (الصادر لأول مرة فى أغسطس 1921) ليشمل الحزب الشيوعى اليوغوسلافى . وفى 3 سبتمبر 1931 أعلن الملك دستوراً آخر أعاد البرلمان، وإن احتفظ لنفسه بحق تعيين الوزراء وفصلهم وتعيين العُمَد وغيرهم من مسئولى البلديات . وأعاد دستور 1931 بناء الائتلاف كنشاط أساسى فى الحياة السياسية اليوغوسلافية، فى العمليات السياسية واللجوء إلى سلطات الطوارىء غير العادية .

وفى ظل دكتاتورية الكسندر فقدت البوسنة وضعها المميز كوحدة إقليمية لأول مرة منذ قرون . فقد ألغى الملك الحدود الإقليمية التى كانت قائمة قبل 1929 ، وقسَّم يوغوسلافيا إلى وحدات إدارية Banovina يحكم كل منها بان . وكانت جميعها تحمل أسماء الأنهار التى تجرى فى أراضيها ، إلا واحدة . وتجاهلت حدود تلك الوحدات ، أو البانوفينات ، العرف التاريخى وقطعت الحدود العرقية لتصبح للصرب الأغلبية العددية فى تسع وحدات. وقُسمت منطقة البوسنة والهرسك التاريخية إلى أربع بانوفينات من التسع : فرباس Vrbas ودرينا Drina وزيتا Zeta وبريمورسكا Primorska . وكانت التعيينات الملكية تحابى الصرب . وفى كثير من مدن البوسنة الصغيرة حل عمد معينون محل العمد المسلمين المنتخبين .



خريطة 7 - 2 مملكة يوغوسلافيا (1929 - 1939) وتوضح التقسيم إلى بانوفينات

وفى يوم إعلان الدكتاتورية ، التقى مبعوث للملك مع محمد سباخو وغيره من زعماء الجبهة الإسلامية اليوغوسلافية ، سعياً وراء كسب التأييد للتغيرات المزمع إجراؤها . ورغم عدم رضا زعماء المنظمة الإسلامية اليوغوسلافية عن إلغاء وضع البوسنة كإقليم ومخاوفهم من المزيد من السيطرة الصربية المركزية ، لم يعارضوا فرض الدكتاتورية الملكية .

وفى 9 أكتوبر 1934 أُغتيل الملك الكسندر أثناء زيارته لمدينة مارسيليا الفرنسية . وكان الاغتيال من تدبير الفاشيين الكروات المعروفين بالأوستاشي Ustashe (الثوار) الذين كانوا يعملون على تدمير يوغوسلافيا وحصول كرواتيا على الاستقلال التام[6] . وعمل الأوستاشى فى ظل حماية بنيتو موسولينى Benito Mussolini فى إيطاليا كمجموعة

(6) كلمة أوستاشي Ustashe هى صيغة الجمع . وفى هذا الكتاب تستخدم كلمة أوستاشا Ustasha كصفة مشتقة من الكلمة ذاتها .

سرية داخل أراضي يوغوسلافيا . وفى الحرب العالمية الثانية تولى زعيمهم أنتى بافيلتش Ante Pavelic مسئولية "**دولة كرواتيا المستقلة** " (التى تضم كرواتيا والبوسنة) من قِبَل الألمان والإيطاليين .

وبعد وفاة الملك ، إنتقلت السلطة إلى أيدى ابن عم الكسندر ، الأمير بول Paul ، واثنين آخرين من الأوصياء الذين تولوا الحكم إلى أن بلغ بيتر Peter ، ابن الكسندر ووريث عرش كراديوردييفتش ، سن الرشد فى سبتمبر 1941 . وأُجريت انتخابات جديدة للبرلمان اليوغوسلافى فى مايو 1935 . وفى يونيو 1935 أصبح ميلان ستويادينوفتش Milan Stojadinovic رئيساً للوزراء فى حكومة حظيت بتأييد المسلمين . وتولى محمد سباخو زعيم المنظمة الإسلامية اليوغوسلافية منصب وزير المواصلات فى حكومة ستويادينوفتش. وبعد ذلك كان سباخو وغيره من الزعماء المسلمين البوسنيين ممثلين فى كل حكومة يوغوسلافية ، إلى أن بلغت الحرب العالمية الثانية البلاد فى أبريل 1941 .

وخففت حكومة ستويادينوفتش بعض الجوانب الشديدة فى الدكتاتورية الملكية ، وأصدرت عفواً عن المسجونين السياسيين ، وعرضت المصالحة على زعيم حزب الفلاحين الكرواتى فلادكو ماتشك Vladko Macek. واحتفظ ستويادينوفتش لنفسه بمنصب وزير الخارجية . وفى الوقت الذى كان فيه نفوذ هتلر يتزايد فى أوروبا بصورة سريعة ، كثرت سفرياته إلى الخارج سعياً وراء تقوية روابط يوغوسلافيا مع ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية. وفى مارس 1936 فضل مؤسسة كروب Krupp الألمانية على منافستيها التشيكية والفرنسية لتجديد مصنع الصلب الضخم فى زينتسا Zenica بوسط البوسنة .

ورغم الجهود التى بذلها ستويادينوفتش ، فشل فى التوصل إلى حل وسط مع ماتشك وحزب الفلاحين الكرواتي . وفى فبراير 1939 استبدله الأمير بول بدراجيشا تسفيتكوفتش Dragisa Cvetkovic ، أملاً فى التوصل إلى حل وسط لكسب مزيد من التأييد الكرواتى داخل يوغوسلافيا . وكما حدث فى الماضى ، أيد محمد سباخو وقيادة الجبهة الإسلامية اليوغوسلافية حكومة تسفيتكوفتش. وكانت استقالة سباخو من مجلس وزراء ستويادينوفتش قد ساعدت بول فى واقع الأمر على إيجاد مبرر لتغيير رئيس الوزراء .

ودخلت مفاوضات التوصل إلى اتفاق بين حكومة تسفيتكوفتش وحزب الفلاحين الكرواتي بزعامة ماتشك منعطفاً حاسماً ، عندما أصبحت يوغوسلافيا أكثر قلقاً من نفوذ

إيطاليا وألمانيا المتنامي . وأدى احتلال إيطاليا لألبانيا فى أبريل 1939 إلى تأكيد ذلك الخطر المتزايد . وفى 20 أغسطس 1939 اتفق تسفيتكوفتش وماتشك على إعادة هيكلة المملكة اليوغوسلافية مع إعطاء الحكم الذاتى للبانوفينات الكرواتية الموسعة .

وضعت اتفاقية تسفيتكوفتس-ماتشك ترتيباً لتقسيم حقيقى للسلطة بين الصرب والكروات. إلا أن ذلك كان على حساب المجموعات اليوغوسلافية الأخرى . وأُضيف غربى البوسنة ووسطها ، حيث كان الكروات يشكلون أغلبية فى مناطق ريفية كثيرة ، إلى البانوفينا الكرواتية ، إلى جانب مدينة موستار (كانت هذه المنطقة موضع مطالبة كرواتية قومية سنة 1971 ثم سنة 1992 ، عندما أعلن كروات الهرسك " **جمهورية الهرسك والبوسنة** " Herceg –Bosna وتلقوا الدعم العسكرى من النظام الحاكم فى زغرب . ومع ذلك أيد محمد سباخو والمنظمة الإسلامية اليوغوسلافية الاتفاقية ، اعتقاداً منهم بأنها ستزيد من قوة الدولة اليوغوسلافية . وعندما تجمعت سحب العاصفة النازية فى أوروبا ، تعرضت الاتفاقية لهجوم مجموعتين : **المتطرفون الكروات** ، الذين كانوا يرغبون فى استقلال كرواتي تام وليس مجرد حكماً ذاتياً ، **والشيوعيون** ، الذين تظاهروا ضد السياسات " المعادية للقومية " التى تتبعها الحكومة .

الاقتصاد والمجتمع

كان النمو الإقتصادى ضرورياً لنجاح الديمقراطية البرلمانية فى يوغوسلافيا وغيرها من بلاد شرق أوروبا . وقد استؤنف التصنيع الذى بدأ فى البوسنة فى الحقبة النمساوية بشكل متواضع بعد الحرب العالمية الأولى . وفى وقت لاحق من الحقبة اليوغوسلافية الملكية ، كان جزء كبير من التنمية الصناعية ، وخاصة فى مجال الصناعة الثقيلة والتعدين، تحركه الاستثمارات الألمانية والرغبة الألمانية فى ضمان الوصول إلى المواد الخام الاستراتيجية .

وكان الكساد الأعظم الذى حدث فى الثلاثينيات نكسة شديدة للجهود اليوغوسلافية الملكية لتشجيع التنمية الاقتصادية . ووقع الفلاحون بين حدى " مقص الأسعار " التقليدى الذى ابتليت به كل دول شرق أوروبا . فقد كانوا محصورين بين انكماش أسعار منتجاتهم الشديد ، من ناحية ، وارتفاع تكاليف السلع المصنعة التى يشترونها ، من ناحية أخرى . وكما ذُكر آنفاً ، ظل متوسط الحيازة الزراعية صغيراً وطرأ تحسن طفيف على الإنتاجية الزراعية، رغم الإصلاحات الزراعية التى أعقبت الحرب . وظلت البوسنة ، ومعها سائر

يوغوسلافيا ، مجتمعاً زراعياً فى الغالب الأعم لم تتطور مدنه الكبرى بالقدر المقبول فى الحقبة اليوغسلافية الملكية .

الصراع مع هتلر: الطريق إلى الحرب

مع تزايد الأراضي التى احتلها هتلر ، كانت أطماعه فى البلقان تزداد كذلك . وفيما بين نوفمبر 1940 ومارس 1941 أجبر المجر ورومانيا وبلغاريا على الانضمام إلى المعاهدة الثلاثية ، مما جعلها فى واقع الأمر حليفات لألمانيا وإيطاليا . وأصبح موقع يوغوسلافيا ، الذى يتوسط أطماع هتلر ، أكثر أهمية عندما رُد الغزو الإيطالى لليونان الذى انطلق من الأراضى الألبانية فى أكتوبر 1940 . ووجَّه هتلر انذاراً ليوغوسلافيا . وفى 25 مارس 1941 رضخ تسفيتكوفتش ووزير الخارجية الكسندر تسينتسار-ماركوفتش Aleksandar Cincar Markovic ووقعا على المعاهدة الثلاثية فى فيينا .

أغضب انضمام يوغوسلافيا إلى المعاهدة يوغوسلاف كثيرين ، بمن فى ذلك ضباط الجيش الذين عارضوا أى تحالف مع هتلر . وفى ليلة 26 مارس 1941 قاد ضباط القوات الجوية اليوغوسلافية الملكية انقلاباً أبيض واستبدلوا رئيس الوزراء تسفيتكوفتش بالجنرال دوشان سيموفتش Dusan Simovic . وحيث إن الانقلاب وقع باسم الملك بيتر (الذى كان ما يزال بينه وبين الثامنة عشرة عدة أشهر) ، فقد أُجبر الأمير بول على الاستقالة ومغادرة البلاد ومعه زميلاه فى الوصاية على العرش . اندلعت المظاهرات الضخمة فى شوارع بلجراد لتحية الحكومة الجديدة ، حيث دعت إلى المقاومة المسلحة بدلاً من الرضوخ السلمى للنازيين . وحظيت الحكومة الجديدة بتأييد ائتلاف عريض من القوى السياسية ، بمن فى ذلك المسلمون البوسنيون وفلادكو ماتشك ، زعيم حزب الفلاحين الكرواتى الذى انضم إلى الحكومة بعد أيام من الانقلاب .

ثارت ثائرة هتلر . وعندما علم بأمر الانقلاب ، أصدر أوامره إلى قوات الدفاع الألمانية Wehrmacht بغزو يوغوسلافيا وتدميرها كدولة . ورغم المناورات اليائسة التى لجأت إليها الحكومة الجديدة وتوسلاتها المحزنة فى أواخر مارس وأوائل أبريل 1941 لمنع أى غزو ألمانى ، استعدت آلة المحور الحربية الجبارة لضرب يوغوسلافيا من البر والجو .

كان تدمير النازى للقوات المسلحة التابعة ليوغوسلافيا الملكية سريعاً وشاملاً . وفى 6 أبريل 1941 ، ودون أى إعلان رسمى للحرب ، بدأت القوات الجوية الألمانية Luftwaffe

قصفاً لا يرحم استمر ثلاثة أيام استهدف بلجراد وأودى بحياة ما يقدر بـ 20 ألف شخص. وفى الوقت نفسه كانت القوات البرية الألمانية تشن هجوماً من رومانيا وبلغاريا . ولم تصمد الدفاعات اليوغوسلافية سوى أيام قليلة . ودخل الألمان زغرب فى 10 أبريل واستولوا على بلجراد فى 13 أبريل . وغزت القوات الإيطالية سلوفينيا ودالماتيا . وفى 17 أبريل استولت على خليج كوتور Kotor وجزء كبير من الأسطول اليوغوسلافى . وفرت فلول الأركان العامة إلى داخل الأراضى البوسنية ، حيث لجأت أول الأمر إلى بالى Pale ، وهى منتجع خارج سرايفو ، وبعدها إلى الجبل الأسود . وتولى البريطانيون إجلاء الملك بيتر ووزرائه ونقلوهم إلى لندن ، حيث أقاموا حكومة يوغوسلافية فى المنفى . وبعد أحد عشر يوماً من الهزائم العسكرية المنكرة ، وقّع وزير خارجية يوغوسلافيا السابق وسفيرها فى ألمانيا الكسندر تسينتسار-ماركوفتش استسلاماً غير مشروط لقوى المحور فى 17 أبريل 1941 .

الفصل الثامن

الحرب العالمية الثانية :

الرؤيا اليوغوسلافية

طبيعة الصراع

فى غرب أوروبا والولايات المتحدة كانت الحرب العالمية الثانية ، كما عاشها الناس هناك ، صراعاً هائلاً ضد ألمانيا النازية وحلفائها الفاشيين . إلا أن الحرب على الأرض اليوغوسلافية كانت متعددة الأبعاد وتشمل ثلاثة صراعات مختلفة . كانت الحرب قبل كل شيء كفاحاً من جانب المحتلين ضد الاحتلال ، حيث كانت معركة لحركات المقاومة اليوغوسلافية ضد الألمان والإيطاليين. ومن ناحية ثانية ، كانت حرباً أهلية يشارك فيها المتطرفون القوميون المتنافسون وحركات المقاومة المحلية المتناحرة . أما الأمر الثالث فهو أن الحرب أصبحت صراعاً من أجل التحول الإجتماعي الثورى . فقد اعتنق حزب تيتو وأنصاره أيديولوچيا تطالب بالقضاء على النظام القديم . وهذه الصراعات الثلاثة كانت متداخلة وكان تمييزها من بعضها غير ممكن فى بعض الأحيان . كما أسفرت عن أعمال عنف وتدمير لم يسبق لحجمها مثيل . ولكنها أدت كذلك إلى إعادة تشكيل المجتمع اليوغوسلافى بصورة جذرية ، طبقاً للخطوط التى فرضها تيتو وأنصاره الذين تحققت لهم الغلبة .

كانت البوسنة ، الواقعة وسط يوغوسلافيا جغرافياً ، فى قلب تلك الصراعات الملحمية . وأصبحت أراضيها الجبلية الوعرة والمناطق الملاصقة لها من صربيا والجبل الأسود وكرواتيا مسرح الصراع الأساسى بين الأنصار ، الذين يقودهم الشيوعيون ، والغزاة الألمان والإيطاليون ، الذين تعقبوهم بلا رحمة . وخلال سنوات الحرب تدخلت عناصر خارجية بطرق جديدة لم يسبق لها مثيل فى شئون البوسنة . ولم تكن مصادفة أن ترتكب بعض المجموعات البوسنية السياسية ، ولأول مرة ، فظائع ضد أفراد من الطوائف العرقية الأخرى على نطاق واسع وبصورة منظمة . بعبارة أخرى ، حددت صراعات زمن الحرب الخريطة السياسية البوسنية وساعدت على تأصيل الخيارات المطروحة للعلاقة بين الطوائف العرقية . ونجد أن المجموعات التى ظهرت فى أوائل التسعينيات ، كأطراف متحاربة فى الصراع البوسنى ، تحاكى المتناحرين الأساسيين فى الحرب العالمية الثانية ، من حيث الأيديولوچيا ولغة الخطابة والرمزية والتنظيم ، وحتى نقض التنظيم.

احتلال يوغوسلافيا وتقسيمها

ما أن انتهت قوى المحور من تأمين مدن البلقان الكبرى وخطوط الاتصال فى أبريل 1941 حتى نفذت أوامر هتلر بخصوص أملاكها الجديدة . وقُسمت يوغوسلافيا الملكية إلى كيانات سياسية عديدة بإشراف المحور . فدُمجت كرواتيا وكل البوسنة والهرسك تقريباً فى **"دولة كرواتيا المستقلة"** التى أُنشئت حديثاً . ولكن هذا الكيان لم يكن دولة بمعنى الكلمة . كما لم يكن مستقلاً بكل تأكيد . إذ قسمت قوى المحور **"دولة كرواتيا المستقلة"** إلى مناطق احتلال ألمانية وأخرى إيطالية يفصل بينها خط يمتد من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربى . وكانت سراييفو ومعظم المدن البوسنية داخل المنطقة الألمانية . فى حين كانت موستار تحت الاحتلال البريطانى .

وفى نهاية الأمر اصطنع الألمان نظام احتلال حاكم بقيادة الجنرال ميلان نيدتش Milan Nedic ، الذى كان يتولى منصب وزير الحربية فى يوغوسلافيا الملكية قبل الحرب. ومع أن الدولة الصربية التابعة لم تكن مميزة فى معظم جوانبها ، فقد حظيت بامتياز كونها أول دولة من بين كل دول أوروبا المحتلة يتم فيها النازيون والمتعاونون معهم ترحيل اليهود والغجر والإجهاز عليهم(1).

واحتلت بلغاريا معظم مقدونيا . وسمح هتلر لإيطاليا بضم دالماتيا والجبل الأسود ، أو احتلالهما نيابة عنها ، إلى جانب أجزاء من مقدونيا وكوسوفو ، نيابة عن عميلتها ألبانيا الكبرى. وفى الشمال الغربى ، قُسمت أراضى سلوفينيا بين إيطاليا وألمانيا .

كرواتيا " المستقلة " : الأوستاشى والفظائع العرقية

بعد أن اصطنع النازيون " **دولة كرواتيا المستقلة** " ، اتبعوا الأسلوب الذى وضعوا أساسه فى أماكن أخرى من شرق أوروبا ، وهو اصطناع دول تابعة يحكمها اسمياً الفاشيون المحليون . وكان على رأس الكيان المصطنع حديثاً زعيم الأوستاشى الكرواتى أنتى بافيلتش ، وهو متطرف قديم كان العقل المدبر لعملية اغتيال الملك الكسندر سنة 1934 .

Raul Hilberg, *The Destruction of the European Jews* (Chicago :Quadrangle, 1961) (1)



خريطة 8 - 1 تقسيم يوغوسلافيا فى زمن الحرب (ديسمبر 1941)

وجمع نظام الأوستاشى الحاكم بقيادة بافيلتش بين أسوأ ما فى النازية الألمانية والفاشية الإيطالية . ومع أن " **دولة كرواتيا المستقلة** " كانت تحقيقاً للأحلام الكرواتية الخاصة بوطن كرواتي واحد موحد ، فقد كان بين سكانها البالغ عددهم 3.6 مليون نسمة حوالى مليوني صربى و30 ألف يهودى و 750 ألف مسلم بوسنى . وانطلق الأوستاشى بإصرار لا رحمة فيه للقضاء على اليهود والغجر والصرب . وفى 30 أبريل ، وبعد أسابيع قليلة من دخول الألمان ، نشرت الحكومة الكرواتية تعريفها الذى يحدد من هو " اليهودى " ، وهى الخطوة الأولى فى عملية التعرف على اليهود ومصادرة أملاكهم وتجميعهم فى معسكرات الاعتقال ليرسلوا فى آخر الأمر إلى معسكرات الإبادة . وتنفيذاً لتعليمات الألمان بكل دقة، كان الأوستاشى قد نقلوا بحلول 1944 الكثيرين من بين الـ 30 ألف يهودى الذين يعيشون فى " **دولة كرواتيا المستقلة**" إلى معمل النازى أو معسكرات الموت ، حيث هلكوا جميعاً على وجه التقريب . ونجا بعض اليهود عن طريق الفرار إلى الغابات والانضمام إلى

الأنصار ومحاربة قوات الاحتلال . وبقى عدد قليل من اليهود فى زغرب وسراييفو وغيرهما من مدن دولة الأوستاشى السابقة . إلا أنه بانتهاء الحرب كانت أعدادهم قد انخفضت بمقدار 90٪ أو يزيد .



شكل 8 - 1 أنتى بافليتش (الثانى من اليمين) يجرى حوارا مع
القادة النازيين فى مقر هتلر فى يوليو 1941

واتبع الأوستاشى استراتيجية ثلاثية نحو الصرب الذين يعيشون فى ظل حكمهم استهدف بها القضاء على القومية الصربية من خلال الإبادة والإبعاد والتحويل إلى المذهب الكاثوليكى . وقتل الأوستاشى بطريقة وحشية صرباً كثيرين ، فى كنائسهم وشوارعهم وقراهم ، أمام السكان الآخرين . وتتفاوت تقديرات عدد ضحايا الإبادة الجماعية تفاوتاً كبيراً ، من 185 ألفاً إلى 700 ألف وربما أكثر . ويزعم المدافعون عن وجهة النظر الصربية دائما (فى تقدير قد يكون مبالغاً فيه) أن مليون صربى لقوا حتفهم على أيدى الأوستاشي . ومن ناحية أخرى يقول القوميون الكروات إن حكومة تيتو بالغت فى تقدير أعداد القتلى لأغراض سياسية [2] .

---

(2) للاطلاع على ملخص المناظرة ، وإن كان من وجهة كرواتية شديدة الوضوح ، انظر :
Vladimir Zerjavic, *Yugoslavia - Manipulation with Number. of Second World War Victims.* (Zagerb : Croatian Information Center, 1993),
وهناك تقييم على قدر كبير من المعقولية فى Aleksa Dijlas *The Contested Country Yugoslav* Unity and Communist Revolution 1919 – 1953 (Cambridge : Harvard University Press 1991) pp125-7.

أثارت الفظائع التى ارتكبها الأوستاشى قدراً عظيماً من الغضب وأشعلت رغبة الصرب فى الانتقام . ورداً على تلك الأعمال ، ذبحت وحدات التشتنك Chetnik الصربية الكروات والمسلمين وغيرهم ممن شكت فى تعاطفهم مع الأوستاشى . وهرب الآلاف من صفوف الأوستاشى وانضموا لقوات المقاومة . وازداد عدد الأنصار بصورة خاصة مع تصاعد الأعمال الوحشية .

قتل الأوستاشى الصرب واليهود والغجر وغيرهم بقوة البرد فى معسكر الاعتقال الكبير فى ياسينوفاتس Jasenovac . ومع أن كل المراقبين يكادون يجمعون على أن معظم هؤلاء القتلى كانوا من الصرب ، فقد أصبح عدد من لقوا حتفهم فى ياسينوفاتس موضع خلاف شديد . وها هو فرانيو توجمان Franjo Tudjman ، المؤرخ بالخبرة الذى أصبح رئيساً لكرواتيا سنة 1990 ، يزعم أن 70 ألف صربى فقط ماتوا فى ياسينوفاتس . وهناك احتمال قوى بأن يكون هذا الرقم منخفضاً . وعلى الجانب الآخر نجد تقديراً صربياً يصل بعدد الضحايا الصرب إلى 1.1 مليون شخص ، وهو رقم غير محتمل (3) . وفى القاموس القومى تعد كلمة " ياسينوفاتس " رمزا واضحاً لأعمال الإبادة الجماعية التى ارتكبها الكروات .

وكانت جهود الأوستاشى لتحويل الصرب إلى المذهب الكاثوليكى تلقى دعم بعض أفراد الاكليروس الكاثوليكى ، الذين كانوا يدعمون تلك الأنشطة سراً أو علناً . وكان كبير الأساقفة الكاثوليك فى زغرب ألويزى ستبيناتس Alojzie Stepinac يزور قادة النظام الحاكم زيارة دورية . ورغم تصريحاته العلنية الرافضة لإجبار الناس على اعتناق المذهب، فقد أعطت زياراته حملة تغيير المذهب طابع الشرعية من جانب الاكليروس الكاثوليكى . وكان الفرنسيسكان البوسنيون فى مقدمة جهود التغيير تلك . وفى زمن الحرب أصبحت سراييفو مركزاً للحملة الكاثوليكية الكرواتية لتغيير مذهب الصرب . وأيد كبير أساقفة سراييفو شاريتش Saric جهود التغيير علانية . كما اعتنق ما يربو على 200 ألف صربى المذهب الكاثوليكى ، وإن كانت غالبية تلك الحالات تكتيكية ومؤقتة.

---

(3) MackTompson, *A Paper House:The Endof Yugoslavia* (New York : Pantheon Books 1992) .pp.267-8

وانظر أيضاً : Stan Markotich Ethnic Serbs in Tudjman's Croatia, « *RFE /RLResearch* Report .Sept .24 .1993.p.29

أما المسلمون فكان لهم وضع متأرجح على خريطة الأمور التى تشغل الأوستاشي . ويما أن الأوستاشى قوميون كروات ، فقد كانوا يؤمنون بأن المسلمين هم الكروات الذين شردوا من الحظيرة الكاثوليكية واعتنقوا الإسلام . إلا أن الأوستاشى لم يبذلوا أية محاولة ذات قيمة لتنصير المسلمين وجعلهم كاثوليك ، كشرط مسبق لقبولهم ككروات . بل إن وزير التعليم فى النظام الحاكم أعلن أن **"كرواتيا المستقلة"** دولة ذات ديانتين ، هما المذهب الكاثوليكي والإسلام . وأُقيم مسجد فى زغرب ليؤمه المسلمون البوسنيون .

واجتذب الأوستاشى مسلمين بوسنيين كثيرين أعلنوا أنفسهم كرواتاً ، أو اعترفوا بالصفة الكرواتية . ولكى يشجع الأوستاشي المسلمين على المشاركة ، نظموا فرقة مسلمة خاصة للتعاون معهم فى تعقب الصرب والقتال فى الحرب . كما نجح بافيلتش فى إغراء العديد من زعماء المنظمة الإسلامية اليوغوسلافية بالخدمة فى حكومة الأوستاشى . وكان تعاون المسلمين شائعاً بصورة خاصة بين مسلمى الطبقة العليا وفى شرقى الهرسك ، حيث قبل المسلمون شغل مناصب حكومية محلية كثيرة. وفى شرقي الهرسك وجنوب شرقى البوسنة ، كان الكثير من الفظائع التى ارتكبها الأوستاشى ضد الصرب من فعل المتواطئين المسلمين ، الأمر الذى دفع الصرب إلى ارتكاب فظائع ضد المسلمين انتقاماً منهم فى مناسبات عديدة (4). ومن ناحية أخرى ، انضم كروات ومسلمون كثيرون لمقاتلى تيتو ، خاصة سنة 1943 وما تلاها .

وفى حرب اتسمت بالقسوة من كل جانب ، فاق الأوستاشى الكل فى وحشيتهم التى لا ترحم وعنفهم الغاشم . فقد تعقبوا خصومهم السياسيين من كل طائفة عرقية ، بمن فى ذلك الكروات ، وأعدموهم . وكانت وحشية الأوستاشى سبباً فى خسارتهم لقدر كبير من التأييد الشعبى . كما أنها دفعت الآلاف للانضمام إلى صفوف الأنصار والتشتنك وخلف حكم الأوستاشى ميراثاً من المرارة والوحشية أحياه المشاركون فى ذلك الصراع الذى انفجر فى عامي 1991 و 1992 .

---

(4) Jozo Tomasevich *The Chetnik : War and Revolution in Yogoslavia 1941- 1945* (Stanford University Press 1975), PP. 258 - 9.

للاطلاع على تناول آخر ممتاز لصراعات زمن الحرب انظر :

The Chetnik Movement and the Yogoslav Resistance (Baltimore : Johns Hopkins University Press,1975).

ميخائيلوفتش والتشتنك

فرت معظم القيادات السياسية وأعضاء الأسرة المالكة إلى المنفى بعد انهيار الحكومة اليوغوسلافية فى أبريل 1941 . وتجمعت زمرة من الضباط ورجال الجيش اليوغوسلافى السابق بقيادة الكولونيل دراجا ميخائيلوفتش Draza Mihailovic فى التلال القريبة من دوبوى Doboi شمالى البوسنة ، حيث انتقلت بعد فترة قصيرة إلى رافناجورا Ravna Gora غربي صربيا وأعلنت عن نفسها باسم التشتنك ، وهى نواة مقاومة الاحتلال الألمانى والإيطالى .

واتخذ التشتنك اسمهم من عصابات الصرب المسلحة التى تحدى أفرادها ، كقُطَّاع طرق ، الحكم العثماني فى صربيا والبوسنة ومقدونيا . وارتدى ميخائيلوفتش وأتباعه زى الفلاحين وأطالوا شعورهم وأطلقوا لحاهم واتخذوا مظهر اللصوص الصرب البدائيين. وإعراباً عن ولائهم كضباط فى الجيش لصربيا الملكية ، اعتنق قادة التشتنك أيديولوجيا صربيا الكبرى ، وكانوا يأملون فى عودة أفراد العائلة المالكة الصربية كحكام ليوغوسلافيا يُعاد تكوينها من جديد . وكان ذلك يعني قصر دعوتهم بقدر كبير على السكان الصرب فى الأراضى اليوغوسلافية المختلفة ، وهم مؤيدون كثيرو العدد ولكنهم بعيدون عن اليوغوسلاف الوحيدين المستعدين لقتال قوى المحور . ولقي ميخائيلوفتش دعماً قوياً من حكومة المنفى اليوغوسلافية فى لندن . وفى يناير 1942 عُين وزير حربية فيها .

ومن مايو حتى نوفمبر 1941 ظل ميخائيلوفتش وقواته يحاربون الألمان ، حيث تحالف معهم الأنصار فى بعض الأحيان . إلا أن التشتنك كانوا ينظرون إلى المقاومة نظرة تختلف تماماً عن نظرة الأنصار . أول كل شيء ، كان التشتنك ملتزمين باستراتيجية تأجيل المقاومة النشطة حتى غزو الحلفاء للبلقان ، وذلك بسبب القدر الذى كانوا يتبعون به خطى حكومة المنفى فى لندن . ثم إنهم كانوا يهبُّون ويشنون هجمات على خطوط اتصالات المحور دعماً لجهد الحلفاء الأوسع مدى . بل إن ميخائيلوفتش حال بينه وبين المقاومة النشطة أمر هتلر القاسى الصادر فى سبتمبر 1941 بقتل 100 صربي مقابل كل جندى ألماني تقتله قوات المقاومة . وأثار ذلك فى نفس ميخائيلوفتش مخاوف تكرار خسائر صربيا الضخمة فى الحرب العالمية الأولى . وسرعان ما انقلب ميخائيلوفتش فجأة على الأنصار، الذين رأى أنهم أشد الشرين ، وأخذ يتهاون مع المحتلين الألمان والإيطاليين ثم تواطأ معهم فى نهاية الأمر .

تيتو والأنصار

ورغم نجاح الحزب الشيوعى اليوغوسلافى فى انتخابات المجلس التأسيسى سنة 1920 ، تعقبته الحكومة اليوغوسلافية الملكية وقمعته بعد إلغائه فى أغسطس 1921 . وهلكت قيادة الحزب أكثر وأكثر بسبب التطهير الذى قرره ستالين ، ومشاركة الزعماء البارزين فى الحرب الأهلية الأسبانية ، والنزاعات الداخلية بين الفصائل المختلفة . وبحلول سنة 1937 كان عدد أعضاء الحزب قد هبط إلى بضعة آلاف عضو تردت معنوياتهم . كما أن سمعته أُضيرت بشدة من جراء ارتباطه ارتباطاً فيه عبودية بنزوات السياسة الخارجية السوفيتية المتغيرة فى البلقان . إلا أن أمور الحزب أخذت فى التحسن بعد إرسال موسكو منظِماً سرياً محنكاً ، وهو يوسيب بروز ، لقيادة أعمال الحزب التنظيمية .



شكل 8 - 2 كومروفيتش : مسقط رأس يوسيب بروز تيتو

ولد يوسيب بروز سنة 1892 فى قرية كومروفتس Kumrovec على الحدود الكرواتية السلوفينية لأب كرواتى وأم سلوفينية . وأصبح عامل معادن وميكانيكياً وكان له نشاط قبل الحرب العالمية الأولى فى الحزب الديمقراطى الإجتماعى . جُند إجبارياً فى الجيش النمساوى المجرى وأُسر على الحدود الروسية ولكنه هرب سنة1917 وذهب إلى بتروجراد ، وكانت وقتها تجيش بالثورة ومعمعتها . وبصفته شاهداً على الثورة الروسية ومشاركاً فيها ،

فقد رآها رأى العين . وعندما عاد إلى يوغوسلافيا سنة 1920 حصل على وظيفة عامل معادن ، ليصبح بمرور الوقت زعيماً من زعماء الحزب الشيوعى فى زغرب . وسُجِن فترة قصيرة سنة 1927 . وفى سنة 1929 دخل السجن تنفيذاً لحكم مدته خمس سنوات صدر ضده ، بتهمة القيام بأنشطة تنظيمية غير مشروعة . وكانت فترة سجنه نعمة مستترة . ذلك أنها عزلته عن النزاعات المريرة بين فصائل الحزب . وعندما خرج من السجن سنة 1934 كان معروفاً بعدة أسماء حركية بينها " تيتو " . وبعد أنشطة تنظيمية وسفريات موسعة ، شملت مهمة فى موسكو ، عُين يوسيب بروز تيتو أول سكرتير للحزب الشيوعى اليوغوسلافى فى سبتمبر 1937 .

وبحلول وقت الغزو الألمانى سنة 1941 كان الحزب بزعامة تيتو قد أصبح قوة سرية ثورية فعالة وبلغت عضويته 12 ألفاً . وعندما شن الألمان هجومهم ، حث الحزب الجنود اليوغوسلاف على الاحتفاظ بأسلحتهم والاستعداد للمقاومة . وفى المقابل ، ناشدت الحكومة الملكية كل من هم تحت السلاح أن يلقوا سلاحهم ويستسلموا للمحتلين . وبدأ الحزب مقاومة شاملة بعد هجوم هتلر على روسيا فى يونيو 1941 . وفى 4 يوليو أصدر الحزب نداء لكل اليوغوسلاف كى يقاوموا الغزاة الفاشيين باستخدام كل الوسائل المتاحة.

وهكذا بدأ صراع دام أربع سنوات بين جوليات وداود ، بين القوة الغاشمة الألمانية وفرقة صغيرة من رجال حرب العصابات الذين يقودهم الشيوعيون اليوغوسلاف ولديهم خبرة قتالية قليلة (فيما عدا بعض من سبق لهم المشاركة فى الحرب الأهلية الأسبانية) إلى جانب عدد متواضع جداً من المؤيدين فى البداية . وربما تصور عدد قليل من المراقبين سنة 1941 أن تيتو وأنصاره ، مع مساعدة قليلة من الحلفاء الغربيين والجيش السوفيتي حتى وقت متأخر من الصراع ، سوف يطردون الغزاة الألمان من أجزاء كثيرة فى يوغوسلافيا .

مصادر نجاح الأنصار

كأى من حركات المقاومة الشعبية الناجحة فى القرن العشرين، كان التوفيق حليف الأنصار، طالما استطاع قادتهم أن يوسعوا نشاطهم ويعبئوا قاعدة عريضة من التأييد الشعبى اعتمدوا عليها فى تجنيد أعضاء جدد والحصول على المؤن والمساعدات اليومية. ويعود نجاحهم إلى تمسك القيادة الحازم بالمقاومة النشطة والنظام الصارم والسعي إلى تحقيق الأهداف المتسقة الواضحة التى عبَّر عنها تيتو ورجاله . و دعا الأنصار إلى التحرر

الوطني ، الذى كان يعنى انتفاضة شعبية تقوم بها كل القوميات اليوغوسلافية لدحر القوى المحتلة والمتواطئين معها داخل البلاد . وظل تيتو نفسه حازماً فى توجيهه لتلك الاستراتيجيات ، من خلال القيادة السياسية والعسكرية ، وعن طريق مداومة المراسلة الموسعة مع الكوادر الأدنى فى أنحاء البلاد . وكان يحث على القيام بأعمال ضد قوات العدو ويقودها ، وينظم تغييرات فى السياسة المتبعة ، ويكبح جماح التجاوزات .

واحتلت سياسة الحزب الشيوعى ، المتمثلة فى شعار Bratstvo i jedinstvo (إخاء ووحدة)، محل القلب من دعوة الأنصار . وعلى عكس افتراض يوغوسلافيا الملكية المرفوض بأن الشعوب السلافية الجنوبية ينبغي أن تنصهر فى قومية يوغوسلافية واحدة، أكد الأنصار ، وعلى رأسهم الشيوعيون ، أن كل أمة من أمم يوغوسلافيا لها ما يميزها عن الأخرى وينبغى معاملتها على قدم المساواة . وكان مبدأ المساواة القومية يتناقض مع كل من ممارسات مركزية صربيا الكبرى الخاصة بالحكومة اليوغوسلافية الملكية ، التى أقرها ميخائيلوفتش والتشتنك واستمروا فى العمل بها ، والقومية الكرواتية المتطرفة التى اتسم بها الأوستاشى الذين كانوا يهدفون إلى خلق دولة كل الكرواتيين بأية وسيلة .

وقبل الغزو الألمانى سنة 1941، دخل الحزب فى مناقشات مضنية ونزاعات بين فصائله وتغييرات غير معلنة فى منهجه الخاص بالمسألة القومية . وفى زمن الحرب أعلن تيتو مبادىء العلاقات القومية الرئيسية التى كان لابد أن تصبح مرشداً للأنصار أثناء الحرب ولسياسات الحزب بعد هزيمة الألمان (5) .

وبسبب استعارة تيتو الكثير من ستالين ونموذج القومية السوفيتية ، فقد جمع بين فكرتى تقرير المصير القومى الكامل لقوميات يوغوسلافيا وتنظيم الحزب المركزى القوى ، الذى يُعد التعبير السياسى الوحيد عن ارادة كل أمة . وكان على أجهزة الحكومة القانونية والدستورية أن تحترم الحقوق القومية . بل بلغ الأمر إعطاء حقوق نظرية للقوميات المعترف بها فى الانفصال عن الدولة ، كما هو حال السوفيت. وفى الوقت نفسه يحافظ الحزب الشيوعى ، بصفته الهيئة الشرعية الوحيدة المعبرة عن الارادة الشعبية ، على النظام الذى يفرضه المركز ويضمن عدم ممارسة أى قومية لهذا الحق . وبطبيعة الحال ، كانت هذه

---

(5) نجد منهج الحزب فيما يتعلق بقضايا القومية معروضاً باقتدار فى :

Paul Shoup, *Communism and the Yugoslav National Question* (NewYork: Columbia University Press,1968.) and in Dijlas, The Contested Country.

الخدعة ستؤدى إلى تمزيق الدولة حال انهيار الحزب الشيوعى أو فقدانه لدوره كحزب أوحد، كما حدث فى كل من الاتحاد السوفيتى ويوغوسلافيا فى أوائل التسعينيات . إلا إنه فى يوغوسلافيا زمن الحزب ، بكل ما فيها من صراعات شديدة بين المتطرفين القوميين إلى جانب التجربة التعسة الأخيرة الخاصة بهيمنة صربيا الكبرى ، كانت سياسة الأنصار توليفة منعشة من التحرر القومى والنظام المفروض مركزياً ، الذى يمكن أن يحول دون التجاوزات القومية .

وبالنسبة للبوسنيين وغيرهم من اليوغوسلاف ، أُثير سؤالان مهمان : ما هى القوميات التى يمكن الاعتراف بها فى إطار هذا النظام ؟ وكيف يمكن رسم الحدود الإقليمية فى المناطق التى تتداخل فيها القوميات جغرافياً ؟ وأجاب تيتو وقيادة الحزب عن السؤال الأول ببيانات مؤثرة اعتزمت أن يشمل الأمر كل المطالبين المحتملين بحقوقهم ، بينما حددت خمس قوميات رئيسية على وجه الخصوص هى: الصرب والكروات والسلوفينيون والمقدونيون وأهل الجبل الأسود . ولم يكن المسلمون البوسنيون ضمن هذه المجموعة الأساسية من القوميات ، حيث كان الحزب فى ذلك الوقت يراها على أنها طائفة مميزة بلا وضع قومى منفصل . ولكن بما أن عمليات الأنصار الأساسية تركزت فى البوسنة ، فقد كان التأييد البوسني أمراً حيوياً ، وكان تيتو حريصاً على الاعتراف بوضعهم المميز فى إعلانات ونداءات عديدة .

ووجد المسلمون البوسنيون السلوى كذلك فى الوعود الخاصة بإعطاء البوسنة والهرسك وضعاً منفصلاً . وبما إن معظم الصراع المكثف بين الأنصار وخصومهم وقع بصورة كبيرة على أرض البوسنة والهرسك والأقاليم الجبلية المتاخمة ، فقد أصبحت البوسنة البوتقة التى تشكل فيها التزام الأنصار بالمساواة القومية فى سنوات الحرب . واقترح تيتو إقامة هيكل فيدرالى يتكون من جمهوريات منفصلة لكل من القوميات الخمس الرئيسية ، على أن تشكل البوسنة والهرسك الوحدة الفيدرالية السادسة . وسرعان ما طُبقت مبادىء الفيدرالية فى الأراضى المحررة التى اتسعت مع استمرار الحرب (وإن لم يكن ذلك بلا نكسات) .

صراع حركات المقاومة

عقب الغزو الألماني الذى وقع فى أبريل 1941 مباشرة ، بدأت المقاومة التلقائية

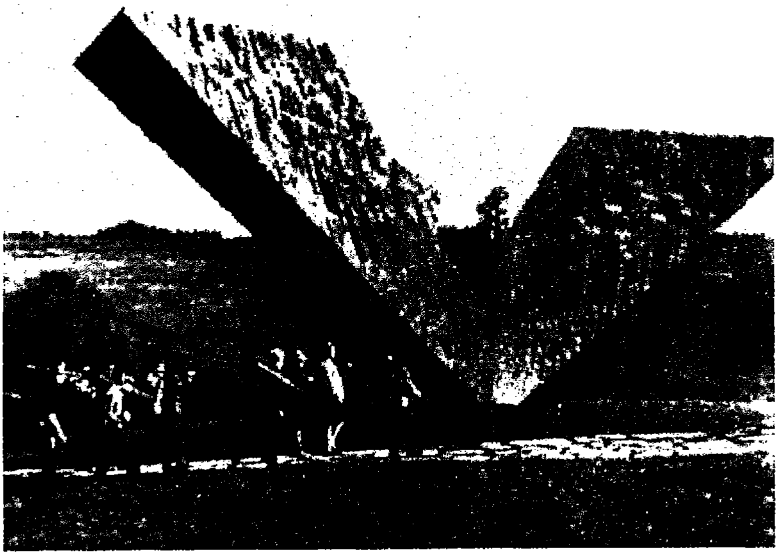
للمحور فى مراكز العصابات والثورة التقليدية شرقى البوسنة . وسرعان ما قام الأنصار والتشتنك بتحرشات متفرقة . ومع دعوة الأنصار إلى حمل السلاح فى 4 يوليو 1941 ، بدأت المقاومة المنظمة على نطاق واسع . وما إن حل شهر سبتمبر حتى بات بمقدور الأنصار إقامة منطقة محررة غربى صربيا وشرقى البوسنة مركزها أوجتسى Uzice .

وفى الشهر الأول من الحرب ، تعاون الأنصار والتشتنك فى العديد من العمليات . إلا أنه سرعان ما ظهرت التوترات بين المجموعتين بشأن غاياتهما ومدى مقاومتهما المسلحة للمحتلين . وفى أكتوبر 1941 حدث فى مدينتى كراجوييفاتس Kragujevac وكراليفو Kraljevo الصربيتين أن طوّق الجنود الألمان الآلاف من المدنيين البسطاء ، بينهم أطفال المدارس ، وقتلوهم انتقاماً من هجمات رجال العصابات ضد الجنود الألمان على بعد أميال عديدة . وبسبب ما أصاب ميخائيلوفتش من رعب من جراء تلك الوحشية الغاشمة ، وخوفه من أن يعني أى فوز يحققه الأنصار قيام ثورة شيوعية تقضى تماماً على كل أثر للنظام القديم ، خار عزمه وبات يرى الأنصار على أنهم عدوه الأول ، وانهارت آخر جهود لها قيمتها تستهدف التعاون بين التشتنك والأنصار فى نوفمبر 1941 . وفى الشهور والسنوات التالية سمح ميخائيلوفتش بتجريد الألمان لبعض قواته من السلاح ورتب لجعل غيرها "مشروعاً" ، أى أن تكون تحت القيادة الاسمية لنظام نيدتش العميل. وسواء أكان رجال ميخائيلوفتش خاضعين لقيادة التشتنك أم كانوا وحدات "مشروعة" ، فقد حاربوا فى صف الألمان والإيطاليين فى معاركهم ضد الأنصار .

وعندما واجه الألمان حركات مقاومة أذهلهم نجاحها فى تلال صربيا والبوسنة ، شنوا ما مجموعه سبع هجمات فيما بين نوفمبر 1941 ومايو 1944 فى محاولة شديدة اليأس لا طائل من ورائها لسحق حركة الأنصار (6) . وما يُروى عن تلك الهجمات الألمانية السبع، وعن بقاء الأنصار الذى لا يصدقه عقل وبطولتهم وسط هذه الهجمات ، اتخذ أبعاد القصص التوراتية فى يوغوسلافيا ما بعد الحرب . وساهم الفشل الألمانى كذلك فى تردد الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا فى دراسة التدخل العسكرى فى نفس هذه المناطق .

---

(6) هناك عرض ممتاز ومتوازن لهذه الصراعات فى Walter.R ،Roberts ،*Tito Mihailovic and the Allies 1941-1945* (New ،Brunswick,N.) 1973 Rutgers University Press, 1973).



شكل ٨ – ٢ نصب تذكارى لضحايا أعمال القتل فى أكتوبر

١٩٤١ فى بلدة كراجويفاتس الصربية

وكان كل هجوم يجبر تيتو وقيادة الأنصار العامة على الفرار إلى ملجأ آخر ومعهم وحداتهم الأساسية . وبلغت تلك الصراعات حدوداً ملحمية . وعندما طُرد الأنصار من شرقى البوسنة فى ربيع 1924 ، عبروا الأراضى الجبلية الوعرة للإستيلاء على بيخاتش Bihac شمال غربى البوسنة، حيث عقدوا فى نوفمبر 1942 المجلس المناهض للفاشية من أجل التحرر الوطنى اليوغوسلافى (المعروف اختصاراً باللغة الصربوكرواتية بـ AVNOJ "أفنوى") . إلا أن الألمان أخروجهم من بيخاتش فى 1943. ومرة أخرى قطعوا البوسنة طولاً وعرضاً بحثاً عن ملجأ فى جنوب شرقي البوسنة وشرقى الهرسك . وأعادهم الهجوم الألمانى الخامس إلى الشمال الغربي ، حيث عُقد مؤتمر ثان لـ "أفنوى" على الأرض المحررة فى يايتشى Jajce فى نوفمبر 1943 . وكان الهجوم الألمانى السابع هجوماً محمولاً بالجو شُن على قيادة للأنصار فى درفار Drvar التى فر منها تيتو بصعوبة فى مايو 1944 . ومع ذلك ازداد عدد مقاتلى الأنصار واتسع حجم الأراضى المحررة، وإن كانت تلك الهجمات وراء جزء ضخم من القتلى والجرحى فى صفوف الأنصار.

وفى المراحل الأولى من الحرب انضمت أعداد لا حصر لها من الصرب إلى حركات المقاومة التابعة للقوميات اليوغوسلافية الأخرى . وبسبب تمرس الصرب على تراث المقاومة المسلحة للحكم الأجنبى ، فقد كانوا أميل للانضمام إما للتشتتك أو الأنصار فى بداية الصراع . وبما أن الأنصار حققوا انتصاراتهم الأولى فى غربى صربيا وفى شرقى البوسنة المتاخم له ، بما فيه من أعداد كبيرة من الفلاحين الصرب ، فقد انضم المزيد من الصرب إلى صفوف الأنصار فى تلك المناطق . وفى أراضى **"دولة كرواتيا المستقلة"** (وهى كرواتيا والبوسنة والهرسك التاريخية) ، دفعت الفظائع التى ارتكبها الأوستاشى الكثيرين من الصرب إلى الانضمام لصفوف الأنصار . وانضم أبناء القوميات الأخرى بأعداد كبيرة فى وقت لاحق من الحرب ، حيث اجتذب بعضهم تعهد الأنصار بـ "الأخوة والوحدة" واستهوى البعض الآخر الانخراط فى قوات الأنصار . وفى سنة 1944 سجل تيتو أن 44٪ من الأنصار كانوا صرباً . وهى نسبة مئوية ربما قللت من قدر مساهمتهم ، لأنها عكست الأعداد المتزايدة من اليوغوسلاف الآخرين الذين انضموا للأنصار فى مراحل لاحقة من الحرب.

وكانت الأكثرية الصربية فى صفوف الأنصار تمثل تحدياً خطيراً لتعهد تيتو بالمساواة القومية . وأعلن أنصار إقليم "الجبهة العسكرية" التاريخى فى كرواتيا إقامة جمهورية منفصلة . وتكشف وثائق الأنصار أن قادتها الصرب كانوا مهتمين بإقامة منطقة صربية تتمتع بالحكم الذاتى على حساب الكروات ، بدلاً من تحديهم الشرس عسكرياً للألمان والأوستاشى . (أعلن الصرب من نفس الطوائف الحكم الذاتى المستقل عن كرواتيا سنة 1991، بمساعدة بعض وحدات جيش الشعب اليوغوسلافى ، وأعلنوا أنفسهم جزءاً من "اقليم كراينا Krajina الصربى المتمتع بالحكم الذاتى"). غير أن قادة الأنصار عالجوا تلك المشكلات سنة 1942 ، حيث دعوا كل تشكيلات الأنصار إلى مقاتلة الألمان وحلفائهم الفاشيين ، بدلاً من الارتداد إلى المشاحنات القومية .

ونجح سعى الأنصار للحصول على التأييد الشعبى بشكل خاص فى البوسنة ، التى كانت مركزاً مهماً للملاذات الآمنة والعمليات العسكرية ضد الألمان . وكان الكروات والمسلمون يخشون فى بادىء الأمر قيام الصرب بأعمال انتقامية رداً على ما قام به الأوستاشى . وكان يراود مسلمين كثيرين ميراث الثورات الصربية على المسلمين ، خاصة

فى شرقى الهرسك . ولكن قيادة الأنصار سعت إلى تهدئة تلك المخاوف وأبدت استعدادها لتنظيم الضالين فى صفوفها من صرب وغيرهم . وفرض الأنصار قواعد محكمة بشأن دخول القرى المسلمة والكرواتية . وعندما كان المسلمون يهجرون قراهم خوفاً ورعباً ، كانت وحدات الأنصار تؤمِّن بيوتهم من الأعمال الانتقامية والنهب . ورغم صعوبة فرض هذا النظام وعدم استقراره بعض الأحيان فى زمن الحرب ، نجح الأنصار فى تهدئة الصراع العرقى وفى الحصـول على تأييد كبير فى البوسنة من خـلال تطبيق شعاراتهم الوطنية تطبيقاً فعالاً .

وكان تأييد بريطانيا والحلفاء لميخائيلوفتش قوياً فى شهور الحرب الأولى . إلا إن هذا التأييد تضاءل عندما علمت بعثات الحلفاء العسكرية أن التشتنك كانوا يتهربون من المقاومة ويتواطؤن مع قوات المحور . وبحلول منتصف 1943 كان البريطانيون ، الذين أرسلوا مبعوثين إلى كل من تيتو وميخائيلوفتش ، قد أصبحوا مقتنعين بأن الأنصار يستحقون التأييد(7) . وأسقطت لهم طائراتهم المؤن التى كانوا يعطونها للتشتنك من قبل . وفى فبراير 1944 أمر البريطانيون ضباط اتصالهم بالانسحاب من صفوف التشتنك . وبعد ذلك اقتصر تأييد الحلفاء على جهود تيتو العسكرية .

ورغم كون ستالين والسوفييت فى موقع مثالى يتيح لهم ادعاء الفضل فى نجاح تيتو، فواقع الأمر أنه لم تكن لهم علاقات قوية بالأنصار والحزب الشيوعى اليوغوسلافى أثناء الحرب . وأدى حرص ستالين على إخفاء نواياه الثورية عن حلفائه البريطانيين والأمريكيين إلى عدم ارتياحه من بيانات تيتو العلنية عن المناطق "المحررة" وزعمه أن الحزب هو القوة السياسية الشرعية الوحيدة على أرض يوغوسلافيا . وعندما أعلن مؤتمر "أفنوى" الأول (بيخاتش – نوفمبر 1942) قيام "دولة" يوغوسلافية على الأرض المحررة ، وجَّه ستالين اللوم لتيتو وذكَّره بضرورة الحفاظ على "جبهة موحدة" مع قوى المقاومة غير الشيوعية . ويبدا أن مثل تلك التحذيرات دفعت تيتو إلى وضع المزيد من الأهداف المستقلة ذات التوجه اليوغوسلافى وإلى الانصراف عن أهداف الحركة الشيوعية العالمية . وأدى هذا إلى ذلك

(7) عُقد فى 28 نوفمبر 1943 مؤتمر فى العاصمة الإيرانية طهران استمر حتى أول ديسمبر . وفى هذا المؤتمر اتفق رئيس وزراء بريطانيا ونستون تشرشل والرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت والرئيس السوفيتى يوزيف ستالين على مساعدة الأنصار . (المترجم)

الموقف الذى حث فيه ستالين من يفترض أنهم أتباعه اليوغوسلاف المطيعين على الاعتدال فى أعمالهم ، فى حين كان الحلفاء الغربيون يشجعون على شكل أكثر جرأة للمقاومة .

فوز الأنصار

رغم نجاح الأنصار باعتمادهم بصورة كبيرة على سياساتهم وأعمالهم ، فقد استفادوا استفادة كبيرة من الانتصارات التى حققها الحلفاء مع استمرار الحرب . إذ صد السوفيت غزو الألمان لروسيا فى قتال الشتاء القارس فى 1942 و 1943 . وكان البريطانيون والأمريكيون أكثر حرية فى السعى وراء تحقيق أهدافهم فى البلقان ، بعد النصر الذى حققوه فى حملة شمال أفريقيا فى مايو 1943 . وبعد استسلام الايطاليين يوم 8 سبتمبر 1943 ، حاول الألمان والتشتنك والأنصار الاستيلاء على الأراضى اليوغوسلافية التى كانت القوات الايطالية تحتلها من قبل . واستولى الألمان على المنطقة الإيطالية من **"دولة كرواتيا المستقلة"** ، إلا إن الأنصار تمكنوا من تحرير مساحات كبيرة من أراضى الجبل الأسود وسنجق نوفى بازار والهرسك . أما التشتنك ، الذين افتقروا بشدة إلى التأييد الشعبى ، فقُضى عليهم قضاء مبرماً فى غربى يوغوسلافيا .

وفى أغسطس 1944 بدأ الأنصار تقدمهم داخل صربيا ، عندما اقترب الجيش الأحمر السوفيتى فى الشرق . وزار تيتو الاتحاد السوفيتى فى سبتمبر 1944 (حيث أُخفى أمر غيابه تماماً عن البريطانيين) وحصل من ستالين على تعهد بأن يغادر الجيش الأحمر أرض يوغوسلافيا بمجرد تحرير بلجراد . وقام الأنصار والجيش الأحمر بعملية مشتركة أدت بعد ذلك إلى طرد الألمان من يوغوسلافيا يوم 20 أكتوبر 1944 . وبعد ثلاثة أسابيع غادر الجيش الأحمر الأراضى اليوغوسلافية تنفيذاً للوعد الذى حصل عليه تيتو فى سبتمبر . ومنذ ذلك الحين وحتى مايو 1945 ، تركزت جهود الأنصار العسكرية على توسيع الأراضى المحررة وطرد الألمان من كامل التراب اليوغوسلافى . وفى 6 أبريل 1945 (أى بعد أربع سنوات بالتمام من الهجوم الألماني على يوغوسلافيا) ، دخل الأنصار سراييفو . كما حرروا زغرب فى 8 مايو 1945. وفى 15 مايو استسلمت آخر قوات الألمان والتشتنك للأنصار .

وكانت الانتصارات التى حققها الأنصار بالنسبة للأوستاشى والتشتنك والمتعاونين والمتعاطفين معهم انتصاراً للشيوعيين الملتزمين بالتدمير الثورى للنظام القديم . وهرب الكثيرون إلى الغرب ، أملاً فى أن يوفر لهم الحلفاء الملجأ الذى يُمكّنهم من العيش كى يحاربوا يوماً ما . إلا أن الحلفاء الغربيين ، المطالبين باستسلام كل مؤيدي المحور للقوات الموجودة على أراضيهم، ردوا الكثير من اليوغوسلاف الفارين وأجبروهم على العودة إلى الأراضى التى يسيطر عليها الأنصار . وأثناء سعى الأنصار للقضاء على المعارضة

والاجهاز على كل التشكيلات المسلحة، قتلوا الآلاف . واتجه بعض من لهم سجل من التواطؤ إلى الولايات المتحدة وكندا وأستراليا والنمسا وغيرها من ملاذات اللاجئين[8] ، جاعلين من تلك الدول مراكز لإثارة العداء ضد الشيوعية فى الخارج لعشرات من السنين تلت ذلك. وواجه كثيرون أحكاماً بالإعدام على أيدى الأنصار بعد إلقاء القبض عليهم . واستطاع ميخائيلوفتش أن يفلت من قبضتهم لمدة سنة تقريباً ، إلى أن وقع فى أيديهم فى مارس 1946 وحوكم بتهمة التواطؤ مع العدو ونُفِّذ فيه حكم الإعدام بعد أربعة أشهر .

وإلى جانب التغييرات الجذرية التى أحدثها فوز الأنصار فى المجتمع اليوغسلافى ، كان للحرب العالمية الثانية ثلاثة أثار بالغة الأهمية على ما تلاها من أحداث . أولها أن صعود الصرب فى هيكل قيادة الأنصار تكرر فى السنوات التالية بأشكال مختلفة. وتصدى تيتو لهذا الاتجاه بطرق عديدة . إلا إن الجيش اليوغوسلافى لم يقض على النفوذ الصربى المتفوق فى فرق ضباطة قضاءً مبرماً. الأمر الثانى هو أن ميراث البوسنة كآخر ملجأ ضد الغزو الأجنبى ، مقابل سهولة اقتحام زغرب وبلجراد ، كان له أثره على السياسة العسكرية اليوغوسلافية فيما بعد . فقد أصبحت البوسنة بؤرة نظرية الدفاع اليوغوسلافية ومركز انتاج العتاد الحربى اليوغوسلافى فى سنوات ما بعد الحرب .

وأخيراً ، كانت الانتصارات التى حققها الأنصار بمثابة عودة المثال اليوغوسلافى فى شكل جديد . فقد انتهت الحقبة اليوغوسلافية الملكية بتبادل الاتهامات ، عندما انهارت يوغوسلافيا انهياراً سريعاً قبل الهجوم الألماني . وألقى الكثير من القوميين الصرب باللوم، فيما يتعلق بانهيار يوغوسلافيا الملكية ، على "الطابور الخامس" الكرواتى الذى كان يأمل فى الاستفادة من الاحتلال الألمانى والإيطالى . ومن ناحية أخرى أرجع كروات كثيرون الانهيار إلى جبن ساسة بلجراد وعدم كفاءة الجيش اليوغوسلافى الذى يهيمن عليه الصرب. وأتاحت يوغوسلافيا ما بعد الحرب الجديدة الفرصة لمواطنيها لإقامة مشروع يتطلع للمستقبل ويتضمن "الإخاء والوحدة" الوطنية فى إطار حملة بناء مجتمع ثورى جديد.

---

(8) فى تلك الفترة جرت اتصالات عديدة بين الطلاب المسلمين فى القاهرة وعبد الرحمن عزام رئيس الجامعة العربية فى ذلك الوقت بشأن اللاجئين المسلمين اليوغوسلاف فى إيطاليا والنمسا وتردى أوضاعهم . وحث هؤلاء الطلاب دول الجامعة على إيواء اللاجئين واستضافتهم إلى أن تنظم القوى المناوئة للنظام الشيوعى الجديد صفوفها تمهيداً لاسقاطه ومن ثم يعود اللاجئون إلى يوغوسلافيا . وبالفعل أجرى عبد الرحمن عزام العديد من المشاورات كما قام بزيارة الرئيس السورى شكرى القوتلي . وأعلن عزام استعداد الحكومة السورية لاستقبال هؤلاء اللاجئين واقامتهم بها . كما ناشد الطلاب اليوغوسلاف الحكومة المصرية التدخل لإنقاذ بعض اللاجئين الذين شاركوا فى حكومة كرواتيا التي تكونت فى ظل الاحتلال النازى ليوغوسلافيا أثناء الحرب العالمية الثانية . وليس معروفاً على وجه الدقة مدى تدخل الحكومة المصرية بشأن نقل هؤلاء اللاجئين ومسألة نقلهم إلى القاهرة . (المترجم)

الفصل التاسع

يوغوسلافيا الاشتراكية

حقبة تيتو: 1945 - 1980

ألحقت الحرب الدمار بكل مناطق يوغوسلافيا وقتلت ما يربو على المليون إنسان وخلَّفت ملايين أخرى من الجرحى أو العجزة . وبعكس الحرب العالمية الأولى ، التى تحملت فيها صربيا أكبر خسارة ، قُتل البوسنيون بأعداد لا حصر لها فى هذا الصراع . فقد لحقت خسائر كبيرة بكل الطوائف البوسنية فى الحرب ، وكان أكبر عدد من القتلى بين صرب البوسنة الذين كانت نسبة خسائرهم أعلى مما مُنى به الكروات أو المسلمون . ولم تكن أسباب الموت وقفاً على ساحة القتال. فكثيرون منهم لقوا حتفهم بسبب حملات الإبادة الجماعية التى شنها الأوستاشى وما تلاها من حروب قتل فيها الأخوة بعضهم . كما أُبيد يهود البوسنة وغجرها أو كادوا . ومُحيت طوائفهم تقريباً بالإبعاد والقتل .

ومن بين بلاد أوروبا الشرقية ، كانت يوغوسلافيا تقف وحدها مع ألبانيا فيما يتعلق بتحرير نفسها بصورة كبيرة من احتلال المحور ، عن طريق حركة مقاومة محلية على قدر كبير من الشعبية . ويمكن مقارنة هذا الإنجاز بما حققه الشيوعيون الصينيون والفيتناميون فى معاركهم الناجحة ضد المحتلين اليابانيين . وكان الدعم الخارجي محدوداً بالنسبة للإمدادات والمساندة الدبلوماسية ومساهمة الجيش الأحمر فى تحرير بلجراد . وتقبل معظم المراقبين اليوغوسلاف والأجانب زعم تيتو بأنه وأنصاره حاربوا أعداءهم من المحور والمتواطئين من السلاف الجنوبيين بقوة العقيدة والتماسك وقدر كبير من الشجاعة . ومعظم هؤلاء الذين كانت لهم وجهة نظر مختلفة فروا من يوغوسلافيا أو أُسكتوا أو قُتلوا فى ذلك القهر الشرس الذى صاحب تدعيم تيتو لنفوذه ، سنة 1945 وما تلاها.

وتغيرت طبيعة الاشتراكية اليوغوسلافية تغيراً جذرياً عقب قرار ستالين سنة 1948 بطرد الحزب الشيوعى اليوغوسلافى من الكومنفورم[1] . ودفع هذا الطرد تيتو ورفاقه إلى

---

(1) كان الكومنفورم أو مكتب معلومات الأحزاب الشيوعية والعمالية ، منظمة أوروبية للأحزاب الشيوعية أنشئت فى سبتمبر 1947 . وأعضاء الكومنفورم هي الأحزاب الشيوعية فى الاتحاد السوفيتى وبلغاريا ورومانيا والمجر وبولندا وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا وفرنسا وإيطاليا . وكان مقره فى بادىء الأمر فى العاصمة اليوغوسلافية بلجراد . وعندما طُردت يوغوسلافيا من الكومنفورم سنة 1948 ، لمقاومتها هيمنة الاتحاد السوفيتى ، نُقل المقر إلى العاصمة الرومانية بوخارست وظل بها إلى أن ألغيت المنظمة فى 17 أبريل 1956 . **(المترجم)**

السير فى طريق مختلف أدى فى النهاية إلى استحداث سياسات داخلية وخارجية كانت لها نتائجها المؤثرة على اليوغوسلاف ، وخاصة أهل البوسنة والهرسك . فبعد أن تخلى تيتو عن السياسات السابقة القائمة على التحكم والقهر ، قاد التحرر الذى أدى إلى تنافس لا حدود له بين الجمهوريات وإلى تنافس عرقى مفتوح .

إقامة يوغوسلافيا الاشتراكية

كانت هناك رغبة قوية داخل العقيدة الشيوعية اليوغوسلافية فى اتباع نموذج الاتحاد السوفيتى . ومن المفارقات أن هذه النزعة تواجدت مع إحساس تيتو القوى بالاستقلال الشخصى والرغبة الدفينة فى تشكيل الحركة الشيوعية بالصورة التى تجعلها ملبية لحاجات الوضع اليوغوسلافى . بعبارة أخرى ، كان تيتو يريد الاقتداء بلينين وستالين ، وليس إطاعة كل نزوه من نزوات ستالين . ويُعد سير الأحداث فى السنوات التى أعقبت الحرب مباشرة دراسة فى تفاعل دافعين متناقضين ، هما تملق التقليد والرغبة فى المسار المستقل .

وبسبب رغبة تيتو ورفاقه الشيوعيين الملحة فى محاكاة النموذج السوفيتى ، فقد أعلنوا ثورتهم الاجتماعية بحماس وسرعة لا مثيل لهما فى شرق أوروبا . وقال أحد المراقبين : " بدا اليوغوسلاف من الخارج فيما بين 1945 و1948 كأنهم أكثر تلاميذ الاتحاد السوفيتى كفاءةً وأشد حلفائه ولاءً "(2) . ولذلك كانت سنوات الحكم الشيوعى الأولى قاسية بكل المعايير ، حيث تحرك الحزب الشيوعى اليوغوسلافى بسرعة لتدعيم نفوذه وإقامة مؤسسات النظام الجديد وبدء الثورة الاجتماعية التى أعلنها أثناء الحرب .

واعترافاً بالحماس الثورى الذى أظهره تيتو ورفاقه من جهة ، وطمعاً فى السيطرة على ذلك الحماس من جهة أخرى ، اختار ستالين بلجراد مقراً لمكتب الإعلام الشيوعى (الكومنفورم) . ورغبة من ستالين فى حجب نواياه الثورية بعيدة المدى عن حلفائه الغربيين ، حل الشيوعية الدولية (3) سنة 1943 . إلا أنها ولدت من جديد فى سبتمبر 1947 على هيئة

Fred Singleton *A Short History of the Yugoslav Peoples*, Cambridge University) (2) Press,1985. p . 212) .

(3) الكومنترن ، أو الشيوعية الدولية ، كانت منظمة عالمية للأحزاب الشيوعية بزعامة الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى . تأسست فى موسكو فى مارس 1919 لتوجيه الثورة الأوروبية التى كان فلاديمير لينين زعيم الثورة البلشفية يعتقد أنها وشيكة . وأملى الكومنترن السياسات على الأحزاب الشيوعية فى الدول الأخرى وكانت هذه المنظمة تعمل لخدمة الدولة السوفيتية وتهتم بالنظام الحزبى والدعاية وتنظيم النقابات وغيرها من الجماعات الموالية للشيوعية . وفى سنة 1943 حُلت الشيوعية الدولية عندما تحالف الاتحاد السوفيتى مع الدول الرأسمالية ضد النازى فى الحرب العالمية الثانية (المترجم) .

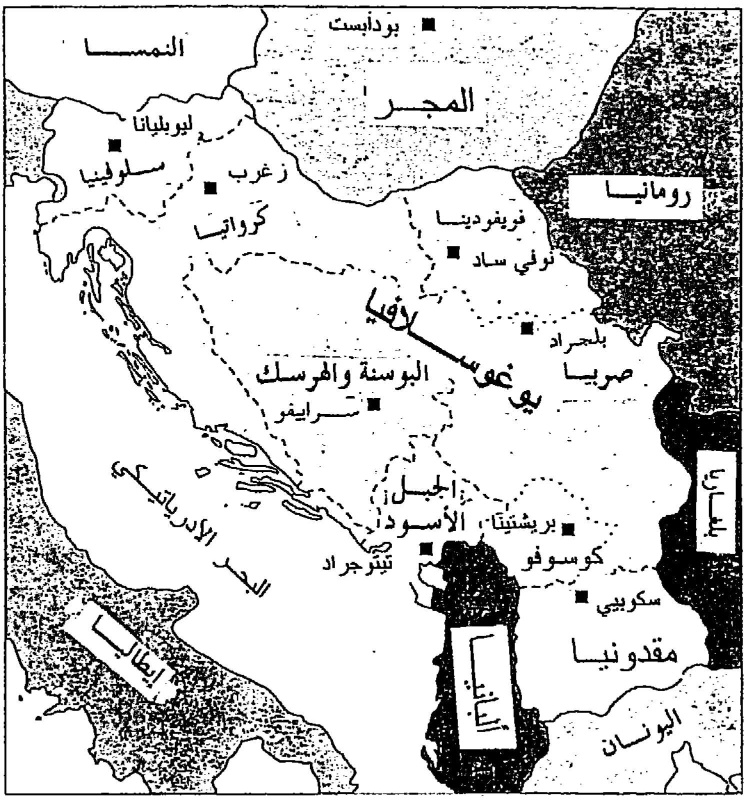
مكتب الإعلام الشيوعى المنوط به نفس الوظيفتين المزدوجتين الخاصتين بإعلان الثورة العالمية وفرض أولويات السياسة السوفيتية على الحركة الشيوعية العالمية . وكان إصدار الكومنفورم الرسمى يحمل اسماً ثقيلاً هو "من أجل سلام دائم ، من أجل ديمقراطية شعبية" وكان يعلن الخط الحزبى لمؤيدى الحزب الشيوعى فى كل مكان من العالم .

دستور 1946 : هيكل يوغوسلافيا الاشتراكية

رغبة من تيتو فى امتصاص غضب قوى الحلفاء ، دخل فى حكومة ائتلافية فى مارس 1945 مع ساسة غير شيوعيين يتزعمهم إيفان سوباشتش Ivan Subasic ، وكان حاكماً لكرواتيا قبل الحرب وأمضى زمن الحرب فى الولايات المتحدة . وبينما حصلت حكومة تيتو – سوباشتش على الاعتراف الدولى بالنظام الاشتراكى الذى كانت تحتاجه بشدة ، كانت قوات الأنصار المحررة صاحبة الدور الأكبر فى تحديد النهج السياسى الجديد . وكانت "**يوغوسلافيا الاتحادية الديمقراطية** " التى أُعلنت سنة 1945 لا تضم فى مجلسها التنفيذى إلا عدداً محدوداً من غير الشيوعيين ، كواجهة سياسية . وأُجريت الانتخابات فى 11 نوفمبر 1945 لانتخاب مجلس تأسيسى ، وقُدمت للناخبيين قائمة مرشحين واحدة مؤلفة من الشيوعيين بصورة أساسية . وحصلت هذه القائمة على أكثر من 90٪ من عدد الأصوات . وبعد بضعة أسابيع ، وفى يناير 1946، أعلن المجلس التأسيسى الذى يسيطر عليه الشيوعيين دستوراً جديداً .

وحدد دستور 1946 ، الذى اقترب فى نمطه من دستور 1936 السوفيتى الذى وضعه ستالين، النظام السياسى الأساسى ليوغوسلافيا الاشتراكية . وتنفيذاً لتعهدات تيتو التى قطعها على نفسه إبان الحرب ، اعترف الدستور اعترافاً محدداً بخمس قوميات يوغوسلافية هى : الصرب والكروات والسلوفينيون والمقدونيون وأهل الجبل الأسود . ولم يدخل فى ذلك المسلمون البوسنيون ، إذ كان الخط الرسمى للحزب يرى أن المسلمين طائفة منفصلة بلا هوية قومية .

وأُقيمت ست جمهوريات تقابل تقريباً الوحدات التاريخية التى جُمع بينها سنة 1918 لتشكيل مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين . واعترف الدستور ، الذى حذا حذو سابقه السوفيتى ، بأقليات قومية بعينها أبرزها المجريون والألبان . وجُعل إقليم فويفودينا Vojvodina ذو العدد الكبير من السكان المجريين ، منطقة حكم ذاتى ، كما جُعلت منطقة كوسوفو–ميتوخيا Kosovo – Metohija ، ذات العدد الكبير من السكان الألبان ، منطقة حكم ذاتى ، وأُلحقت المنطقتان بجمهورية صربيا .



خريطة 9 - 1 الجمهوريات ومناطق الحكم الذاتي في يوغوسلافيا الاشتراكية
(1991 - 1945)

وكانت الجمهورية السادسة ، وهي البوسنة والهرسك ، الوحيدة التي بلا أغلبية قومية أو اسم قومي. أما حدودها فكانت قريبة من الخطوط السابقة التي تعود إلى قرون عديدة ثم أعاد النمساويون وضعها سنة 1878 . وتوصل أحد المتخصصين إلى أن " هذه الحدود ، التي تعود في جزء كبير منها إلى الميراث العثماني... من بين أقدم الحدود في أوروبا وأكثرها دواماً "(4) . وبذلك يكون تيتو والحزب الشيوعي قد حافظا على تميز البوسنة والهرسك عند وضع نظامها السياسي ، رغم تعهدهما بإجراء تغييرات جذرية .

Dennison Rusinow, "The Ottoman Legacy in Yugoslavia Carl L. Brown (4)
Disintegration and Civil War" *The Ottoman Legacy* (.ed)

وأكد الدستور على المبدأين الأساسيين اللذين وضع خطوطهما مؤتمر " أفنوى " إبان الحرب، فيما يتعلق بحق تقرير المصير وهيمنة الحزب على الحياة العامة . ومُنحت الجمهوريات حق الانفصال . كما منح الدستور حق الانفصال لـ " شعوب " يوغوسلافيا . إلا أنه رأى أنها مارست ذلك الحق مرة لا ثانى لها ، باختيارها أن تصبح جزءاً من الاتحاد اليوغوسلافى(5) . وضمنت الدساتير التالية ، بما فى ذلك آخر دستور سنة 1974 ، حق شعوب يوغوسلافيا فى الانفصال عن الاتحاد . إلا إن السلطة كانت مركزة فى الأدوات الاتحادية والحزب الشيوعى اليوغوسلافى فى سنوات يوغوسلافيا الاشتراكية الأولى . ومع أن الجمهوريات كان لها فى بادىء الأمر نفوذ سياسى حقيقى ، فقد كان لإقامتها ورسم الحدود فيما بينها أعظم الأثر على مجرى الأحداث فى العقود التالية .

تركيز السلطات فى الحزب الشيوعى اليوغوسلافى

انتهج الحزب الشيوعى منهجاً ذا شقين لتوطيد السلطة ، حيث تعقَّب بلا رحمة هؤلاء الذين تواطئوا مع أعدائه ، بينما سعى للحصول على تأييد الطوائف الدينية الصربية الأرثوذكسية والكاثوليكية والإسلامية .

وعندما وضعت الحرب أوزارها ، تعقبت قوات الأنصار ، كما أسلفنا ، كل التشكيلات المسلحة المنافسة لها تعقباً محموماً ، حيث قتلت الآلاف من الألمان والأوستاشى والتشتنك فى الأيام الأخيرة من الصراع . ولجأت الوحدات المعزولة من الأوستاشى والتشتنك إلى نفس الجبال التى آوت الأنصار من قبل ، وأخذت تقوم بعمليات حرب عصابات صغيرة لعدة سنوات بعد انتهاء الحرب. وذكرت الشرطة اليوغوسلافية أن آخر الوحدات أُلقى القبض عليها سنة 1955 .

وأشاعت سياسة الحلفاء تجاه أعدائهم الخوف فى نفوس الكثيرين من زعماء ماقبل الحرب وأثنائها ، ممن كان لهم دور فى الفظائع التى تعرض لها غيرهم من السلاف الجنوبيين أو تغاضوا عنها . ففر كبير الأساقفة الكاثوليك فى سراييفو شاريتش وأسقف بنيالوكا من شعبيهما . وفر الكثيرون من المثقفين ، وخاصة الكروات والمسلمين ، إلى فيينا وكندا والولايات المتحدة أو أى مكان آخر يقبلهم ، حيث كانوا بمثابة طليعة للأكاديميين

Dijlas p.167 (5)

المهاجرين المعادين للشيوعية فى الجامعات الغربية فى السنوات التى أعقبت الحرب . إلا أن الخروج من البوسنة كان متواضعاً ، مقارنة بالصورة اليوغوسلافية الأكثر اتساعاً .

وكما هو حال النمساويين قبل سبعين سنة ، سعى النظام الشيوعى إلى إقامة علاقة عمل مع زعماء الطوائف الدينية الكبرى . وكان للكنيسة الأرثوذكسية الصربية تراث يمتد قروناً من التعايش مع أنظمة شديدة التباين ، شملت العثمانيين والنمساويين واليوغوسلاف الملكيين . وبعد الحرب عاد البطريرك جافريلو Gavrilo إلى بلجراد من سجنه فى ألمانيا. ورغم تأييد الكنيسة الحماسى لميخائيلوفتش والتشنتك ، التقى تيتو وجافريلو لقاء شخصياً وأنهيا أسباب العداء . وأعقب ذلك تسامح النظام مع العقيدة الأرثوذكسية فى البوسنة وصربيا وغيرهما ، وإن لم يقدم لها أى نوع من الدعم الخاص .

وتحاشى الحزب كذلك أى هجوم صريح ضد المسلمين ، رغم نمط التواطؤ مع الأوستاشى ، إذ انضم مسلمون كثيرون إلى الأنصار فى وقت لاحق وكانت لهم مساهمات مهمة فى القتال الشرس الذى دار فى البوسنة . وانقسم مسلمو سراييفو بين تأييد الحزب الشيوعي ومعارضته . وفى انتخابات 1945 التى أُجريت لانتخاب مجلس الأوقاف (وهو الهيئة التى أوجدها النمساويون سنة 1909 لحكم المؤسسات الخيرية الإسلامية) ، فاز المرشحون المحافظون دينياً المعادون للشيوعية بمناصب رئيسية ، مما أدى إلى تزايد احتمال المواجهة . وأوقفت الحكومة تمويل المؤسسات الثقافية الإسلامية ، مما أجبر المسلمين على جمع المساهمات التطوعية فى المساجد . وفى أغسطس 1946 غيَّر مجلس الأوقاف نهجه وتعهد بتأييد الحكومة . بعدها سمح النظام الشيوعى باستمرار المؤسسات الإسلامية الرئيسية التى سبق إنشاؤها بمقتضى الاتفاق الإسلامي النمساوى سنة 1909، وتشمل رئيس العلماء ولجنة الأوقاف ومجلس الأوقاف (6) . ورغم بعض المصادرات والإصلاحات ، ظل العمل قائماً بنظام الأوقاف على نطاق واسع واستمرت الأوقاف فى دعمها للمؤسسات الثقافية الإسلامية الكبرى فى البوسنة طوال الحقبة الاشتراكية(7) .

---

(6) فى إطار لائحة تنظيم الطائفة الاسلامية التى صدرت بعد الحرب ، كان على الطائفة أن تعمل طبقاً لقواعد الدين الإسلامي وبنود تلك اللائحة فى اطار دستور يوغوسلافيا الاتحادية . وأُلغي عمل القضاة الشرعيين والتعليم الدينى الإجبارى . كما أصبح هناك مساواة فى الحقوق والواجبات بين الطوائف الدينية المختلفة فى يوغوسلافيا ، مما خلق مناخاً مناسباً للتعاون والحوار بين أتباع الديانات المختلفة ونمو الاتصالات بين الطائفة الإسلامية والمنظمات الأخرى داخل البلاد وخارجها . وفى قانون 1959 أدمجت اختصاصات الهيئات الإسلامية المختلفة فى كل جمهورية من جمهوريات يوغوسلافيا فى هيئة واحدة هى " مشيخة الطائفة الاسلامية " وكانت مشيخة البوسنة والهرسك وكرواتيا وسلوفينيا في سراييفو . (المترجم)

(7) أدى الإصلاح الزراعي وتأمين الكثير من أراضى الأوقاف الإسلامية وأملاكها إلى التأثير على الطائفة الإسلامية ، مما اضطرها البحث عن مصادر أخرى للتمويل . (المترجم)

وكانت علاقات الحكومة بالكنيسة الكاثوليكية ذات طابع عاصف أشد قوة . وتركز الجدل حول كبير أساقفة زغرب ستيبيناتس Stepinac الذى أيد بعض أعمال الأوستاشى علناً ، وإن اعترض (بوضوح أكثر) على تجاوزات أخرى . ورفض ستيبيناتس بعناد ترك منصبه ، رغم تشجيع النظام له على الذهاب إلى المنفى . ورغم تصريحه لمن هم دونه من رجال الدين بالمغادرة ، فقد بقى أغلبهم ليشكلوا تحدياً دائماً للنظام الشيوعى . وفى بادىء الأمر شجع تيتو الكاثوليك على إعلان قيام كنيسة " وطنية " تكون مستقلة عن الفاتيكان ، إلا أن ستيبيناتس لم يستجب لمقترحات تيتو . وقُدم ستيبيناتس وغيره من مسئولى الكنيسة لمحاكمة علنية فى سبتمبر 1946 ، بعد بضعة أشهر من إعدام ميخائيلوفتش . وحُكم على كبير الأساقفة بالسجن ست عشرة سنة مع الأشغال الشاقة . إلا أنه لم يقض سوى خمس سنوات فقط من الحبس المريح نسبياً . وعند الإفراج عنه فى ديسمبر 1951 سُمح له بالإقامة فى مسقط رأسه ، قرية كراستش Krasic الكرواتية ، حيث تُوفى فيها سنة 1960 وحضر جنازته الآلاف من المشيعين . وأصبح قبره فى كاتدرائية زغرب – الذى يعلوه نصب تذكارى بسيط من الرخام الأبيض من عمل النحات الكرواتى الشهير إيفان مشتروفتش Ivan Mestrovic – مزاراً للقومية الكرواتية فى أواخر سنوات الاشتراكية .

وعندما رسَّمت الفاتيكان ستيبيناتس كاردينالاً سنة 1952 ، قطعت يوغوسلافيا علاقاتها الدبلوماسية معها . وفى إطار حل وسط توصلوا إليه بعدد عدة سنوات ، أُعيدت العلاقات وعُين كبير أساقفة جديد لزغرب . وسعت الكنيسة الكاثوليكية لأن يكون لها نهج مستقل فى يوغوسلافيا الاشتراكية ، بالقدر الذى تتمتع به فى بولندا . وكانت فى بعض الأوقات تؤيد الحكومة ، وإن خيبت أمالها كثيراً .

التحول الإقتصادى

كان أحد أجزاء برنامج الحزب الشيوعى اليوغوسلافى المهمة تحويل الاقتصاد اليوغوسلافى إلى الاشتراكية ، بهدف تقوية الطبقة العاملة وتحسين أحوال العامل العادى. وكان الحزب ملتزماً كذلك بمكافأة الفلاحين ، الذين كانوا العمود الفقرى لتدعيم جهود التحرير التى قام بها الأنصار فى الحرب ، وذلك من خلال إصلاح زراعى جذرى يستهدف، فى نهاية الأمر ، إعطاء الأرض لمن يفلحها . وأحدث كل من هذين التغييرين تحولاً شديد العمق فى شخصية المجتمع البوسنى .

واحتذاء بالنموذج السوفيتى ، تعهد الحزب الشيوعى اليوغوسلافى بتصنيع الاقتصاد اليوغوسلافى على وجه السرعة . وكان ذلك يعنى فى المرحلة الأولى إعادة تعمير البنية التحتية الاقتصادية المتداعية ، وهي المهمة التى حصلت على دعم مالى من الأمم المتحدة وساندتها فرق الشباب المتطوع المتحمس التى نظمها الحزب الشيوعى اليوغوسلافى . ورغم اتساع نطاق الدمار ، نجحت تلك الجهود بحلول سنة 1946 فى إعادة الانتاجية إلى ما كانت عليه قبل الحرب . فأصلحت الطرق والجسور وخطوط السكك الحديدية التى أُعيد بناؤها ، كما عادت المصانع إلى حالتها الطبيعية وشُيدت منشآت توليد الطاقة من جديد .

وفى سنة 1947 ، وبتوجيه من الشيوعى السلوفينى بوريس كيدرتش Boris Kidric، وضعت خطة خمسية للإسراع بالتنمية الصناعية فى البلاد . وكما هو حال نظيرتها السوفيتية ، صاحبت الخطة أساليب تخطيط مركزية مُحكمة وقدر كبير من البيروقراطية لتحديد الإنتاج والأسعار ومراقبتها . وسرعان ما ثبت عدم ملائمة الخطة للبيئة اليوغوسلافية شديدة التباين . إلا أن الحزب الشيوعى اليوغوسلافى استمر فى العمل بها بإصرار ، رغم النكسات التى شهدتها السنوات القليلة التالية . وتلقت البوسنة ، التى تعد واحدة من المناطق الأقل نمواً ، قسطاً لا يتناسب معها من الدعم المركزى للتنمية الصناعية .

وفى أغسطس 1945 قدم الحزب الشيوعى اليوغوسلافى إصلاحاً زراعياً شاملاً . ونص القانون الجديد على أنه لا يجوز لمنتج واحد أن يمتلك ما يزيد على خمسة وثلاثين هكتاراً ، مما قضى على الحيازات الكبيرة التى كانت فى أيدى ملاَّك الأراضى الأفراد . وصودر ما يربو على 1.5 مليون هكتار فى أنحاء يوغوسلافيا وُزعت على الأنصار السابقين والفلاحين الذين لا أرض لهم وعلى صغار الملاَّك من الفلاحين . وفى حين لقيت المشاركة فى المزارع الجماعية التشجيع ، لم يخلق القانون أى اتجاه ذى بال نحو التجميع الإجبارى . وبعد عشرات السنوات من النقاش والوعود ، كانت 1946 السنة التى نقلت فيها حكومة يوغوسلافية ملكية الأراضى الزراعية لمن يفلحونها فى نهاية الأمر . وأثارت الإصلاحات احتجاجات الكنيسة الكاثوليكية ، التى كانت تمتلك مساحات كبيرة من الأراضى من خلال ما تزرعه الأديرة أو تديره . وكان الإصلاح الزراعى بطبيعة الحال عاملاً رئيسياً فى الموقف المعادى للشيوعية الذى اتخذه بعض المسلمين البوسنيين فى السنوات الأولى التى أعقبت الحرب .

وهكذا أنهت الإصلاحات " المسألة الزراعية " فى البوسنة ، كما اجتث ما تبقى من مزايا ملاَّك الأراضى المسلمين . وفى معظم الحالات سُمح للعائلات الكبرى السابقة بالاحتفاظ ببيوتها ، غير أن ما تبقى لها من أراض زراعية كان محدداً بنفس القدر الذى كان لغيرها . وكان كثيرون من الأثرياء المسلمون قد انتقلوا من قبل إلى المدن الصغيرة والكبيرة ، حيث أخرجتهم الحرب من الريف أو اجتذبتهم منافع حياة المدينة المهنية أو الاجتماعية . وفى بعض الحالات عاشوا فى مساكن حضرية متميزة تقع فى وسط المدن أو بالقرب منه . أحد هذه المساكن كان بيتاً فخماً من طابقين أقامه عضو مسلم فى برلمان الحقبة النمساوية سنة 1910 على تل صغير على أطراف مدينة سراييفو . وبعد الإصلاحات الزراعية كان المسكن هو كل ما تبقى من أسلوب حياة الأسرة الذى اعتادت عليه ، حيث كان مقسماً إلى أربعة شقق يمتلك كل منها فرد من أفراد الأسرة . أما الكوخ القريب منه، وكان يقيم فيه الخدم يوماً ما ، فقد آل لمالك منفصل . إلا أن سكانه ظلوا على ولائهم للأسرة واستمروا فى رعاية المنزل . وفى تحول نمطى أصبح الابن الأكبر ممثلاً لأحد المصانع فى الستينيات وسكن مع أسرته فى شقة بوسط سراييفو .

الطرد من الكومنفورم : نزاع تيتو وستالين

بينما اندفع الشيوعيون اليوغوسلاف لتعويض الوقت الذى أضاعوه فى سعيهم لتحويل البلاد إلى دولة اشتراكية ، نشأت احتكاكات بين ستالين ومقلديه الذين تفوقوا عليه . وتركز الخلاف فى الظاهر حول السياسة التجارية والسياسة الخارجية وتنظيم الجيش اليوغوسلافى والعلاقات بين الحزبين ، إلا أن تلك التوترات كانت قد ظهرت فى الأساس بسبب رفض الحزب اليوغوسلافى أن يتبع صاغراً المنعطفات والتحولات الخاطئة التى تطالب بها السياسة الخارجية السوفيتية الحركة الشيوعية العالمية . وتعود تلك الخلافات إلى المراحل الأولى من الحرب ، عندما وجه ستالين اللوم لتيتو بعد مؤتمر "أفنوى" سنة 1942 ، بسبب كشف الحماس الثورى للحزب الشيوعى اليوغوسلافى . فى حين كانت التوجيهات الصادرة لكل الأحزاب الشيوعية هى عدم الإساءة إلى العناصر غير الشيوعية فى حركة المقاومة .

وفى فبراير 1948 استدعى تيتو إلى موسكو لمناقشة التوترات المتزايدة بين الحزبين مع ستالين ووزير الخارجية السوفيتى فياتشسلاف مولوتوف Vyacheslav Molotov .

لم يلب تيتو الدعوة وأرسل رئيس الحزب الكرواتى فلاديميربكاريتش Vladimir Bakaric والسلوفينى إدفارد كارديلى Edvard Kardelj بدلاً منه . وعقب الزيارة التى غلب عليها الجدل والنزاع ، تبادل الحزبان السوفيتى واليوغوسلافى سلسلة من الرسائل ، نشرها اليوغوسلاف بعد ذلك ، انتقد فيها السوفيت الحزب الشيوعى اليوغوسلافى بقدر كبير من العداوة . وفى مايو ألقى اليوغوسلاف القبض على عضوين بارزين فى الحزب الشيوعى اليوغوسلافى لاتهامهما بأنهما عميلان سوفيتيان . وتحول النزاع إلى أزمة فى 28 يونيو 1948 ، عندما قرر أعضاء الكومنفورم ، أثناء اجتماعهم فى بوخارست ، طرد الحزب الشيوعى اليوغوسلافى من منظمتهم . وعقب هذا التعبير الذى لم يسبق له مثيل عن سخط ستالين ، طالبت العناصر الموالية للسوفييت فى الحزب الشيوعى اليوغوسلافى بخلع تيتو. وطوال سنوات عديدة تالية ، أخذت الصحافة والإذاعة فى دول الكتلة السوفيتية كافة تهاجم الحزب الشيوعى اليوغوسلافى بأقسى اصطلاحات ممكنة ، وكانت تطالب بمعاقبة اليوغوسلاف الخونة لخروجهم عن الخط .

وكان الطرد من الكومنفورم ، وهو أشبه بحرمان الكنيسة لأحد أبنائها المؤمنين ، صدمة شديدة لتيتو وغيره من زعماء الحزب الشيوعى اليوغوسلافى . وكان أول رد فعل لهم هو التأكيد على صحة عقيدتهم الشيوعية وتكثيف جهودهم ، لفترة قصيرة ، لجعل يوغوسلافيا نسخة سوفيتية. وكانت المحصلة الرئيسة لرد الفعل هذا جهداً متسرعاً لتحويل الزراعة اليوغوسلافية إلى النظام الجماعى فى الفترة من 1949 إلى 1951 . وفى ذروة تلك الحملة وُضع حوالى 2.5 مليون هكتار فى إطار الزراعة الجماعية . إلا أن جفافاً خطيراً حدث سنة 1950 عطّل هذا الاتجاه . وسرعان ما اعترف زعماء الحزب بأن الحملة حققت منافع قليلة وكلفت البلاد ثمناً اجتماعياً واقتصادياً باهظاً . وفى سنة 1951 غيَّر الحزب مساره . وعلى مدى العشر سنوات التالية أُعيد ما يزيد على 90٪ من المزارع الجماعية إلى الملكية الخاصة .

وكما حدث فى 28 يونيو ، اليوم الذى حارب فيه العثمانيون الصرب فى كوسوفو سنة 1389 وأُغتيل فيه فرانتس فرديناند فى سراييفو سنة 1941 ، أثار طرد الكومنفورم ليوغوسلافيا موجة من الوطنية اليوغوسلافية شجعت قيادة الحزب الشيوعى اليوغوسلافى على التصدى للإذلال الذى يقف وراءه السوفيت . وتصرف بعض أعضاء الحزب بتعاطف

مع الهجوم الذى أوعز به السوفيت على تيتو ، الأمر الذى جعل الموالين لتيتو يقومون بعملية تطهير وحملات إعادة تثقيف للقضاء على العناصر غير الموالية . وأُلقى القبض على بعض المنشقين وحُوكموا وسُجنوا أو قُتلوا رمياً بالرصاص . وحقيقة الأمر أن شبح "الكومنفورميون" ظل موضع نقاش طوال الحقبة الاشتراكية ، خاصة فى الجبل الأسود والبوسنة . إلا أن الأغلبية الساحقة من أعضاء الحزب واليوغوسلاف وقفت وراء تيتو ، الذى تمكن خلال ثمانى سنوات من هزيمة هتلر وتحدى ستالين .



شكل 9 - 1 يوسيب بروز تيتو

النهج اليوغوسلافى الجديد

حدا نزاع الكومنفورم بزعماء الحزب الشيوعى اليوغوسلافى إلى البحث عن نهج جديد يحدد مهمتهم ، بصورة مختلفة عن ستالين والسوفيت . وأصبح تيتو ورفاقه يدركون أن سعيهم الحماسى لتحقيق الأهداف الثورية قد أفقدهم التأييد الشعبى . إلا أن نزاع تيتو / ستالين كان معناه أن ستالين ينافس تيتو والحزب الشيوعى اليوغوسلافى على ولاء اليوغوسلاف ، وخاصة أعضاء الحزب منهم . وعاد زعماء الحزب الشيوعى اليوغوسلافى إلى كتابات ماركس الأصلية بحثاً عن بدائل لسياستهم تناسب الوضع اليوغوسلافى ولها قبول شعبى كبير . وعلى مدى سنوات عديدة بعد 1948 ، تشكل النهج الشيوعى اليوغوسلافى الجديد . وغالباً ما يشير الباحثون الغربيون إلى هذه التغيرات والنظام الاجتماعى والسياسى الذى انبثق منها بالتيتوية . وكان جوهر التيتوية مفهومين : الإدارة الذاتية فى الاقتصاد المحلى وعدم الانحياز فى الشئون الخارجية .

والإدارة الذاتية رد فعل أوحت به من الناحية النظرية شكوى ماركس من أن العمال فى أى مجتمع رأسمالى معزولون عن وسائل الإنتاج . وعلى عكس الحل السوفيتى لهذه المشكلة ، رأى اليوغوسلاف إنشاء مجالس عمال فى كل مصنع ومشروع . وبعد ذلك يأتى العمال بمديرين من اختيارهم وتكون لهم هم المسئولية المباشرة عن السياسات ونجاح مشروعهم أو فشله . وكان ماركس قد ذكر أن الدولة الحديثة منتج فرعي للرأسمالية البورجوازية ، وأنه فى ظل الشيوعية الحقة تصبح الدولة ترفاً وتتلاشى ، متى تعلم العمال كيف يحكمون أنفسهم بأنفسهم . وكانت إدارة العمال الذاتية فى الأيديولوجيا اليوغوسلافية تعنى جعل الكثير من وظائف الدولة المركزية غير ضرورية والمساهمة فى " تلاشى الدولة " . ومن الواضح أن هذا المفهوم كان يعنى انتقال السلطة بالكامل من المخططين المركزيين إلى العمال فى عنابر مصانعهم . وبحلول منتصف الخمسينيات كانت مجالس العمال قد شُكِّلت فى معظم المصانع والمشروعات وخُوِّلت المزيد من السلطة شيئاً فشيئاً . إلا أن الدولة أبت أن تتلاشى كما هو منتظر .

وكانت فكرة الإدارة الذاتية تعنى كذلك حدوث تغيرات عميقة فى دور الحكومة والحزب الشيوعى اليوغوسلافى داخل المجتمع اليوغوسلافى . ومن خلال سلسلة من التغييرات فى

الخمسينيات ، خفت قبضة الحكومة الاتحادية والحزب الشيوعى اليوغوسلافى لمصلحة الجمهوريات وأدواتها الحزبية الموازية . وكانت تلك التغييرات تدريجية فى مستهل الأمر وشملت تبديلاً فى الوظائف والمسميات التى سبق تحديدها . وبدلاً من أن يكون الحزب وسيلة للرقابة الاجتماعية ، كان لابد أن يصبح قوة رائدة تحدد درجة التحول الاجتماعى وسرعته من خلال تقديم المثل الذى يُحتذى وإقناع الجماهير . ولكى يعكس الحزب الشيوعى اليوغوسلافى هذا التحول ، غيَّر اسمه إلى " عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف " فى مؤتمر الحزب السادس سنة 1952 . وظل محتفظاً بهذه التسمية حتى انهياره فى مؤتمر الحزب الرابع عشر سنة 1990 .

وكجزء من الحساسية الكبيرة نحو المشاعر المحلية ، أُنشئت منظمات حزبية منفصلة لجمهوريتى البوسنة والجبل الأسود اللتين كان يسيطر عليهما من قبل الحزب الشيوعى الصربى. وبسبب أنماط التجنيد الذى تميز بها زمن الحرب ، هيمن الصرب على منظمة الحزب البوسنية . وفى مستهل المؤتمر الحزبى البوسني الأول سنة 1949 ، شعر زعماء الحزب بالأسى بصورة خاصة على بطء نمو مساهمة الحزب فى المناطق التى يعيش فيها الكروات والمسلمون بكثافة شرقى الهرسك ، وهى التى شهدت من قبل نفوذاً قوياً للأوستاشى . وعن طريق تكوين حزب شيوعى بوسنى منفصل ، أعد الحزب الشيوعي اليوغوسلافى العدة للتحرك نحو توازن عرقى قومى أكبر فى السنوات التالية وانتهى من عملية لجعل منظمة الحزب مقابلة لمنظمة الجمهوريات فى يوغوسلافيا الاشتراكية . إلا أن مسألة الهيمنة الصربية فى الحزب البوسنى ظلت قائمة لعدة سنوات . ومع أن زعماء الحزب ردوا على تحدى ستالين بثقة لا حد لها ، فقد خففوا قبضة الحزب والحكومة شيئاً فشيئاً على الحياة اليومية .

وكان عدم الانحياز هو المحرك الذى قاد السياسة الخارجية اليوغوسلافية طوال أربعة عقود . وعندما انتُخبت يوغوسلافيا عضواً غير دائم فى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة سنة 1949 ، تقدمت بجدول أعمال غير منحاز وتعاونت مع الهند ومصر فى أمور عديدة . وفى مؤتمر باندونج[8] برز تيتو ومعه رئيس الوزراء الهندى نهرو والرئيس المصرى عبد الناصر كقادة للدول غير المنحازة. وبحلول سبتمبر 1961 حمل تيتو لقب " أبو عدم الانحياز " فى

مؤتمر عدم الانحياز ببلجراد . وجعل السفر الكثير تيتو على اتصال بكل زعيم من زعماء العالم الثالث ، واستغل اليوغوسلاف فكرة الكتل المتصارعة كشعار ينتفعون به عند غضبهم من الكتلة السوفيتية أو الحلفاء الغربيين .

وساهم المسلمون البوسنيون فى الالتزام اليوغوسلافى بعدم الانحياز واستفادوا منه. وبما أن كثيراً من دول عدم الانحياز كانت بلاداً إسلامية ، أو يدين عدد كبير من سكانها بالإسلام ، فقد خطب تيتو وغيره من اليوغوسلاف ود المسلمين البوسنيين والمسلمين الألبان فى كوسوفو ، الذين كانوا يفخرون بمعاملتهم كجماعة دينية متميزة(9) . وتولى جمال

---

(8) عقد فى مدينة باندونج فى اندونيسيا سنة 1955 وحضرته 29 دولة من آسيا وأفريقيا . وكان هذا المؤتمر بمثابة تمهيد لقيام حركة الحياد الايجابى وعدم الانحياز التى تزعمها الرئيس المصرى جمال عبد الناصر واليوغوسلافى يوسيب بروز تيتو والهندى جواهر لال نهرو . أما أول مؤتمر للحركة فعقد فى العاصمة اليوغوسلافية بلجراد سنة 1961 . **(المترجم)**

(9) فى زيارة قام بها رئيس الجمعية الوطنية اليوغوسلافية (البرلمان) للقاهرة سنة 1947 ، اصطحب معه النائب اليوغوسلافى المسلم درويش طافرو الذى عقد مؤتمراً صحفياً نفى فيه ما تردد عن تعرض مسلمى يوغوسلافيا لتعسف النظام الجديد واضطهاده ، مؤكداً تمثيل المسلمين فى البرلمان اليوغوسلافى وانتشارهم فى المناصب الحكومية . وأرجع طافرو شائعات سوء أحوال المسلمين إلى من أسماهم " مجرمو الحرب " ، وهم المسلمون الذين تعاونوا مع النازى أثناء الحرب العالمية الثانية وفر معظمهم إلى خارج يوغوسلافيا وعملوا على نشر الدعاية ضد النظام الجديد .

وفى زيارة قام بها رئيس المشيخة اليوغوسلافى للقاهرة سنة 1949 ، نفى فى حديثه مع شيخ الأزهر ما ذُكر عن تعرض المسلمين للاضطهاد والتعذيب وأرجع إلغاء المحاكم الشرعية إلى رغبة الحكومة اليوغوسلافية فى توحيد القضاء ، وإن خصصت قضاة مسلمين للنظر فيما يتعلق بالأحوال الشخصية . إلا إنه لم ينف إلقاء القبض على عدد من علماء المسلمين اليوغوسلاف ، وأرجع ذلك إلى علاقتهم بالنازى أثناء الحرب أو إلى التآمر مع قوى أخرى على قلب نظام الحكم ، وهو ما يعني أن ذلك لم يكن لأسباب دينية ، بل أمنية وسياسية .

وذكر تقرير أعدته الخارجية المصرية عن أحوال المسلمين اليوغوسلاف قبل زيارة عبد الناصر ليوغوسلافيا سنة 1958 أنهم يتمتعون بكافة الحقوق السياسية والاجتماعية كبقية المواطنين . إلا إن التقرير أشار إلى أن الدين عندهم قد أصبح مجرد مجموعة من العادات والتقاليد الاجتماعية أكثر منه ديناً بالمعنى المعروف . وأرجع التقرير ذلك إلى تحريم التعليم الدينى من جانب الحكومة اليوغوسلافية وأثر تطبيق المذهب الشيوعى على تضاؤل النفوذ الدينى وانعدام الصلة بين المسلمين اليوغوسلاف والدول الاسلامية الأخرى.

وذات يوم سأل عبد الناصر تيتو : " هل صحيح أنك تسوم المسلمين سوء العذاب ؟ " فرد عليه تيتو : " ليس فى يوغوسلافيا مسلمون . انهم لا يمثلون قومية . وأنت تتفق معى فى أن الدين لا يمكن أن يكون قومية قائمة بذاتها . فالمسلمون لدينا كانوا صرباً وتحولوا للإسلام فى ظل الحكم العثمانى " . وعندما علم عبد الناصر قبل وفاته بأشهر قليلة من الشيخ حسن الباقورى وزير الأوقاف وقتها بأمر اعتقال على عزت بيجوفتش ، حيث طلب منه مفاتحه تيتو فى أمر الإفراج عنه ، قال له تيتو : " هذا الرجل أخطر من تنظيم الاخوان المسلمين عندكم " ثم سأله : " كيف تتوسط له وأنت تتخذ نفس الموقف ممن يحملون نفس أفكاره ؟ " . **(المترجم)**

بييدتش Dzemal Bijedic ، وهو مسلم من موستار كانت صفحته كعضو فى الحزب قبل الحرب وأحد الأنصار أثناء الحرب ناصعة البياض ، وكانت ابتسامته الدائمة وسلوكه الطيب وراء جعله مبعوثاً ممتازاً للعالم الثالث ومتحدثاً مؤثراً باسم القضايا اليوغوسلافية . وسعى المسلمون البوسنيون أنفسهم للحصول على التأييد فى الخارج . إلا أن ممثليهم لم يجدوا الكثير الذى يحوز على إعجابهم فى الأصولية الإسلامية ، وهى الحركة التى لم تتوافق والروح العلمانية التى سادت بين المسلمين البوسنيين فى القرن العشرين . ويسَّرت القيادة اليوغوسلافية فى حركة عدم الانحياز تيسيراً لا شك فيه على الحزب سنة 1968 كى يعترف بالوضع القومى المتميز للمسلمين البوسنيين فى مجمع الأمم اليوغوسلافية .

الانتعاش الإقتصادى بعد الحرب
والرخاء البوسنى

أدى تعهد الحكومة بالاستثمار والتنمية الاقتصادية ، إلى جانب التحرر الاقتصادى الذى ساد فى أعقاب نزاع الكومنفورم ، إلى حدوث انتعاش اقتصادى فى يوغوسلافيا من الخمسينيات حتى منتصف السبعينيات . ومع أن الإصلاحات المتعاقبة غيرت بعض الشىء فى طرق تحقيق أهداف الحزب والحكومة الاتحادية اليوغوسلافية والحكومة الجمهورية البوسنية ، فقد اشتركت جمعياً فى غاية جعل البوسنة مركزاً للصناعة الثقيلة . وغالباً ما يتغاضى المنتقدون ، الذين يركزون على عدم المساواة الذى ظل سائداً بين أقاليم يوغوسلافيا ، عن مدى هذا التحول الاقتصادى أو يحطون من قدره . أما البوسنيون فكانوا يشهدون التغيرات شديدة الوضوح والسرعة . وفى العقود الثلاثة الأولى فى ظل الاشتراكية ، تحولت البوسنة إلى مركز مزدهر للصناعات الثقيلة ولمس أهلها عواقب التصنيع ، الإيجابية منها والسلبية.

وكان للجغرافيا الطبيعية دورها فى هذه التغيرات . إذ جعلت موارد البوسنة المعدنية ووفرة مياهها منها موقعاً نموذجياً للتصنيع الثقيل . وفى نهاية الحرب كانت نقاط الاتصالات والمواصلات غير كافية ، إلا أن إنشاء خطوط السكك الحديدية ذات القياس العادى ورصف طرق أفضل أدى إلى زيادة القدرة على الوصول إلى المناطق اليوغوسلافية الأخرى وإلى ميناء بولتشى Polce المتنامى على البحر الأدرياتيكى وشهدت البوسنة نمواً سريعاً فى

صناعات التعدين والصلب والألمونيوم والطاقة الهيدروكهربية وفى زراعة المنتجات الزراعية وتعبئتها . وبحلول الثمانينيات كان الكثير من تلك المصانع وتكنولوجياتها مخلفات عتيقة للعجز الاشتراكى ، فى حين كانت فى العقود الأولى لب الحداثة فى بلاد عُرفت بالتخلف . وفى عقد الخمسينيات عاشت يوغوسلافيا قاطبة أسرع نمو اقتصادى شهدته أية دولة فى العالم . غير أن هذا النمو اعترته نكسة فى 1961 / 1962 أخذت بعده معدلات النمو تقترب أكثر من الوضع المتعارف عليه .

والأمر الذى تفرَّد به البوسنييون هو تجربة كونهم الملاذ الحربى الأخير الذى تبقى للأنصار. وظل الجيش اليوغوسلافى يعتقد أن البوسنة أكثر الملاذات أمناً أمامه فى حالة وقوع غزو أجنبى، بعد أن أضحى هناك خوف من حدوثه بسبب ما قام به السوفيت ضد المجر وبولندا سنة 1956[10] وما فعلوه بصورة خاصة ضد تشيكوسلوفاكيا سنة 1968[11] . وأصبحت البوسنة إلى حد كبير مركز انتاج الأسلحة والعتاد الحربى للجيش اليوغوسلافى . وبحلول 1990 كان جزء كبير من الانتاج الخاص بالجيش اليوغوسلافى يتم فى البوسنة ، وكان الكثير من أسلحة الجيش وعتاده مُخزناً هناك ، الأمر الذى جعل الاستغناء عن الجمهورية غير ممكن فى المستقبل .

جاء التصنيع ومعه ما يصاحبه من شرور التلوث والازدحام ، وخاصة فى الواقع الذى تعيش فيه سراييفو . وتكاتف دخان المصانع وعادم السيارات ونفايات وحدات تدفئة المنازل التى تعمل بالفحم لتجعل من سراييفو فى الستينيات والسبعينيات واحدة من أكثر مدن العالم تلوثاً . وكان الحماس الواضح للتصنيع جلياً فى الأيديولوجيا والشعارات . ففى المسرح القومى الحافل بالنقوش فى سراييفو ، نجد أن النقوش المذهبة الجميلة ، التى

---

(10) شهدت المجر ثورة مناهضة للسوفييت سنة 1956 . اندلعت أعمال العنف فى 23 أكتوبر عندما أطلقت الشرطة النار على الطلبة الذين تظاهروا تأييداً للبولنديين الذين ثاروا فى يونيو احتجاجاً على الوجود العسكرى السوفيتى على أرض المجر . وتمكن الثوار من السيطرة على عدة مؤسسات خلال أيام وبدأت القوات السوفيتية فى الانسحاب . إلا إن الاتحاد السوفيتى استغل انشغال الغرب بأزمة السويس وضمن عدم تقديم الولايات المتحدة لأية مساعدة عملية للحكومة المجرية الجديدة وشن هجوماً فى 4 نوفمبر وصفي الثورة خلال أسابيع . وكانت أحداث 1956 فى بولندا قد أدت إلى اقصاء الزعماء الستالينيين وأتت بفلاتسلاف جومولكا الشيوعى المعتدل الذى أصبح السكرتير الأول للحزب الشيوعى . (المترجم)

(11) فى يناير 1968 حل ألكسندر دوبتشيك الأكثر ليبرالية محل أنطونين نوفوتنى.كسكرتير أول للحزب الشيوعي التشيكى . وفى مارس أصبح لودفيج سفوبودا رئيساً للبلاد عقب تقاعد نوفوتنى . وكان هذا الاتجاه المتزايد نحو الليبرالية وبداية " الربيع التشيكى " و " الاشتراكية ذات الوجه الانسانى " السبب وراء غزو قوات حلف وارسو لتشيكوسلوفاكيا لوقف ما أسمته بـ " الثورة المضادة " . واستُبدل دوبتشيك بجوستاف هوساك الشيوعى المتشدد . (المترجم)

وضعها النمساويون فى وقت سابق من القرن ، قد طلاها المتحمسون للتصنيع الاشتراكى باللون الرمادى . واستُبدل شعار هابسبورج ذو النسر المزدوج بشعار البوسنة الاشتراكى: وهو مصنع ضخم تنفث مدخنته سحب الدخان الداكنة .

سياسة القوميات:

بروز المسلمين البوسنيين

شملت التيتوية ثلاثة مناهج مختلفة ، فيما يتعلق بقوميات يوغوسلافيا . والأمر الذى تشترك فيه المناهج الثلاثة مبدآن عامان غالبان : هما المساواة القومية ، المتمثلة فى شعار " الأخوة والوحدة " الذى ظهر فى الحرب واستُخدم كذلك فى وقت السلم بصورة كبيرة ، والاتحادية ، بوجود الجمهوريات الست كأجزاء يتكون منه الاتحاد اليوغوسلافى . ويكاد يكون من المستحيل تحديد نقاط زمنية بعينها تغيرت فيها السياسات . فما حدث بصورة أدق هو أن التغيير من نهج لآخر كان تدريجياً وممتداً . إذ كانت المسألة القومية محل جدل دائم ، وكثيراً ما كان زعماء عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف يعدلون السياسات طوال الحقبة التيتوية .

واستمر النهج الأول ، الذى كان يعكس السياسات القومية الستالينية ، من مؤتمر "أفنوي" سنة 1942 وحتى الفترة التالية مباشرة لطرد الحزب الشيوعى اليوغوسلافى من الكومنفورم سنة 1948 . وأثناء تلك الفترة كان الحزب يروج بحماس شديد لفكرة المساواة القومية ويدافع عن حق الحكم الذاتى لكل من القوميات الخمس المعترف بها : الصرب والكروات والسلوفينيون والمقدونيون وأهل الجبل الأسود . وفى الوقت نفسه جعل هيكل الحزب شديد المركزية والجهاز الحكومى المركزى القومى ظهور أى حركة قومية تهدد النظام اليوغوسلافى الاشتراكى أمراً غير محتمل . وأوضح تعداد 1948 وجهة نظر الحزب بأن مسلمى البوسنة يشكلون طائفة منفصلة ولكنهم ، على عكس الصرب والكروات ، ليس لهم هوية قومية منفصلة . وفى ذلك التعداد كان الأشخاص الذين توجه إليهم الأسئلة يحددون ديانتهم على أنهم أرثوذكس أو كاثوليك أو مسلمون . وكانوا يحددون قوميتهم بأنهم صرب أو كروات أو " غير محددة " ، دون أن يكون أمامهم خيار تحديد أنهم مسلمون بالقومية . ومن بين 890094 شملهم التعداد فى البوسنة والهرسك وقالوا إنهم مسلمون ،

اختار 89٪ منهم الإشارة إلى قوميتهم على أنها " غير محددة " و 8٪ على أنهم صرب و3٪ على أنهم كروات . وتؤكد نتائج تعداد 1948 أن هويات الصرب والكروات القومية كانت ثابتة بقوة فى البوسنة ، إلا أن معظم البوسنيين كانوا يرون أنهم جزء من مجموعة ثالثة ، وكانوا مترددين فى اتخاذ الهوية القومية الصربية أو الكرواتية .

ويدأ النهج الثانى مع قرار الحزب بالتحرر وسعيه للحصول على قدر أكبر من التأييد الشعبى فى أعقاب طرد الكومنفورم له فى يونيو 1948 . وبسبب كتابات زعيم الحزب السلوفينى ادفار كارديلى النظرية المعقدة التى وخزت الحزب وخزاً خفيفاً ، شجع الحزب القومية اليوغوسلافية بشىء من الحذر ، كشكل من أشكال الولاء أكثر تقدماً من قومية الصرب والكروات والأمم الأخرى التى تشكل الاتحاد . ولإدراك الحزب أن اليوغوسلافوية كانت غطاء مهترئاً لشوفينية صربيا الكبرى فى يوغوسلافيا الملكية ، فقد تحمل عناء التأكيد للكروات و السلوفينيين والمقدونيين ، لما لديهم من حساسية ، على أن اليوغوسلافوية لن تُفرض قسراعلى أى إنسان . وذكر كارديلى أن القومية لها دور إيجابى فى المجتمع الاشتراكى ، وأنه فى ظل المسار الطبيعى للتطور الاشتراكى سوف تشترك الأمم المكونة للاتحاد فى رؤية يوغوسلافوية شاملة .

وكان منطقياً أن يرى كثيرون المسلمين البوسنيين ، الذين كان ينظر إليهم على أنهم معارضون للنزاعات القومية لدى الآخرين ، كنواة لمثل هذه الاستراتيجية . وفى تعداد 1953 سُحب خيار " غير محددة " وكان على من شملهم التعداد أن يعلنوا عن أنفسهم قومياً بصفتهم صرباً أو كرواتاً أو " يوغوسلافى ، غير محدد " ، ولكنها ظلت دون ذكر لصفة المسلم . وفى البوسنة أعلن 891800 أنهم يوغوسلاف ، وهو رقم يزيد كثيراً عما فى أية جمهورية أخرى مما يشير إلى أن المسلمين اختاروا الصفة اليوغوسلافية . إلا أن قليلاً من الصرب والكروات انضموا إليهم . وأعلن 1264372 أنهم صرب ، وذكر 654229 أنهم كروات . وتتطابق نتيجة التعدادين ، كما هو مبين فى الجدول 9–1 ، تطابقاً كبيراً مع نتائج التعداد فى السنوات السابقة واللاحقة .

ويعد الأمل فى احتمال ظهور هوية يوغوسلافية حول نواة مسلمة بوسنية من بقايا هدف بنيامين كالاى ، أثناء توليه منصب وزير المالية النمساوى المجرى المشترك فى الفترة

جدول 9-1 الديانة والقومية فى البوسنة والهرسك فى تعدادى 1948 و 1953

1948	الديانة	أرثوذكس	كاثوليك	مسلمون
		1067728	1067728	890094
	القومية	صرب	كروات	"مسلم ، غير محدد"
		1136116*	614142#	788384
1953	القومية	صرب	كروات	"يوغوسلافى،غير محدد"
		1264372**	654229**	891800

* يشمل هذا الرقم 71125 يدنيون بالإسلام .

يشمل هذا الرقم 24914 يدينون بالإسلام .

** يشمل هذا الرقم بعض من يدينون بالإسلام . عددهم ليس معروفاً على وجه الدقة .

من 1882 إلى 1903 ، والخاص بخلق ولاء قومي أعلى للبوسنة . إلا أن تيتو وكارديلى لم يستخدما اليوغوسلافوية لاحتواء قومية الطوائف المفردة وقهرها ، وإن كان الحزب بصورة عامة حريصا على إبقاء السلوك السياسى القومى فى إطار حدود تلقى قبولاً كبيراً . ولكن كالاى سعى فى فترة حكمه إلى قهر كل أشكال التعبير السياسى المنافس . كما أن حملة عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف لم تكن بمثل ما كانت عليه جهود كالاى من وضوح ومالها من دعم . ولكن زعماء الحزب ، شأنهم شأن أسلافهم النمساويين ، تخلوا بهدوء عن جهودهم دون إنكارها . وبحلول الستينيات كانت حملة اليوغوسلافوية داخل عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف قد نُسيت ، إن لم تكن ماتت تماماً . حيث راحت ضحية للمعارضة المتكررة من الجمهوريات التى كانت شديدة الخوف من عودة السيطرة المركزية (أو الصربية) والاندماج فى كيان واحد .

أما النهج الثالث للقومية ، وهو الذى استمر حتى نهاية يوغوسلافيا الاشتراكية ، فقد تزامن مع الجهد الكبير الذى بذلته عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف لتحرير السلطة وجعلها غير مركزية ، فى كل من الحزب والدولة . وبينما التزم تيتو ونوابه بتحاشى تجاوزات القومية، فقد شجعوا ازدهار تعبير كل المنافسين الشرعيين عن أرائهم القومية تشجعياً لا

لبس فيه . وفى الوقت نفسه كانوا يحاولون الوصول إلى حل وسط ومصالحة على مستوى سائر يوغوسلافيا .

وبالنسبة للبوسنة ، أسفرت هذه السياسة عن الاعتراف بالمسلمين البوسنيين كقومية متميزة . ولم يعترف بهم تعداد 1961 بصفتهم قومية من القوميات . إلا أنه تضمن خانة "مسلم عرقى" ، وهى الصفة التى ادعاها 972954 فرداً . وفى الستينيات عرض العديد من المتحدثين باسم المسلمين البوسنيين قضية المسلمين البوسنيين على أنهم أمة علمانية وليسوا طائفة دينية . وفى 1968 أكملت عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف العملية باعترافها رسمياً بتلك المزاعم . وفى تعداد 1971 عرَّف البوسنيون أنفسهم بأنهم مسلمون بوسنيون بالمعنى القومى للكلمة . وفى عامى 1981 و 1991 كانوا يذكرون أنهم مسلمون أو صرب أو كروات . وطبقاً لإحصاء 1991 ، تعدى المسلمون الـ 9.1 مليون نسمة وبدا وضعهم كقومية مميزة عن كروات البوسنة وصربييها أمراً مؤكداً .

اختبار الحدود: السعى لكبح جماح التجاوزات

رأى دوسكو دودير Dusko Doder سنة 1978 ، وكان وقتها مراسلاً لـ "الواشنطن بوست" فى بلجراد ، أن نهج الحكومة اليوغوسلافية فيما يتعلق بحرية التعبير السياسى " أشبه بالطوق الذى يوضع حول رقبة الكلب " ، حيث يضع حدوداً واسعة يتغاضى خلالها عن النشاط ويستخدمها فى حالات نادرة ، ولكن بقوة ، لكبح جماح التجاوزات . " صحيح أن السير طويل شديد الطول ... [ولكن] عندما تخطو بعيداً أكثر من اللازم عن الخط ، تدرك أن طرف السير مقبوض عليه بقوة ."[12] وتمثل هذه الصورة النهج الذى اتبعته يوغوسلافيا التيتوية مع المنشقين القوميين خلال جزء كبير من فترة ما بعد الحرب . وأصبح الحزب متردداً فى سحب سير الطوق ، بينما صار تيتو يُبعَد أكثر وأكثر عن المشاركة اليومية فى شئون الحزب . وأثبت حزب البوسنة وحكومتها ، وهما أكثر الملتزمين فى يوغوسلافيا بالأصول والنظام ، فى مناسبات عديدة استعدادهما لاتخاذ الإجراءات القانونية ضد مثيرى النزعة القومية الذين كانوا يُعدون تهديداً للنظام الدستورى . وأى تمحيص لتلك الأحداث يفيد فى توضيح الحد بين السلوك الذى رأى الحزب أنه مقبول وذلك الذى رآه غير ذلك .

---

(12) Dusko Doder, *The Yugoslavs* (New York Random, House,1978) p . 108.

وكان تيتو وحلفاؤه قد اتخذوا ، وبصورة حماسية ، إجراءات قانونية ضد اعدائهم عقب سنوات الحرب مباشرة ، بما فى ذلك محاكمة زعيم التشنتك ميخائيلوفتش وكبير الأساقفة الكاثوليك فى زغرب ستيبيناتس . وبعد الطرد من الكومنفورم سنة 1948 ، حُوكم العديد من أعضاء الحزب لقيامهم بأنشطة تخريبية تأييداً للكتلة السوفيتية . وسُجن بعضهم وأُعدم عدد قليل منهم . وما أن نجا الشيوعيون اليوغوسلاف من هذه التحديات المبكرة ، التى تعرض لها نفوذهم ، حتى كانت هناك أعمال لاحقة اتخذت فى أغلب الأحيان شكل الفصل أو الطرد من الحزب أو إصدار أحكام بالسجن ، أو كل هذا معاً .

وفى أوائل الخمسينيات ، أى فى ذروة الفكر التجريبى الذى أفرز مبادىء التيتوية الأساسية، نشر رفيق تيتو المقرب فى زمن الحرب ميلوفان دييلاس Milovan Djilas سلسلة من المقالات أوصى فيها بأن يكون هناك منهج جماعى وأيد إنهاء احتكار عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف للسلطة . وكان ذلك سبباً فى طرده من الحزب وسجنه . ونشر دييلاس بعد ذلك أعمالاً أخرى انتقد فيها سلوك الحزب: كان أعظمها أثراً " **الطبقة الجديدة** " الذى سُجن مرة أخرى بسببه . وبعد الإفراج عنه استقر فى بلجراد التى يعيش فيها ، حتى وقت إعداد هذا الكتاب ، بصفته الوحيد الذى على قيد الحياة من زملاء تيتو الأنصار المقربين . ويُعد مسكنه محطة روتينية يتوقف عندها المراسلون الصحفيون سعياً وراء حلقة حية تربطهم بالماضى .

وأصبح الكسندر رانكوفتش Aleksandar Rankovic ، وهو رفيق آخر مقرب من تيتو ، مسئولاً رفيع المستوى فى الحزب ووزيراً يوغوسلافياً للداخلية . وفى أوائل الستينيات اتخذ موقفاً معارضاً للإصلاحات الاقتصادية التى دعا لها آخرون فى القيادة . وبعد بحث مستفيض قامت به الأجهزة الجمهورية والأمنية ، قُبلت استقالته من كل مناصبه الحزبية فى اجتماع الجمعية العمومية الرابعة للحزب التى عُقدت فى بريونى فى يوليو 1966 . وبصفته رئيساً سابقاً لجهاز الأمن اليوغوسلافى (UDBA) أُلقيت عليه مسئولية التجاوزات التى تعرض لها الألبان فى إقليم كوسوفو الذى يتمتع بالحكم الذاتى . وعاش رانكوفتش فى عزلة حتى وفاته سنة 1983 . ومثلما أصبح كبير الأساقفة (الكاردينال) ستيبيناتس بطلاً قومياً شيعه الآلاف عند وفاته ، صارت جنازة رانكوفتش سنة 1983 التى شارك فيها حوالى 100 ألف مشيع استعراضاً عاماً للعاطفة القومية الصربية .

القومية فى الكفاح من أجل الموارد الاقتصادية

كان أكبر مصدر للتنافس فيما بين الجمهوريات ، داخل عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف وفى المناقشات العامة ، هو مسألة توزيع الموارد الاقتصادية ، وبصفة أساسية الميزانيات الاستثمارية المقدمة للجمهوريات المختلفة من الحكومة الاتحادية . وحيث إن الجمهوريات جميعاً ، فيما عدا البوسنة ، تسيطر عليها قومية واحدة ، كان توزيع الميزانيات الاتحادية أيضاً مسألة قومية . وكانت القيادة القومية فى كل جمهورية تطالب بأكثر من نصيبها . وكانت جمهوريتا الجبل الأسود ومقدونيا واقليم كوسوفو المتمتع بالحكم الذاتي ، وهي جميعاً الأقل نمواً ، تطالب بحصص أكبر من اللازم ، قائلة إنها بحاجة إلى تنمية صناعية لرفع مستوى معيشة مواطنيها . وغالباً ما كانت تنضم إليها صربيا فى ذلك . وعندما لاحظ زعماء كرواتيا وسلوفينيا أن الأموال المستثمرة فى جمهوريتيهم تأتى دائماً بعائدات أفضل وأن الأعمال التجارية السياحية على ساحل دالماتيا توفر مبالغ ضخمة من العملات الأجنبية ، قالوا إن الأموال التى تُكتسب فى جمهوريتيهم ينبغى أن تظل فيهما . وفى المناخ الذى كان يزداد تحرراً فى أواخر الستينيات والسبعينيات ، كانت هناك مناقشات يومية حول إيجاد علاج لهذه المسائل المتعلقة بالسياسات فى الدوائر الحزبية وفى الأجهزة الحكومية وفى الصحافة . ونجح الصحفيون فى عرض أمثلة من الفساد وإساءة استغلال الميزانيات الاستثمارية والمشروعات التى تبدد الأموال وتحقق فائدة ضئيلة للطبقة العاملة .

وغطى الجدل ، الذى ازداد حدة فيما بين الجمهوريات ، حول ميزانيات الاستثمار على عدم الوفاق الأساسى فى العلاقات العرقية : كل جمهورية من الجمهوريات لها مشلكة عرقية أو قومية خاصة بها . وأصبحت المشكة حادة فى أواخر الثمانينيات فى صربيا ، التى كانت صاحبة نفوذ على منطقتى كوسوفو وفويفودينا المتمتعتين بالحكم الذاتي ، وفى سنة 1991 فى كرواتيا ذات الأقلية الصربية كبيرة العدد المتمركزة فى منطقة الحدود العسكرية السابقة.

ومع أن البوسنة لم تكن بها مجموعة عرقية قومية سائدة ، فقد اضُطرت للتنافس مع

الجمهوريات الأخرى من أجل ميزانيات الاستثمار وغيرها من الموارد . وبينما كان من المؤكد أن الخلافات القومية ليست بمنأى عن البوسنة ، كان لزعماء منظمة الحزب البوسنية عميق الأثر عند تمثيلهم للمصالح البوسنية داخل الهياكل الحزبية والاتحادية . وبتشجيع من الاعتراف الذى حصلوا عليه حديثاً كقومية ومن دورهم الريادى فى دبلوماسية عدم الانحياز اليوغوسلافية ، كان المسلمون البوسنيون أصحاب قضية مشتركة مع الصرب البوسنيين والكروات البوسنيين فى أمور كثيرة ، حتى عندما كانت جمهوريتا صربيا وكرواتيا تتخذان مواقف مختلفة . واشتهرت منظمة الحزب البوسنية فى أواخر سنوات تيتو وبعد وفاته بأنها الأكثر تحفظاً وتمسكاً بالأصول من أى جمهورية أخرى ، وإن كان الجبل الأسود استثناء محتملاً . وكانت عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف البوسنية منحازة دائماً إلى جانب القوى الأخرى المؤيدة لعدم مركزية السلطة السياسية والنظام الحزبى الصارم والعلاقات شديدة التنظيم بين القوميات .

بعث القومية الكرواتية

عقب إبعاد رانكوفتش سنة 1966 بدا انتصار الإصلاحيين الليبراليين فى يوغوسلافيا أمراً مؤكداً . وأدت تغييرات هيكلية مهمة فى الاقتصاد إلى حدوث نمو متجدد ورفاهية فى السنوات الأخيرة من ذلك العقد . إلا أن جمهوريتى سلوفينيا وكرواتيا الشماليتين وجدتا أنهما تحصلان على احتياطى من العملة الأجنبية يقل عما تغلانه ، الأمر الذى أدى إلى شكاوى واسعة النطاق من التفرقة الاقتصادية والمعاملة غير العادلة . وأثناء التحرر الذى انتعش فى أواخر الستينيات قدم القوميون الكروات قائمة مطولة تضم الشكاوى المتعلقة بوضع الكروات فى الدولة الاتحادية اليوغوسلافية . فقد اشتكى الكروات من أنهم يُعاملون كأنهم من الدرجة الثانية لغوياً أثناء الإعداد لقاموس صربو كرواتى . كما اشتكوا من المؤامرات الديموجرافية التى يحيكها الصرب لتشجيع إعطاء وضع الحكم الذاتى المنفصل لمنطقة دالماتيا الغنية سياحياً .(13)

---

(13) للاطلاع على وصف الحركة القومية الكرواتية وما أعقبها ، مع اهتمام خاص بالجدل الدائر داخل الحزب، انظر :

Dennison Rusinow *The Yugoslav Experiment 1948 - 74* London : Hurst, 1977), pp. 287-138.

وكان أحد مكونات القومية الكرواتية التى بُعثت سنة 1971 ادعاء الجمعية الأدبية الكرواتية Matica Hrvatska بأن الكروات فى البوسنة محرومون من حقوقهم الأساسية ، وهو أمر بالغ الأهمية بالنسبة لتطور الأحداث فى البوسنة . وفى نوفمبر 1971 أوردت المنشورات الكرواتية إحصاءات توضح أن الكروات ممثّلون بأعداد أقل من اللازم فى منظمة الحزب البوسنية وفى كل الأجهزة السياسية والاقتصادية والاجتماعية الكبرى فى الجمهورية البوسنية .(14) واعتماداً على تلك المزاعم ، اقترح بعض القوميين الكروات فصل المناطق التى تسكنها أغلبية كرواتية عن جمهورية البوسنة والهرسك وضمهاإلى كرواتيا . وأدت المطالبة بتقطيع أوصال البوسنة إلى انضمام الحزب البوسنى إلى منظمات الحزب الشيوعى فى الجمهوريات فى إدانة التجاوزات القومية الكرواتية .

وتدخل تيتو نفسه بقوة فى أوائل ديسمبر 1971 لقمع الحركة القومية الكرواتية التى كانت تتصاعد بسرعة . وفى 12 ديسمبر استقال الأعضاء القياديون الثلاثة فى الحزب الكرواتى وأعقب ذلك تطهير الحزب مما يزيد على ألف عضو ، لتورطهم فى التجاوزات القومية الكرواتية . وعندما تظاهر الطلاب فى زغرب احتجاجاً على الإجراءات الصارمة ، نزلت قوات مكافحة الشغب إلى الشوارع وأُودع آلاف الكروات السجون ، حيث قضى معظمهم فترات قصيرة فى السجن ، وأُغلقت المطبوعات المسيئة . وبذلك سحب تيتو " سير الطوق " بعد شهور عديدة من الأمل فى أن تكون الغلبة للعناصر المعتدلة فى الحزب . إلا أن هذه الحادثة خلّفت لدى الكثيرين من الكروات إحساساً بأن آمالهم القومية لا يمكن تحقيقها فى إطار الهيكل الاتحادى اليوغوسلافى . والواقع أن النزعة القومية الكرواتية لم يُقض عليها ، وإنما دُفع بها إلى العمل السرى.

القومية الألبانية ومسألة كوسوفو

من بين مشاكل القومية التى واجهت يوغوسلافيا فى الحقبة الاشتراكية أن كان المراقبون الأجانب والكثيرون من اليوغوسلاف يرون مسألة الألبان فى كوسوفو على أنها السبب الأكثر احتمالاً الذى سيؤدى إلى العنف على نطاق واسع . وكان الصرب يرون تطور الأحداث فى كوسوفو على أنها نذير سوء . كما نظروا بتوجس إلى انخفاض أعداد الصرب وزيادة أعداد السكان الألبان فى كوسوفو ، مؤكدين أن الذى أخرج الصرب هو ترويع

(14) Sabrina P. Ramer, *Nationalism and Federalism in Jugoslavia*, 1962 - 1991, 2nd end. (Blomington : Indiana University Press, 1992), pp. 124-5.

الألبان لهم . وفى سنة 1953 كان تعداد الصرب وأهل الجبل الأسود قد بلغ 27.9٪ من السكان . ولكنهم بحلول 1987 كانوا يمثلون 10٪ فقط .

وفى مارس وأبريل 1981 عمت المظاهرات التى تزعمها الطلاب وانقلبت إلى أعمال عنف ، وصدرت الأوامر للقوات اليوغوسلافية الاتحادية بدخول كوسوفو لإقرار النظام . واستغل الرئيس الصربى سلوبودان ميلوشيفتش(15) Slobodan Milosevic مخاوف الصرب من أن يُسحقوا فى كوسوفو استغلالاً بارعاً ، عند ارتقائه السلطة سنة 1978 . وعندما تحقق له ذلك ، استبدل قيادة الحزب فى كوسوفو بمسئولين موالين للصرب لتولى شئون الإقليم .

وفى فبراير ومارس 1989 وقعت سلسلة من الضربات أسفرت عن سقوط واحد وثلاثين قتيلاً ونُشرت قوات الجيش الاتحادى فى المنطقة للمرة الرابعة منذ الحرب العالمية الثانية (1945 و 1968 و 1981 و 1989) . وحدث بعد ذلك أن سيطرت القوات شبه العسكرية الصربية على أليان كوسوفو ، من خلال توليفة من القوة الغاشمة وحظر المظاهرات العامة والتحرش بالمنظمين السياسيين المحتملين وكبت حرية الصحافة ووسائل الإعلام والمؤسسات التعليمية . وعند كتابة هذا الكلام فى أبريل 1994 ، لم يكن بلاء الحرب على صعيد الصراعين الكرواتى والبوسنى قد أصاب كوسوفو ، إلا أن الموقف يظل غير مستقر . وتنتهك القوات الصربية حقوق الإنسان دوماً على نطاق كبير .

التحضر وتضاؤل الخصوصية العرقية

أدى نمو الصناعة البوسنية إلى اتساع مناطقها الحضرية بسرعة . وكانت سراييفو ، عاصمة الجمهورية وكبرى مدنها منذ زمن طويل ، بؤرة التطور والنمو . إلا أن مدناً أخرى ،

---

(15) أدرك ميلوشيفتش بعد انهيار الاتحاد السوفيتى أن عالم مابعد الحرب العالمية الثانية يوشك على الانهيار ، فانتقل من الشيوعية إلى التطرف القومى . تبنى ميلوشيفتش فكرة ضرورة الحفاظ على الاتحاد الفيدرالى اليوغوسلافى ، وهو فى حقيقة الأمر يسعى إلى تحقيق حلم " صربيا الكبرى " القديم تحت اسم الفيدرالية . اتفق علماء النفس الذين حللوا شخصية ميلوشيفتش على أن حالات الانتحار العديدة التى شهدتها عائلته تركت أثراً سلبياً على تفكيره وشخصيته . وأولى تلك الحالات كانت انتحار والده عندما كان هو فى التاسعة . ويقول المحللون النفسيون إن ميلوشيفتش يتسم بالبرود العاطفي وحبه الشديد لنفسه وصلته الضعيفة بالواقع وعجزه عن إقامة إتصالات اجتماعية الذى بلغ حد اعتزال الناس . كما إنه يفتقد مشاعر الخجل والندم وتأنيب الضمير . ووُصف ميلوشيفتش بأنه رجل يرتبط بالحل النهائى للقضية الصربية القومية التى تنادى بوجود كل الصرب فى دولة واحدة . فهو يرغب فى أن يخصص لنفسه مكاناً فى التاريخ بصفته الرجل الذى حسم تلك القضية . ويشبه عالم النفس يوسيب بريكو درافاتس تصرفات ميلوشيفتش بتصرفات ستالين فى أعوامه الأخيرة . إلا إن هناك فرقاً بينهما : فستالين كان يستمتع بالأكل ويقيم الولائم ، بينما حرم ميلوشيفتش نفسه من كل أنواع المتع .(المترجم)

هى موستار وترافنك وبانيالوكا وتوزلا ، توسعت توسعاً كبيراً فى عدد سكانها وحجمها . وتقع سراييفو فى قلب المنطقة الجبلية التى شهدت التطور الصناعى ، حيث قام إلى الشمال منها مجمع زينتسا الضخم للصلب ، وكان فى الجنوب والغرب العديد من المصانع . وزاد حجم مطارها الذى كان يخدم حجماً متزايداً من حركة نقل الركاب ، وإن كانت السياسات الاتحادية قد حالت دون جعله مركزاً حقيقياً للرحلات الدولية .

وُشيدت العمارات السكنية المرتفعة ليقيم فيها سكان المدن الجدد . وفى السنوات الأولى التى تلت الحرب ، كانت العمارات هى تلك الأبنية الخرسانية الكئيبة قبيحة المنظر التى قامت فى كل مدينة من مدن أوروبا الشرقية الستالينية . إلا أنها أصبحت فى عقود لاحقة أكثر جاذبية فى عمارتها ووسائل الراحة فيها . وفضل كثيرون من سكان المدن القدامى الشقق الجديدة على البيوت التقليدية القديمة وغادروا مساكن عائلاتهم ليعيشوا فى الوحدات المرتفعة . وأُطلقت على تلك الأحياء المخططة أسماء مثل "سراييفو الجديدة" و"ترافنك الجديدة" . وتُركت مناطق وسط المدينة القديمة لتكون مكاناً للأسواق والمحال التجارية والترفيه والأنشطة الثقافية . وكان الشارع الرئيسى فى معظم المدن البوسنية مركز التمشية المسائية Korso ، وهى التمشية التقليدية التى يسير فيها الأصدقاء معاً ويلتقون بغيرهم ، أو يجلسون فى أحد المقاهى المحلية يتجاذبون أطراف الحديث .

وقبل الاشتراكية كانت الممارسة العامة تقتضى أن يعكس اسم الشخص أصوله العرقية . وغالباً ما كان ذلك من خلال اتخاذ الاسم المذكر أو المؤنث لأحد القديسين المسيحيين أو الأولياء المسلمين . أما بعد الحرب فأصبحت الأسماء فى أغلب الأحيان أكثر شمولاً وتمجد أحد أبطال الأنصار أو أحد المفاهيم ، مثل دولان Dolan وجوران Goran ومعناهما تقريباً " رجل الوادى " و " رجل الجبل " . وبذلك بات من الصعوبة بمكان على أهل البوسنة أن يحددوا الصفة العرقية لأى من أصحابهم الجدد من خلال الاسم الذى يحمله .

ويحتمل أن هذه التغييرات غطت على الخلافات القائمة بين الطوائف العرقية القومية التقليدية. وبينما كانت مناطق وسط المدينة القديمة مقسمة فى الغالب إلى أحياء عرقية ، كانت العمارات الجديدة خليطاً قومياً عرقياً . ولم تصبح الزيجات المختلطة ، التى كانت نتيجة حتمية للإختلاط الأكبر فى المدارس وأماكن العمل ، أمراً مقبولاً فحسب ، بل صارت

مسألة شائعة فى المدن البوسنية كبيرها وصغيرها . وبحلول سنة 1990 كان حوالى 40٪ من الأزواج سكان المدن مختلطين عرقياً . وفى حالات كثيرة كان الأطفال الذين جاءوا نتيجة لزيجات مختلطة يعتبرون أنفسهم يوغوسلاف أو بوسنيين ، دون أن تكون لهم أية انتماءات عرقية .

وبالنسبة للغالبية العظمى من سكان المدن البوسنيين ، كان الولاء للبوسنة يفوق كل المشاعر شديدة العرقية . وكان البوسنيون يبدون حماساً شديداً فى تشجيعهم للفرق الرياضية المحلية أو الفرق الجمهورية أو الفرق القومية اليوغوسلافية . وكانوا يبدون قدراً من الحب والحماس نحو أبطالهم الرياضيين يفوق ما يبدونه لأى قومية أو طائفة عرقية . وتميل الفكاهة فيما بين البوسنيين ، كما هي بين كل اليوغوسلاف ، إلى إنكار الذات وغالباً ما تقترب من حد القسوة . وكانت أكثر الحكايات الفكاهية شيوعاً هى تلك التى تصور موبو Mujo وسويو Sujo ، وهما يمثلان عبيط القرية البوسنى القح . وعادة ما تسخر الحكايات من البوسنيين بسبب ريفيتهم وكسلهم وتقارنهم بأهل كرواتيا وسلوفينيا الأكثر تقدماً .

وبينما دفعت عملية التحضر بالمدن البوسنية الكبيرة والصغيرة لأن تصبح بواتق صهر ، احتفظ الفلاحون القرويون بكثير من طبيعتهم السابقة ، رغم الوفرة الشديدة لكثير من وسائل الراحة الحديثة ووجود مشاركة أكبر فى اقتصاد السوق . وبذلك ظلت الفروق التاريخية بين الفلاحين وأهل المدن قائمة وازدادت قوة بصورة أو بأخرى فى الحقبة الاشتراكية ، حتى مع زيادة عدد سكان المدن وقوتهم الديموجرافية النسبية بصورة كبيرة . فقد ظلت معظم المدن مفصولة عرقياً وكانت الزيجات المختلطة أقل شيوعاً فى المناطق الريفية عنها فى المدن . وعندما بدأ أهل المدن الموسرين بناء بيوت لقضاء عطلة نهاية الأسبوع (عُرفت تحديداً بـ "فيكنديتساس" Vikendicas) فى الستينيات والسبعينيات ، كان الفلاحون التقليديون ينظرون إليهم على أنهم متطفلون ، وتصيبهم الحيرة لأن هناك من يترك وسائل الراحة التى توفرها حياة المدن من أجل الريف بكل بساطته .

وساهمت التفرقة المستمرة بين الاتجاهين الحضرى والريفى فى تفاقم الصراع البوسني فى عامى 1992 و 1993 . إذ كان لدى الفلاحين استعداد نحو الانضمام إلى الميليشات العرقية يفوق ما لدى أهل المدن القدامى . وكان كثيرون من سكان المدن من كل الانتماءات القومية يرون الصراع على أنه محاولة من جانب الفلاحين البدائيين لتدمير الحضارة المدنية فى البوسنة .

اقتصاد ما بعد التصنيع

كان تمتع ساحل الأدرياتيكى بشواطىء جميلة ، وببعض أجمل الموانىء التاريخية فى العالم ، سبباً فى اجتذابه لملايين السياح إلى يوغوسلافيا من الستينيات حتى الثمانينيات. وكان قادة البوسنة ، رغم انشغالهم بتطوير الصناعة وتشجيع الزراعة التجارية ، حريصين على الحصول على نصيبهم من العملة الصعبة التى تغلها السياحة . وكانت أكثر المناطق استفادة هى تلك الواقعة على الأدرياتيكى أو شديدة القرب منه ، وخاصة مدينة نيوم Neum وهى " منفذ على البحر " للبوسنة . وأى زائر لمدينة دوبروفنيك يمكنه ترتيب القيام برحلة ليوم واحد بالأتوبيس على الطريق الملتوى المرهق إلى موستار ويرى جسر الحقبة العثمانية ، ويمضى إلى سراييفو ليرى السوق المركزية قبل عودته إلى الفندق فى ساعة متأخرة من الليل . وضمن الجهود الخاصة بجذب السياح ، رمموا مدينة بوتشيتيلى Pocitelj المسلمة الواقعة بين موستار والأدرياتيكى وجعلوها مستعمرة فنية . كما رمموا الأجزاء التاريخية من موستار وسراييفو أو أعادوا بناءها .

وكان اختيار اللجنة الأوليمبية العالمية لسراييفو لتُقام عليها دورة الألعاب الشتوية سنة 1984 علامة بارزة ، ليس فقط من ناحية الاعتراف الدولى وإنما كذلك من أجل فوائدها الاقتصادية . فقد تلقت الجمهورية ميزانيات اتحادية موسعة للمساعدة فى الإعداد للدورة . كما أن الجهود الخاصة بإقامة المنشآت الرياضية والمساكن التى يقيم فيها المتسابقون الرياضيون والضيوف غيرت وجه سراييفو وما يحيط بها . فقد جُدِّدت واجهات المبانى الكالحة ، التى عانت طويلاً من الإهمال وأضاع التلوث لونها ، وطُليت من جديد . وازدهرت حركة التشييد والبناء . وأُقيم فى داخل المدينة فندق " هوليداى إن " (وهو الفندق الوحيد الذى كان يعمل فى المدينة وقت كتابة هذا الكلام) الذى كان صرحاً للحداثة والأسلوب المعمارى الجرىء بلونيه البنى والأصفر وأثار استياء الجميع . (بل إن بعض أهل سراييفو كانت تراودهم أمنية شريرة بأن يكون الهوليداى إن بين أول ما يصيبه القصف الصربى ويقضى عليه تماماً) .

وما أن طُبقت إصلاحات حقبة تيتو حتى صارت يوغوسلافيا دولة ذات حدود مفتوحة تتمتع شعوبها بحرية الحركة ، بعكس الدول الأوروبية الشرقية الأخرى التى يقودها الشيوعيون . وكان التفاوت الإقتصادى بين يوغوسلافيا ودول غرب أوروبا وراء سعى العمال

الشباب للحصول على عمل مؤقت فى أوروبا ، خاصة فى ألمانيا الغربية والنمسا وسويسرا . وبلغ عدد هؤلاء العمال المليونين تقريباً فى أوائل السبعينيات . وكانت نسبة كبيرة من العمال اليوغوسلاف فى الخارج من البوسنة . وذكر مصدر حكومى يوغوسلافى أن 2.9٪ من القوى العاملة البوسنية كانوا يعملون بالخارج سنة 1971 .(7)

وأدى تحويل العاملين فى الخارج للعملة الصعبة إلى عائلاتهم وعودتهم محملين بالسلع الغربية إلى انعاش مستوى المعيشة اليوغوسلافى بصورة كبيرة فى السبعينيات . كما عاد العمال إلى قراهم بما يفيد أن هناك ظروفاً اقتصادية أفضل فى الغرب ، وساهموا فى حدوث الشك العام فى النظام الاقتصادى اليوغوسلافى . وعندما دفعت ضغوط الانكماش الإقتصادى الدول المضيفة إلى تقليل حجم العمالة الوافدة أو طردها فى منتصف السبعينيات وما بعدها ، انهارت قيمة صمام الأمان هذا بسرعة .

البنية الفوقية الدستورية

على مستوى التنظيم الحكومى ، أدت الإصلاحات المتعاقبة إلى وجود هيكل حكومى أصابه الوهن وتقطعت أوصاله يعتمد اعتماداً كبيراً على الإجماع والتعاون بين القوى الجمهورية المتناحرة . وعكس هذا الهيكل ميلاً ما نحو تيتو نفسه وتفضيلاً له ، وكذلك الحاجة إلى إجراء مصالحة بين مختلف القوى المؤيدة ، مع الحفاظ على مبادىء الصفة القومية ، إلى جانب المناورة المستمرة من أجل الاحتفاظ بالسلطة داخل الحزب والحكومة .

وتاريخ يوغوسلافيا السياسى فيما بين 1949 و 1990 يُعَد إلى حد كبير سلسلة متعاقبة من التغييرات التى جرت داخل منظمتين متوازيتين ، هما الحزب والحكومة ، لحل الخلاف متعدد الأوجه المتعلق بالطبيعة الأساسية للمجتمع اليوغوسلافى . وجاءت التغيرات بطيئة وغير منتظمة ، وكانت بداياتها خاطئة وشملت الكثير من المنتديات والوثائق المختلفة. وتمثلت التغيرات الرئيسية التى شهدها الهيكل الحكومى فى الدساتير الأربعة التى وُضعت بعد الحرب فى سنوات 1946 (وسبقت مناقشته) و1952 و 1963 و 1974 وفى العديد من التعديلات والقوانين التى وافق عليها المجلس اليوغوسلافى . ويمكن تتبع جهود الإصلاح التى قام بها الحزب فى كثير من مؤتمرات الحزب ، من المؤتمر السادس سنة 1952 حتى المؤتمر الرابع عشر فى دورته غير العادية سنة 1990 .

Ramet, P. 104 (7)

تراجع تيتو كثيراً عن فكرة الخليفة القوى الأوحد عندما تقدم به العمر . وبدلاً من ذلك سعى إلى ضمان تفتت السلطة السياسية بعد وفاته . فقد شرع بنفسه فى سحب السلطة من العديد من رفاقه المقربين أو أقر سحبها منهم : وهؤلاءهم ميلوفان دييلاس (1954) وفلاديمير ديدبير (1954) والكسندر رانكوفتش (1966) ، بل وزوجته الثالثة يوفانكا Jovanka . وأيد تيتو مبادىء القيادة الجماعية وفصل السلطات بين الحزب والحكومة والإكثار من تولى المناصب الحكومية العليا بالتناوب ، وشاهد ذلك يُسجَّل فى القانون الدستورى اليوغوسلافى .

وفى سنة 1971 اقترح تيتو تعديل الدستور ، لتكون هناك رئاسة اتحادية جماعية تتكون من خمسة عشر شخصاً : ممثلان لكل جمهورية من الجمهوريات الست وممثل لكل من الإقليمين المتمتعين بالحكم الذاتي ، إلى جانب تيتو نفسه بصفته رئيساً لعصبة الشيوعيين اليوغوسلاف . وبطلب من ممثلى البوسنة ، حدث تغيير فى التعديلات المقترحة بحيث يكون هناك ثلاثة ممثلين لكل جمهورية ، لضمان تمثيل القوميات الثلاث الرئيسية فى البوسنة . (وساعتها أصبح هناك ممثلان لكل من الإقليمين المتمتعين بالحكم الذاتى) وكان على تيتو أن يتولى مهام الرئيس (نعم ، رئيس مجلس الرئاسة) فى هذه الهيئة المكونة من ثلاثة وعشرين عضواً التى تصعب قيادتها بشكل كبير.

وعدَّل دستور 1974 هذا الترتيب وبسَّطه ونص على أن الرئاسة الاتحادية تتكون من تسعة أشخاص فقط : ممثل لكل من الجمهوريات الست وممثل لكل من إقليمى فويفودينا وكوسوفو المتمتعين بالحكم الذاتي . أما الممثل التاسع فهو تيتو نفسه ، الذى تقرر أن يشغل (بصفته رئيساً لعصبة الشيوعيين اليوغوسلاف) منصب الرئيس مدى الحياة وهكذا أسفرت وفاة تيتو عن وجود مجلس رئاسة مكون من ثمانية أعضاء ، فى حين يشترط دستور 1974 أن يكون منصب الرئيس بعد تيتو بالتناوب فى يوم 15 مايو من كل سنة . وهكذا مزق تنظيم الرئاسة السلطة السياسية شر ممزق فى يوغوسلافيا ما بعد تيتو ، وحال دون وجود الرئاسة الفعلية فى يد شخص واحد .

وإذا نظرنا إلى هذه التغييرات مجتمعة نجد أنها بلغت حد القضاء التام على مركزية السلطة السياسية فى يوغوسلافيا وتفتيتها . وتخلت أجهزة الحزب المركزية والحكومة اليوغوسلافية الاتحادية عن سلطاتها للجمهوريات ومنظمات الحزب فى كل جمهورية

والمؤسسات الاقتصادية ، بل والحكومات المحلية . ومع انتقال السلطة إلى المستوى الجمهورى ، بدأت كل جمهورية تتصرف كأنها دويلة . وأصبح التنافس بين الجمهوريات وتحوُل الولاءات فيما بينها الواقع الأساسى فى الحياة السياسية اليوغوسلافية الجديدة . وفى تحليل واع له مغزاه ليوغوسلافيا ما بعد 1960 ، ذكر أحد الباحثين أن الجمهوريات اليوغوسلافية والإقليمين المتمتعين بالحكم الذاتى تصرفت فى كثير من الأحيـــان كأنها دول ذات سيادة موجودة داخل نظام لـ " توزان القوى " فى العلاقات الدولية .(8)

وبعد وفاة تيتو سنة 1980 لم تتوقف مناقشة التغييرات الدستورية المرتقبة . إلا أن قادة الحزب اعترفوا بأن صياغة الدستور دون وجود تيتو المرشد قد يطلق العنان للقوى التى لا يمكن السيطرة عليها ، وربما أدى إلى التفكك التام . ولذلك ظلت وثيقة 1974 الدستور المعمول به – وإن تجاهلوه فى أغلب الأحيان – حتى انهيار يوغوسلافيا .

تيتو وميراثه

فى جو من التنافس القومى الذى زاد من حدته الانهيار الإقتصادى ، كان الاحتفاظ بالشعبية إنجازاً رائعاً بالنسبة لأى زعيم . وحتى عندما انسحب تيتو من العمليات اليومية فى الحزب والحكومة ، فقد احتفظ بمكانة وشعبية بين معظـم اليوغوسلاف ، كزعيم يعلو فوق السياسة والقومية . وكان بالنسبة لكثيرين " اليوغوسلافى الحقيقى " ، ومصدر الوحدة الذى لا ثانى له ، والتماسك الذى يدين له أبناء كل القوميات بالولاء .

ولم تكن مكانة تيتو فى أى جمهورية أعظم منها فى البوسنة ، دار حركة الأنصار وموئل أكثر منظمات الحزب نظاماً وأصولية . وغالباً ما كان الأجانب الذين يزورون البوسنة فى السبعينيات يجدون أنفسهم فى حالة من عدم الارتياح تدعو للدهشة ، عندما كانوا يسألون عما يمكن أن يحدث بعد وفاة تيتو . فكثيرون من أهل البوسنة كان يضايقهم أى ذكر لاحتمال عدم وجود تيتو بين ظهرانيهم فى يوم من الأيام .

وفى إحدى زيارات تيتو لسراييفو فى السبعينيات ، بدأ الناس يصطفون فى الشوارع قبل ساعات من موعد وصوله . وفى الوقت الذى وصل فيه موكبه كانت الحشود بعرض ستة إلى ثمانية صفوف على طول شوارع المدينة . وبدلاً من الهتافات والتهليل من جانب الجماهير ، كانت تحية تيتو تصفيق يتسم بالوقار والتعقل وتنهدات إعجاب تليق بأحد

Ramet .pp. 3 - 39 and 270 - 9 (8)

القديسين وليس ببطل قومي . وعندما وصل أنشد كورال الأطفال على درج فندق إفروبا Evropa "نحن تيتو وتيتو لنا " Mismo Titvoi ; Tito je nas" . وحيا تيتو الكورال على عجل ، قبل أن يختفى سريعاً داخل الفندق دون أن يقول كلمة للجماهير المحتشدة .

ويكشف سلوك الجماهير ، وذلك التبجيل العام الذى حظى به تيتو ، عن تلك المكانة الفريدة التى تمتع بها فى يوغوسلافيا والبوسنة . كان أكثر من مجرد إنسان له شعبية . كان أسطورة حية ورسَّخ فى العقل الشعبى أن له صفات غامضة تكاد تقترب من عالم الخلود الروحى .

وتقييم حقبة تيتو من المنظور التاريخى الوجيز الخاص بزماننا الحالى أمر فيه مخاطرة . إلا أن على المرء أن يشير إلى إنجازين عظيمين وخطأ قاتل . فقد نجح تيتو فى بادئ الأمر فى تشكيل حركة مقاومة قوية من أقل العناصر إحتمالاً للقيام بذلك وأكثرها هواناً وأضعفها معنويات . وقاد تلك الحركة إلى الإنتصار على آلة الحرب الألمانية الجبارة . وبعد الحرب تغلب على نوازعه السلطوية ، بالقدر الذى جعله يقود اليوغوسلاف لإقامة مجتمع مفتوح ينعم بالرخاء ويتسم بالتقدمية . وكان تيتو لا يخشى شيئاً كمجدد إجتماعي، تماماً كما كان وهو منظم للمقاومة . وفى ظل هذين الإنجازين قد يغفر المرء له خطأه الأكبر ، وهو تردده فى وضع استراتيجية مجمعة من أجل مجتمع يوغوسلافى ناجح بعد وفاته . وأكثر ما يدعو للأسف جهده المتعمد للحيلولة دون ظهور خليفة مؤثر . وبسبب التكبر الذى لدى كثيرين من الزعماء العظام ، لم يمنح تيتو فى سنواته الأخيرة الثقة للآخرين كى يجددوا يوغوسلافيا ، التى صاغها هو فى حمأة الحرب ، أو ينشئوها من جديد .

وخلال فترة قصيرة جداً أعقبت وفاته ، زحف الانتقاد الحذر لتيتو فى الحوار العام . ومع نهاية العقد ، كان المتطرفون القوميون يستنكرون كل عمل قام به ويلقون باللوم عليه بسبب كل خطاياه وأخطائه فى الماضى اليوغوسلافى . وكما هو الحال فى جوانب الدعاية القومية الأخرى ، وجد هؤلاء المنظرون صدى لما يقولون لدى الصحفيين وخبراء الدعاية الغربيين ، الذين شرعوا فى تصوير تيتو على أنه طاغية قمع الآمال القومية واعتمد على القهر ليبقى فى السلطة . وهذه الأفكار ليست زائفة وحسب ، ولكنها تدعو للسخرية . ويتضح لنا ذلك حين ننظر إلى حملة تيتو التى دامت سنوات ، وكانت على حساب السلطة المركزية ، لنقل السلطة السياسية إلى نفس الجمهوريات التى يتولى السلطة فيها كثيرون من هؤلاء الدعائيين .

وبموت تيتو فى مايو 1980 ، اختفت من على المسرح يد حَكم عظيم مرشدة ، وتركت المهمة لخلق أقل منه شأناً، تكبلهم آلة الحكم المعقدة التى كان تيتو قد حفظها فى القانون الدستورى ، كى يواجهوا مهمة الحفاظ على تماسك البلاد . ومن منظور التسعينيات ، فإن تعجب المرء من استطاعتهم الإبقاء على يوغوسلافيا طوال عقد من عدم الاستقرار المتصاعد يفوق تعجبه من استسلامهم فى نهاية الأمر للضغوط التى أدت إلى تفكك البلاد فى 1990 و 1991 .

الفصل العاشر

ما بعد تيتو:

غروب شمس يوغوسلافيا

واجهت يوغوسلافيا مشاكل اقتصادية حادة وشقاقاً قومياً متزايداً فى السنوات التى أعقبت وفاة تيتو . ورغم مشاركة أهل البوسنة اليوغوسلاف الآخرين الكثير من تلك المشاكل ، أصبحت جمهورية البوسنة والهرسك آخر معاقل اليوغوسلافوية الحقة . وبينما لم يكن قادة حزبها وحكومتها خلواً من نزاعاتهم القومية ، فقد سعوا من أجل مصالح البوسنة فى إطار الاتحاد اليوغوسلافى ، دون الاستسلام للشقاق القومى الذى انطبعت به قيادة بعض الجمهوريات الأخرى . وعُرف عن عصبة الشيوعيين فى البوسنة والهرسك أصوليتها المحافظة وتماسكها التنظيمى. كما تعقب قادتها المتطرفين القوميين فى مناسبات عديدة. وكما حدث فى الحقبة اليوغوسلافية الملكية وأوائل العهد الاشتراكى ، وقف البوسنيون من المجموعات القومية الرئيسية الثلاث إلى جانب الحفاظ على يوغوسلافيا فى مواجهة قوى التقسيم والتفتيت . إلا أن تلك القوى كانت تحوم حول البوسنة طوال الثمانينيات بصورة تنذر بوقوع شر ما. و كان تهديدها لوجود الاتحاد اليوغوسلافى ذاته عظيماً

وكما حدث فى حياة تيتو ، وفرت ثلاث مؤسسات القدر الأكبر من تماسك أجزاء يوغوسلافيا الاشتراكية التى ازداد تباينها . وهذه المؤسسات هى عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف والحكومة الاتحادية اليوغوسلافية وجيش الشعب اليوغوسلافى . ولم يسلم أى منها من اضطرابات 1991 – 1993 بقدر واضح . اذ تفككت عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف فى يناير 1991 ، حيث كانت ضحية الخلافات التى لا حل لها بين المنظمات الجمهورية التى تتشكل منها . وأُعيد تشكيل الدولة الاتحادية اليوغوسلافية فى أبريل 1992، و كان"ما تبقى من يوغوسلافيا "(الجبـــل الأسود وصربيا ، بما فى ذلك كوسوفو وفويفودينا) يحمل بعض الشبه من الكيان السابق . وتعرَّض جيش الشعب اليوغوسلافى كذلك لتغير فى طبيعته : فاعتباراً من صيف 1991 ، تخلى الجيش عن دوره كمدافع عن الاتحادية متعددة القوميات ، وأصبح أداة لتنفيذ الأهداف القومية الصربية ، ولم يعد معترفاً به فيما يتعلق بالتكليف بالمهام . كما صار مختلفاً تماماً فى أفراده عن جيش الشعب اليوغوسلافى الأصلى . وحلت محل هذه المؤسسات قوتان رئيسيتان لتتنافس على السلطة،

وهما الحكومات الجمهورية المختلفة والقوى القومية المتطرفة التى ستخوض حرب الخلافة اليوغوسلافية الأثيمة .

الأزمة الاقتصادية

بدأ انهيار يوغوسلافيا الاقتصادى قبل وفاة تيتو سنة 1980 وازداد حدة بعدها ، ليصل إلى حد الأزمة بحلول نهاية العقد . وبلغ التضخم معدلاً كبيراً فى منتصف العقد . كما تعثر الانتاج وحالت التعقيدات الحكومية دون حدوث إصلاحات ذات أهمية . يضاف إلى ذلك تلال الديون الخارجية والمحلية التى شكلت عبئاً على المؤسسات وعلى الحكومة الاتحادية . وإذا كانت دورة الألعاب الشتوية التى أُقيمت سنة 1984 فى سراييفو قد أتت بالأموال ووميض من التفاؤل للبوسنة ، فالإحساس العام بالوعكة الاقتصادية أصاب البوسنيين ، بالقدر الذى عانى منه سكان الجمهوريات الأخرى . يضاف إلى ذلك أن كون البوسنة مركزاً رئيسياً للانتاج الصناعى الثقيل داخل الاتحاد اليوغوسلافى جعلها تواجه تحديات شديدة الخطورة بسبب المنافسةِ و صناعاتها الأساسية التى صارت عتيقة.

ويمكن استنتاج الكثير عن طبيعة متاعب يوغوسلافيا الاقتصادية فى أواخر أيام يوغوسلافيا الاشتراكية من تلك الفضحية التى تورطت فيها أجروكوميرتس Agrokomerc ، وهى واحدة من أكبر مؤسسات البوسنة ، سنة 1978 .(1) وقد برزت أجروكوميرتس القائمة فى مدينة فيليكا كلادوشا Velika Kladusa شمال غربى البوسنة كنموذج للمؤسسة الاشتراكية اليوغوسلافية الناجحة . وكانت الشركة قد تأسست سنة 1963 بثلاثين عاملاً واختارت سنة 1967 فكرت عبدتش Fikret Abdic مديراً لها . وسرعان ما توسعت فى الانتاج والتعبئة ونقل الإنتاج الزراعى ليصبح ترتيبها سنة 1986 التاسعة والعشرين بين كبرى الشركات اليوغوسلافية . وكان يعمل بها وقتئذ 11 ألف عامل .

وأدى وقوع حريق فى أحد مستودعاتها أوائل سنة 1987 إلى إجراء تحقيق سرعان ما كشف عن وجود مخالفات مالية . وبحلول ربيع 1987 علمت وزارة داخلية البوسنة أن أجروكوميرتس أُقيمت على سندات اذنية غير مضمونة بلغت قيمتها 875 مليون دولار . وتولى بنك بيخاتش بيع السندات لمؤسسات مالية أخرى . وبذلك توزعت الديون المعدومة على ثلاثة

---

(1) "Agrokomerc The Decline of a Model Enterprise," *Radio Free Europe* *Stiuation* Report, November 19 , 1987 .

وستين بنكاً ، الكثير منها مقاره خارج جمهورية البوسنة . وفى شهر مارس أُبلغ المسئولون الحكوميون أن مسئولى أجروكوميرتس متورطون فى تعاملات ضخمة غير مشروعة .

ولم يمض وقت طويل حتى اتخذت هذه المسألة كل الشكل المأساوى التى تميزت به احدى فضائح سوق المال الأمريكية فى الثمانينيات . نُشرت المخالفات المالية أول الأمر فى جريدة بوربا Borba ، لسان حال التحالف الاشتراكى للشعوب العاملة ، فى 15 أغسطس 1987 . وأُغلق بنك بيخاتش على الفور ، ووجد 50 ألف عامل محولة أجورهم على البنك أنهم يحملون أوراقاً لا قيمة لها . ووقعت اضرابات متفرقة فى صناعات مختلفة عديدة. وظهر أن جبل الدين غير المضمون الذى كانت تستند عليه أجروكوميرتس كان بتشجيع من عائلتى عبدتش وبوزديراتس Pozderac المسلمتين . وكان حمدى بوزديراتس Hamdija Pozderac كبير العائلة الثانية قد اكتسب نفوذاً سياسياً إلى جانب ثروته . إذ إنه أصبح العضو البوسنى فى الرئاسة الاتحادية . وكان فى ذلك الوقت نائب رئيسها ومن المقرر أن يصبح رئيس مجلس الرئاسة فى 15 مايو 1988 . وعندما ازداد حجم الفضحية ، عُزل بوزديراتس على الفور من مجلس الرئاسة الاتحادية اليوغوسلافية فى 12 سبتمبر ومن اللجنة المركزية لعصبة الشيوعيين اليوغوسلاف فى 23 أكتوبر .

وسرعان ما تحولت مسألة أجروكوميرتس إلى إحدى فضائح النفوذ السياسى . وعُزل مائتان من أعضاء الحزب فى البوسنة وكرواتيا خلال عدة أشهر تالية ، بسبب تورطهم فى تعاملات أجروكوميرتس . وأُضيرت سمعة الرئاسة الاتحادية اليوغوسلافية بسبب الفضحية. وكانت الرئاسة قد أجرت تصويتاً فى يوليو 1986 ، أى قبل اكتشاف أمر الفضحية ، على منح فكرت عبدتش "وسام العلَم الأحمر " تقديراً لـ "الإنجازات غير العادية فى مجال العمل " ولم يُعلن رسمياً عن ذلك إلا بعد انتشار أمر الفضيحة وإلقاء القبض على عبدتش ، كدليل على أن الرئاسة الاتحادية خُدعت بأعمال عبدتش . وعُزل ستانكو تومتش Stanko Tomic ، المدير التنفيذى لشركة زينتسا الضخمة لأعمال الصلب وعضو لجنة الجوائز ، من اللجنة المركزية لعصبة الشيوعيين اليوغوسلاف فى أكتوبر 1987 . ولكنه قاوم ضغوط تنحيته عن منصبه فى شركة الصلب.

وأوضح عبدتش ، الذى لم يبد أى قدر من الندم ، أن الممارسات التى حدثت فى أجروكوميرتس شائعة فى الصناعة اليوغوسلافية . وأرسلت صحيفة " نين " NIN

الأسبوعية واسعة الانتشار التى تصدر فى بلجراد أحد صحفييها إلى فيليكا كلادوشا حيث ذكر أن هناك تأييداً محلياً قوياً لعبدتش . وعندما واجه معظم المقيمين فى منطقة بيخاتش احتمال الاستغناء عن أعداد كبيرة من العمال فى أعقاب الفضيحة ، أبدوا امتنانهم لعبدتش لتوظيفه الكثيرين من المسلمين الذين كانوا فى السابق عمالاً فى سلوفينيا وشعروا بتفرقة فى معاملتهم . وشعر الكثيرون من السكان المحليين أن عبدتش وشركة كوميرتس كِيد لهما .

احتفظ عبدتش بأتباع لا بأس بهم فى منطقة بيخاتش . وفى انتخابات 1990 متعددة الأحزاب حصل على أكبر عدد من الأصوات يحصل عليه مرشح مسلم بوسنى وأصبح عضواً برئاسة البوسنة والهرسك . وبعد اندلاع الحرب سنة 1992 أصبح زعيماً بلا منازع لـ " جيب بيخاتش " ، وهو منطقة تقع شمال غربى البوسنة لم تستول عليها القوات الصربية. وفى أكتوبر 1993 ، تزعم عبدتش أتباعه فى إعلان منطقة حكم ذاتى فى البوسنة مركزها بيخاتش .

وأى مراجعة عن كثب لفضيحة أجروكوميرتس تكشف الكثير مما تتصف به الأزمة الاقتصادية اليوغوسلافية فى الثمانينيات . فرغم الخطاب البلاغى والتوجيهات المتكررة الصادرة عن المركز ، لم تكن إدارة العمال الذاتية نظاماً معمولاً به فى كثير من الشركات الكبرى مثل أجروكوميرتس . فما أن يصل المديرون إلى مناصبهم حتى يصبحوا ذوى بأس ويتحول الواحد منهم إلى دكتاتور بمعنى الكلمة ، حيث لا تقيده رقابة العمال ويتاح له الحصول على منافع ومغانم ضخمة من الحكومة . وكانت رغبة النظام اليوغوسلافى فى القضاء على ملكية الرأسماليين وسيطرة الدولة قد أدت إلى ظهور الوكالات الإقليمية – وهى عبارة عن مستثمرين ذوى نفوذ ضخم على صلة بسماسرة النفوذ فى الحزب أو الحكومات الجمهورية والاتحادية وغيرها من المؤسسات ، وخاصة البنوك . وكان بمقدور الكثير من الشركات أن تجد لنفسها مخرجاً من الحساب النهائى من خلال عقد صفقات مع الساسة وشبكة الوحدات شبه الحكومية ، حتى إذا كانت تلك الشركات مسئولة نظرياً عن حسن أوضاعها المالية . وإذا كان هناك من يحكم على عبدتش بأنه صديق للعمال ونصير لجماعته، فما تزال فضيحة أجروكوميرتس شاهداً على فشل الحكومة فى السيطرة على إحدى الشركات التى تهربت من المحاسبة المالية .

وكان الاقتصاد بصفة عامة موبوءاً بالاستثمارات التى لا طائل من ورائها وبالفساد

وتبديد الموارد والديون الجامحة . وفى سنة 1987 بلغ إجمالى ديون يوغوسلافيا الخارجية 20 مليار دولار ، بالإضافة إلى 16 ملياراً ديوناً محلية ، أو التزامات فيما بين الجمهوريات والشركات . وبينما ندرت الاضرابات فى السنوات الأولى من عهد تيتو ، أصبحت أكثر شيوعاً عقب وفاته سنة 1980 . ففي سنة 1989 أُبلغ عن 1900 إضراب شارك فيها 470 ألف عامل . وقاوم العمال كل محاولة لتجميد أجورهم ، وإن صاحب ذلك تجميد للأسعار . وفى سنة 1987 تضاعفت الأسعار ثلاث مرات واستمرت فى الزيادة طوال العامين التاليين. ورغم التخفيض الذى حدث سنة 1990، فقد تزايد معدل التضخم المرتفع ليصل إلى أرقام عبثية ، بسبب القروض الحكومية الضخمة فيما تبقى من يوغوسلافيا (صربيا والجبل الأسود) بعد أن أضرته العقوبات المفروضة عليه ، حيث كان الدينار يخسر 1٪ من قيمته كل مائة دقيقة بحلول الثالث من أغسطس 1993 .

السعى إلى الإصلاح

حدث على مر السنين تغير طفيف ولكنه ملحوظ فى التحرك نحو الإصلاح فى يوغوسلافيا . وكانت رغبة زعماء الحزب القوية فى الابتعاد عن النموذج الستالينى ورسم نهج تيتوى فريد نحو الاشتراكية هى الباعث الأول على الإصلاح . وفى بادىء الأمر ، أسفر ذلك عن تحرر لقى ترحيباً من مركزية الدولة الصارمة والرقابة السياسية المتشددة التى تميزت بها السنوات التى أعقبت الحرب مباشرة . وساهمت الإصلاحات فى حدوث نمو اقتصادى وافرزت مجتمعاً أكثر تقدمية وانفتاحاً عما فى أى دولة اشتراكية أخرى فى العالم. إلا أنه بحلول الستينيات أسفرت محاولة صياغة نهج يوغوسلافى متفرد عن اشتداد الجدل حول أفضل طريقة لتنظيم الحزب والحكومة والمجتمع اليوغوسلافى ككل . ومن نتائج اللامركزية الثانوية حصول الجمهورية على سلطات ضخمة ، إلى جانب أنها أصبحت تتميز فى كل حالة (ماعدا البوسنة) بوجهة نظر قومية معينة . وطرأ تحول تدريجى على حركة الإصلاح لينحدر بها الحال إلى تنازع لا يليق بين الجمهوريات ومنظماتها الحزبية ، حين تنافست على الموارد الاقتصادية والامتيازات السياسية .

وبحلول الثمانينيات كانت المناقشات الخاصة بالإصلاح فى حد ذاتها قد أصبحت ملمحاً بغيضاً من ملامح الحياة العامة اليوغوسلافية . والواقع أنه رغم كون المقترحات تدور حول " الإصلاح " ، فقد كان هذا المصطلح اسماً مغلوطاً ، لأن عشرات السنين من الجهود

المكثفة لم تسفر عن أية تحسينات ذات مغزى فى الحزب أو الحكومة . كما بلغت اللامركزية حد التفتت . وأدى إطلاق الحريات إلى زيادة الحرية الفردية ، وإن تحول فى بعض الأحيان إلى فوضى . وحتى أواخر الثمانينيات كانت كل المناقشات تدور حسب قواعد اللغة التيتوية الماركسية اللينينية التى يصعب فهمها . الأمر الذى أدى إلى استغلاق فهم المناقشات على معظم الغرباء وجعلها بلا معنى بالنسبة للكثيرين من اليوغوسلاف .

تعقب القوميين فى البوسنة

رغم نمو وسائل الإعلام المستقلة والمحترفة بعد موت تيتو ، فرضت عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف قيوداً للحد من نشاط المنشقين الذين اعتبرت أراؤهم غير مقبولة . وفى البوسنة كانت تلك الجهود موجهة فى المقام الأول ضد القوميين الذين رؤى أن أنشطتهم العامة تهدد وجود البوسنة والهرسك الدائم كواحدة من الجمهوريات .

وفى يوليو وأغسطس من سنة 1983 حوكم ثلاثة عشر مسلماً فى إحدى محاكم سراييفو بتهمة التآمر على تحويل البوسنة إلى دولة إسلامية صرفة Islamistan والاتصال المستمر بالمنفيين المعادين فى الخارج .[3] وفى 2 أغسطس 1983 أُدين المدعى عليهم بالتهم الموجهة إليهم وصدرت ضدهم أحكام قاسية . وكان أكبر الأحكام ، وهو السجن لمدة أربع عشرة سنة ، من نصيب علي عزت بيجوفتش Ali;a Izetbegovic ، الذى أصبح معروفاً فى الغرب سنة 1992 بصفته أول رئيس للجمهورية البوسنية [4] .

ولأن ذلك جاء فى وقت كان فيه غربيون كثيرون يخشون عودة التعصب الإسلامى

Yugoslav Moslem' Nationalists .Condemned *Radio Free Europe Background* (3) *Report* September2, 1983.

(4) درس بيجوفتش القانون والعلوم المدنية ، إلى جانب دراسته للعلوم الإسلامية من خلال الأسرة ومجالس العلماء . وفى سنة 1949 صدر ضده حكم بالسجن خمس سنوات لاتهامه وعمريهمان وعصمت كاسوماتشيك بالانتماء إلى منظمة الشباب المسلم . وفى سنة 1970 كتب بحثاً فى 50 صفحة بعنوان " البيان الإسلامى " قُدم بسببه للمحاكمة بدعوى أن البحث يشير إلى رغبة المتهم فى تأسيس دولة إسلامية فى جمهورية البوسنة والهرسك وإقليم كوسوفو ومناطق أخرى يقطنها المسلمون . وأشار الادعاء إلى أن ذلك البحث يعد " المشروع المعدل لمنظمة الشباب المسلم الإرهابية القديمة " ونفى بيجوفتش تلك التهمة وأنكر صلة البحث ببرنامج الشباب المسلم " . وعندما ترك بيجوفتش العمل فى مجال الاستشارات القانونية انشغل بدراسة الإسلام والكتابة عنه فى شكل مقالات تاريخية وتأليف بعض الكتب الإسلامية المفيدة لمواطنيه المسلمين ، حُكم عليه بالسجن مع عدد من زملائه المفكرين الإسلاميين بلغ عددهم ثلاثة عشر مفكراً لمدة أربع عشرة سنة وجرت المحاكمة فى سراييفو سنة 1983 . (المترجم)

بتشجيع من نظام آية الله روح الله الخمينى فى إيران ، فقد أثار هذا الحدث المخاوف من تفاقم الأصولية الإسلامية فى البوسنة . (وكثيراً ما استشهد القوميون الصرب والكروات بالمحاكمة ، لتصوير المسلمين البوسنيين على أنهم متعصبون دينيون .) وبشكل أدق ، أُجريت التحقيقات لأن القيادة المسلمة العلمانية ، بصفتها جزءاً من مؤسسة عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف البوسنية ، رغبت فى التأكيد على أن القومية الإسلامية البوسنية التى اعتُرف بها حديثاً علمانية ، وليست دينية ، فى تعريفها وأهدافها . (أمضى عزت بيجوفتش أقل من ست سنوات من فترة السجن المحكوم عليه بها . وعندما وصل إلى السلطة سنة 1990 ، تبنى سياسات أكثـر التصاقاً بالزعماء العلمانيين المسلمين البوسنيين .)

وبعد سنة واحدة ، أى فى يوليو 1984 ، حوكم الصربى البوسنى فويسلاف شيشيلى Vojislav Seselj فى سراييفو بتهمة ترويج " دعاية معادية للنظام الدستورى."(5) ففى مقال كتبه شيشيلى لصحيفة الحزب " كومونيست " Komunist هاجم نظريات إدفارد كارديلى القومية ودعا إلى تقسيم البوسنة بين صربيا وكرواتيا ودمج الجبل الأسود فى صربيا . وصدر ضده حكم بالسجن ثمانى سنوات . ونتيجة لضغوط منظمات حقوق الإنسان العالمية (حيث تحقق لمحاكمته قدر معين من الذيوع ، لأن دورة الألعاب الشتوية كانت قد أُقيمت منذ فترة قصيرة فى سراييفو) ، خُفف الحكم وأُفرج عنه فى مارس 1986 . ولكنه ظل متبنياً لأفكاره الخاصة بصربيا الكبرى فى العديد من أحاديثه وكتاباته . وفى سنة 1990 أعلن صراحة أنه من التشتنك . وعندما كان فى أوائل 1994 زعيماً لثانى أكبر حزب سياسى بالمجلس الصربى فيما تبقى من يوغوسلافيا ، كان بين أكثر من يُخشى بأسهم من قادة حملات التطهير العرقى الصربية الآثمة الموجهة ضد سكان البوسنة المسلمين .

وتكشف محاكمة القوميين المسلمين ومحاكمة شيشيلى مخاوف الحزب البوسنى الكبيرة من إحياء التطرف القومى فى سنوات ما بعد تيتو . ولكن ائتلاف المصالح القائم بين العناصر الصربية والكرواتية والمسلمة ، داخل التيار المؤثر فى الحزب ، ظل يعمل بفاعلية حتى السنوات الأخيرة من يوغوسلافيا الاشتراكية .

---

(5) "Voijlas Seselj under Attack," *Radio Free Europe Report May*, 1987.

عباءة القيادة

طبقاً لما ينص عليه دستور 1974 ، تقرر أن يتولى منصب رئيس مجلس الرئاسة بعد وفاة تيتو واحد ممن تبقى من أعضاء مجلس الرئاسة الثمانية بالتناوب فى 15 مايو من كل سنة . وعندما تُوفى تيتو فى 4 مايو 1980 ، كان أول من شغل هذا المنصب المقدونى لازار كوليشيفسكى Lazar Kolisevski الذى أمضى فيه أحد عشر يوماً فقط . وطوال الإحدى عشرة سنة التالية عملت المؤسسة كثيراً بالطريقة التى أرادها تيتو ، مما خلق ضرورة قوية للتعاون الوثيق بين أعضاء مجلس الرئاسة والحيلولة دون تركيز السلطة فى يد شخص واحد. ولم تكن الرئاسة الاتحادية ، رغم دعمها الدائم للمصالح اليوغوسلافية فى مواجهة طموحات الجمهوريات المنفردة ، جمعاً يُنتظر أن تخرج منه شخصيات قوية . فبدلاً من ذلك، تولى أقوى القادة فى يوغوسلافيا ما بعد تيتو منصب رئيس الوزراء الاتحادى أو رئاسة الجمهوريات المنفردة .

ومنذ سنة 1946 وحتى انهيار يوغوسلافيا الاشتراكية فى ديسمبر 1991 ، تولى منصب رئيس الوزراء فيها تسعة رؤساء وزراء فقط ، كان خمسة منهم كروات . وبعد وفاة تيتو كان أكثر التحديات التى تواجه رؤساء الوزراء إحباطاً هو الانهيار الإقتصادى الذى أصاب البلاد اعتباراً من أواخر السبعينيات وتزايد بسرعة خلال جزء كبير من الثمانينيات. وبحلول سنة 1988 كان عدد العمال الذين شاركوا فيما يربو على 1700 اضراب قد بلغ 400 ألف عامل . واستمر معدل التضخم فى يوغوسلافيا فى الارتفاع . وفى 30 ديسمبر 1988 استقال برانكو ميكولتش Branko Mikulic ، وهو كرواتى من البوسنة ، فى أعقاب عدم فوزه فى اقتراع على الثقة فى المجلس الاتحادى . وكان قد أخفق فى السيطرة على معدلات التضخم المتصاعدة بسرعة التى ابتليت بها البلاد . وفى مارس 1989 حل محله أنتى ماركوفتش Ante Markovic وهو رئيس سابق لكرواتيا وآخر من تولى منصب رئيس الوزراء الاتحادى .

ماركوفتش

عالج ماركوفتش مشاكل البلاد الاقتصادية فترة من الزمن ، من خلال برنامج إصلاحات شامل . وقد انخفض معدل التضخم الذى بلغ 346٪ فى مارس 1989 ، عندما تولى منصبه ، إلى أرقام فى خانة الآحاد سنة 1990 ، رغم ارتفاعه مرة أخرى إلى

مستويات غير مقبولة سنة 1991 . وكان ماركوفتش اقتصادياً خبيراً وسياسياً قديراً . وقد أقام قاعدة عريضة من التأييد السياسى لبرنامجه ، حيث حصل على دعم كل المجالس الجمهورية ، ماعدا مجلسى صربيا وفويفودينا ، لبرنامج إصلاحى شامل يقوم على اقتصاد السوق قدمه فى مارس 1989 . وأُقِر برنامجه الإصلاحى فى كل من مجلس الرئاسة الاتحادية وعصبة الشيوعيين اليوغوسلاف . وكان ماركوفتش يؤيد التعددية السياسية . كما شجع الخصخصة وانهاء التدخل السياسى فى الاقتصاد .

وفى منتصف سنة 1991 فوجئت حكومة ماركوفتش بظهور القوى القومية العازمة على إصابة الاتحاد اليوغوسلافى بالعجز أو تفكيكه . ولم يحالف التوفيق ماركوفتش فى اكتساب الدعم السياسى طويل المدى . ويرجع ذلك فى المقام الأول إلى ما ألحقه به الرجل الصربى القوى سلوبودان ميلوشيفتش من أضرار . ورغم قدرات ماركوفتش وشعبيته كان عاجزاً عن تحقيق إجماع مؤثر داخل النظام الاتحادى المعقد الذى تركه تيتو لورثته ، فاستقال فى ديسمبر 1991 . وكانت فكرة وجود يوغوسلافيا فى ذلك الوقت قد صارت وهماً ، بسبب إعلان كل من سلوفينيا وكرواتيا استقلالهما وما تبع ذلك من حروب .

ميلوشيفتش

فى سنة 1987تولى مقاليد الأمور فى الحكومة الجمهورية الصربية سلوبودان ميلوشيفتش ، وهو وافد جديد نسبياً على عالم السياسة ، فيما يُعد الخطوة الأولى فى السعى إلى السلطة الذى سيحدث تحولاً فى الساحة السياسية اليوغوسلافية .[6] وكما هو حال ماركوفتش ، كان ميلوشيفتش على دراية بالأمور الاقتصادية والتجارية . ولكن التشابه بينهما يتوقف عند هذا الحد . وُلِد ميلوشيفتش سنة 1941 وتخرج من جامعة بلجراد التى أنهى بها دراسة القانون سنة 1964 . وكان عضواً مخلصاً بعصبة الشيوعيين فى صربيا . كما كان مديراً فى تخنوجاس Tehnogas ، وهي شركة كبيرة للطاقة ، وبعد ذلك صار رئيساً لأحد بنوك بلجراد . وعندما كان يعمل بالصناعة ، كان معلمه ومرشده إيفان ستامبولتش Ivan Stambolic الذى أصبح رئيساً للحزب الصربى سنة 1984 . وعندما ترك ستامبولتش هذا المنصب سنة 1986 ليتولى رئاسة صربيا ، شمل برعايته ميلوشيفتش كى يتولى رئاسة الحزب . وفى ديسمبر 1987 تولى ميلوشيفتش قيادة منظمة

(6) للاطلاع على صعود ميلوشيفتش إلى السلطة انظر Ramet, PP. 225 - 38

الحزب الصربي وأبعد معلمه السابق عن منصبه كرئيس لصربيا ، ليستخلص لنفسه هذا المنصب فى وقت لاحق (1989) .

وتكشف لنا خلفية ميلوشيفتش الخالية مما هو مثير عن بعض مفاتيح شخصيته الحقيقية . فهو ، كسياسى طموح وانتهازى ، لديه ميول سلطوية قوية ودافع غير عادى كى يظل محافظاً على بقائه فى الحياة السياسية . ورغم مظهره العام اللطيف ، فهو أستاذ فى اللعب برمزية القومية الصربية وخطابها البلاغى وحشد ملايين الأتباع لتأييد برنامجه السياسى الخاص بصربيا الكبرى . كما أنه يتغاضى عن عدم النظام الذى يصل إلى حد الفوضى بين ناخبيه . بينما يُظهر قدراً كبيراً من الصبر والمثابرة فى سعيه لتحقيق أهدافه . والأمر الأهم هو إثبات أن لديه مقدرة كبيرة على تنظيم المظاهرات الشعبية لهزيمة خصومه السياسيين ، فى إطار جهوده لتوطيد نفوذه . وأثناء استغلاله للمظاهرات الشعبية لتعزيز القومية الصربية ، تعدى ميلوشيفتش الممارسات اليوغوسلافية التى كانت مقبولة فيما مضى فى ظل الاشتراكية وتحدى السلطة السياسية فى الشوارع ، بدلاً من أن يفعل ذلك فى عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف أو فى أروقة المجالس النيابية.

وتحرك نظام ميلوشيفتش الحاكم بسرعة للاستيلاء على وسائل الإعلام التى حصلت على قدر متزايد من الاستقلال ، حيث أوْلى اهتماماً خاصاً بمحطات التليفزيون التى كانت قد أصبحت مؤثرة وتُشاهَد على نطاق واسع ، فى حين ازدهر تقليد صحافة الاحتراف فى السبعينيات والثمانينيات . وجرى تطهير صحيفتى " بوليتيكا " اليومية و " نين " الأسبوعية، وهما مطبوعتان لهما عدد كبير من القراء فى أنحاء يوغوسلافيا ، من الصحفيين ذوى الاتجاه المستقل فيهما لتصبحا بوقين لميلوشيفتش .

وفى صيف 1988 شن مؤيدو ميلوشيفتش حملة منسقة لإجبار قيادة الحزب فى إقليم فويفودينا المتمتع بالحكم الذاتى على الاستقالة . وبعد المظاهرات التى شارك فيها 100 ألف متظاهر فى شوارع العاصمة نوفيساد Novi Sad ، استقالت قيادة فويفودينا السياسية بالكامل فى 6 أكتوبر 1988 وحل محلها موالون لميلوشيفتش . واستُخدم نفس التكتيك فى كل من كوسوفو والجبل الأسود . وأدت المظاهرات الصربية الضخمة فى كوسوفو فى صيف 1988 وخريفها إلى استقالة قادة كوسوفو المتعاطفين مع الموقف الألبانى ، حيث وُضع فى أماكنهم مسئولون موالون لميلوشيفتش . وأجبرت مظاهرات أخرى

قيادة الجبل الأسود على الاستقالة فى يناير 1989 . وأرسلت الحكومة الصربية كذلك عملاء إلى البوسنة . إلا أن تلك الغزوات لم يُعرف عنها شىء إلى أن كشفت الصحف النقاب عنها فى أكتوبر 1989 . الأمر الذى فجر أزمة بين الجمهوريتين . وفى مارس 1989 غيرت الجمهورية الصربية دستورها جاعلة من فويفودينا وكوسوفو جزءين عضويين من صربيا . وفى صيف 1990 أُلغيت حكومتاهما المنفصلتان لمصلحة الحكم المركزى فى بلجراد .

وكان ظهور ميلوشيفتش فى صربيا يعنى أن قواعد اللعب فى يوغوسلافيا تيتو غير معمول بها . وعن طريق استخدام المظاهرات الجماهيرية لإرهاب قادة الحزب والحكومة ، قضى ميلوشيفتش على أهمية جهاز الحزب والمجلس الاتحادى فى حل ما ينشأ بين الجمهوريات من نزاعات . وفى الوقت نفسه قضى ميلوشيفتش على الحكم الذاتى فى الإقليمين المتمتعين به ، مما أنهى الندية التى وفرها لهما الأمر الواقع على مدى سنوات من علاقاتهما بالجمهوريات الأخرى . وبما أنه أصبح لميلوشيفتش نفوذ على نواب فويفودينا وكوسوفو والجبل الأسود (بالإضافة إلى صربيا) فى مجلس الرئاسة اليوغوسلافى ، فقد باتت له السيطرة على أربعة أصوات من ثمانية ، وكان بمقدوره تعويق عمل تلك المؤسسة . وهو ما أقدم عليه بالفعل .

أفول نجم الحزب : حل عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف

بحلول أواخر الثمانينيات كانت عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف قد فقدت جذورها كقوة صغيرة من النخبة تدعو إلى التغيير الاجتماعى ، وأصبحت منظمة جماهيرية تضم مليونى عضو . فقد كان واحد من كل عشرة يوغوسلاف عضواً فى عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف. كما أنها فقدت تماسكها . إذ كانت المصالح الجمهورية قد مزقت نسيج عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف على مدى سنوات عديدة . وفى أواخر الثمانينيات لم تكن سوى اتحاد فضفاف لمنظمات قائمة فى الجمهوريات . لقد أضحت مظلة شاملة يمكن لأية فكرة أو أيديولوچيا تقريباً أن تجد تحتها الدعم والتأييد ، إما باسم الإصلاح أو باسم التراث .

ومع تزايد الرغبة فى تأكيد الذات ، أبدى أعضاء الحزب فى الثمانينيات اعتراضهم على " المركزية الديمقراطية " (وهى الاسم الكودى للنظام الحزبى من أعلى لأسفل) ، وعبَّروا عن تأييدهم للتعددية السياسية ونظام تعدد الأحزاب ، بل نادوا بإنهاء الدور القيادى الذى تقوم به عصبة الشيوعيين فى المجتمع اليوغوسلافى . وجاءت تلك النداءات فى المقام

الأول من سلوفينيا ، أكثر الجمهوريات توجهاً إلى الغرب وأوفرها حظاً من ناحية ازدهارها الإقتصادى . ولكنها سُمعت فى الوقت نفسه داخل كرواتيا والبوسنة ومقدونيا . كما أعلنتها فى صربيا القوى المناوئة لميلوشيفتش .

ومثلما كان عليه الوضع فيما يتعلق بمناقشات الإصلاح فى الخمسينيات ، كان الموضوع السائد فى الثمانينيات داخل الحزب ، وفى الصحافة التى باتت لا تخشى شيئاً، هو الإصلاح الإقتصادى . وخطا السلوفينيون والكروات خطوات كبيرة نحو اقتصاد السوق والخصخصة . وكان هناك سعى إلى التحرر السريع ، فى حين كانت الآمال الديمقراطية تتزايد فى دول أوروبا شرقية الاشتراكية الأخرى . وبحلول 1989 كان كثيرون من اليوغوسلاف ، الذين رأوا باعتزاز قيادة بلادهم وهى تتحرك لتحرير الاشتراكية فى الخمسينيات والستينيات ، يخشون أن ينتهى بهم الحال كآخر الشيوعيين فى أوروبا .

وفى آخر محاولة يائسة لتحقيق أدنى حد ممكن من الإجماع السياسي ، عقدت عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف مؤتمر الحزب غير العادى فى يناير 1990 . وقد وُصف المؤتمر بـ " غير العادى " لأن المشاركين كانوا يأملون فى الاتفاق على إعادة هيكلة دستورية كبيرة للمجتمع اليوغوسلافى . إلا أن الحلول الوسط فى المؤتمر أخفقت فى تلبية طلبات الوفد السلوفينى ، الذى كان يعتزم الاستقلال . وأعلن السلوفينيون مقاطعتهم لكل الفعاليات التالية . وفى الساعة الثالثة والنصف من يوم 23 يناير 1990 ، أى بعد ساعات من الإعلان السلوفينى ، علّق مؤتمر عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف إجتماعاته لأجل غير مسمى . وكان الوفد الصربى يأمل فى القضاء على حركة التعليق ، إلا أن التعليق لقى تأييد وفود البوسنة ومقدونيا وجيش الشعب اليوغوسلافى . وبذلك ذابت عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف فى خضم التنازع والتنافس ، مما أوجد أقصى قدر من لا مركزية السلطة السياسية التى سرعان ما ابتلعت الاتحاد اليوغوسلافى . وبينما ظلت منظمات الحزب قائمة على المستويات الجمهورية والمحلية لعدة أشهر ، فإن أغلبها أعاد تشكيل نفسه واتخذ أسماء جديدة ، قبل تنافسه فى الانتخابات متعددة الأحزاب التى أُجريت فى كل جمهورية خلال سنة 1990 .

جيش الشعب اليوغوسلافى : التوجه والتكوين

بعد انهيار الحزب فى المؤتمر غير العادى فى يناير 1990 ، لم يعد فى البلاد سوى

مؤسسة واحدة ذات توجه يوغوسلافى ، هى جيش الشعب اليوغوسلافى . وكان جيش الشعب اليوغوسلافى قد خرج من الحرب العالمية الثانية بميراث ثورى يفاخر به . كما أصبح مؤيداً قوياً لبرنامج تيتو الاشتراكى . ورغم تأييد جيش الشعب اليوغوسلافى بقوة للنموذج اليوغوسلافى للأخوة القومية والوحدة ، لم ينجح قط فى القضاء على أكثرية الصرب وأهل الجبل الأسود بين ضباطه التى نشأت فى زمن الحرب . فقد ظلت قائمة حتى الثمانينيات ، رغم جهود تيتو المتكررة لاتخاذ " إجراء حازم " لتحقيق التكافؤ القومى فى رتب الجيش العليا . وفى الوقت نفسه كانت كل القوميات ممثلة تمثيلاً جيداً فى صفوف المجندين ، نتيجة للتجنيد الإجبارى واسع المدى وفكرة جيش المواطنين الذى يقوم على أساس جمهورى ويمكنه مقاومة أى غاز أجنبى محتمل .

وعلى عكس الحزب ، لم يتفتت الجيش إلى زمر متناحرة فى أواخر الحقبة الاشتراكية . بل احتفظ بالكثير من تماسكه ونظامه إلى أن أصبح الاتحاد اليوغوسلافى نفسه لا وجود له بشكله الأصلى . وطبقاً للتراث والأهواء ، كان القادة العسكريون الاشتراكيون فى يوغوسلافيا ينأون بأنفسهم عن المشاركة بشكل مباشر فى السياسة . وكانت سياسة جيش الشعب اليوغوسلافى ، التى تعود إلى زمن الحرب ، هى تأييد الحزب وقيادته واستمرار وجود يوغوسلافيا " كجماعة إجتماعية متساوية تضم كل الأمم والقوميات ".(7) ولكن الجيش واجه تحدياً متزايداً من جانب قوى القومية وشعر بالقلق من انهيار الحزب وضعف بنية الدولة . ودعا بعض الزعماء السياسيين ، وخاصة السلوفينيون والكروات ، إلى الغاء منظمات الحزب داخل جيش الشعب اليوغوسلافى وإعادة تحديد مهمة الجيش ، لاستبعاد التزامه بالدفاع عن الاشتراكية .

واعتمد بقاء جيش الشعب اليوغوسلافى على استمرار البنية الاتحادية فى عملها . وبحلول سنة 1989 كان أكثر من نصف الميزانية ينفق على الجيش . ومن خلال بيانات عامة عديدة عن السياسات فى أواخر الثمانينيات ، أعرب قادة الجيش عن أسفهم لتزايد تعدد مركزية الدولة وتفتت الحزب . وفيما يتعلق ببعض السياسات ، أيد الجيش ميلوشيفتش، الداعى الرئيسى إلى برنامج مركزى والمعارض للاتحاد الفضفاض الذى دعا إليه الزعماء السلوفينيون والكروات . وأيدت قيادة جيش الشعب اليوغوسلافى جهود صربيا

Ramet, p 245 (7)

فى سبتمبر 1989 لتعديل دستورها بحيث ينص على الانفصال ، إلا أنها عارضت المقترحات المماثلة فى سلوفينيا وغيرها من الجمهوريات .

وفى أواخر 1990 كان واضحاً أن ضباط جيش الشعب اليوغوسلافى لهم وجهات نظر شديدة التباين فيما يخص مهمة الجيش . وكان بعض القادة على استعداد لتقويض وضع القيادة المركزية . كما اتخذ العديد من كبار ضباط جيش الشعب اليوغوسلافى خطوات أدت إلى الإسراع بتفكك يوغوسلافيا ، حيث وفروا السلاح للصرب خارج صربيا، فى حين سعوا إلى نزع سلاح القوات الإقليمية التابعة للجمهوريات الأخرى . وفى سنة 1990 قدم الجنرال راتكو ملاديتش (8) Ratco Mladic ، قائد أحد أسلحة جيش الشعب اليوغوسلافى فى كرواتيا ، كميات من الأسلحة للصرب فى إقليم كرايينا ، حيث وفر لهم الوسيلة العسكرية التى تمكنهم من السعى للحصول على الحكم الذاتى من الجمهورية الكرواتية .(9) (يعنى مصطلح "كرايينا" التخوم أو الحدود ويشير بصورة خاصة إلى الإقليم الحدودى العسكرى السابق الذى كان يفصل بين الإمبراطوريتين النمساوية والعثمانية . وفى القرن السادس عشر اجتذبت النمسا الصرب إلى هذه المنطقة ليدافعوا عن حدودها فى مواجهة العثمانيين . وفى السنوات الأخيرة أصبح مصطلح " كرايينا " يُستخدم على نطاق واسع للإشارة إلى كل المناطق التى يسيطر عليها الصرب فى الجمهورية الكرواتية. وإن لم يكن هذا صحيحاً تماماً .) وعندما اشتبك المقاتلون الصرب غير النظاميين والقوات العسكرية الكرواتية فى كرايينا اعتباراً من يناير 1991 ، دخل جيش الشعب اليوغوسلافى كقوة لـ " حفظ السلام " . وكان ذلك بالنسبة لبعض القادة جهداً خالصاً لفض الاشتباك ، فى حين رأى غيرهم أنه فرصة لمساعدة المقاتلين الصرب غير النظاميين .

انتخابات 1990 متعددة الأحزاب

أُجريت الانتخابات متعددة الأحزاب فى كل من الجمهوريات اليوغوسلافية الست .

---

(8) قائد قوات صرب البوسنة الذى شارك مع كاراجتش فى تخطيط الجزء الأكبر من برنامج الإبادة الجماعية وتوجيهه. وأدانته محكمة العدل الدولية بلاهاى فى يونيو 1995 كذلك بالقيام بعمليات اعتقال غير قانونية وقتل واغتصاب واعتداء جنسى وتعذيب وسطو ووضع المدنيين المحتجزين فى ظروف غير انسانية وعندما سئل عن سبب اغتصاب المسلمات ، رد رداً غريباً هو " لأنهن على درجة شديدة من القبح " . **(المترجم)**

Mark Mazower, *The War in Bosnia:An Analysis* (London:Action For Bosnia, (9) December1992) p .3

وكانت أولى الانتخابات فى سلوفينيا فى أبريل وآخرها فى صربيا فى ديسمبر . ورغم وجود العزم على إجراء انتخابات اتحادية ، لم يحدث شيء من هذا . وكان حكم المراقبين الأجانب بشكل عام على تلك الانتخابات أنها حرة ، وإن أعطت وسائل الإعلام التى تسيطر عليها الدولة ميزة من جانب واحد لميلوشيفتش فى صربيا . وحقق المرشحون القوميون فوزاً حاسماً فى معظم البقاع . وكان بعض الفائزين من الشيوعيين ، حيث كان كثيرون منهم زعماء سابقين فى عصبة الشيوعيين فى جمهورياتهم (صربيا وسلوفينيا ومقدونيا والجبل الأسود) . وكان آخرون منشقين سابقين صنعوا مجدهم السياسي بمعارضة عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف . ومن هؤلاء فرانيو توجمان(10) فى كرواتيا وعلى عزت بيجوفتش فى البوسنة .

وأجريت انتخابات البوسنة فى نوفمبر 1990 . وحصلت ثلاثة أحزاب مجتمعة ، تقوم على أسس عرقية ، على 86٪ من مقاعد المجلس البوسنى وعددها 240 مقعداً . واشتركت ثمانية أحزاب صغيرة فيما تبقى من مقاعد . وفاز الحزب الديمقراطى الصربى بزعامة رادوفان كراجتش (11) Radovon Karadzic بـ 72 مقعداً . وشغلت الطائفة الديمقراطية الكرواتية بزعامة ستيبان كليوتش Stjepan Kljuic 44 مقعداً . فى حين فاز الحزب الإسلامي من أجل العمل الديمقراطي بـ 86 مقعداً . والإثنان اللذان حصلا على أكبر عدد من الأصوات فيها هما فكرت عبدتش(12) ، الذى حصل على دعم كبير من قاعدة نفوذه شمالى البوسنة ، وعلى عزت بيجوفتش . ورغم حملات الخطب البلاغية القومية العنيفة فى

---

(10) يوصف فرانيو توجمان بأنه قومي ومتطرف ومتعصب ولا يقل قسوة عن الرئيس الصربى سلوبودان ميلوشيفتش . (المترجم)

(11) وجهت له محكمة لاهاى فى جلستها المنعقدة فى يوليو 1995 برئاسة القاضى ريتشارد جولد ستون تهمة الإبادة الجماعية وارتكاب جرائم ضد البشرية وأمر بضبطه وتسليمه للدولة . ورد كراجتش على ذلك بقوله إن القضاة فى لاهاى يرتكبون حماقات لعدم وجود ما يقومون به وأنهم يريدون تقديمه للمحاكمة ككبش فداء . ووصف اتهام الصرب وحدهم وتحميلهم مسئولية هذه الحرب بأنه عار على جبين المجتمع الدولي . وذكر فى حديث لمجلة دير شبيجل الألمانية أن الآخرين مسئولون كذلك فى تلك الأزمة . ويعنى بهؤلاء وزراء الخارجية السابقين لكل من ألمانيا والنمسا وإيطاليا ، أى جنشر وموك وميكاليس .

(12) اتخذ فكرت عبدتش من فيليكا كلادوجا شمالى بيخاتش معقلاً له . وبعد أن طُرد من جيب بيخاتش فى أغسطس 1994 عاد إليه مرة أخرى فى ديسمبر من السنة نفسها . وكان عبدتش يساعد الصرب وكان عميلاً لهم ، حيث كان يستهدف استعادة مجد أعماله التجارية بعد انهيار " أجروكوميرتس " . المعروف أن عبدتش تمرد على سلطة سراييفو سنة 1990 وأعلن مقاطعته الصغيرة منطقة حكم ذاتى بمساعدة من القوات الدولية الفرنسية فى المنطقة . (المترجم)

بعض الأحيان ، اتفقت الأحزاب الثلاثة على تشكيل ائتلاف حاكم . وكان كل منها ممثلاً فى مجلس رئاسة الدولة البوسنى الذى يضم سبعة أعضاء .[13] وعُيِّن على عزت بيجوفتش رئيساً لمجلس الرئاسة لفترة مدتها سنة واحدة .

وأظهرت نتائج هذه الانتخابات تطابقاً تاريخياً كبيراً مع الانتخابات متعددة الأحزاب البوسنية السابقة ، سواء انتخابات 1910 (الحقبة النمساوية) أو انتخابات العشرينيات (الحقبة اليوغوسلافية الملكية) . ففى سنة 1990 صوَّت البوسنيون مرة أخرى بأعداد غفيرة لمصلحة أحزاب تقوم على أسس عرقية . وحقق حزب واحد أغلبية ساحقة بين الناخبين من كل قومية . ورغم المبادىء القومية التى التزم بها الزعماء السياسيون المنتخبون سنة 1990، فقد أعادوا لفترة قصيرة النمط التاريخى لسياسة الائتلاف فى المجلس البوسنى ، فى إطار جهد لتحقيق صيغة لمستقبل البوسنة السياسى ترضى جميع الأطراف . ولكن هذا الجهد ضاع سدى فى آخر المطاف.

ووفرت انتخابات 1990 للزعماء المنتخبين حديثاً قدراً عظيماً من الشرعية السياسية. وكانت الحكومة الاتحادية اليوغوسلافية قد انمحت تماماً بحلول سنة 1990 وطغى عليها الزعماء الجمهوريون . وفى الوقت نفسه كان انتصار الساسة القوميين فى انتخابات 1990 وراء المزيد من المشاكل الخطيرة . فقد أشاع الزعماء الجدد الخوف والريبة بين أبناء الأقليات القومية داخل حدود جمهورياتهم . وبينما اتجهت الجمهوريات اليوغوسلافية نحو الاستقلال ، واجهت الأقليات فى كل جمهورية احتمال فقدانها للمزايا التى حظى بها غيرها من أبناء قوميتها الذين يعيشون فى جمهورية ما يشكلون فيها الأغلبية . ولم تكن احتمالات معاملة الأقليات العرقية بنزاهة ومساواة قوية .

وزرع الرئيسان الكرواتى توجمان والصربى ميلوشيفتش بصورة حثيثة عدم الرضا فى نفوس أبناء قوميتيهما فى الجمهوريات المجاورة . وكان كل منهما يأمل فى الاستفادة من تقطيع أوصال البوسنة والهرسك . وأدى هذا إلى وقوع كل منهما فى تناقض أساسى : فبينما كان ميلوشيفتش يطالب بتقسيم كرواتيا والبوسنة لإراحة من فيهما من سكان صرب، كان يصر على عدم تدخل أى إنسان فى مسألة قهره المستمر للألبان فى كوسوفو . وبالمثل ، طالب توجمان بعدم تدخل أى شخص فى معاملة كرواتيا لسكانها الصرب ، فى حين كان

(13) Milan Andrejevich, "The Future of Bosnia and:Hercegovina : A Sovereign Republic or Cantonization?" *Radio Free Europe Research,* July 5 .1991 .p 29

يسعى إلى ضم أجزاء من البوسنة والهرسك باسم سكانها الكروات . ويبدو أن هذه المواقف المتناقضة لم تشغل بال أى منهما بالمرة .

الاتحاد اليوغوسلافى: الدور البوسنى

فى غيبة عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف ، ومع بلوغ الاتحاد اليوغوسلافى حالة من التوقف لا يرجى خروجه منها ، اجتمع رؤساء الجمهوريات الست مرات عديدة فى الفترة من ديسمبر 1990 إلى يونيو 1991 لمناقشة التوصل إلى حل وسط معقول بشأن مستقبل يوغوسلافيا . ودعا إلى عقد تلك الاجتماعات مجلس الرئاسة الاتحادى الذى شارك فى الدورة الأولى (ديسمبر 1990 – مارس 1991) . ولكن إجراء تلك المباحثات فى ظروف العداء المتصاعد والمطالب المتزايدة من جانب الجمهوريات والطوائف السياسية المتنافسة ، جعلها تمثل أملاً ضعيفاً فى تحقيق المصالحة .

وفى الدورة الثانية ، من مارس إلى يونيو 1991 ، استضافت كل جمهورية اجتماعاً من الاجتماعات . وكانت سلوفينيا وكرواتيا مع جعل يوغوسلافيا اتحاداً فضفاضاً يضم دولاً ذات سيادة . إلا أن الرئيس الصربى ميلوشيفتش ، وقد بات له وضع يوفر له نفوذاً داخل الاتحاد ، رفض فكرتى الكونفدرالية والحكم الذاتى الأكبر حجماً لسلوفينيا وكرواتيا. كما أنه أثار احتمال ضم المناطق التى يسكنها الصرب فى كرواتيا والبوسنة إذا أصرت هاتين الجمهوريتين على الاستقلال ، مؤكداً على أحقية صرب يوغوسلافيا فى العيش معاً فى دولة واحدة . وبذلك حال ميلوشيفتش دون التوصل إلى اتفاق على قيام كونفدرالية فضفاضة (أى الحكم الذاتى الأكبر حجماً للجمهوريات) ، لضمان تحقيق برنامج صربيا الكبرى الذى روَّج له منذ تقلده للسلطة سنة 1987 .

وفى آخر اجتماع قمة عقد فى يونيو 1991 ، تبنت مقدونيا اقتراحا بحل وسط من أربع نقاط للإبقاء على الاتحاد اليوغوسلافى . وكان عزت بيجوفتش يمثل البوسنة . وقبِل ممثلو الجمهوريات الست جميعهم الاقتراح من حيث المبدأ واتفقوا على التفاوض بشأنه فيما بعد . ومع أن أياً من هذه التعهدات لم يتحقق ، فقد كان لسعى عزت بيجوفتش لإيجاد حل سلمى لما بين الجمهوريات من خلافات عواقبه الوخيمة على البوسنة . فبينما كان المقاتلون الصرب غير النظاميين والقوات الإقليمية الكرواتية يتسلحون على عجل ، تحسباً لوقوع حرب أهلية محتملة ، كان عزت بيجوفتش يقوم بدور الوسيط ، أملاً منه فى الحفاظ على شكل ما للدولة اليوغوسلافية .

وفيما يتعلق بالبوسنة ، ناقش المشاركون فى المؤتمر مقترحات لتقسيمها إلى كانتونات ، وهى طريقة (على النمط السويسرى) تمنح قدراً كبيراً من الحكم الذاتى لوحدات الحكم المحلى العديدة التى تقوم على أسس عرقية . بينما تظل جمهورية البوسنة والهرسك قائمة ككيان مركزى ضعيف ذى سلطة محدودة . وكانت الصحف المهاجمة المكلفة من جهات عليا فى الجمهوريات المختلفة تزخر بالتكهنات التى تشير إلى أن عزت بيجوفتش قد وافق على خطة تقسيم البوسنة إلى كانتونات . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن تلك المباحثات تمثل واحدة من مناسبات عديدة وافق فيها على اقتراح تقسيم البوسنة ثم استنكره فيما بعد ، تحت ضغط آخرين فى حكومة البوسنة . وفى نفس الوقت تقريباً ، أى فى مارس 1991 ، اجتمع ميلوشيفتش وتوجمان على انفراد بعيداً عن رؤساء الجمهوريات الآخرين واتفقا سراً على تقطيع أوصال البوسنة واقتسامها فيما بين صربيا وكرواتيا . وأوجد اتفاق مارس 1991 سيء السمعة علاقة مصالح مشتركة بين الجمهوريتين الصربية والكرواتية ظلت قائمة . بل استمرت بعد القتال المرير الذى شهدته كرواتيا سنة 1991 .

وبينما سارت المفاوضات بين الجمهوريات فى طريقها ، كان التناوب السنوى لمنصب رئيس مجلس الرئاسة الاتحادى قد اقترب موعده . وكان مقرراً أن يُختار الكرواتى ستيبى ميستتش Stipe Mesic . وكان لابد من حصوله على أصوات خمسة من أعضاء مجلس الرئاسة الثمانية للتصديق على انتخابه . وحصل ميستتش على تأييد ممثلى البوسنة وكرواتيا وسلوفينيا ومقدونيا فى مجلس الرئاسة . أما حلفاء ميلوشيفتش ، الذين يتحكمون فى أصوات الجبل الأسود وفويفودينا وكوسوفو وصربيا ، فقد أحجموا عن تأييده رغم المفاوضات المطولة للتوصل إلى حل وسط . وبذلك كانت نتيجة التصويت أربعة مقابل أربعة ولم يُصدَّق على تولى ميستتش للمنصب . وفى منتصف ليلة 15 مايو كانت يوغوسلافيا بلا رئيس اعتبارى وانتهى معظم الخبراء القانونيين إلى أن الجيش ليس له قائد عام . إلا أن التصديق على تولى ميستتش لمنصب الرئيس تم بعد ذلك فى يوليو 1991 ، بعد أن نجحت الجماعة الأوروبية فى حث الأطراف الرئيسية على الإبقاء على الأمل فى وجود شكل ما للاتحاد اليوغوسلافى . ومع ذلك كان مأزق مايو يمثل نهاية مجلس الرئاسة الاتحادية كقوة متماسكة .

وبحلول خريف 1991 كان معنى الحرب الدائرة فى كرواتيا أنه لم يعد هناك وجود ليوغوسلافيا من الناحية العملية . إلا أن تحول الاتحاد اليوغوسلافى الخاص بالحقبة الاشتراكية إلى ما تبقى من يوغوسلافيا لم يُعترف به من الناحية القانونية إلا فى 27 أبريل 1992 . فقد كانت الجماعة الأوروبية والولايات المتحدة قد اعترفتا فى ذلك الوقت بانفصال جمهوريات سلوفينيا وكرواتيا والبوسنة كدول مستقلة . وفى ذلك التاريخ أجرى نظام ميلوشيفتش الحاكم تغييرات دستورية تعترف بأن ما تبقى من يوغوسلافيا ليس سوى الجبل الأسود وصربيا وإقليمى كوسوفو وفويفودينا ، وكانت صربيا قد ابتلعتهما وجردتهما من التمتع بالحكم الذاتى بعد وصول ميلوشيفتش للسلطة فى أواخر الثمانينيات . وما تبقى من يوغوسلافيا ، الذى حُرم من الاشتراك فى الأمم المتحدة ويتعرض لعقوبات اقتصادية كبيرة بسبب ما يقوم به فى البوسنة ، لا يكاد يعترف به أحد كخليفة للاتحاد اليوغوسلافى الذى سبقه فى الحقبة الاشتراكية .

سباق التسلح

فى 25 يناير 1991 عُرض على مشاهدى التلفزيون فى كل الجمهوريات ، عدا كرواتيا ، شريط فيديو مشوش يزعم إظهار وزير دفاع كرواتيا مارتن شبيجيلى Martin Spegeli وهو يتفاوض على مشتريات أسلحة ضخمة من المجر ويناقش مؤامرات ضد ضباط جيش الشعب االيوغوسلافى وعائلاتهم . وكانت الأشرطة من صنع ضباط المخابرات السريين فى جيش الشعب اليوغوسلافى الذين ضبطوا شبيجيلى فى حالة سُكر بيِّن فى عدة مناسبات . ورغم إنكار شبيجيلى بشدة لصحة تلك الأشرطة ، لم يمكن الحفاظ على سرية سعى كرواتيا دولياً لشراء الأسلحة . ففى فبراير 1991 أكد وزير خارجية المجر على الملأ بيع 10 آلاف بندقية لكرواتيا . وطالب وزير الدفاع الجنرال فيليكو كاديفتش Veljko Kadijevic بإلقاء القبض على شبيجيلى ، إلا أن المسئولين الكروات رفضوا ذلك . واختفى شبيجيلى عن الأنظار ثم استقال بعد ذلك فى صيف 1991 .

وفى نفس الوقت الذى حقق فيه الساسة القوميون انتصاراً فى انتخابات سنة 1990 فى كل الجمهوريات ، كثَّفت حكومة كل جمهورية وكثير من الفصائل السياسية سعيها الدؤوب لتأمين أسلحة للحرب الأهلية ، التى اعتقد كثيرون أنها واقعة لا محالة . وأصبح نقل الأسلحة فى السر أمراً يعلمه الجميع . وفى أبريل 1991 أوقفت الشرطة البوسنية ثلاث

شاحنات تحمل ما يزيد على ألف بندقية آلية بالقرب من موستار . وكان البوسنيون يعتقدون اعتقاداً جازماً بأن البنادق كانت فى طريقها إلى المقاتلين الصرب غير النظاميين . ووقع حادث مماثل فى مايو 1991 ، حيث كانت الشاحنات تحمل أسلحة إلى البوسنة من الجبل الأسود . وفى عملية اكتنفها الغموض وعُرفت اختصاراً بـ RAM ، أعد الزعماء السياسيون الصرب ترتيبات تسليم الأسلحة فى عامى 1990 و 1991 للطوائف الصربية البوسنية فى الهرسك وكرايينا البوسنية ومنطقة رومانييا Romanija الجبلية على مشارف سراييفو . ونتيجة لتلك الأنشطة ، كان الصرب فى كرواتيا والبوسنة مسلحين تسليحاً جيداً بحلول صيف 1991 .

وجاء الكثير من السلاح الذى سُلِّم للمقاتلين غير النظاميين الصرب من مخزون جيش الشعب اليوغوسلافى . ومع ذلك ، أبدى قادة الجيش والمتحدثون باسمه موقفاً عاماً يتسم بعدم التحيز ومعارضة أية جمهورية أو فصيل سياسى يسعى للحصول على السلاح . وتشير الدلائل إلى أن بعض ضباط جيش الشعب اليوغوسلافى فى ذلك الوقت عارضوا بحق تسليح أية فصائل ، بينما كان غيرهم يتعجلون تسليم مفاتيح مخازن السلاح للمقاتلين غير النظاميين والمتطرفين الصرب .

وتعرَّض سباق السلاح المحموم لانتقادات مجلس الرئاسة الاتحادية . وفى 9 يناير 1991 أمرت الرئاسة ، فى تأييد منها لموقف الجيش ، بحل كل " الوحدات شبه العسكرية غير الشرعية " خلال عشرة أيام . وفى 15 يناير ، انتهز وزير الدفاع الاتحادى فرصة انشغال العالم بأول يوم من حملة الأمم المتحدة بقيادة الولايات المتحدة التى أخرجت القوات العراقية من الكويت (عملية عاصفة الصحراء) وهدد بتنفيذ أمر الرئاسة ، إذا لم تُعاد الأسلحة خلال الأربعة أيام التالية . واعتبر القوميون الكروات هذا الإعلان نذيراً بشن هجوم ضخم وأعدوا عدتهم للقتال . وأُعيد القليل من الأسلحة ، إلا أن الجيش لم يتخذ أى إجراء نيابة عن السلطات الاتحادية . وكررت الرئاسة تحذيرها ضد التشكيلات شبه العسكرية فى 9 مايو ، ولكنه لقى تجاهلاً من كل الأطراف مرة أخرى .

استقلال جمهورية سلوفينيا

كان لعمليات التطهير التى قام بها ميلوشيفتش فى فويفودينا وكوسوفو والجبل الأسود دور فى زيادة استقطاب الجمهوريات ، حيث كانت صربيا ومن تبعها على جانب وكل من سلوفينيا وكرواتيا على الجانب الآخر . وحصلت حركة إقامة اتحاد فضفاض مع يوغوسلافيا

على قوة دفع من المعارضة القوية بين السلوفينيين لانتهاكات ميلوشيفتش لحقوق الإنسان في كوسوفو ، ومن السخط الذي يلقاه أسلوبه المتشدد في السيطرة على الاتحاد اليوغوسلافي . وفي سبتمبر 1989 عـدَّل السلوفينيون دستورهم بحيث ينص على الانفصال عن الاتحاد اليوغوسلافي .

وتلقت الرغبة في إقامة علاقات فضفاضة قوة دفع كبيرة عندما اعتزم الصرب الموالون لميلوشيفتش تنظيم مظاهرة من أجل " حقيقة كوسوفو " في عاصمة سلوفينيا ليوبليانا Ljubljana في 1 ديسمبر 1989 ، مستخدمين نفس التكتيك الذي استُخدم في فويفودينا وكوسوفو والجبل الأسود .

وفي 19 نوفمبر 1989 حظرت الشرطة السلوفينية قيام المظاهرات . كما أوقفت القطارات القادمة إلى سلوفيينيا من الشرق وفتشت عن المتظاهرين قبل وصولهم إلى ليوبليانا . وعندما مُنع منظمو المظاهرات القوميون الصرب من تسيير مظاهرة جماهيرية في العاصمة السلوفينية ، ألغوا المظاهرة في آخر دقيقة بينما اشتكوا مر الشكوى من السلوفينيين بسبب قوتهم الزائدة التي تشكل تهديداً . وبعد فترة قصيرة أهابت صربيا بمؤسساتها أن توقف تعاملاتها التجارية مع سلوفينيا . ولم تصادف المقاطعة سوى قدر محدود من النجاح ، حيث كانت مؤسسات صربية كثيرة تدرك قيمة أسواقها في سلوفينيا وكان في تنفيذها للمقاطعة ضرر كبير لها .

وفي استفتاء سلوفينيا الذي أُجري في ديسمبر 1990 اختار 88٪ من الأصوات الانفصال عن يوغوسلافيا . وتركزت توقعات المراقبين اليوغوسلاف والأجانب بصورة كبيرة على ما إذا كان جيش الشعب اليوغوسلافي سوف يتدخل للمحافظة على ترابط سلوفينيا أم لا .

وفي 25 يونيو 1991 أعلنت سلوفينيا وكرواتيا استقلالهما عن يوغوسلافيا . وإيماناً من جيش الشعب اليوغوسلافي بأن الترابط الإقليمي اليوغوسلافي مهدد ، تحرك في 27 يونيو لتأمين نقاط عبور سلوفينيا الحدودية الدولية ومطاراتها التي زعم أنها خاضعة للسلطة الاتحادية . وتصدت القوات السلوفينية الإقليمية لهذا التحرك . وبعد أن استولت القوات السلوفينية على مخازن الأسلحة والذخيرة الموجودة داخل سلوفينيا ، زادت قوتها المسلحة زيادة كبيرة . كما أنها أسرت ما يربو على ألفي أسير وحالت دون تحرك فرق الدعم التابعة

لجيش الشعب اليوغوسلافى وحلت محل قوات جيش الشعب اليوغوسلافى فيما يتعلق بالسيطرة على نقاط تفتيش الحدود الدولية . واستمرت الاشتباكات العسكرية فى سلوفينيا عشرة أيام فقط . وقصف الجيش اليوغوسلافى مطار ليوبليانا بالقنابل كما هاجم أهدافاً أخرى ، منها ذلك الهجوم الذى كثر الكلام عنه على قافلة شاحنات مدنية . إلا أن قادة جيش الشعب اليوغوسلافى سرعان ما عانوا من حالات هروب واسعة النطاق فى صفوف مجنديهم وخاصة من هم من غير الصرب .

وكرد فعل سريع ، أرسلت الجماعة الأوروبية وسطاء فى 25 يونيو وحركت عملية إنهاء المساعدات المالية ليوغوسلافيا . وعندما واجه جيش الشعب اليوغوسلافى كارثة فى سلوفينيا ، قرر الانسحاب بدلاً من استحضار التعزيزات وظهور المزيد من التحدى من جانب القوات الإقليمية السلوفينية . وربما كان قائد جيش الشعب اليوغوسلافى الجنرال فليكو كاديفتش Veljko Kadijevic صاحب الخطوة الأولى فى قرار عدم المضى فى تحدى الموقف السلوفينى .

وكانت المهانة التى تعرض لها جيش الشعب اليوغوسلافى فى سلوفينيا نتيجة لسوء التقدير مرتين . الأولى عندما توقع قادته أن يصيب الرعب السلوفينيين لمجرد ظهور القوات الاتحادية ، فيستسلمون دون قتال . أما الثانية فهى اعتقاد جيش الشعب اليوغوسلافى بأنه سيكون من السهل عليه توسيع أعماله نتيجة للمقاومة السلوفينية . وحال دون وقوع تلك الأعمال ، التى اعتُبرت بحق اعتداء فى ظل المراقبة الدولية الدقيقة ، وصول وسطاء الجماعة الأوروبية غير المتوقع . وبعد قصف جيش الشعب اليوغوسلافى لبعض الأهداف المدنية ، قرر على الفور استبعاد سلوفينيا ، باعتبارها خارج نطاق نشاطه . وفى 18 يوليو 1991 توصل الجانبان إلى اتفاق يسمح بانسحاب وحدات الجيش الاتحادى فى سلوفينيا ويعطى جمهورية سلوفينيا حرية اختيار الطريق الذى تسلكه .

ومن الناحية العرقية ، نجد أن سلوفينيا جمهورية متجانسة تجانساً نسبياً . إذ لم تكن بها أية أقلية كبيرة من السلاف الجنوبيين الآخرين . ولهذا السبب لم تواجه أية أمور تتعلق بالقومية بنفس حدة ما واجهته كرواتيا أو البوسنة أو مقدونيا أو كوسوفو . وكان عدم وجود عدد كبير من السكان الصرب يعنى أن سلوفينيا كانت بعيدة عن أطماع قوميى صربيا الكبرى ، الذين كانوا يرغبون فى توحيد كل الأراضى الصربية فى دولة واحدة . وكان

انفصال سلوفينيا عن الاتحاد اليوغوسلافى بلا أية مضاعفات تقريباً . ويرجع هذا بصورة كبيرة إلى إحجام جيش الشعب اليوغوسلافى عن الدخول فى صراع يستنزف كل موارده لاستعادة السيطرة عليها .

ويوضح حرص الجيش على تجنب الدخول فى صراع مطول باهظ التكاليف فى سلوفينيا أن برنامج ميلوشيفتش لإقامة صربيا الكبرى ، الذى استبعد سلوفينيا ، من أكثر أهدافه خطورة وكان يشاركه فيه كبار قادة جيش الشعب اليوغوسلافى فى صيف 1991 . وعلى عكس التطورات التى شهدتها سلوفينيا ، كان لابد أن يجر دعم جيش الشعب اليوغوسلافى المستمر للحركات الانفصالية الصربية فى كرواتيا والبوسنة أراضى يوغوسلافيا السابقة إلى حرب شاملة .

الفصل الحادى عشر

الانحدار إلى الحرب: البوسنة
فى حروب الخلافة اليوغوسلافية

وقعت الحرب فى البوسنة على خلفية من ثلاثة تطورات خارجية مهمة أدت إلى تغيير مطامح قادة البوسنة السياسيين واختياراتهم . فنجد أولاً أن جيش الشعب اليوغوسلافى قد غير مهمته تغييراً دراماتيكياً فى النصف الأخير من سنة 1991 ، بتحوله من مدافع عن المثل اليوغوسلافية إلى عميل للقومية الصربية الكبرى . والأمر الثانى هو أن حرب 1991 فى كرواتيا زادت من قوة المتطرفين الصرب بين صرب البوسنة وأضعفت هؤلاء الذين كانوا يأملون فى الحفاظ على وجود دولة بوسنية متعددة الأعراق . وأخيراً نرى أنه رغم المبادئ السامية التى أعلنها دبلوماسيو المجتمع الدولى والمثل العليا التى تحدثوا عنها، فقد دفعت أعمالهم الأطراف الرئيسية فى البوسنة إلى الإلحاح فى مطالبهم الانفصالية ونبذ الجهود الرامية إلى التفاوض للوصول إلى حل ما .

وصور بعض المراقبين الصراع البوسني على أنه تجديد لتلك الكراهية المتبادلة القديمة التى ظهرت على السطح مرة أخرى بكل عناد ، عقب انهيار نظام تيتو االشيوعى . ونحن فى المقابل نؤكد أن الأزمة البوسنية الراهنة ، فى سياق تاريخ البوسنة ، انحراف تاريخى ، وإن كانت لها سابقة تاريخية مهمة واحدة : إنها تلك المذبحة العرقية التى شهدتها حقبة الحرب العالمية الثانية. وليس الصراع المسلح والتطهير العرقى وقصف المدن والفظائع التى ارتُكبت ضد االمدنيين فى البوسنة نتائج تقررت سلفاً . بل إنها نشأت نتيجة لتحول جيش الشعب اليوغوسلافى إلى أداة للقوميين الصرب و الطموحات الانفصالية لدى الحكومتين الكرواتية والصربية ورغبة المتطرفين القوميين الحثيثة فى شن حملات التطهير العرقى البغيض بتأييد الجيوش النظامية فى المنطقة ومساعدتها .

وأعقب الصراع المسلح فى البوسنة حرب 1991 بين صرب كرواتيا (ومعهم حلفاؤهم فى جيش الشعب اليوغوسلافى) وقوات الدفاع التابعة لجمهورية كرواتيا . وسوف نستعرض فى بادئ الأمر هذه التطورات وأعيننا على فهم الوضع البوسنى .

جيش الشعب اليوغوسلافى: إعادة التقدير والتحول

دفعت هزيمة جيش الشعب اليوغوسلافى وانسحابه من سلوفينيا رئيس أركانه إلى إعادة النظر فى استراتيجيته [1] . واستمر ذلك حتى صيف 1991 .[2] وفى إشارة إلى عملية عاصفة الصحراء (يناير 1991) بشكل محدد ، انتهت إعادة النظر إلى أن مثل هذه العمليات " مثال صادق "يمكن للمجتمع الدولى تطبيقه عند تدخله فى الأوضاع المحلية[3] . إلا أن تحليل جيش الشعب اليوغوسلافى توصل إلى أنه من غير المحتمل أن تحقق الأطراف الدولية الكبرى الإجماع السياسى المطلوب للتدخل فى الأراضى اليوغوسلافية .

وخلق التقييم الاستراتيجى الذى أعده جيش الشعب اليوغوسلافى إحتمالاً كبيراً بأن " الاضطراب الذى صاحب تفكك يوغوسلافيا السابقة قد ينقلب إلى حرب "[4] . وأصبح جيش الشعب اليوغوسلافى ملتزماً بتعزيز موارده فى تلك المناطق بالأقليات الصربية المهمة ، وخاصة فى كرواتيا والبوسنة . وناشدت استراتيجية جيش الشعب اليوغوسلافى بصورة عامة حلفاءه الرئيسيين وعملاءه أن يصبحوا شديدى الحساسية لردود أفعال المجتمع الدولي تجاه العنف والفظائع فى يوغوسلافيا ، لكى لا يتكرر التدخل الدولى على النمط العراقى . وبعد ذلك أبدى الجيش ومعظم حلفائه الرئيسيين قدراً غير عادى من المهارة فى التعامل مع الموقف ، حيث كانوا يكثفون أعمالهم عندما يكون المجتمع الدولى مشغولاً،

---

(1) عارض جنرالات الجيش الانسحاب اليوغوسلافى من سلوفينيا ونادوا بإقالة ماركوفتش ، لأنه خانهم بتقييده يدى الجيش وتحميله مسئولية الفوضى العسكرية فى جمهورية سلوفينيا . كما طالبوا باستقالة كاديفتش وزير الدفاع متهمين إياه بعدم الكفاءة العسكرية والتردد . وكان الصقور فى الجيش يريدون وقف العمل بإتفاقية سلوفينيا كشرط لوقف إطلاق النار . بل إن واحداً منهم أشار إلى أن 150 طائرة قادرة على محو سلوفينيا من على الخريطة ، إذا دعت الضرورة لذلك . وكان لدى سلاح الجو اليوغوسلافى 455 طائرة حربية ومائتا هليكوبتر مسلحة . أما أفراد السلاح فكانوا 32 ألف جندى . ولكنه كان من المرجح أن مثل تلك الضربة كانت ستؤدى إلى تدخل حلف شمال الأطلنطى بارسال قواته سريعة الانتشار . لذلك أعلن الجنرال كاديفتش فى الأسبوع الأخير من يوليو 1991 أن على القادة السياسيين التوصل إلى تسوية قبل الرابع عشر من أغسطس ، مدعياً أن الجيش سيأخذ بأزمة الأمور فى يده ، أو يحاول ذلك على الأقل إن هم فشلوا . **(المترجم)**

(2) نُشرت النتائج الرئيسية لعملية إعادة التقييم الكبيرة تلك فى Vojno Delo فى أكتوبر 1991 وحللها جيمس كاو ،

One Year Of War in Bosnia and Herzegovina," *Radio Free Europe Research*," June 4, 1993 .

(3) المرجع السابق p . 5 .

(4) المرجع السابق p . 1 .

بينما يتراجعون أو يتريثون عندما يجدون أنفسهم فى بؤرة اهتمام وسائل الإعلام الدولية .

وفى الوقت نفسه تكرر فى النصف الأخير من سنة 1991 ما أظهره جيش الشعب اليوغوسلافى من دلائل الشقاق الداخلى بين صفوف ضباطه . فقد قدم قادة كثيرون مساعدات علنية للمقاتلين الصرب غير النظاميين فى كرواتيا . فى حين التزم آخرون الحياد فى الحرب الكرواتية وكانوا يؤيدون اتباع منهج تصالحى معتدل . وبرعاية ميلوشيفتش وتشجيعه ، خضع هيكل قيادة جيش الشعب اليوغوسلافى لعملية تحول بطيئة خلال الحرب الكرواتية أبقت فى السلطة المؤيدين للقومية الصربية الكبرى . وكان التحول التام لجيش الشعب اليوغوسلافى ، من المُدافع عن المثل اليوغوسلافية والأيديولوچيا الاشتراكية إلى عميل للطموح الصربى الكبير ، عملية مطولة لم تكتمل إلا بإجبار الجنرال زيفوتا بانيتش Zivota Panic اثنين وأربعين جنرالاً آخرين على التقاعد فى أغسطس 1993 . إلا أن العملية بدأت فى الأسابيع التالية للإذلال الذى تعرض له فى سلوفينيا وحققت تقدماً كبيراً بحلول نهاية 1991 .

تأثر تطور الحرب فى كرواتيا تأثراً كبيراً باستعداد كثيرين من ضباط جيش الشعب اليوغوسلافى لمساعدة المقاتلين غير النظاميين الصرب . وبما أن المقاتلين غير النظاميين كانوا يعملون بدعم من قادة جيش الشعب اليوغوسلافى المحليين وحمايتهم ، فقد تحقق لهم التكافؤ مع القوات الإقليمية الكرواتية التى كانوا يحاربونها ، وكثيراً ما تحقق لهم التفوق عليها . وبحلول خريف 1991 كان قادة ميدان كثيرون من جيش الشعب اليوغوسلافى يواصلون بالفعل حرباً أهلية لتوحيد صرب كرواتيا مع هؤلاء الذين يقيمون فى جمهوريتى صربيا والجبل الأسود الأساسيتين .

الحرب الكرواتية، يونيو 1991 - يناير 1992

كان الفائزون فى انتخابات كرواتيا متعددة الأحزاب فى أبريل 1990 ، وهم فرانيو توجمان وغيره من أعضاء حزبه السياسى الجماعة الديمقراطية الكرواتية ، قوميين كرواتيين ملتزمين . وما أن أصبح توجمان فى السلطة حتى قمع وسائل الإعلام المناوئة ، فى حين تبنت الإذاعة والتلفزيون الخاضعان لسيطرة الحكومة خطاباً قومياً متشدداً . وشجع نظامه الحاكم تعليق الشعار ذى المربعات الحمراء والبيضاء Sahovonica (شاخوفونيتسا) الذى رحب به القوميون الكروات كرمز للاستقلال ، وإن كان كثيرون من صرب كرواتيا يكرهونه

لأنه يذكرهم بقهر الأوستاشى. (ومع أن الشاخوفونيتسا يعود إلى العصور الوسطى وكان جزءاً من كرواتيا فى ظل الاشتراكية ، فقد كان الأوستاشى على وجه الخصوص يرفعونه فى الحرب العالمية الثانية .) وبعد انتصار توجمان . فصلت المؤسسات التى يسيطر عليها الكروات آلافاً من العمال الصرب ، مما زاد من السخط العميم الذى كان الصرب يشعرون به تجاه النظام الجديد .[5] وخطط القوميون الكروات التابعون لتوجمان ، ممن لم يكن هناك أمل فى عرضهم المصالحة ، للسعى بصورة جماعية إلى عزل صرب كرواتيا وحرمانهم من حقوق المواطنة .

أما صرب كرواتيا ، فقد طالبوا كرواتيا بالحكم الذاتى بعد وصول توجمان للسلطة . وشجعهم على ذلك أعمال ميلوشيفتش فى كوسوفو . ونظمت الكوادر الصربية ، التى أغدقت عليها وسائل الإعلام الخاضعة لميلوشيفتش فى بلجراد المديح والإطراء ، استفتاء فى المناطق التى يسكنها الصرب فى كرواتيا من 9 أغسطس إلى 2 سبتمبر 1990 . ومن بين 756781 صربي شاركوا فى الاستفتاء ، صوت 756549 لمصلحة الحكم الذاتى. وفى تحد مباشر للسلطات الكرواتية ، أعلن مجلس قومى صربى عين نفسه بنفسه قيام " إقليم كرايينا الصربى المتمتع بالحكم الذاتى " . ورداً على ذلك ، أعلن وزير الداخلية الكرواتى اعتزامه مصادرة أسلحة الصرب المتمردين . وهكذا وُضع صرب كرواتيا والحكومة الكرواتية القومية بقوة على طريق الصدام .

واعتباراً من سنة 1990 أعطى ضباط فيلق كنين Knin التابع لجيش الشعب اليوغوسلافى بقيادة الجنرال راتكو ملادتش أعداداً كبيرة من الأسلحة من مخزون جيش الشعب اليوغوسلافى للزعماء شبه العسكريين الصرب فى كرواتيا . وفى وقت لاحق ساءت سمعة ملادتش ، وهو صربي من البوسنة ذو أراء قومية صربية متطرفة ، كقائد للقوات القومية الصربية فى البوسنة .[6] وظل كلا الجانبين ، قوات الدفاع الكرواتية وصرب كرايينا المتمردون ، يكدسان ترسانات أسلحتهما طوال خريف وشتاء 1990 – 1991 . وأعلن الصرب انفصالهم عن كرواتيا فى 16 مارس 1991. وخلال شهر تطورت الاشتباكات بين الصرب المسلحين والشرطة الكرواتية إلى مشكلة خطيرة . وكان لتلك الاشتباكات

(5) Mesh Glenny, *The Fall of Yugoslavia Third Balkan War* (London and New York : Penguin, 1992), PP. 13, 107 and 177.

(6) للاطلاع على مقابلة تكشف شخصية ملادتش انظر Glenny, PR 26-9

طابع أشد سوءاً فى قرية بوروفوسيلو Borovo Selo فى 2 مايو 1991 .

وكان يسكن بوروفو سيلو صرب معروفون بالعداء الشديد الذى يكنونه للنظام القومى الكرواتى. وكانت حكومة زغرب قد اتفقت مع الصرب المحليين على وقف إرسال الشرطة الكرواتية إلى بوروفوسيلو، إلا أن اثنين من ضباط الشرطة الكروات دخلوا القرية مساء 1 مايو . وكانت تحيتهما نيران الأسلحة الآلية ثم أسرهما الصرب المحليون . وفى اليوم التالى أرسلت وزارة الداخلية الكرواتية وحدات شرطة إضافية إلى بوروفوسيلو . واشتبكت تلك الوحدات مع أفراد الميليشات الصربية المدججين بالسلاح فى معركة بالأسلحة النارية فاز فيها الصرب بسهولة . كما قُتل اثنا عشر من الشرطة الكرواتية وثلاثة من الصرب . ومازالت التفاصيل الدقيقة موضع جدل شديد . إلا أن مزاعم الدعاية الكرواتية وما يفخر به المتطرفون الصرب تشير إلى أن الصرب ذبحوا بعض رجال الشرطة الكروات واقتلعوا عينى واحد منهم على الأقل .(7) وعلاوة على الوحشية الشديدة ، كانت تلك الأعمال إحياء رمزياً للأعمال الانتقامية التى ارتكبها التشتنك ضد الكروات فى الحرب العالمية الثانية ، حيث يُقال إنها أشعلت نار الكراهية العرقية ، بإحيائها للمشاعر التى أوجدتها الإبادة الجماعية فى زمن الحرب .

وادعت وسائل الإعلام الكرواتية أن الصرب هم أتباع الصربى البوسنى المتطرف فويسلاف شيشيلى الذين أُرسلوا لعمل كمائن لرجال الشرطة الكروات . وكما حدث فى مايو 1991 ، كان شيشيلى صريحاً فى تحريضه على الكراهية العرقية . كما اعترف بأنه كان منظماً نشطاً لأعمال القتل العنصرية . ففي اجتماع جماهيرى عُقد فى بلجراد بعد يومين من اشتباكات بوروفوسيلو، تباهى شيشيلى أمام الجماهير بأن زملاءه من التشتنك شاركوا فى ذلك العمل . كما توعد الكروات بالانتقام لمقتل الصرب الذى وقع مؤخراً ولمن قُتل منهم فى الحرب العالمية الثانية . وكان حادث بوروفوسيلو نذيراً بمزيد من أعمال القتل العرقية الرهيبة التى ارتكبها شيشيلى وأتباعه فى كرواتيا وخلال سنة 1992 فى البوسنة .

قررت كرواتيا إجراء استفتاء فى 19 مايو 1991 حول مسألة الاستقلال عن يوغوسلافيا. وتحاشياً لإجباره على أن يكون جزءاً من الدولة الكرواتية المستقلة الجديدة ، أجرى " إقليم كرايينا الصربى المتمتع بالحكم الذاتى " من جانب واحد استفتاءه الثانى فى

. Glenny, pp . 8-73 (7)

12 مايو . وصوّت 99٪ من المشاركين فى الاستفتاء لمصلحة الانفصال عن كرواتيا والانضمام إلى صربيا . وبعد أسبوع واحد صوت 94٪ من الناخبين فى كرواتيا لمصلحة الاستقلال . وقاطع التصويت معظم الصرب فى كرواتيا .

وتصاعدت الاشتباكات بين المقاتلين الصرب غير النظاميين وأفراد الميليشيات الكرواتية بصورة سريعة فى شهور صيف 1991 ، وزادت وحدات عديدة من جيش الشعب اليوغوسلافى دعمها الصريح للقوات الصربية . وفى أغسطس 1991 حاصر جيش الشعب اليوغوسلافى والمقاتلون الصرب غير النظاميين المدن والبلدات شمال شرقى كرواتيا . وفي19 أغسطس ، عندما كان العالم مشغولاً بمحاولة الانقلاب التى وقعت فى روسيا ، صعّد جيش الشعب اليوغوسلافى الصراع تصعيداً حاداً ، حين شرع فى محاصرة فوكوفار وقصفها . وشنت القوات الجوية اليوغوسلافية فى 7 أكتوبر 1991 هجوماً جوياً على زغرب ، مما ألحق أضراراً بقصر الرئاسة فى وسط المدينة التاريخي(8) . وفى 17 نوفمبر استسلمت القوات الكرواتية المدافعة عن فوكوفار تاركة للصرب الركام والخراب العميم الذى كان يوماً ما مدينة أوروبية شديدة الجاذبية . وفى مرات عديدة أثناء الحرب ، شن جيش الشعب اليوغوسلافى هجمات على دوبروفنيك ، ذلك الميناء الجميل الذى يعود للعصور الوسطى ولا أهمية عسكرية له فى الوقت الحاضر(9) . وفى 6 ديسمبر 1991 قصف جيش الشعب اليوغوسلافى المدينة العتيقة قصفاً مكثفاً من البر والبحر والجو ، مما أثار السخط العالمى بسبب التدمير الغاشم لأثار دوبروفنيك الدينية والثقافية .

ورغم كون قصف المدن عملاً غاشماً أحمق فى ظاهره ، فقد كان له هدف سياسى بشع أشبه بما يُرجى من التطهير العرقى : إذ إنه دفع المدنيين إلى الهرب ، تاركين للجيش حرية توطين الصرب أو غيرهم من مؤيدى أهداف ما تبقى من يوغوسلافيا فى المناطق التى استولى عليها . وبما أن جيش الشعب اليوغوسلافى كان يفضل استخدام الخارجين على القانون والمقاتلين غير النظاميين والعملاء للقيام بحملاته الإرهابية ، فقد أتاحت عمليات القصف والتطهير العرقى للجناة أيضاً إذكاء نار الكراهية ، مما يقلل احتمالات أية

(8) أعلن الجنرال كاديفتش وهو يقدم انذاره لكرواتيا ، فى 22 سبتمبر 1991 ، عن أهدافه الرسمية وهي الدفاع عن كرواتيا ضد حكومة كرواتيا " الفاشية " و " النازية الجديدة " وحماية الصرب الذين يقيمون فى كرواتيا . كما أعلن عن سياسته الجديدة التى تقوم على تدمير مبنى كرواتى مقابل كل ثكنة تحاصرها القوات الكرواتية . **(المترجم)**

(9) إلى جانب الأهمية التاريخية للمدينة ، فإن لها كذلك أهمية استراتيجية بالنسبة للجيش . فهي المدخل إلى بوكاكوتورسكا ، حيث يخطط الجيش لإقامة قاعدة بحرية أساسية فى كيومبور . **(المترجم)**

عودة إلى التعايش السلمى الذى كان سائداً بين الجيران فى المدن قبل اندلاع الحرب فى كرواتيا .

ومع تزايد حدة العداء فى صيف 1991 ، أرسلت الجماعة الأوروبية مراقبين إلى كرواتيا وسعت للتوصل إلى حل دبلوماسى . وكانت الريادة للدبلوماسيين الألمان الذين أعلنوا أن يوغوسلافيا باتت أثراً تاريخياً وأيدوا حق الجمهورية المنفصلة فى تقرير مصيرها القومى وطالبوا بوقف استخدام جيش الشعب اليوغوسلافى للقوة . وفى 8 أكتوبر 1991 عُين السكرتير العام للأمم المتحدة وزير خارجية الولايات المتحدة السابق سيروس فانس Cyrus Vance مبعوثاً شخصياً له فى يوغوسلافيا . وأعلن فانس فى 1 يناير 1992 أن جيش الشعب اليوغوسلافى وصربيا وكرواتيا اتفقوا على وقف إطلاق النار وأن قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة (UNPROFOR) سوف تُنشر للفصل بين المتحاربين فى كرواتيا . وفى 2 يناير 1992 جرى التوقيع على اتفاق رسمى بين الأطراف فى سراييفو . وبعد أسبوعيين بدأ وصول عسكريين تابعين للأمم المتحدة إلى كرواتيا لبدء الدور الذى تقوم به الأمم المتحدة لحفظ السلام فى يوغوسلافيا السابقة.

ومع وجود وقف هش لاطلاق النار فى كرواتيا ، كانت سنة 1992 بمثابة بداية الصراع الدموى الوحشي فى البوسنة .

الحرب فى كرواتيا : أثرها على البوسنة

امتدت الحرب الكرواتية إلى داخل البوسنة بطريقتين مختلفتين . كانت أولاهما عندما استخدم الصرب من جمهورية كراينا والقوات الكرواتية التابعة لوزارة الداخلية الغارات الحدودية لتعزيز مطالبهم القومية فى البوسنة . أما الثانية ، وهي الأكثر أهمية من الناحية العسكرية ، فكانت عندما استخدم جيش الشعب اليوغوسلافى البوسنة كمنطقة تجمع لدعم جهود الحرب الكرواتية . ومع نهاية سنة 1991 كان جيش الشعب اليوغوسلافى قد أقام ما يفترض أنها محميات داخل البوسنة ، حيث غطى على ذلك بإقامة مناطق الحكم الذاتى الصربية فى ذلك البلد الذى ناشد جيش الشعب اليوغوسلافى تقديم الحماية لسكانه .

وأجرت وزارة الداخلية الكرواتية مناورات على أرض البوسنة مرات عديدة فى ربيع 1991 . وكانت تلك الغارات بمثابة أعمال استفزازية فى رأى الساسة الصرب البوسنيين ، الذين ناشدوا جيش الشعب اليوغوسلافى حماية البوسنة من العدوان الكرواتى .

وفى 26 أبريل 1991 أعلنت أربع عشرة منطقة حكم ذاتى يسيطر عليها الصرب شمال غربي البوسنة ، فى المنطقة الملاصقة لمنطقة الحدود العسكرية السابقة فى كروتيا ، قيام " مجتمع الحكم الذاتي لكرايينا البوسنية " وجعلت قيادتها فى بانيالوكا . وفى 8 يونيو ذكرت إذاعة سراييفو أن 200 من رجال الميليشا الصرب ينتمون لـ " منطقة كرايينا الصربية المتمتعة بالحكم الذاتى " أجروا تدريبات عسكرية فى هذه المنطقة . وزعم ميلان مارتتش Milan Martic وزير داخلية كرايينا الصربية أن الغارة التى شنتها قواته أزالت الحدود بين البوسنة والمناطق الصربية فى كرواتيا بصورة أكيدة . وفى اليوم التالى أعلن الرئيس الصربى عزت بيجوفتش ، مستخدماً لغة تشرشل الخطابية ، أن " المعركة من أجل البوسنة قد بدأت "(10) .

وبعد فترة قصيرة من تصعيد جيش الشعب اليوغوسلافى دعمه للصرب فى كرواتيا أواخر صيف 1991 ، زاد من نشاطه فى البوسنة . وبينما كان الكثير من أنشطة جيش الشعب اليوغوسلافى يتم تدعيماً لعمليات فى كرواتيا ، كانت بعض تحركاته تمثل ، بصورة لا شك فيها ، استعداداً للحرب فى البوسنة نفسها . وفى أواخر 1991 أقام الجيش حدود " إقليم الهرسك الصربى المتمتع بالحكم الذاتي " لدعم هجومه على دوبروفنيك وغيرها من الأهداف على ساحل دالماتيا . وأقيمت مناطق حكم ذاتى صربية أخرى فى كرايينا البوسنية (شـمال غـربى البوسنة حول بانيالوكا) ، وروماننيا (شرقى سراييفو) . وطلبت كل منهما " المساعدة " من القوات الاتحادية فى سبتمبر 1991 ، وبعدها عزز جيش الشعب اليوغوسلافى وجوده فى العديد من مناطق البوسنة التى يسيطر عليها الصرب .

وفى خريف 1991 استغل جيش الشعب اليوغوسلافى أراض ومنشآت بوسنية فى دعم مهمته فى كرواتيا ونقل موارده إلى مواقع مأمونة ، لتسهيل التعبئة حال انتشار الصراع فى البوسنة . ونقل جيش الشعب اليوغوسلافى وحدات من المدن إلى الريف البوسنى ، ولم تترك سوى وجود رمزى فى المدن . كما جرى تفكيك بعض المنشآت الإنتاجية فى البوسنة التى نُقلت إلى صربيا . وهُجر البعض الآخر فى الشهور العديدة التالية . وبحلول وقف إطلاق النار فى كرواتيا فى يناير 1992 ، أمكن لجيش الشعب اليوغوسلافى الاستيلاء على جزء كبير من ريف البوسنة ونقاط اتصالها الرئيسية .

---

(10) *Radio Free Europe Research Report*, June 28 ,1991 , p . 35

زعماء البوسنة يسعون إلى حل وسط

فى أعقاب الانتخابات البوسنية متعددة الأحزاب التى أُجريت فى نوفمبر 1990 ، بدأ أعضاء الأحزاب الثلاثة التى تقوم على أساس عرقى ووصلت إلى السلطة مناقشة حل وسط محتمل ، فيما يتعلق بمستقبل البوسنة . وأيد الساسة المسلمون والكروات فكرة السيادة البوسنية ، بينما عارضها الزعماءالصرب . وفى 30 يناير 1991 تقدم الحزب الإسلامى من أجل العمل الديمقراطى باقتراح من أجل بوسنة ذات سيادة . وسرعان ما حصل على دعم الجماعة الديمقراطية الكرواتية ، إلا أن الحزب الدديمقراطى الصربى رفضه . فقد كان الحزب الديمقراطى الصربى يرغب فى البقاء فى اتحاد يوغوسلافى يسيطر عليه الصرب وكان يخشى أن تؤدى السيادة البوسنية إلى " تكريس وضع الأقلية بالنسبة للصرب فى البوسنة " .(11)

وفى 12 يونيو 1991 طلب ممثلو الأحزاب الثلاثة كلها من رئاسة الدولة البوسنية أن تقترح " إعلان سيادة " يُرضى وجهات النظر المتباينة . ولكن سرعان ما ألقت الحرب فى كرواتيـا بظلالها ولم تعد هناك جدوى من تلك الجهود . وبذلك لم يتوصلوا إلى حل وسط قط .

وبينما استعرت الحرب فى كرواتيا المجاورة فى أكتوبر 1991 ، تخلى الحزبان المسلم والكرواتى عن سعيهما للوصول إلى اتفاق مع الصرب . إلا أنهما اتفقا معاً على قرار فى 14 أكتوبر يطالب بسيادة البوسنة . وكان رئيس المجلس ، وهو صربى ، قد أجَّل الدورة . ولذلك كان أعضاء الحزب الديمقراطى الصربى قد غادروا المكان بالفعل . وكان التصويت على السيادة دليلاً على انتهاء الجهود البرلمانية للتوصل إلى اتفاق ثلاثى ، وإن استمرت المفاوضات بين زعماء الأحزاب الثلاثة . وفى 21 ديسمبر 1991 أعلن صرب البوسنة قيام جمهوريتهم .

التدخل الدبلوماسى : الطريق إلى الاعتراف

خلال سنوات الحرب الباردة ، كان الاهتمام الغربى بيوغوسلافيا تسيطر عليه الرغبة فى تعزيز الاستقلال اليوغوسلافى فى مواجهة أى غزو سوفيتى محتمل. ولذلك أيدت

---

(11) Radio Free Europe Research Report, July 5, 1991, p. 30

الولايات المتحدة وحلفاؤها وجود يوغوسلافيا موحدة وعارضوا العناصر الانفصالية داخل البلاد ، لاحتمال مساعدتها للتدخل السوفيتى أو تشجيعها له .

ولكن ما حدث فى 1991 و 1992 هو أن كلاً من الولايات المتحدة والجماعة الأوروبية تخلتا شيئاً فشيئاً عن دعمهما لوجود يوغوسلافيا موحدة لمصلحة الاعتراف باستقلال معظم الجمهوريات التى خلفتها . إلا أن الجماعة الأوروبية فاقت الولايات المتحدة بكثير فى سياسة التحول . وبينما أولت الولايات المتحدة اهتماماً أقل بالمشكلة وتركت المبادرة للجماعة الأوروبية ، فقد استمرت من حيث المبدأ فى دعمها لليوغوسلافوية حتى أوائل 1992 . وفى يونيو 1991 زار وزير خارجيتها جيمس بيكر James Baker بلجراد وأعلن عن استمرار تأييد الاتحاد اليوغوسلافى . وفسّر قادة جيش الشعب اليوغوسلافى تصريحه على أنه ضوء أخضر للقيام بعمليات عسكرية ضد الاستقلال السلوفينى. وفى المقابل ، قفزت الجماعة الأوروبية مسرعة إلى النزاع عندما أعلنت سلوفينيا الاستقلال عن يوغوسلافيا فى يونيو 1991 . ومن خلال تعامل الجماعة الأوروبية مع جيش الشعب اليوغوسلافى وسلوفينيا على أنهما متنازعين متساويين ، شجعت السلوفينيين على الانفصال عن يوغوسلافيا . وبذلك أتاح الصدع الذى ظهر بين الجماعة الأوروبية والولايات المتحدة الفرصة لكل جانب – أصحاب اتجاه الوسط فى جيش الشعب اليوغوسلافى وزعماء الجمهوريات اليوغوسلافية الخليفة – كى يتوقع بعض الدعم الغربى للمسار الذى ارتضاه لتحركه .

وفى محاولة لاتباع سياسة ثابتة حيال الأراضي اليوغوسلافية ، انتقل مؤتمر الجماعة الأوروبية الخاص بيوغوسلافيا فى شهر نوفمبر 1991 إلى لجنة تحكيم برئاسة روبير بادنتير Robert Badinter من فرنسا وتضم رؤساء المجالس الدستورية فى خمس دول غربية ، لتقييم وضع الاتحاد اليوغوسلافى القانونى . وفى ديسمبر 1991 انتهت لجنة بادنتير إلى أن " يوغوسلافيا فى سبيلها إلى التفكك ".[12] وحددت اللجنة 23 ديسمبر 1991 كموعد نهائى كى تتقدم الجمهوريات اليوغوسلافية السابقة ، التى تسعى للحصول على اعتراف الجماعة الأوروبية باستقلالها ، بطلبات الاعتراف . على أن يتم الاعتراف بالمؤهل منها لذلك فى 15 يناير 1992 . وبحلول الموعد النهائى ، كانت الجماعة الأوروبية

(12) *Yugoslav Survey*, 32, no. 4 (1991), p. 19.

قد تلقت طلبات اعتراف من جمهوريات سلوفينيا وكرواتيا ومقدونيا والبوسنة والهرسك .

ونُشر تقرير لجنة بادنتير فى 15 يناير 1992 [13] حيث انتهت اللجنة إلى أن سلوفينيا ومقدونيا استوفتا بالكامل معايير الاعتراف التى وضعتها الجماعة الأوروبية فى 17 ديسمبر 1991 . وأكد التقرير بشدة على ضرورة احترام الجمهوريتين الكرواتية والبوسنية لحقوق الأقلية التى يتمتع بها السكان الصرب داخل حدودهما احتراماً تاماً ، طبقاً للاتفاقيات الدولية المتعلقة بذلك . إلا أنه أكد على ضرورة الحفاظ على الحدود القائمة بين الجمهوريات ، ما لم توافق الأطراف المعنية على تغييرها . وفيما يتعلق بكرواتيا ، كان طلب اللجنة الوحيد هو أن تُضمن الجمهورية الكرواتية تعديلاتها الدستورية التى جرت فى 4 ديسمبر 1991 بعض الضمانات للوضع الخاص الذى يتمتع به السكان الصرب فى كرواتيا ، وإلا قُضى على كرواتيا بأن تفى بمعايير الجماعة الأوروبية .

وأبدت لجنة بادنتير تحفظات أخرى بخصوص البوسنة . إذ أشار التقرير إلى أن رئاسة البوسنة والهرسك وحكومتها ، استناداً منهما على دستوريهما وقوانينها ، قد تعهدتا بالتمسك بكل المواثيق الدولية ذات الصلة وضمنتا مراعاة حقوق الإنسان ، إلا أن " أعضاء مجلس الرئاسة من الصرب لم يشاركوا " فى تلك الإعلانات . وأشارت اللجنة إلى ثلاثة استفتاءات نظمها صرب البوسنة (فى 10 نوفمبر 1991 و21 ديسمبر 1991 و 9 يناير 1992) عبَّروا فيها عن رغبتهم فى أن يُستبعدوا من أية جمهورية بوسنية ذات سيادة خارج إطار يوغوسلافيا (أُجرى اثنان من هذه الاستفتاءات الثلاثة بعد شروع الجماعة الأوروبية فى إجراءات اعترافها) وأوضح التقرير أن الدستور البوسنى لسنة 1974 وتعديله فى سنة 1990 يضمنان الحقوق المتساوية لـ " قوميات البوسنة والهرسك – المسلمون والصرب والكروات " بصورة محددة ، إلى جانب غيرهم ممن يعيشون على أرضها .

وشعرت اللجنة بكل وضوح أن الجماعة الأوروبية لا ينبغى لها الاعتراف بالبوسنة كدولة مستقلة دون موافقة صرب البوسنة . وانتهى التقرير إلى أن " رغبة سكان البوسنة والهرسك " فى جعل البوسنة دولة ذات سيادة " لا يمكن اعتبارها مكتملة " . ورأت اللجنة أن تقييمها السلبى يمكن تعديله إذا أجرت الجمهورية استفتاء حول الاستقلال يشارك فيه كل مواطنيها "دون تفرقة وفى ظل مراقبة دولية ." وحددت الحكومة البوسنية 29 فبراير و1 مارس 1992 موعداً لإجراء هذا الاستفتاء .

(13) *Yugoslave Survey*, 33,no.1(1992),p.121

وعجّل وزير خارجية ألمانيا هانز ديتريش جنشر Hans – Dietrich Genscher، ويأتى على رأس مؤيدى اعتراف الجماعة الأوروبية العاجل ، بترتيبات اعتراف منظم باستقلال كرواتيا . وكانت علاقات ألمانيا الاقتصادية مع سلوفينيا وكرواتيا وتماثلها الثقافى معهما أقوى مما هو عليه الحال مع صربيا . وزاد من التعاطف الألمانى مع كرواتيا تصعيد جيش الشعب اليوغوسلافى لعدوانه ووحشيته فى الحرب الكرواتية . واستنكر جنشر استخدام جيش الشعب اليوغوسلافى القوة فى كرواتيا وأيد حق كرواتيا فى تقرير مصيرها (أى حقها فى الانفصال عن يوغوسلافيا) وعدم انتهاك الحدود الكرواتية. وبينما تعهد جنشر بعدم التقيد بتحفظات لجنة بادنتير الخاصة بتعديلات كرواتيا الدستورية وتعهداتها المتعلقة بحقوق الإنسان ، أجبر الجماعة الأوروبية على التحرك بإعلانه أن ألمانيا سوف تعترف من جانب واحد باستقلال كرواتيا(14) . وإذعاناً من الجماعة الأوروبية للضغوط الألمانية ، وافقت على الاعتراف باستقلال سلوفينيا وكرواتيا اعتباراً من 15 يناير 1992 . ومن ناحية أخرى لم تحرك الولايات المتحدة ساكناً ، اعتقاداً منها بأن الاعتراف السابق لأوانه قد يدمر عملية السلام الجارية لوقف القتال فى كرواتيا(15) .

وأغفل الموقف الألمانى إصرار لجنة بادنتير على احترام كرواتيا الكامل لحقوق الأقلية الصربية داخل حدودها . وبذلك فُسِّر تأييد ألمانيا للاعتراف غير المشروط على أنه تأييد ضمنى للشوفينية القومية الكرواتية على حساب السكان الصرب .

وكان دور ألمانيا والجماعة الأوروبية فى دفع الاعتراف بالجمهوريات المنفصلة محل جدل شديد . ويلقى بعض المنتقدين ، خاصة أصحاب التوجه المؤيد للصرب أو المعادى للألمان اللوم فيما يتعلق باندلاع الحرب فى البوسنة على ألمانيا باعتبارها المسئول الأكبر أو الأوحد عنه ، مستشهدين فى ذلك بكراهية الألمان التاريخية للصرب وتعاطفهم مع كرواتيا

(14) كان وزير الخارجية الألماني هانز ديترتش جنشر يفضل الاعتراف بالاستقلال عقب قمة ماستريخت مباشرة دون الانتظار ولو لأيام قليلة . (المترجم)

(15) صرح المتحدث الرسمي باسم الخارجية الإيطالية بأن بلاده ستعترف باستقلال الجمهوريتين فى 18 ديسمبر ، إذا لم يتوصل " الوسطاء " إلى حل ترضى عنه جميع الأطراف . أما الحكومة البريطانية فكانت تميل إلى الاعتراف بهما من حيث المبدأ . وفى السادس من أبريل 1992 اعترفت الدول الأوروبية الاثنتا عشرة وكندا والولايات المتحدة بالبوسنة والهرسك دولة مستقلة . وكان ذلك بمثابة اشارة البدء لصرب البوسنة كي يشرعوا فى القتال ويعلنوا جمهوريتهم الصربية فى البوسنة ويحاصروا سراييفو . وفى 22 مايو وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على قبول عضوية جمهورية البوسنة والهرسك فى المنظمة الدولية . (المترجم)

والبوسنة الذى يعود على الأقل إلى الحرب العالمية الثانية . وهذا تفسير مفرط فى بساطته . فالمحرك الأساسي لحرب البوسنة فى أوائل 1992 لم يكن وراءه الدبلوماسيون الغربيون ، وإنما تلك القوى المؤثرة تأثيراً لا مهرب منه داخل البوسنة ذاتها . وفى الوقت الذى أصبح فيه الاعتراف بالبوسنة قضية مثارة فى الجماعة الأوروبية ، كان جيش الشعب اليوغوسلافى فى الريف البوسني على أهبة الاستعداد لإستثارة المقاتلين الصرب غير النظاميين ومساعدتهم على تقطيع أوصال البوسنة ، وهو الدور الذى سبق له القيام به فى كرواتيا . أما الصرب البوسنيون ، الذين يدركون جيداً دعم جيش الشعب اليوغوسلافى لمشروع صربيا الكبرى ، فقد تشجعوا على السعى لتحقيق مطامحهم الانفصالية وكانوا يستعدون للحرب . بل إن وحدات الجيش والميليشات الكرواتية ، التى سبق لها اختراق الأراضى البوسنية مرات عديدة ، كادت أن تستولى على منطقة تقع غربى الهرسك عندما انهارت الترتيبات السياسية الهشة .

ورغم استعدادات جيش الشعب اليوغوسلافى العسكرية الواسعة فى أوائل 1992 ، وضراوة صرب البوسنة السياسية ، كانت أفعال المجتمع الدولى السبب المباشر للحرب فى البوسنة .[16] فلم تدرك الجماعة الأوروبية أهمية التفاوض والحل الوسط فى البوسنة متعددة الأعراق ، حيث لم تشكل أية قومية الأغلبية وكانت سياسة الائتلاف هى القاعدة طوال جزء كبير من القرن . وعلى وجه الخصوص ، نجد أن إصرار الجماعة الأوروبية على إجراء استفتاء كشرط للإعتراف كانت له عواقبه عظيمة الأثر . فأى استفتاء على الاستقلال كان يحمل بين طياته الزعزعة وعدم الاستقرار ، لأنه دفع صرب البوسنة إلى التعجيل بحملتهم لتجنب أن يصبحوا ضمن جمهورية بوسنية مستقلة . وتقدم زعماء صرب البوسنة وعلى رأسهم رادوفان كاراجتش Radovan Karadzic بشكوى للجماعة الأوروبية من أن المسلمين الكروات مجتمعين ، حيث يؤيدون قيام دولة بوسنية موحدة ، سوف يتفوقون عليهم فى التصويت لا محالة . ومن أجل تسوية هذه الاعتراضات ، دعت الجماعة الأوروبية زعماء الأطراف الثلاثة – الصرب والمسلمون والكروات – إلى لشبونة فى أواخر شهر فبراير 1992، أى قبل الاستفتاء المقرر إجراؤه على الاستقلال ، فى محاولة أخيرة للتفاوض على

---

(16) اعترف وزير خارجية الولايات المتحدة سيروس فانس بذلك عندما صرح بأن الاعتراف " المبكر " بسلوفينيا وكرواتيا والبوسنة من جانب الجماعة الأوروبية والولايات المتحدة " تسبب فى وقوع الحرب التى تدور رحاها الآن

The NewYork,Times, April 1993, p.A6

اتفاق لتقسيم الجمهورية إلى "كانتونات" . وكان من المفترض أن تصبح تلك بداية جهود أخرى تقوم بها القوى الغربية للضغط على الأطراف الثلاثة لقبول شكل من أشكال التقسيم العرقى للجمهورية البوسنية .

وفى محادثات لشبونة ، وافق كاراجتش (ممثلاً لصرب البوسنة) وماتى بوبان Mate Boban (متحدثاً باسم كروات البوسنة) فى التو على اقتراح بتقسيم البوسنة إلى كانتونات. وأثار الرئيس البوسنى عزت بيجوفتش تعجب أبناء بلده المسلمين البوسنيين والدبلوماسيين الغربيين بموافقته هو أيضاً على ذلك ، وإن تقرر وضع بعض الحدود المعلومة أو الشروط للتقسيم . ووضع اتفاق لشبونة البوسنة فى وضع غريب ، بصفتها دولة حصلت حديثاً على استقلالها اتفق زعماؤها على تقسيمها . بل إن الاتفاق أحيا أمل التوصل إلى حل وسط قد يحقق مطامح الأطراف الثلاثة جميعاً.

وفى أواخر شهر فبراير انضمت الولايات المتحدة إلى الجماعة الأوروبية فى التخلى عن تعهدها الدائم بوجود يوغوسلافيا موحدة والتحرك فى اتجاه دعم استقلال الجمهوريات المستقلة . وأصبح وارين زيمرمان Warren Zimmerman السفير الأمريكى فى يوغوسلافيا وغيره فى وزارة الخارجية الأمريكية يشعرون بقلق ، لأن القوميين الصرب والكروات يوشكون على تقسيم الدولة البوسنية متعددة الأعراق . وكان أكثر ما يقلقهم نوايا ميلوشيفتش بصورة خاصة . وبعد عودة عزت بيجوفتش من لشبونة بوقت قصير ، التقى به زيمرمان لقاءً شخصياً. وفيما يتعلق باتفاق التقسيم الذى وُقع فى لشبونة ، حث عزت بيجوفتش على "التمسك بتعهداته"(17) . إلا أن التحول الذى حدث فى سياسة الولايات المتحدة نحو الاعتراف كان فى حد ذاته مشجعاً لعزت بيجوفتش ، الذى واجه ضغوطاً قوية داخل حكومته كى يعارض تقسيم البلاد إلى كانتونات .

وسواء أكان ذلك بتشجيع من القوى الخارجية أم بدونه ، فقد تنصل عزت بيجوفتش من تأييده لاتفاق الكانتونات بعد أيام قليلة من عودته من لشبونة والتقائه بزيمرمان . وعلى

---

(17) The New York ،Times September 30و 1993 pA -18و Warren Zimmerman ToThe Editor
أنكر زيمرمان خبراً نشر قبل ذلك مفاده أنه شجع عزت بيجوفتش على تنصله من اتفاق لشبونة . David Binder, US Policymakers On Bosnia Admit Errors in opposing Partition in 1992, "*The New York Times*, August 29, 1993, P. 8

الفور دعت الجماعة الأوروبية إلى عقد المحادثات من جديد فى سراييفو وألحت فى طلبها من كل الأطراف البوسنية التوصل إلى اتفاق بشأن الكانتونات . وفى 18 مارس اتفق عزت بيجوفتش مرة أخرى مع ممثلى صرب البوسنة وكرواتها على خريطة تقسيم الجمهورية .

وكان وزير الخارجية الأمريكى جيمس بيكر قد التقى بوزراء خارجية الجماعة الأوروبية فى بروكسل فى 10 مارس . ورغم استمرار الأطراف جميعها فى توهمها قيام الجماعة الأوروبية بدور ريادى فى معالجة الأزمة البوسنية ، فإن سير الأحداث يوضح بجلاء وجود ضغط أمريكى من أجل الاعتراف الكامل . وأعلنت الجماعة الأوروبية أن اعترافها بالبوسنة سيكون سارياً اعتباراً من 6 أبريل . وفى 7 أبريل أعقبتها الولايات المتحدة وأعلنت اعترافها بكرواتيا وسلوفينيا والبوسنة كدول مستقلة ذات سيادة .

ورغم تلهف الولايات المتحدة والجماعة الأوروبية على الاعتراف بالدولة البوسنية التعددية متعددة الأعراق ، لم يكن ما يقوله الغرب وتسانده الوسائل اللازمة لتأمين الجمهورية البوسنية ضد تهديدات هؤلاء الذين يطمحون إلى تقطيع أوصالها . وأصبحت المحادثات السابقة للاعتراف واحدة من مناسبات عديدة يُحْيِى فيها الدبلوماسيون الغربيون الآمال البوسنية بإعلانهم عن نوايا نبيلة . إلا أن الولايات المتحدة والجماعة الأوروبية كانتا ملتزمتين بسياسة " غايات بلا وسائل " . وكانت القوى الغربية سخية فيما قدمته من إيماءات رمزية وتشجيع شفاهي للبوسنيين ، إلا أنها لم تكن مستعدة لإنجاز عمل له مغزاه لردع نوايا الدول المجاورة العدوانية ، التى لا تخفى على أحد ، والتصدى لوحدات جيش الشعب اليوغوسلافى التى تحتل مواقع مهمة .

أثار اتفاقا لشبونة وسراييفو فى أوائل 1992 ، اللذان قَبِل فيهما عزت بيجوفتش خطة تقسيم البوسنة إلى كانتونات ، مسألة دور الرئيس البوسنى فى تقرير مستقبل البوسنة. وعزت بيجوفتش ، الذى انتُخب رئيساً لمجلس الرئاسة البوسنى سنة 1990 ، هو أيضاً زعيم الحزب الإسلامى البوسنى ، حزب العمل الديمقراطى . ومع أنه سُجن من قبل لدعوته إلى إقامة دولة إسلامية ، فقد برز كداعية لا يلين إلى وجود بوسنة متعددة الأعراق . وليس فى هذا تناقض كما قد يبدو من أول وهلة . فأعمال عزت بيجوفتش تسير على نهج محمد سباخو وغيره من الزعماء المسلمين البوسنيين الذين كانوا ، رغم اهتمامهم بمصالح مواطنيهم المسلمين المحددة ، يستخدمون نفوذهم فى كثير من الأحيان لتأييد الكيانات

السياسية متعددة القوميات الأكثر اتساعاً التى تحمى مصالح المسلمين البوسنيين . وبالنسبة لمن سبقوا من الزعماء المسلمين ، شمل ذلك المشاركة فى الائتلاف الحاكم فى برلمان الحقبة النمساوية من 1910 إلى 1914 وعضوية معظم حكومات الحقبة اليوغوسلافية الملكية من 1918 إلى 1941 وتأييد الحزب الشيوعى والحكومة فى يوغوسلافيا الاشتراكية . وحافظت كل من هذه الكيانات (فيما عدا يوغوسلافيا الملكية بعد 1929) على سلامة أراضى البوسنة والهرسك ، ووفرت بالتالى حماية المسلمين البوسنيين من اقتسامهم بين صربيا وكرواتيا .

وكان عزت بيجوفتش ثابتاً فى تأييده لدوام الكيانات متعددة القوميات : يوغوسلافيا فى أوائل 1991 ثم البوسنة والهرسك ، بعد أن أصبح واضحاً أن يوغوسلافيا لم تعد كياناً سياسياً قادراً على البقاء . ودعته الضرورة إلى اتخاذ موقف تراجعى : فعندما اتضح أن تقسيم البوسنة إلى كانتونات هو الخيار الوحيد ، سعى للتوصل إلى أفضل ترتيب ممكن من أجل " ما تبقى من " البوسنة والهرسك ليصبح وطناً للمسلمين البوسنيين . وكان عزت بيجوفتش يحدوه إدراكه أن الدويلة المسلمة البوسنية لن تكون كياناً قادراً على البقاء وسوف تبتلعها دولتا صربيا وكرواتيا المجاورتان لها بسهولة ، فى حال انكماش مساحتها أكثر من اللازم بسبب التقسيم .[18]

وكان رادوفان كاراجتش والصرب البوسنيون يرون ضغوط الجماعة الأوروبية على عزت بيجوفتش كى يقبل التقسيم على أنه تواطؤ مع خططهم الانفصالية . وحث كاراجتش صرب البوسنة على مقاطعة استفتاء الاستقلال فى 29 فبراير و1 مارس 1992 . وألقت القوات الجوية منشورات على البوسنة تدعو الصرب إلى عدم التصويت . وكان صرب البوسنة يتصرفون كذلك بطريقة تقليدية تماماً : فقد شجعهم نجاح مؤيديهم فى صربيا (كما حدث فيما بين 1912 و 1914 فى الحقبة اليوغوسلافية الملكية) فأعلنوا برنامجاً يبعدهم

---

(18) بينما كان الصرب يطالبون بالحد الأقصى لاستقلالية هذه الكانتونات ، كان المسلمون والكروات يرون في ذلك تمهيداً لصرب البوسنة كى يثيروا المشاكل فيما بعد وينضموا إلى جمهورية صربيا المجاورة . بل إن المسلمين كانوا يخشون انضمام الكانتونات الصربية إلى صربيا والكرواتية إلى كرواتيا ولا يبقى لهم سوى شريط ضيق من الأرض بينهما . هذا علاوة على أن اقامة الكانتونات يجعل تدخل كل من صربيا وكرواتيا فى البوسنة خطراً دائماً . يضاف إلى ذلك خوف المسلمين من حدوث اتفاق من وراء ظهورهم بين الصرب والكروات ، رغم ما بينهم من حرب . وهذا هو ما حدث بالفعل فى وقت لاحق . (المترجم)

أكثر عن الحزبين البوسنيين المسلم والكرواتى . وصوَّت عدد قليل من الصرب فى الاستفتاء. ومن ناحية أخرى ، صوَّت الكروات والمسلمون البوسنيون بأعداد كبيرة وكان ما يزيد على 99٪ من الأصوات مؤيداً لاستقلال البوسنة التام .

ووقعت أحداث متفرقة لإطلاق النار يوم الاستفتاء . وبعد يومين قصف المقاتلون الصرب غير النظاميين بوسانسكى برود Bosanski Brod وهى بلدة على نهر سافا شمالى البوسنة . وفى 27 مارس 1992 ، وهو اليوم الذى أعلن فيه زعماء صرب البوسنة السياسيون دستورهم ، شن جيش الشعب اليوغوسلافى هجمات على جمهورية البوسنة ، التى أُعلنت حديثاً ، من الجنوب والغرب والشمال الغربي . وفى 26 أبريل 1992 ، وهو اليوم الذى بدأ فيه سريان مفعول اعتراف الجماعة الأوروبية باستقلال البوسنة ، أمطر القناصة الصرب فى أعلى فندق هوليداى إن بسراييفو المتظاهرين المسالمين بنيران بنادقهم الآلية . وفى ذلك الوقت كان ما يربو على 1300 شخص قد لقوا حتفهم فى الحرب المتفاقمة ، التى سرعان ما شملت الدولة البوسنية الوليدة .

عشية الصراع : عدم تكافؤ المتحاربين

فى أواخر مارس 1992 ، عندما تصاعد العداء ليصبح حرباً كاملة فى البوسنة ، كانت القوات المؤيدة لصرب البوسنة تتمتع بتفوق كبير فى الأسلحة والأفراد . وكان لجيش الشعب اليوغوسلافى 90 ألف جندى فى البوسنة : إذ كان يسيطر على معظم مستودعات الأسلحة ومخزون الذخيرة ويعتمد على ما يزيد على خمسين طائرة مقاتلة ومئات الدبابات والمدفعية الثقيلة ، وكانت هناك عدة آلاف أخرى من الجنود المتمركزين فى صربيا . وفى الوقت نفسه كانت هناك ألوية حرس المتطوعين الصرب الإرهابية التى يسيطر عليها جيليكو رازنياتوفتش Zeljko Raznjatovic ، المعروف باسم " أركان " " Arkan " [19] . وكانت فى ذلك الوقت مشغولة فى فوكوفار (حيث كان هناك اعتقاد كبير بأنها المسئولة عن أعمال الإبادة الجماعية التى تعرض لها المدنيون الكروات) ولكنها كانت مستعدة لارتكاب الفظائع فى البوسنة .

وكان للقوات الإقليمية الكرواتية حوالى 12 ألف رجل فى غربى البوسنة . وما أن بدأت الأعمال العدوانية حتى هبوا مسرعين لاحتلال تلك الأراضى ، حيث دخلوا فى أول الأمر

(19) عُرفت هذه القوات باسم " النسور البيض " . (المترجم)

فى تحالف صعب مع البوسنيين أتبعوه بصراع شامل معهم . وكانت القوات الكرواتية منظمة تنظيماً جيداً ومسلحة تسليحاً كافياً ، حيث استفادت من حصول كرواتيا على أسلحة من المجر وإيطاليا وألمانيا ، وهو الأمر الذى ازداد كثافة أثناء الحرب التى شهدتها كرواتيا . وفى سنة 1991 وأوائل 1992 هرّبت القوات الكرواتية كميات من الأسلحة إلى داخل البوسنة وكانت لها خبيئة أسلحة كبيرة الحجم بحلول ربيع 1992 .

وبلغ عدد القوات الإقليمية البوسنية حوالي 50 ألف جندى . ومع بداية الصراع ، كانت قوات جيش الشعب اليوغوسلافى وحلفاؤها يتفوقون عليها تفوقاً لا أمل فى التغلب عليه من ناحية السلاح . فقد كان تسليحها فى المقام الأول عبارة عن أسلحة صغيرة . وخلال فترة كبيرة من حصار سراييفو فى خريف وشتاء 1992 – 1993 لم يكن البوسنيون يمتلكون سوى دبابة واحدة . ومن أسباب فقر إعداد الجيش البوسنى بهذه الصورة أن عزت بيجوفتش تعلق حتى آخر لحظة بأمل حدوث تسوية سلمية . يضاف إلى ذلك أن الأمل فى الحيلولة دون اتساع الصراع الكرواتى جعل الأمم المتحدة تفرض حظر استيراد الأسلحة فى سبتمبر 1991 على كل يوغوسلافيا السابقة . وحيث لم تكن للبوسنة أية حدود مع دول أخرى وكان لها منفذ وحيد على البحر الادرياتيكى ، فقد كانت الفرص المتاحة أمامها لانتهاك الحظر قليلة ، بينما كان بمقدور كرواتيا وصربيا التحايل على تلك القيود بسبب اتساع حدودهما البحرية والبرية . وكانت أعظم أصول الجيش البوسنى هى تركيبته متعددة الأعراق بحق (خاصة فى السنة الأولى من الحرب) والروح القتالية التى لدى معظم جنوده . وكان الصرب والكروات يشغلون مناصب قيادية مهمة إلى جانب المسلمين البوسنيين . كما كانت صفوف الجيش تضم جنوداً من الطوائف العرقية الثلاث جميعاً يؤمنون بالدولة البوسنية متعددة القوميات ومستعدون للقتال من أجلها .

أهداف الحرب ومسار الصراع

انطلقت القوات الصربية للاستيلاء على أكبر مساحة ممكنة من أرض البوسنة . وكانت جهودها موجهة فى المقام الأول ضد ثلاث مناطق : إقليم غرب البوسنة الواقع على حدود صربيا (وكان يسكنه قبل 1992 خليط من الصرب والمسلمين البوسنيين) ومنطقة كبيرة شمال غربى البوسنة تسكنها أعداد كبيرة من الصرب وممر شمالى البوسنة يربط بين المنطقتين . وكان الممر ضرورياً للخطط الصربية ، بصفته جسر برى للصرب فى غربى البوسنة للمناطق الكرواتية التى يسكنها الصرب .

وشملت أهداف الكروات الحربية هى الأخرى الاستيلاء على أكبر قدر ممكن من الأراضى . وكان هدفهم الرئيسى إقليم الهرسك غربى نهر نيريتفا الملاصق لكرواتيا . كما أن تدعيم المكاسب الكرواتية فى هذه المنطقة كان يحقق منافع عسكرية فى حال تجدد الأعمال العدائية مع الصرب فى كرواتيا ، إضافة إلى توسع الأراضى الكرواتية . وأدت الأطماع الكرواتية فى موستار ، المدينة الرئيسية فى الهرسك ، إلى مزاعم دعائية بأن موستار "مدينة كرواتية" ، وهو ادعاء سخيف ليس له أساس فى أى عصر من تاريخها .

وكان أدنى ما تصبو إليه قوات الحكومة البوسنية هو الاحتفاظ بالسيطرة على المدن الرئيسية والطرق التى تربطها . وكانت المدن ، بتركيبتها متعددة الأعراق وتراثها العريق من التسامح بين الطوائف العرقية ، تشكل القاعدة السياسية الأولى للحفاظ على البوسنة كمجتمع متعدد القوميات . وكانت السيطرة على الطرق التى بينها فى الأراضى البوسنية الجبلية تحدياً كبيراً . وهو الدرس الذى وعته قوات عسكرية سابقة فى البوسنة . وهذه الشبكة نفسها من المدن الكبيرة والصغيرة وشرايين النقل الرئيسية كانت أهدافاً رئيسية للجيش النمساوى فى معاركه الأولى لاحتلال البوسنة سنة 1878 . وبالمثل استهدف الألمان والإيطاليون السيطرة على المدن والطرق أثناء احتلالهم إبان الحرب العالمية الثانية . وفى مواجهة حاجة البوسنة الملحة إلى السيطرة على الشرايين الرئيسية ، حالت القوات الصربية والكرواتية دون الوصول إلى المدن الرئيسية ، مما حرمها من المؤن الضرورية التى تأتيها من الخارج .

تقطيع أوصال البوسنة

كان التفوق العسكرى الشامل الذى تحقق لجيش الشعب اليوغوسلافى وحلفائه شبه العسكريين فى البوسنة وراء سيطرتهم على جزء كبير من أراضى البوسنة فى غضون أسابيع . وسرعان ما كشف الجيش عن نمط لتوفير الدعم المدفعى للوحدات الصربية شبه العسكرية ، وبشكل رئيسي تلك التى من خارج البوسنة ، وتفويضها ترهيب السكان المحليين غير الصرب وارتكاب الفظائع ضدهم . وأتاحت هذه التكتيكات لجيش الشعب اليوغوسلافى تحقيق أهدافه الحربية مع تكبده عدد قليل من الخسائر وعدم تحمل المسئولية المباشرة عن جرائم الحرب ، لأن المتطرفين الصرب كانوا مرتكبيها .

وكانت مدن شرقى البوسنة ، ومعظم سكانها من الصرب والمسلمين ، من أول أهداف

القوات الصربية . ووصلت قوات أركان شبه العسكرية ، وهي حرس المتطوعين الصرب ، إلى هناك من فوكوفار فى أواخر مارس 1992 لتجنيد الصرب المحليين وتدريبهم وبدء الهجمات الإرهابية ضد غير الصرب . وفى بيلييينا Bijeljina فتحوا النار على مسلمين كانوا متوجهين إلى المسجد للصلاة فى 4 أبريل ، وخلال بضعة أيام استولوا على المدينة وقتلوا معظم سكانها المسلمين أو طردوهم . وقاومت زفورنك الواقعة إلى الجنوب منها هؤلاء الإرهابيين وتعرضت لقصف مدفعى من جيش الشعب اليوغوسلافى الذى اضطرها للاستسلام فى 10 أبريل . وفى الأيام التالية قُتل مدنيون مسلمون ، حيث سيطر رجال أركان على المدينة . وفى فيشيجراد وفوتشا أجبر القصف المدفعى المدينتين على الاستسلام ودخلتهما دبابات جيش الشعب اليوغوسلافى ، للمساعدة فى إخضاع السكان المحليين .



شكل 11 - 1 امرأة تبكى أحد ضحايا الحرب فى سراييفو

وحيثما عجز المقاتلون الصرب غير النظاميين ومن يساندهم من جيش الشعب اليوغوسلافى عن فرض استسلام سريع ، كانوا يسدون شرايين المواصلات لوقف تدفق الإمدادات إلى المدن ويبدأون قصفاً متقطعاً لإرهاب السكان . وفى شرقى البوسنة حاصروا مدن سربرينتسا وجوراجده Gorazde وجبا Zepa المكتظة باللاجئين وقصفوها بالقنابل.

(فى مايو 1993 أُعلنت هذة المدن ومعها سراييفو وتوزلا Tuzla وبيخاتش "ملاذات آمنة" من قبل مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة . ولكن القصف استمر ، لعدم قيام الأمم المتحدة بعمل يفرض تنفيذ ذلك . وكانت الاستراتيجية الصربية أوضح ما تكون فى سراييفو ، حيث سيطر جيش الشعب اليوغوسلافى على كل الطرق البرية الرئيسية المؤدية إلى المدينة فى أوائل مايو 1992 . وبعد ذلك بفترة قصيرة سيطرت القوات الصربية على مطارها لتعزلها عن العالم الخارجى .

وكان نجاح القوات الصربية أبطأ فيما يتعلق بجهودها للاستيلاء على مساحة كبيرة من الأراضى شمال غربى البوسنة . فقد التقت هناك لقاء مباشراً مع القوات الكرواتية ، حيث كانت كرواتيا ترغب فى منع ربط الأراضي التى يسيطر عليها الصرب فى البوسنة بتلك المناطق التى يسيطر عليها صرب كرايينا فى كرواتيا . إلا أن الصرب كانوا يمتازون بأنهم أعلنوا بالفعل "منطقة الحكم الذاتي الصربية فى كرايينا البوسنية". وبسرعة عضدوا سلطتهم فى بانيا لوكا وما حولها . وكما يتضح من الخريطة 3.11 ، تحقق للصرب السيطرة على هذه المنطقة بالكامل .

انقسام جيش الشعب اليوغوسلافى

بعد أيام من الأعمال الكبرى الأولى ، بات الدور الذى قام به جيش الشعب اليوغوسلافى فى تأجيج نار الحرب ظاهراً للجميع . وفى 27 أبريل 1992 أمر الرئيس عزت بيجوفتش جيش الشعب اليوغوسلافى بالانسحاب من البوسنة أو وضع قواته تحت قيادة القوات الإقليمية البوسنية . وفى 4 مايو ، وتحت ضغط من المجتمع الدولى لإنهاء العدوان على البوسنة ، أمر مجلس رئاسة ماتبقى من يوغوسلافيا جيش الشعب اليوغوسلافى بالانسحاب ، إلا أن أمره سمح للجنود الذين من البوسنة بالبقاء فيها .

وكل ما تلى ذلك كان محض عملية تجميل قُصد به تهدئة المجتمع الدولى . ولم ينسحب سوى 14 ألف فرد . وبذلك بقى 75 ألف جندى على فرض أنهم من أصول بوسنية ، وبقيت معهم أسلحتهم الثقيلة . وأدى هذا العمل فى واقع الأمر إلى انقسام جيش الشعب اليوغوسلافى إلى اثنين . وأُعيدت تسمية الجزء البوسنى ليصبح جيش جمهورية البوسنة والهرسك الصربية . وكان قائد القوات التى أُعيد تسميتها هو الجنرال راتكوملادتش ، المعروف بأنه قائد جيش الشعب اليوغوسلافى الذى فتح مخازن الجيش لصرب كرواتيا فى

سبتمبر 1990 . وأصبح ازدراؤه للبوسنة متعددة الأعراق ، ولأهل كل القوميات الذين ظلوا فى مدنها ، أسطورياً بعد توليه القيادة .

وصاحب التطهيرعملية تقسيم جيش الشعب اليوغوسلافى النظامى ، من خلال التقاعد المبكر الإجبارى للضباط الذين رؤى أنهم غير جديرين بالثقة . وأُحيل عشرون جنرالاً للتقاعد فى مارس 1992 وثمانية وثلاثون غيرهم فى مايو ، بينهم آخر جنرالات من غير الصرب . ونُقل الجنرال كوكانيانتس Kukanjac ، المعروف باستعداده للسعى إلى حل وسط وتجنب إراقة الدماء ، إلى صربيا لإفساح الطريق أمام الجنرال ملادتش . وفى أغسطس 1993 استؤنف التطهير ، حيث أُجبر ثلاثة وأربعون جنرالاً على التقاعد فيما بدا أنه المرحلة الأخيرة من تعزيز ميلوشيفتش للسلطة وتحويله قوات الأمن فيما تبقى من يوغوسلافيا إلى أدوات للقومية الصربية الكبرى .

اللاجئون والتطهير العرقى

بعد بضعة أسابيع فقط من القتال فى البوسنة ، ازداد عدد اللاجئين الفارين من الهجوم الصربى العنيف بمعدل يدعو للدهشة . وفى 26 أبريل ، أى بعد أقل من ثلاثة أسابيع من استقلال البوسنة الذى اعترفت به الجماعة الأوروبية ، قدَّر المفوض السامى لشئون اللاجئين التابع للأمم المتحدة عدد البوسنيين الذين أصبحوا لاجئين بـ 370 ألفا[20] . وبلغ هذا العدد 750 ألفاً بحلول 2 يونيو . وما أن حل خريف 1992 حتى كانت الحرب البوسنية قد أفرزت مليونى لاجىء ، أى نصف سكان البوسنة تقريباً طبقاً لتعداد 1991 . وظل حوالى المليون فى البوسنة ، بينما فر كثيرون إلى مدن مازالت تحت سيطرة الحكومة البوسنية ، مما زاد حاجة المدنيين العاجلة إلى الطعام والمؤن الأساسية . وهرب آخرون إلى كرواتيا أو إلى صربيا ، حيث انتشرت معسكرات اللاجئين وهددت بتجاوز قدرة الحكومتين على الحفاظ عليها . وقبلت دول أوروبية غربية بعض اللاجئين .

---

(20) أدى هذا الهجوم البربرى إلى إصدار مجلس الأمن فى 30 مايو 1992 للقرار 757 الذى فرض حظراً تجارياً وجوياً ودبلوماسياً وبترولياً على صربيا والجبل الأسود ! بسبب العدوان على البوسنة والهرسك وكرواتيا . كما قررت واشنطن تجميد الأرصدة اليوغوسلافية في الولايات المتحدة وكانت تقدر بـ 214 مليون دولار منها 174 مليوناً فى بنوك تملكها يوغوسلافيا . وكان الهدف من وراء تلك الإجراءات إجبار صربيا على وقف اعتداءاتها المحمومة على شعب أعزل أغلبيته من المسلمين . (المترجم)



شكل 11 - 2 صديقتا عمر – واحدة كرواتية والأخرى مسلمة – أرسلت كل واحدة منهما إلى معسكر لاجئين مختلف

وألقت الزيادة السريعة فى عدد اللاجئين الضوء على الاستراتيجية المتعمدة من جانب القوات الصربية والكرواتية لإقامة مناطق ذات طبيعة عرقية واحدة ، بإبعاد من ينتمون إلى الطوائف العرقية غير المرغوب فيها . وكان واضحاً أنها ترغب فى تحاشى تكرار "مشكلة الضفة الغربية" التى واجهها الاسرائيليون – أى احتمال الدعاية الدولية المناهضة التى ستصاحب احتلال أراض يسكنها شعب معاد . وأدرك القوميون الصرب والكروات كذلك أن هدف الدولة متعددة الأعراق بحق كان المقدمة الأساسية التى تقوم عليها أحقية البوسنة فى التفرد وسط أراضى يوغوسلافيا السابقة . وبقضائهم على نمط التداخل العرقى وإفشاء الكراهية وعدم التسامح بين قوميات البوسنة ، دمروا قدرة الحكومة البوسنية على إعادة بناء قاعدة سياسية ، حتى إذا قدر لها أن تستعيد بعض الأراضى من خلال المفاوضات التى جرت بعد الحرب . وسعى القوميون الصرب والكروات فى دعايتهم وأفعالهم إلى

تصوير حكومة البوسنة على أنها " مسلمة " ، وهو ما يهدفون من خلاله إلى تقليل أهمية أحقيتها في تمثيل مصالح كل البوسنيين . وقد نجحوا في استعطاف الرأى العام العالمى بدرجة مفزعة .

وينبغى ملاحظة أن الأطراف الثلاثة فى الصراع البوسنى لجأت إلى ممارسة التطهير العرقى . إلا أن القوات الصربية والنظام الحاكم فيما تبقى من يوغوسلافيا تتحمل مسئولية تجنيد أسوأ من مارسوا هذا العنف وتدريبهم وتفويضهم ودفع رواتبهم ، وهى قوات أركان وفويسلاف شيشيلى غير النظامية . وتشترك جماعات ومراقبون كثيرون ، بينها مراقبة هلسنكى Helsinki Watch ومنظمة العفو الدولية Amnesty International ووزارة الخارجية الأمريكية ، فى الاعتقاد بأن صربيا هى التى بدأت التطهير العرقى ومن مارسه بشكل رئيسى (21) . وفى الوقت نفسه ارتكبت القوات المسلحة والمقاتلون غير النظاميين الكروات أعمال تطهير عرقى على نطاق كبير . ومارس المسلمون أعمال تطهير عرقى وارتكبوا فظائع ، وإن كانت الحكومة البوسنية اتخذت فى مناسبات عديدة الاجراءات الكفيلة بالحد من هذه الأنشطة ، رغم الضغط العصبى الشديد الذى كانت تعمل تحته اعتباراً من ربيع 1992 .

ومنهج التطهير العرقى هو الإرهاب الذى يمارس بصراحة وتباه ويرجى من ورائه طرد السكان الذين ينتمون إلى الطائفة العرقية " الخطأ " من بيوتها التى تعيش فيها منذ زمن بعيد . والتطهير العرقى يختلف بذلك عن اجراءات الإبادة الهادئة المنظمة التى اتخذها الألمان ضد اليهود والغجر وغيرهم إبان الحرب العالمية الثانية . فقد مضى الألمان فى قتل الناس دون إحداث سخط جماهيرى . أما من يمارسون التطهير العرقى فى البوسنة فيستخدمون القتل وغيره من الفظائع لبث الخوف والفزع ولدفع الناس إلى الفرار .

وإلى جانب عمليات التطهير العرقى فى مدن البوسنة وريفها ، استخدم مرتكبو جريمة التنقية العرقية (Exclusivism)أشكالاً من تكتيكات الترهيب لفرض إرادتهم على أبناء الطوائف العرقية الأخرى وبذر بذور الكراهية للحيلولة دون إمكانية حدوث مصالحة متعددة

---

(21) بدأت القوات فى ربيع 1992 ما عرف بـ " التطهير العرقى " لمسلمى البوسنة والهرسك ، بعد اعلان استقلالها . وطرد الصرب مليون مسلم وكرواتى من منازلهم . كما عذبوا وقتلوا الآلاف لإرهاب الباقين كى لا يعودون إلى أراضيهم وبيوتهم . (المترجم)

الأعراق . وقد اغتصبت نساء من كل الأعمار . وبينما ارتكب بعض عمليات الاغتصاب جنود لا يسيطر عليهم أحد ، كانت عمليات اغتصاب كثيرة متعمدة وتلقى تشجيعاً منظماً من القادة لإذلال المقهورين ومكافأة الجنود على ما اقترفوه من أعمال وحشية . وأُقيمت معسكرات الاعتقال للأسرى من أفراد الوحدات العسكرية وللمدنيين . وكان نزلاؤها يُجوعون أو يُضربون أو يُقتلون مقدمين لمشاهدى التلفزيون الغربيين صور الأسرى الذين نحلت أجسامهم ، وهى التى لم تُر فى أوروبا منذ الحرب العالمية الثانية. وعندما تم التحقق من طوفان اللاجئين البوسنيين المتزايد فى صيف 1992 ، كان تلك التكتيكات، التى تعمد المتطرفون القوميون استخدامها لتدمير المجتمع متعدد الأعراق فى البوسنة ، قد حققت الكثير من أهدافهما . ورغم الخطوات الدولية لعقد محاكم مجرمى الحرب بموجب الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة ، لم تفعل أية قوى خارجية سوى إصدار التحذيرات لوقف الفظائع فى الوقت الذى كانت تحدث فيه .

دور كروات البوسنة المتغير

بعد انتخابات نوفمبر 1990 متعددة الأحزاب كان يمثل الكروات البوسنيين حزب سياسى مهيمن واحد ، هو الجماعة الديمقراطية الكرواتية . إلا أن الجماعة الديمقراطية الكرواتية ضمت فصيلين اختلفت قيادتاهما اختلافاً حاداً بشأن مستقبل البوسنة .

كان ستيبان كليوتش ، صاحب أكبر عدد من الأصوات الكرواتية فى انتخابات 1990 وعضو مجلس الرئاسة البوسنى ، على رأس الفصيل المؤيد للبوسنة . وكان نجاح كليوتش يؤيد ابقاء دولة بوسنية موحدة متعددة الأعراق ويحظى بصورة رئيسية بتأييد الكروات المقيمين فى المدن الكبيرة والصغيرة الرئيسية . وعندما اندلعت الأعمال العدوانية فى أبريل 1992 ، كان الفصيل المؤيد للبوسنة يمثل التيار الرئيسى المعبر عن الرأى الكرواتى البوسنى : فقد صوتت الأغلبية العريضة من الكروات البوسنيين لمصلحة استقلال البوسنة فى استفتاء 29 فبراير و 1 مارس 1992 . بل إن الفرنسيسكان أيدوا استقلال البوسنة وحثوا غيرهم من الكروات على دعم الحفاظ على وجود دولة بوسنية موحدة متعددة الأعراق . وخدم كروات كثيرون فى الوحدات متعددة القومية فى الجيش البوسنى ، وضمت القوات التى تولت الدفاع عن سراييفو وحدة كرواتية صرفة ذات قيادة منفصلة.

أما الفصيل الآخر فى الجماعة الديمقراطية الكرواتية فكان يؤيد تقسيم البوسنة على أساس عرقى . وكان زعماؤه يأملون فى ضم كرواتيا لتلك الأجزاء من البوسنة التى بها أعداد كبيرة من السكان الكروات . وكانت القاعدة الرئيسية للفصيل المؤيد للضم بزعامة ماتي بوبان فى منطقة غربى الهرسك الريفية المتاخمة لجمهورية كرواتيا ، حيث غالبية السكان الريفيين من الكروات . والأمر الأكثر أهمية هو تبنى الفصيل المؤيد للضم لبرنامج أقرب إلى ذلك البرنامج الذى يميل إليه الرئيس الكرواتى فرانيو توجمان وأتباعه ويحظى بتأييده .

وظهر انقسام مشابه فى الرأى فى جمهورية كرواتيا حول السياسة الكرواتية المناسبة تجاه البوسنة . فبحلول ربيع 1992 كان الرأى العام الكرواتى شديد العداء للصرب وتسيطر عليه فكرة وحشية جيش الشعب اليوغوسلافى والمقاتلين الصرب غير النظاميين عند الاستيلاء على فوكوفار والهجوم على دوبروفنيك إبان الحرب الكرواتية فى 1991 . وكان أول رد فعل لدى معظم الكروات، فيما يتعلق بالحرب فى البوسنة ، هو النظر إلى الجمهورية المجاورة لهم على أنها ضحية أخرى للعدوان الصربى وتأييد الحكومة البوسنية فى معركتها ضد جيش الشعب اليوغوسلافى .

إلا أن الرئيس الكرواتى توجمان تأثر تأثراً بالغاً بـ " لوبي الهرسك " ، وهى مجموعة من القوميين الكروات الذين يميلون إلى تقسيم البوسنة وضم المناطق التى يسكنها الكروات فيها إلى الجمهورية الكرواتية . وكان لوبى الهرسك يتكون فى المقام الأول من المهاجرين الكروات المقيمين فى كندا والولايات المتحدة الذين ساهموا مساهمة ضخمة فى حملة توجمان فى انتخابات الرئاسة لسنة 1990 التى حصلت على التمويل الكافى . وكافأ توجمان من ساندوه بالمال بتأييده الكامل لبرنامج الضم وبجعله أحدهم ، وهو جويكو شوشاك Gojko Susak من أوتاوا بكندا ، وزيراً للدفاع فى حكومته . يضاف إلى ذلك أن توجمان أعلن بنفسه إلتزامه شخصياً بتقسيم البوسنة فى مارس 1991 ، عندما تفاوض بشأن التوصل إلى اتفاق مع الرئيس الصربى ميلوشيفتش على اقتسام البوسنة بين صربيا وكرواتيا . ومع استمرار الحرب ، أيد توجمان وحكومته جهوداً كرواتية عديدة لتقسيم البوسنة ونشر جنود الجيش الكرواتى النظاميين للقتال إلى جانب الكروات البوسنيين ضد الحكومة البوسنية .

وبعد وقت قصير من اندلاع الأعمال العدائية واسعة النطاق فى البوسنة فى مارس 1992 ، أصبح للفصيل المؤيد للضم فى الجماعة الديمقراطية الكرواتية اليد العليا فى المجتمع الكرواتى البوسنى ، فى ظل المؤازرة العسكرية والسياسية من نظام توجمان فى زغرب . وفى 3 يوليو 1992 دعا كروات الهرسك بزعامة ماتى بوبان إلى عقد مجلس رئاسة لـ " الطائفة الكرواتية فى البوسنة والهرسك " وأعلن قيام طائفة تحكم نفسها بنفسها .وكان بوبان يضمن كذلك ولاء ميليشا كرواتية ضخمة أتى مجندوها فى المقام الأول من غربى الهرسك . وفى أغسطس 1992 أجبر بوبان الجناح العسكرى لحزب الحقوق الكرواتية القومى المتطرف(22) ، وهو منظمة ميليشا منافسة ، على حل نفسه ودمج أفراده فى الميليشا التابعة له . وبعد انتهاء بوبان من الاستيلاء على الجماعة الديمقراطية الكرواتية وتدعيم الميليشات الكرواتية فى البوسنة ، سيطر هو وأتباعه المؤيدون للضم على كل من المنظمتين السياسية والعسكرية التابعتين للكروات البوسنيين . وشمل الرئيس الكرواتى توجمان هذه التغييرات برعايته ، لينهى بذلك التظاهر بأن قوات الجمهورية الكرواتية لم تكن ضالعة فى الشئون البوسنية .

وبسبب افتقار القوات الكرواتية البوسنية إلى الأسلحة التى تمكنها من تحقيق برنامجها الخاص بالضم فى صيف 1992 ، فقد سعت إلى التحالف مع الحكومة البوسنية . إلا أنه كان من الواضح أن النفوذ السياسى والعسكرى كان فى أيدى الكروات الذين دعوا بصراحة إلى تقطيع أوصال الدولة البوسنية . فبعد وقت قصير من تولى بوبان زعامة الجماعة الديمقراطية الكرواتية فى صيف 1992 ، بدأ رجال الميليشا الكروات التابعون له التطهير العرقى فى القرى المسلمة التى يسيطرون عليها ، حيث قتلوا السكان المسلمين وطردوهم . وفى خريف 1992 تفاوض الوسطاء الدوليون تفاوضاً مباشراً مع بوبان ، مما أعطاه منزلة زعيم كروات البوسنة المعترف به دولياً .

وكان انتصار بوبان ضربة للفصيل الموالى للبوسنة فى الجماعة الديمقراطية الكرواتية ، غير أن كروات بوسنيين كثيرين استمروا فى دعمهم للحكومة البوسنية والخدمة فى الجيش البوسنى . وأيد كبير أساقفة سراييفو بوليتش Puljic وجود دولة بوسنية متعددة الأعراق . وخلافاً لما فعله أسلافهم الذين تواطؤا مع سياسات الأوستاشى فى الحرب العالمية الثانية ، أيد الفرنسيسكان البارزون التعاون متعدد الأعراق وأدانوا التطهير

(22) قائدها هو المهاجر الأسترالي من أصل هرسكى بلاز كراليفتش الذى قُتل فى معركة شرسة هو وثمانية من حرسه الخاص بالقرب من مدينة موستار فى أغسطس 1992 . (المترجم)

العرقي . واستُبعد ستيبان كليوتش من قيادة الجماعة الديمقراطية الكرواتية ، وإن ظل مؤيداً مؤثراً لوجود بوسنة موحدة . وفى نوفمبر 1992 استقال من مجلس الرئاسة البوسنى ، ولكنه انضم مرة أخرى إلى هذه الهيئة فى أكتوبر 1993 .

ظل هناك تحالف حذر بين الوحدات العسكرية الكرواتية والبوسنية خلال 1992 وحتى الشهور الأولى من 1993 . إلا أنه وقعت بينها بعض الصراعات المسلحة . ففى 10 مايو 1992 اشتبكت قوات الأمن البوسنية مع الجنود الكروات فى مناوشات حول منشآت رحل عنها جيش الشعب اليوغوسلافى ، وهى المرة الأولى التى يحدث فيها قتال بين القوتين . غير أن الفكرة السائدة كانت التعاون غير المستقر . وفى 16 يونيو 1992 أعلنت كرواتيا والبوسنة عن اتفاق للتعاون بصورة أوثق فى الحرب ضد عدوهما الصربى المشترك ، حيث وقعتا اتفاقاً آخر للتعاون فى 23 سبتمبر 1992 . واعتمدت القوات البوسنية التى ينقصها العتاد الكافى اعتماداً كبيراً على الأسلحة والمؤن الآتية من كرواتيا ، وكانت مدن البوسنة بحاجة إلى الطعام والضروريات الأخرى التى لم تكن تأتى إلا من خلال الأراضى التى يسيطر عليها الكروات . ورغم تحصيل الكروات " ضرائب " بشكل منتظم من القوافل المتجهة إلى البوسنة التى تعبر أراضيهم ، فكثيراً ما كانوا يسمحون لخطوط الإمداد بأن تظل مفتوحة طول شتاء 92 / 93 .

وانهار التعاون بين القوات الكرواتية والبوسنية فى ربيع 1993 . ومن المفارقات أن القتال اشتعل فى الأسابيع التالية لمارس 1993 ، عندما أقر الكروات البوسنيون التابعون لبوبان والحكومة البوسنية اقتراح السلام الذى تقدم بها أوين-فانس Owen-Vance ، وإن رفض الصرب البوسنيون التوقيع . وما أن أصبح واضحاً أن المجتمع الدولى لا يعتزم إلغاء المكاسب التى حققها المنتصرون على الأرض ، أسرعت كل من القوات الحكومية الكرواتية والبوسنية بتعزيز مواقعها وتحقيق السيطرة التامة على المناطق التى حُددت لها طبقاً لخطة أوين-فانس .

وطالب القادة الكروات بضم وحدات الجيش البوسنى غربى الهرسك ، وهى منطقة خضعت للسيطرة الكرواتية طبقاً لخطة السلام ، إلى الجيش الكرواتى . وفى منطقة ترافنيك، وهى منطقة أخرى نُص فى الخطة على أنها كرواتية رغم العدد الكبير الذى يقطنها من المسلمين ، أصر الضباط الكروات على أن يرفرف العلم الكرواتى بجانب العلم البوسنى . ورأى البوسنيون هذه المطالب الكرواتية على أنها تهديد لأمل الحفاظ على وجود دولة متعددة الأعراق ، حتى فى ظل بنود خطة أوين-فانس . وفى ربيع 1993 أشعلت هذه الصراعات

وغيرها ، على السيادة والرموز ، الحرب الشاملة بين القوات الكرواتية والبوسنية فى وسط البوسنة وفى الهرسك .

كان القتال الكرواتى البوسنى فى سنة 1993 من أشرس ما شهدته الحرب من قتال، حيث صحبته حملات التطهير العرقى الأثيمة التى قام بها الجانبان . ووقع القتال المكثف فى وسط البوسنة وفى الهرسك بالقرب من مدينة موستار . فقد حاصرت القوات الكرواتية موستار وعزلتها ، حيث عرّضت سكانها المدنيين لقصف مدفعى شديد وتركت الآلاف من أهلها ، وأغلبهم من المسلمين المحاصرين ، بلا ما يحتاجونه من مؤن أساسية . وعندما وصلت قافلة مساعدات تابعة للأمم المتحدة حاملة الغذاء والتموين فى 25 أغسطس 1993 ، رفض أهل المدينة اليائسون طيلة خمسة أيام السماح لإثنين وخمسين جندياً أسبانياً من قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة بمغادرتها ، خشية استئناف القصف الكرواتى الذى لا يرحم بمجرد مغادرة جنود الأمم المتحدة (ومعهم الحق فى ذلك) . وقَسّم الضغط العسكرى الكرواتى المدينة بصورة فعلية إلى قسم كرواتى إلى الغرب من نهر نيرتفا وآخر مسلم إلى الشرق منه ، مدمراً بذلك مدينة كانت من قبل مركزاً للتسامح متعدد الأعراق طوال قرون عديدة . كما كانت فى وقت سابق من القرن العشرين المكان الذى وُلدت فيه كل من حركتى الحكم الذاتى الصربية والمسلمة .



شكل 11 - 3 رسم من القرن التاسع عشر يبين جسر موستار
(أنشىء سنة 1556) وقد دمره القصف الكرواتى فى 9 نوفمبر 1993

وبحلول 9 نوفمبر 1993 كان قصف المدفعية الكرواتية قد دمر جسر موستار الرخامى الأبيض الرائع على نهر نيرتفا ، وهو عمل أهوج وتدمير متعمد يتساوى مع قصف جيش الشعب اليوغوسلافى لدوبروفنيك . وكان جسر موستار الذى يعود إنشاؤه إلى سنة 1556 يلقى تقدير أبناء كل الطوائف العرقية الثلاث وتقدير ملايين السياح الأجانب الذين زاروه على مر السنين . وإلى جانب المعاناة المادية التى تعرض لها المدنيون فى موستار ودمار المدينة التام تقريباً ، زاد تدمير جسر موستار ، ذلك العمل الغاشم ، عمق اليأس الذى كان يشعر به هؤلاء الذين كانوا لا يزالون يأملون فى الحفاظ على التعددية ووجود مجتمع متعدد الأعراق فى البوسنة والهرسك .

وما يدعو للدهشة أن القتال الذى دار بين القوات البوسنية والكرواتية فى وسط البوسنة أسفر عن انتصارات بوسنية مهمة عديدة . فقد نجحت القوات البوسنية فى طرد الكروات من فاريش Vares فى أوائل نوفمبر 1993 . وعلى الجانب البوسنى كانت تقوم بالقتال ألوية جنودها بالكامل من المسلمين . وبات واضحاً أن المسلمين استفادوا من المساعدات العسكرية التى وصلت البوسنة ، رغم استمرار الحظر الذى فرضته الأمم المتحدة على السلاح .

وأدت حملات التطهير العرقى والفظائع التى ارتكبتها قوات الجانبين إلى حدوث تمزق عميق فى وسط البوسنة . وتكرر النصر الذى حققه المتطرفون القوميون فى سبيل القضاء على شخصية المجتمع البوسنى متعددة الأعراق من خلال أحداث فوينتسا Fojnica ، تلك المدينة الواقعة فى المنطقة الجبلية غربى سراييفو ويعيش فيها خليط من المسلمين والكروات .(23)

وكانت فوينتسا ، وبها دير كبير للفرنسيسكان والعديد من المؤسسات الثقافية الإسلامية ، مثالاً ساطعاً للتعاون متعدد الأعراق فى شهور الحرب الأولى . وفى أواخر يونيو 1993 استشهد الجنرال فيليب موريون Philippe Morillon القائد الفرنسى لقوات الأمم المتحدة فى البوسنة بفونيتسا بصفتها " مثال للأمل " . إلا أن المشاكل بدأت عندما رفض

(23) Chuck Studetic, "Killings In Bosnia Monastery Widen Croat – Muslim Divide", *The York Times* December 31, 1993 .pp A-1and A-3,
وهى تحتوى على تفاصيل عن أثر الحرب على فوينتسا .

قادة فوينتسا الكروات تعبئة الكروات المحليين للخدمة فى ميليشا بوبان الكرواتية ضد الجيش البوسنى . وتدخل أفراد ميليشا بوبان وعزلوا الكروات الموالين للبوسنة من حكومة المدينة وأحلوا مؤيدى بوبان محلهم . وعندما ازدادت حدة القتال بين القوات الكرواتية والبوسنية فى صيف 1993 ، حاصرت القوات الكرواتية فوينتسا فيما يُعد استعداداً واضحاً لشن هجوم شامل . وفى 2 يوليو 1993 أجبر الجيش البوسنى الوحدات المحاصرة على الانسحاب بعد قتال ضار . وفى الوقت نفسه فر معظم سكان فوينتسا الكروات ، خوفاً من أية أعمال انتقامية يقوم بها الجنود المسلمون فى الجيش البوسنى . وكان بين الكروات القليلين الذين بقوا فى المدينة كبار رجال الدين فى دير الفرنسيسكان،الذين ظلوا يدعون إلى حل متعدد الأعراق للحرب .

وفى محاولة لاستعادة فوينتسا ، شنت القوات الكرواتية هجوماً مضاداً فى 10 نوفمبر 1993 . وعندما أحرقت مسجدين فى مدينة تقع إلى الشرق ، رد عليهم المسلمون بحرق كنيسة كاثوليكية فى قرية قريبة . وعندما بدا أن القوات المسلمة التابعة للحكومة البوسنية تتقهر أمام الهجوم الكرواتى ، انتشرت شائعات بين مسلمى فوينتسا مفادها أن دير الفرنسيسكان يأوى محطة بث إذاعى وأنه يُستخدم مخزناً لأسلحة القوات الكرواتية . ودخل أربعة جنود مسلمون من الجيش البوسنى أرض الدير فى 13 نوفمبر . وطبقاً لأقوال الشهود، قتل الجنود أبرز اثنين من رجال الدين فى الدير بلا رحمة . وأدانت الحكومة البوسنية القتل وبدأت تحقيقاً لمعرفة الأمر . إلا أن عدم توصلها إلى المشتبه فيهم بعد عدة شهور من جريمتى القتل الوحشيتين أدى إلى الاتهامات الكرواتية بأن القتل كان إما بأوامر من الحكومة البوسنية أو بتشجيع منها .

وازدادت العلاقات الكرواتية المسلمة تسمماً عندما ارتكب الجنود فى كل جانب الفظائع ضد المدنيين فى الجانب الآخر . فقد قتل الجنود الكروات مدنيين مسلمين فى أخميتشى Ahmici ، الواقعة بالقرب من فونيتسا ، فى أبريل 1993 . وقتل الجنود المسلمون فى الجيش البوسنى ما لا يقل عن خمسة وثلاثين مدنياً فى كريز Kriz بوسط البوسنة فى سبتمبر 1993 . كما قتل الجنود الكروات مدنيين مسلميين فى قرية ستوبنى دو Stupni Do فى أكتوبر 1993 .



شكل 11 - 4 مهاجرون يفرون من فوينتسافى يوليو 1993

والشيء الذى أدهش كلاً من مرتكبى أعمال العنف المسلمة والكرواتية وضحاياها أن الأعمال العدائية انتهت فجأة فى فبراير 1994 . وكان هذا التغير الجذرى مرجعه الضغوط الدبلوماسية الأمريكية على نظام توجمان والتهديد بفرض عقوبات اقتصادية من جانب الأمم المتحدة ضد كرواتيا ، إن هي استمرت فى تقديم المساعدات العسكرية لكروات البوسنة (انظر المزيد من مناقشة هذا الموضوع ص 254 - 259) . وكان من الواضح أن القادة الكروات كانوا ينفذون أوامر زغرب عندما أوقفوا هجماتهم على موستار ، حيث تمت ترتيبات وقف إطلاق النار بين الجانبين على وجه السرعة . وفى أواخر مارس كان كل جانب قد صدَّق على اتفاق يقضى بالانضمام إلى اتحاد فيدرالى ، والتقى القادة الكروات والبوسنيون للبدء فى دمج قواتهم لتصبح جيشاً موحداً . وخرج سكان موستار من مخابئهم لينعموا بأشعة شمس أوائل الربيع ويستمتعوا بالأمل فى احتمال انتهاء القتال المرير إلى الأبد .

المجتمع الدولى : عون وتأييد

نادراً ما جاء فى حوليات الدبلوماسية هذا القدر الكبير من البؤس والمعاناة الذى اعترف به الناس جميعاً بينما كان العمل المؤثر الذى تعرض للنقد قليلاً جداً ، مثلما هو

الحال فى الأزمة التى شهدتها البوسنة فى التسعينيات . كانت هناك دعوات لتقديم المساعدة العسكرية للبوسنيين جاء أغلبها من ساسة غربيين خارج السلطة ، مثل رئيسة وزراء بريطانيا السابقة مارجريت تاتشر Margret Thatcher ووزير خارجية أمريكا السابق جورج شولتز George Shultz وبيل كلينتون Bill Clinton قبل أن يصبح رئيساً للولايات المتحدة والسناتور الأمريكى روبرت دول Robert Dole بعد أن خسر حزبه معركة الوصول إلى البيت الأبيض . وكما توقع جيش الشعب اليوغوسلافى فى إعادة تقديراته لسنة 1991 ، وجد من لا يزالون فى السلطة أن الاتفاق السياسى على عمل ذى مغزى لدعم الحكومة البوسنية مسألة بطيئة فى الديمقراطيات الغربية . بل لم يبادر أى زعيم سياسى غربى بإيجاد قوة دفع للعمل .

ورداً على الحرب فى البوسنة ، لجأت الأمم المتحدة والدول الأعضاء فيها إلى سلسلة من اللفتات الرمزية والأعمال التجميلية غير المكلفة ، التى تعالج عواقب الحرب أكثر من أسبابها . ووصفت مارجرت تاتشر هذا المنهج بأنه توليفة من " الكلمات الناعمة واللفتات الفارغة ."[(24)] ورغم ما قامت به مجموعة من الحكومات ذات السيادة ووكالات الاغاثة الخاصة لرفع المعاناة عن ضحايا الحرب ، لم يواجه مرتكبو العدوان وجرائم الحرب أعمالاً رادعة إلا فى مرات محدودة جداً لم يتغاض الرأى العام العالمى فيها عن سيئاتهم . لذلك كانت جهود الأمم المتحدة والدول الأعضاء فيها ، على تعددها وكثرة تكاليفها ، أكثر فاعلية فى إرضاء الضمائر الغربية منها فى تقديم حل دائم للأزمة . وشملت هذه الجهود المساعدات الإنسانية التى حملتها القوافل البرية وألقتها الطائرات من الجو وتقديم المساعدات للاجئين والوساطة الدولية التى قام بها فريقا أوين – فانس وأوين – ستولتنبرج Owen – Stoltenberg والعقوبات الاقتصادية التى فُرضت على ما تبقى من يوغوسلافيا و " منطقة حظر الطيران " فوق البوسنة وتشكيل محاكم لمجرمى الحرب وسلسلة لا حد لها من التحذيرات والتهديدات من الهيئات الدولية والدول المنفردة .

وخلال صيف 1992 ازداد إدراك العالم للفظائع التى تُرتكب فى الصراع البوسنى وما يعانيه المدنيون فى سراييفو وغيرها من المدن التى تعرضت لقصف القوات الصربية .

---

(24) Margret Thacher, "This Week With A vid ،Brinkley ،ABC Television, February 1994 ،6

وفى يونيو 1992 عززت الأمم المتحدة قواتها فى يوغوسلافيا السابقة بقوات الحماية التابعة للأمم المتحدة التى كُلفت بالعمل فى البوسنة على وجه التحديد . ومع أن مهمة قادة قوات الأمم المتحدة كانت توصيل المساعدات الإنسانية للمدنيين الذين يواجهون الموت جوعاً ، فقد كان يتوجب عليهم التفاوض مع الأطراف المتناحرة لتحقيق أهدافهم . وثبت أن القادة العسكريين الصرب والكروات والبوسنيين جميعهم أطراف متفاوضة صعبة المراس . وكثيراً ما كانت المؤن تنتظر أسابيع فى القوافل أو فى المخازن ، بينما تحتجز الأطراف المتحاربة السكان المدنيين كرهائن وتفرض الشروط على توصيل الأمم المتحدة للمساعدات الإنسانية .

وفى أغسطس 1992 أعطى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة الدول الأعضاء فيه الحق فى اتخاذ " كل الاجراءات اللازمة " لضمان توصيل المساعدات الإنسانية إلى الأماكن التى تحتاجها فى البوسنة .(25) وكما هو الحال فى جوانب الأزمة الأخرى ، لم تستخدم الأمم المتحدة نفسها أو أى من الدول الأعضاء فيها " الإجراءات اللازمة " الأساسية لدعم أهداف الأمم المتحدة الضخمة . فمنذ الأيام الأولى من الحرب تغاضى المجتمع الدولىّ عن قدر لا آخر له من الخداع ونقض العهود من جانب كل الأطراف ، وخاصة الصرب وجيش الجمهورية الصربية ، فيما يتعلق بتوصيل المساعدات الإنسانية . وأصبح اعتراض قوافل المساعدات جزءاً روتينياً من تكتيكات الخنق التى يلجأ إليها الصرب المحاصرون لمدن البوسنة الكبيرة والصغيرة والقوات الكرواتية المحاصرة لموستار والوحدات المسلمة فى الجيش البوسنى فى ظروف متعددة . ومع أن الأطراف الثلاثة اتفقت بشكل محدد فى 18 نوفمبر 1993 على السماح بالمرور الحر لقوافل المساعدات الإنسانية عبر الأراضى الخاضعة لسيطرتها ، فقد ظل الصرب (وقت كتابة هذا الكلام فى أبريل 1994) يمنعون مرور القوافل ويحبطون مسعى مسئولى الإغاثة الدوليين . وفى 10 ديسمبر 1993 أشار رون ولكنسون Ron Wilkinson المتحدث باسم منظمة الإغاثة التابعة للأمم المتحدة إلى أن الصرب كان لهم دور مؤثر فى اعتراض المساعدات الإنسانية بطريقة أوشكت على " إثارة سخط المجتمع الدولى عليهم ."(26)

---

(25) *The United Nations and the Situation in the Former Yugoslavia.* Reference Paper, United Nations Department of Public Information, May 7, 1993.

(26) *Fort Worth Star Telegram,* Dec. 11, 1993, p. A-6. (Associated Press Story by Alexander G. Higgins).

ولأن القوات المحاصرة للمدن البوسنية كانت كثيراً ما تعترض توصيل المساعدات الإنسانية ، فقد عانى معظم سكانها من الجوع الشديد خلال فصلى شتاء 1992 – 1993 و 1993 – 1994. ومع أن فصلى الشتاء هذين مرا دون تحقق تلك التكهنات التى كانت تنذر بموت مئات الآلاف جوعاً ، فقد كانت الحياة فى البوسنة تتسم بالبؤس بكل المعايير . كما لقى كثيرون حتفهم بسبب صغر سنهم ، أو تقدمهم فى العمر ، أو لأنهم ببساطة عاجزون عن المنافسة فى الصراع الداروينى من أجل البقاء ، الذى انتهى إليه البوسنيون من كل الطوائف العرقية . وفى تلك الأثناء كانت الحرب تمضى بطيئة . وعانت سراييفو ومدن غيرها من القصف المتكرر الذى أدى إلى قتل وجرح آلاف المدنيين وتدمير الآثار الثقافية والمباني الادارية المرتفعة الجديدة . واستهدفت القوات الصربية بصورة وحشية المدنيين اليائسين الواقفين فى طوابير الخبز أو المهرولين عبر ممرات مطار سراييفو الممتدة .

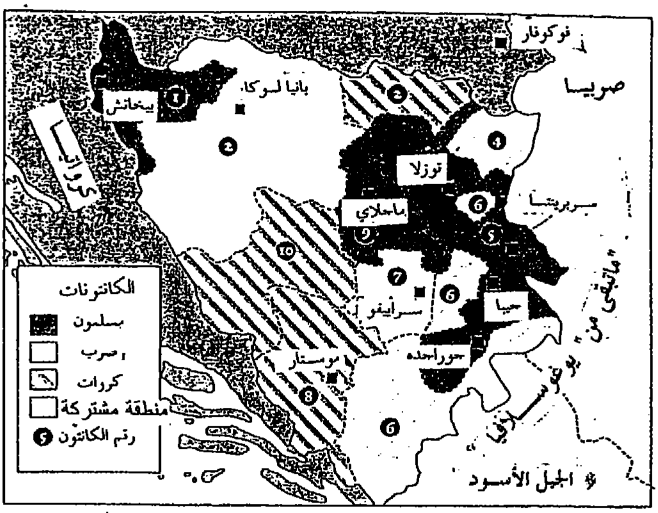
واتبع المجتمع الدولى ، إلى جانب توفير المساعدات الإنسانية ، ذلك النهج الذى وضع أسسه فى كرواتيا وسعى إلى التوسط فى الصراع . وامتزجت جهود الأمم المتحدة والجماعة الأوروبية فى مؤتمر لندن (27) فى أغسطس 1992 . ومنذ ذلك الحين والمؤتمر الدولى ليوغوسلافيا السابقة له رؤساؤه الدائمون للتقريب بين الأطراف المتحاربة . وكان سيروس فانس ممثلاً للأمين العام للأمم المتحدة ، واختير ديفيد أوين وزير خارجية بريطانيا السابق ليخلف اللورد كارينجتون Lord Carrington كممثل للجماعة الأوروبية . وبعد استقالة فانس فى ربيع 1993 خلفه تورفالد ستولتنبرج وزير خارجية النرويج السابق فى 1 مايو . وسرعان ما اختفت تلك المبادىء النبيلة التى وُضعت فى لندن ، وبينها الفكرة التى تدعو إلى عدم مكافأة أى تسوية سلمية لمن مارسوا التطهير العرقى ، حيث أجبر الوسطاء كل الأطراف على التوصل إلى اتفاق ينهي القتال وحسب . الأمر الذى يقر المكاسب الإقليمية التى حصل عليها المنتصرون على أرض المعركة .

وجرت محادثات أوين – فانس وأوين – ستولتنبرج فى جنيف بشكل أساسى ، وعادة

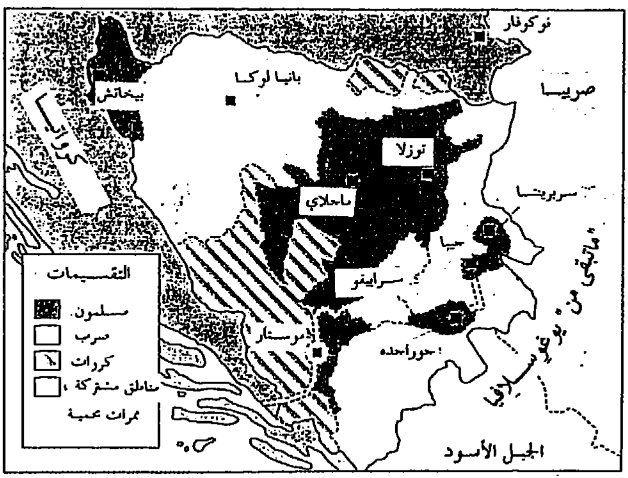
---

(27) اتفق الحاضرون فى مؤتمر لندن على أن المعتدى لا يمكنه الاحتفاظ بما استولى عليه وعلى أن دولة البوسنة والهرسك قائمة ومعترف بها . وفى مقابلة أجريت مع على عزت بيجوفتش قال : " مؤتمر لندن لم ينجز إلا أقل مما كنا نأمل ونتوقع ." كما قال : " الغرب ليس لديه الإدارة السياسية الكافية لفرض أى اتفاق . " و قال كذلك : " الغرب خاننا . وهذه ليست خيانة لأمالنا ، وإنما خيانة الغرب لنفسه ولمبادئه ." وبلغ عدد الوفود التى شاركت فى مؤتمر لندن أربعين وفداً تمثل المنظمات الدولية والدول الغربية ويوغوسلافيا والجمهوريات اليوغوسلافية السابقة . أما رئاسة المؤتمر فكانت للدكتور بطرس غالى السكرتير العام للأمم المتحدة وجون ميجور رئيس وزراء بريطانيا بصفته رئيساً للجماعة الأوروبية . (المترجم)

ما كان يحضرها ممثلون الفصائل الرئيسية الثلاثة فى البوسنة . إلا أن الرئيسين ميلوشيفتش وتوجمان كانا يحضرانها كذلك . وتفترض الوساطة بطبيعة الحال أن الأطراف لها مطالب صحيحة ومتساوية من الناحية الأخلاقية . ويبذل الوسطاء جهداً جهيداً فى تحاشى الأحكام الأخلاقية فيما يتعلق بأطراف العملية التفاوضية .



خريطة 11 - 1 خطة أوين - فانس (يناير 1993)



خريطة 11 - 2 خطة أوين - ستولتنبرج (أغسطس 1993)

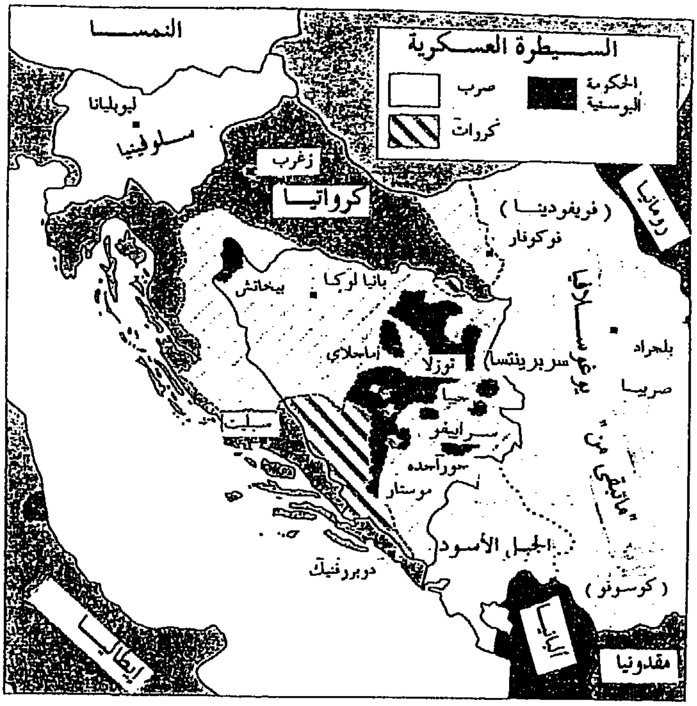
وانتهى الوسطاء إلى اقتراحين رئيسين . وكانت الخطة الأولى التى أعلنها أوين – فانس فى يناير 1993 ، عقب محادثات مطولة فى جنيف ، تسير حسب اتفاقى لشبونة وسراييفو فى فبراير ومارس 1992 . وطبقاً لخطة أوين – فانس فى يناير 1992 ، كانت البوسنة ستقسم إلى عشر كانتونات ، ثلاثة لكل قومية ، على أن تشترك الطوائف الثلاث فى السيطرة على الكانتون العاشر – سراييڤو وما حولها (انظر الخريطة 11-1) . وقبل الممثلون الرئيسيون للأطراف الثلاثة جميعاً الخطة ، أو فُرضت عليهم . وبعد ذلك لم تحظ بتأييد اجتماع لممثلى صرب البوسنة عُقد خارج سراييفو فى بالى Pale فى مايو 1993 . ورفض المجلس الصربى اقتراح أوين – فانس ثلاث مرات ، رغم حث رئيس الوزراء اليونانى قنسطنطين متسوتاكيس Constantine Mitsotakis والرئيس الصربى ميلوشيفتش والزعيم الصربى البوسنى رادوفان كاراجتش لهم على قبولها . وفى التصويت الثالث دعا المجلس الصربى إلى إجراء استفتاء شعبى . وفى ذلك الاستفتاء ، الذى أُجرى فى ظروف من النزاهة المشكوك فيها ، رفض صرب البوسنة بالإجماع الاتفاق المقترح .

وقدم أوين وستولتنبرج اقتراحاً ثانياً فى أغسطس 1993 يراعى اعتراضات صرب البوسنة (انظر الخريطة 11-2) . وكان قبول عزت بيجوفتش لخطة أوين – ستولتنبرج مشروطاً ، إلا أن البرلمان البوسنى فرض شروطاً عديدة على الخطة وطالب بمنفذ بوسنى على البحر الأدرياتيكى ، وهو ما كان فى واقع الأمر رفضاً لاقتراح أوين – ستولتنبرج . ورغم المحادثات الإضافية ، ظلت هذه المفاوضات التى جرت تحت رعاية الأمم المتحدة والجماعة الأوروبية فى حالة جمود حتى أوائل 1994 ، بسبب استمرار القتال الضارى بين الأطراف المتحاربة . وفى فبراير 1994 حلت خطة أمريكية تقوم على الجمع بين كروات البوسنة والمسلمين فى اتحاد فيدرالى محل جهود أوين وستولتنبرج للتوصل إلى اتفاق بين الأطراف الثلاثة . وعند كتابة هذا الكلام فى أبريل 1994 ، يبدو أن القيادة فى عملية السلام قد انتقلت من أوين وستولتنبرج إلى الدبلوماسيين الأمريكيين والروس .

الدور المسلم فى الحكومة البوسنية

عندما يشير بعض الصحفيين إلى الحكومة البوسنية على أنها " الحكومة المسلمة " ينقلون انطباعاً بأن المناطق الخاضعة للسيطرة البوسنية يسكنها المسلمون ويحكمونها وحدهم . وكما أشرنا من قبل ، هذا غير صحيح ومضلل ، لأن الحكومة التى يرأسها (فى أبريل 1994) الرئيس عزت بيجوفتش تتألف فى واقع الأمر ممن ينتمون إلى القوميات الثلاث جميعاً – المسلمون والصرب والكروات – ويؤيدون استمرار وجود دولة بوسنية متعددة

الأعراق . ويشير المراقبون الأكثر حرصاً ، ويتمتعون بقدر أكبر من الدقة ، إلى الحكومة البوسنية بالتى " يقودها المسلمون " أو " يسيطر عليها المسلمون " . إلا أنه من الأفضل توضيح الموقف برمته من خلال استعراض الأحداث التى جعلته ينحو هذا المنحى.



خريطة 11 - 3 خطوط جبهة القتال (مارس 1994)

كانت الحكومة المسلمة فى واقع الأمر " يقودها المسلمون " اعتباراً من نوفمبر 1990، عندما أصبح عزت بيجوفتش رئيس مجلس رئاسة الجمهورية فى أعقاب أول انتخابات متعددة الأحزاب تشهدها الجمهورية . وعكس انتخابه ضخامة عدد المسلمين فى البوسنة طبقاً لتعداد 1991 : 44٪ مسلمون و31٪ صرب و17٪ كروات . إلا أن السلطة كانت مشتركة من خلال ترتيب ائتلاف غير مستقر استمر حتى ربيع 1992 . وفى أبريل من سنة 1992 استقال الأعضاء الصرب فى مجلس الرئاسة ، كما انسحب العديد من الأعضاء الصرب فى البرلمان البوسنى . ومع تزايد التوتر بين الحكومة البوسنية والكروات التابعين لبوبان فى سنة 1993 ، انسحب كذلك كروات كثيرون من البرلمان البوسنى . إلا

أنه فى سبتمبر 1993 ، عندما انعقد البرلمان البوسنى لدراسة خطة سلام أوين – ستولتنبرج ، كان لا يزال هناك العشرات من الأعضاء الصرب والكروات . وظل مجلس الرئاسة البوسنى كذلك هيئة متعددة القوميات . وفى أكتوبر 1993 عيَّن المجلس بدلاء لمن انسحب من الصرب والكروات .

وبالمثل ازداد وجود المسلمين فى الجيش البوسنى مع تزايد حدة الصراع بين البوسنيين والكروات فى وسط البوسنة وفى الهرسك ، حتى أنه بحلول خريف 1993 كان هناك ما يبرر الحديث عن جيش بوسنى " يقوده المسلمون " أو " يسيطر عليه المسلمون " . إلا أن أفراد القوات المسلحة والسكان عموماً كان بينهم عدد ضخم من الصرب والكروات الذين ظلوا يشاركون فى الأمل فى نجاة المجتمع البوسنى متعدد القوميات بصورة أو بأخرى من أهوال الحرب .

ومنذ بداية الحرب ، كان المتطرفون القوميون الذين أثاروا الصراع يهدفون إلى تدمير البوسنة كدولة تعددية والقضاء على حلم التسامح المتبادل . وقد أشرنا إلى كيفية تحقيقهم لذلك من خلال حملات التطهير العرقى وتأجيج نيران الكراهية والانتقام . وبالنسبة للزعماء المسلمين فى الحكومة البوسنية ، الذين طالما اعتبروا الكيان متعدد القوميات ملجأ لمصالحهم ، يُعد بقاء الدولة البوسنية متعددة الأعراق أمراً ضرورياً لضمان طول بقائهم .



شكل 11 - 5 الامام سباخيتش الزعيم الروحى لمسلمى سراييفو
وقد فقد ابنته واثنين من أحفاده فى الحرب

وكثيراً ما شملت قيادة مسلمى البوسنة البعض ممن يرغبون فى إقامة دولة إسلامية ، بدلاً من العيش فى دولة علمانية متعددة القوميات. إلا أن معظم الساسة المسلمين البوسنيين البارزين فى القرن العشرين أيدوا الكيانات متعددة القوميات ، باعتبارها أفضل حماية للمصالح المسلمة . وبدلاً من أن ينغلق كل من هذين الاتجاهين على نفسه ، تعايشا معاً كخيارين متنافسين فى دلائل المستقبل السياسى لدى كثير من مسلمى البوسنة . وكانت وجهة النظر متعددة القوميات السمة السائدة بالنسبة لمعظم مسلمى البوسنة فى القرن العشرين ، فى حين كان الدافع القومى المسلم السمة المتنحية . ونجد مثالاً توضيحاً كافياً فى حياة الرئيس البوسنى عزت بيجوفتش . فبعد أن حوكم وسُجن فى الحقبة الاشتراكية بسبب دعوته لقيام دولة إسلامية ، كان يعمل بدأب من أجل الحفاظ على الدولة متعددة القوميات (يوغوسلافيا أولاً ثم البوسنة بعد ذلك) منذ أن أصبح رئيساً لمجلس الرئاسة البوسنى فى 1990 .

ومع استمرار الحرب البوسنية ، كان هناك تطوران هزا النهج المسلم المؤيد للدولة متعددة القوميات ، وهو الذى كان سائداً فى العادة . وكان أولهما تردد المجتمع الدولى والولايات المتحدة الواضح فى التدخل عسكرياً أو منح استثناء من حظر السلاح الذى فرضته الأمم المتحدة ، لدعم الحفاظ على وجود دولة بوسنية متعددة الأعراق . أما التطور الثانى فكان تلك الحرب التى نشبت بين القوات البوسنية والكرواتية فى وسط البوسنة وفى الهرسك وأدت إلى مزيد من عزلة المسلمين السياسية وجعلتهم مرة أخرى الطرف الأوحد الذى يعتمد على موارده الخاصة .

وحتى سنة 1993 ، كان كل ما يأتى علناً على ألسنة الزعماء المسلمين البوسنيين ، مثل عزت بيجوفتش ووزير خارجية البوسنة حارس سيلايجتش Haris Silajdzic [28] ،

---

(28) ينتمى إلى إحدى عائلات سراييفو الثرية . درس بالأزهر وحصل على الدكتوراه من الولايات المتحدة . يتحدث إلى جانب لغته الأصلية العربية والانجليزية والفرنسية . تولى وزارة الخارجية فى أغسطس 1992 فيما وصف بأنه توجه الرئيس بيجوفتش نحو أسلمة المناصب فى حكومته . ظل فى وزارة الخارجية 18 شهراً وُصف خلالها بالوزير الطائر ، حيث ظل ينتقل بين عواصم العالم سعياً وراء حل لأزمة البوسنة . وكان يطالب بتدخل الأمم المتحدة أو الدول الكبرى تحت مظلة الأمم المتحدة . وفى نوفمبر 93 كلفه بيجوفتش بتشكيل الحكومة . وظل رئيساً للوزراء حتى سنة 1995 حين استقال عقب توجيه اللوم لحكومته عقب سقوط سربرنتسا ، حيث عين حسن مرادوفتش رئيساً للحكومة . أسس سلايجتش حزباً معارضاً لحزب الرئيس بيجوفتش اسماه " من أجل البوسنة والهرسك " فى 4 أبريل 1996 . فاز الحزب فى انتخابات 4 سبتمبر 1996 بنسبة 4 .8٪ من مجموع الأصوات وأصبح من حقه طبقاً للتمثيل النسبي أن يكون له 6 .7٪ من مقاعد البرلمان وعددها 57 مقعداً ، أى معقدان . وعندما تشكلت وزارة 12 ديسمبر 1996 عين فيها رئيساً للوزراء بالتناوب مع الصربى بوروبوسيتش على أن يكون لهما نائب كرواتى . وبذلك تكون الطوائف الثلاث ممثلة . (المترجم)

يعكس ارتياباً حقيقياً بأن القوى الغربية ، وخاصة الولايات المتحدة ، سوف تتغاضى عن تقطيع أوصال البوسنة التعددية وتقر المكاسب الإقليمية التى حصل عليها الصرب والكروات الذين كانوا يمزقونها . وأصبح جلياً أن القوى الغربية ترى الحكومة البوسنية على أنها فقط الطرف المسلم فى خطة تقسيم ثلاثية . وكان الإحباط هو رد الفعل الأول لدى الزعماء المسلمين واليأس هو الأخير . وبناء عليه تخلى بعض الزعماء عن أمالهم فى مجتمع بوسني متعدد الأعراق وباتوا يروجون بصورة أكبر للأهداف الإسلامية وحدها .

وأصبحت غلبة المصالح القومية المسلمة فى الحكومة البوسنية واضحة عندما كانت خطة أوين – ستولتنبرج موضع الدراسة فى صيف 1993 . وقبل دراسة البرلمان البوسنى للخطة ، دعا المثقفون والساسة المسلمون البارزون لعقد سابورsabor (مجلس) عموم المسلمين فى سراييفو لمناقشة اقتراح السلام . وأوصى مجلس المسلمين ، الذى لم تكن له صفة دستورية ، بقبول الخطة ، وإن كان ذلك القبول مشفوعاً بتعديلات كثيرة ومشروطاً بشروط . وعندما انعقد البرلمان البوسنى ودرس خطة السلام المقترحة ، حذا حذو مجلس المسلمين وربط قبول اقتراح أوين – ستولتنبرج بشروط يصعب تحقيقها وكان التصويت بمثابة رفض له .

ويمكننا أن نلمس ظهور الخصوصية الإسلامية فى تناول الحكومة البوسنية لمسائل العصابات والمقاتلين غير النظاميين والجيش البوسنى . فقد أرهب المقاتلون وأفراد العصابات المسلمون المدنيين فى المناطق الخاضعة لسيطرة الحكومة منذ إقامة المتاريس فى ربيع 1992 وشُكلت ألوية قاصرة على المسلمين فى الأيام الأولى من الحرب للقتال فى إطار الجيش البوسنى. إلا أن الحكومة فى الغالب الأعم كانت تحد من أنشطة هذه الوحدات المسلمة، رغم تغاضيها عن العصابات المسلمة لمساهمتها فى المجهود الحربى.

وفى أكتوبر 1993 حُلت أقوى اثنتين من العصابات المسلمة فى سراييفو فى اشتباك عنيف مع القوات الحكومية ، إلا أن الحكومة أصبحت فى نواح أخرى منظمة مسلمة أكثر تشدداً . وكان القتال ضد الوحدات الكرواتية وسط البوسنة تقوم به الألوية المسلمة فى المقام الأول . وأصبحت قوات الحكومة البوسنية فى تلك المنطقة مسلمة خالصة تقريباً . وفى نوفمبر 1993 ، وقبل أيام فقط من تدمير القوات لجسر موستار ، حلت الحكومة البوسنية وحدة كرواتية صرفة ، كانت قد ساهمت مساهمة كبيرة فى الدفاع عن سراييفو، وأمرت أفرادها بالانضمام إلى الجيش النظامى.

وفى إطار حملة الدعاية للفوز بقبول مقترحات سلام أوين – ستولتبرج ، أبلغ اللورد ديفيد أوين الدول الغربية فى أوائل 1994 أنه ليس هناك ما يدعو إلى خوفها من ظهور دولة مسلمة فى البلقان . وهذا النوع من التلفيق وليد التفكير الراغب . فالدويلة المسلمة التى جردها الغزو الصربى والكرواتى ، الذى أعطته حملة وساطة المجتمع الدولى شرعيته ، من طبيعتها متعددة الأعراق ، ولا يمكن أن تكون ذلك الكيان العلمانى الموالى للغرب الذى دخل التسعينيات كجمهورية البوسنة والهرسك . فقد سعت سعياً حثيثاً للحصول على مصادرها الخاصة بالأيديولوجيا والإلهام والسلاح من الشرق . ولكونها محاطة بجيران معادين لها يطمعون فى مدنها وقاعدتها الصناعية ، فقد كان لابد أن تكون طموحاتها فى البقاء طويلاً ضعيفة وأن يعانى سكانها من الفقر والبؤس اللذين تضاف إليهما العزلة.

1994 : انذار الناتو والاتحاد الفيدرالى المسلم الكرواتى

فى 5 فبراير سقطت قذيفة هاون على سوق مزدحمة وسط مدينة سراييفو لتقتل ثمانية وستين شخصاً وتجرح مائتين آخرين . ومع أن الهجوم لم يكن سوى واحد من مئات الهجمات التى قتلت وجرحت المدنيين منذ بداية الحرب ، فقد تعدت المجزرة المكثفة التى نالت حظاً وفيراً من الإعلام ذلك الحد الوهمى لتغاضى العالم عن العنف . وعلى الفور توصل الزعماء الأمريكيون والفرنسيون ، الذين كانوا يتنازعون قبل أيام قليلة بشأن البوسنة، إلى اتفاق يهدف إلى وقف تقتيل المدنيين فى سراييفو . ووافق الفرنسيون على ضرورة استعداد الناتو لتوجيه ضربات جوية ضد صرب البوسنة . وفى المقابل ، تعهد الأمريكيون بأن تكون مشاركتهم فى مفاوضات جنيف أكثر فاعلية . وأجاز الأمين العام للأمم المتحدة بطرس بطرس غالى استخدام الضربات الجوية وأصدر الناتو إنذاراً لكل الأطراف (وكان موجهاً بصورة أساسية لصرب البوسنة) يطالب بوضع كل الأسلحة الثقيلة تحت سيطرة الأمم المتحدة ، أو سحبها من منطقة تمتد 20 كيلو مترا حول سراييفو ، بحلول 21 فبراير .

ولم تكن تلك المطالب جديدة تماماً . فقد سبق أن وافق صرب البوسنة على أن تشرف الأمم المتحدة على أسلحتهم الثقيلة فى مؤتمر لندن الذى عُقد فى أغسطس 1992 ، إلا أنهم أظهروا بعد ساعات من توقيعهم على الاتفاق ازدراء هم لمثل هذه الاتفاقات بتصعيد هجماتهم على الأهداف المدنية . وحقق الناتو نجاحاً أكبر فى صيف 1993 واستخدم تهديد

الضربات الجوية لإجبار الصرب على الانسحاب من جبل ايجمان Igman . ومن الواضح أن الصرب أدركوا أن التهديد بتوجيه ضربات جوية تهديد صادق . فقد استجابوا لانذار فبراير بوقف هجماتهم وسكتت الأسلحة الثقيلة المحيطة بسراييفو فى 11 فبراير لأول مرة خلال عامين تقريباً .

وطوال عدة أيام كانت المدافع الصربية تُنقل من منطقة الحظر . وبعد ذلك تدخل الدبلوماسيون الروس . إذ زار نائب وزير خارجية روسيا فيتالي تشوركين Vitaly Churkin قيادة صرب البوسنة فى بالى وحصل على وعد بأن يسحب الصرب أسلحتهم الثقيلة ، مقابل تعهده بانضمام القوات الروسية لقوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة فى البوسنة . وأتاح هذا الاتفاق للرئيس بوريس يلتسين Boris Yeltsin ادعاء تحقيق نصر دبلوماسى وسمح لصرب البوسنة بأن يتظاهروا بأنهم أذعنوا للطلب الروسى ، بدلاً من الاقرار بأنهم استسلموا لتهديدات الناتو . وفى الأيام التالية لإعلان تشوركين ، نُقل الكثير من الأسلحة الصربية الثقيلة على وجه السرعة من منطقة الحظر لاستخدامه فى أماكن أخرى من البوسنة . وهلل صرب البوسنة لوصول القوات الروسية فى 20 فبراير ، فيما يعد إظهاراً للأخوة السلافية يعيد للأذهان ذلك الترحيب الذى قوبل به المتطوعون السلاف الروس الذين ساعدوا الصرب فى الفترة من 1875 إلى 1878 . وعندما حان الموعد النهائى فى 21 فبراير ، أعلن قادة قوات الأمم المتحدة أن الصرب التزموا به وأن الناتو تخلى عن تهديده بتوجه ضربات جوية .

وسرعان ما خضع استعداد الناتو لاستخدام القوات الجوية للاختبارعندما قصفت ست طائرات صربية مصنعاً للذخيرة تابعاً للحكومة البوسنية فى نوفى ترافنيك يوم 28 فبراير ، فيما يُعَد انتهاكا سافراً لـ " منطقة حظر الطيران " التى فرضتها الأمم المتحدة. وفى رد سريع على ذلك ، أجاز قادة قوات الأمم المتحدة والناتو للطائرات الأمريكية التى تقوم بأعمال الدورية فوق البوسنة أن تطلق نيرانها على الطائرات المغيرة . وأسقطت طائرات إف 16 الأمريكية أربع طائرات صربية فى مواجهة جوية غير متكافئة .

ورغم اقتصار إنذار الناتو على سراييفو ، كان نجاحه بداية مرحلة جديدة من المعالجة الدبلوماسية للصراع البوسنى . فبعد أن تعمد الدبلوماسيون الروس والأمريكان عدم التدخل فى المسألة بصورة مؤثرة على مدى عامين تقريباً ، دخلوا بثقلهم فى عملية البحث

عن سلام دائم فى البوسنة ، حيث بدا فى بعض الأحيان أنهم متعانون وفى أحيان أخرى أنهم يتنافسون على الدور الرئيسى . ويعد لقاء الزعيم الصربى البوسنى رادوفان كاراجتش بالزعماء الروس فى موسكو ، أعلن أن قواته سوف تسمح بفتح مطار توزلا Tuzla من جديد لرحلات المساعدات الإنسانية مقابل تعهد روسى بإرسال المزيد من القوات للانضمام إلى قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة فى البوسنة .

وإلى جانب العمل على وقف قصف سراييفو ، شجع الدبلوماسيون الأمريكان على وقف الأعمال العدائية بين الكروات والمسلمين . وسرعان ما أسفرت المبادرة الأمريكية ، وعلى رأسها المبعوث الخاص تشارلز ردمان Charles Redman ، عن وقف لإطلاق النار . وفى 18 مارس 1994 أعلن الرئيس كلينتون عن اتفاق بين كروات البوسنة ومسلميها فى الحكومة البوسنية على اقامة اتحاد فيدرالى يرتبط ارتباطاً فضفاضاً بكرواتيا .[29] ورغم تأكيد الدبلوماسيين الأمريكيين على أن الصرب سوف يدخلون فى عملية السلام فى وقت لاحق ، فقد أعادت المبادرة الأمريكية (وربما لم تتعمد ذلك) الائتلاف التاريخى بين الكروات والمسلمين الذى ساد فى مناسبات مختلفة فى القرن العشرين ، منذ السنوات الأخيرة لبرلمان الحقبة النمساوية حتى الإعلان عن استقلال البوسنة فى 1992 .

كان قرار كروات البوسنة بمسالمة الحكومة البوسنية تحولاً دراماتيكياً ، ومن الواضح أنه كان بتدبير من الرئيس الكرواتى فرانيو توجمان . وكشف هذا التغير المفاجىء ، من الحرب الشاملة ضد المسلمين إلى المشاركة التامة فى الدولة البوسنية ، كيف أن مصالح كروات البوسنة أصبحت أقل أهمية من مصالح الجمهورية الكرواتية وحزبها السياسى الحاكم .

والأمر الذى أدى إلى حدوث هذا التحول فى سياسة توجمان البوسنية هو الوضع الاقتصادى والسياسى المتدهور داخل كرواتيا واحتمال فرض عقوبات اقتصادية دولية ، فى حال مُضى الحكومة الكرواتية فى دعمها للمجهود الحربى فى البوسنة . وبعد أن مُنيت القوات الكرواتية بهزائم منكرة على أيدى ألوية الجيش البوسنى المسلمة الأقل عتاداً ، دفع الجيش الكرواتى بوحدات إضافية إلى داخل البوسنة فى أوائل 1994 . ولفتت تحركات

---

(29) لمزيد من المعلومات عن الاتحاد انظر Patrick Moore "The Croatian Muslim Agreements," *RFEIRL Research Report* April1 ,1994, pp. 20- 24.

القوات هذه انتباه مراقبى الأمم المتحدة . كما حذر العديد من أعضاء مجلس الأمن كرواتيا من فرض العقوبات الاقتصادية فى وقت قريب . وفى ظل وضع كرواتيا الاقتصادى الضعيف ، كانت العقوبات تعنى اضطرابات سياسية داخلية بالنسبة لتوجمان وعزلة دولية لبلد يتفاخر بشخصيته الأوروبية وميراثه الغربى . وفى 3 فبراير 1994 أدان مجلس الأمن وجود القوات النظامية الكرواتية فى البوسنة وطالب بانسحابها .



شكل 11 - 6 مركز للاجئين فى موستار

ودون مراعاة للرسميات ، عزل توجمان ماتى بوبان من منصبه كزعيم لكروات البوسنة وأحل محله كريسمير زوباك Kresimir Zubak ، وهو سياسى يتسم بالمرونة ويلقى قبولاً من الدبلوماسيين الغربيين . واستُدعى زوباك ووزير خارجية كرواتيا ماتى جرانيتش Mate Granic إلى واشنطن فى منتصف فبراير للتفاوض بشأن وقف لإطلاق مع الحكومة البوسنية . وأيد توجمان فكرة الاتحاد الفيدرالى فى أواخر فبراير ، وإن أظهرت تعليقاته أنه كان يتصرف تحت ضغط من المجتمع الدولى . ورغم بعض الخلافات حول من يتولون

المناصب العليا فى الحكومة ، تمت المفاوضات بين الكروات ورئيس الوزراء البوسنى حارس سلايجتش على وجه السرعة . وبحلول نهاية شهر مارس كان كل طرف قد وافق على الانضمام إلى الاتحاد المسلم الكرواتى الذى تشكل حديثاً . وأحدث الاتفاق بين المسلمين والكروات تغيراً دراماتيكيا فى الساحة السياسية فى البوسنة . وعند كتابة هذا الكلام فى أبريل 1994 يكون من السابق لأوانه تقييم فرص التحالف المسلم الكرواتى ، الذى أعيد تشكيله ، فى الاستمرار بعد انتهاء الضغوط الدبلوماسية الحالية التى أوجدته . وإذا أثبت الاتحاد البوسنى الذى أقيم حديثاً أنه قادر على البقاء فسوف يزيل بعض ما ترتب على التطهير العرقى والصراعات المريرة فى وسط البوسنة وغربى الهرسك ومدينة موستار.

وبناء على انذار الناتو ووقف اطلاق النار الكرواتى المسلم ، توقف كل من القصف الصربى لسراييفو والقصف الكرواتى لموستار . وخرج سكان كل من المدينتين من أقبيتهم ومخابئهم ليستطلعوا الدمار الذى آلت إليه مدينتاهم . وأُعيدت عربات الترام والتيار الكهربائى بشكل جزئى فى سراييفو وهبطت أسعار السوق السوداء بعد أن أصبحت السلع والخدمات الحيوية متوفرة شيئاً فشيئاً .

وإذا كان القصف اليومى قد توقف ، فحصار سراييفو ظل قائماً على نطاق واسع . واستمر صرب البوسنة فى سيطرتهم على الطرق المؤدية للمدينة وحَدُّوا من حرية حركة البضائع والأفراد . وفى موضع آخر ، استمرت القوات الصربية البوسنية فى جس نبض تغاضى الغرب عما تقوم به . ففى المنطقة الشمالية الغربية من البوسنة التى يسيطرعليها الصرب ، حيث يمكن لعدد ضئيل من المراقبين الدوليين رؤية ما يقومون به ، صَعَّد صرب البوسنة حملة التطهير العرقى التى يشنونها مستخدمين المقاتلين غير النظاميين الذين يحصلون على مكافآت سخية وتحميهم قوات الأمن المحلية .(30) وأبدى الصرب كذلك جرأة متزايدة فى اعتراض توصيل المساعدات الإنسانية للمدن المحاصرة . وفى 23 مارس استولوا على عشر شاحنات تابعة للأمم المتحدة واختطفوا سائقيها الدنماركيين تحت تهديد السلاح وأجبروهم على السير فى خط مواجهة قال الصرب إنه مزروع بالألغام .(31)

---

(30) John Kifner "In North ،Bosniaa Rising Tide of Serbian Violence *The NewYork Times* March 27, 1994, pp. 1 and 9.

(31) *The New York Times*, March 27, 1994, p. A - 6.

وبعد يومين من احتجاجات الأمم المتحدة ، أطلق الصرب سراح السائقين دون أذى وأعادوا الشاحنات .

وفى ربيع 1994 أصبحت الحرب من جديد صراعاً ذا طرفين بين الحكومة البوسنية التى أُعيد تشكيلها (وجيشها الذى يقوده المسلمون) وخصومها الصرب البوسنيين . وتقدمت قوات الحكومة البوسنية ، وقد تحررت من قتال الكروات ، صوب المواقع الصربية فى شمال وسط البوسنة فى محاولة لاستعادة الأراضى التى فقدتها فى وقت سابق من الحرب . أما القوات الصربية البوسنية ، المحظور عليها القيام بأية عمليات ضد سراييفو، فقد صعَّدت من قصفها للعديد من الملاذات الآمنة الحضرية التى تخضع لسيطرة الحكومة. كما ردت وحدات الجيش البوسنى المدافعة عن جوراجده Gorazde ، وهى موقع استراتيجى متقدم تابع للحكومة البوسنية على نهر درينا . وبما أن مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة قد أعلن جوراجده " ملاذاً آمناً " فى مايو 1993 ، فما الهجوم الصربى البوسنى على المدينة المكتظة باللاجئين إلا تحد سافر لقرارات الأمم المتحدة .

وبينما كانت القوات الصربية البوسنية تلحق الهزائم بالمدافعين من الجيش عن جوراجده ، زدات من قصفها للأهداف المدنية . وفى محاولة لوقف الهجمات الصربية ، شنت الطائرات الحربية الأمريكية ، بأمر من الناتو ، هجمات جوية" على درجة شديدة من الدقة " على أهداف جيش الجمهورية الصربية المهاجمة لجوراجده يومى 10 و 11 أبريل 1994 . وعلى امتداد الأيام القليلة التالية ، ردت القوات الصربية البوسنية على ذلك باحتجاز ما يربو على 200 من جنود الأمم المتحدة فى مكان آخر من البوسنة كرهائن . وفى 16 أبريل أُسقطت طائرة بريطانية من طراز سى هاريير Sea Harrier أثناء محاولتها شن هجوم آخر على أهداف جيش الجمهورية الصربية . وفى الأيام التالية بدا أن الأمم المتحدة والناتو لا حول لهما ولا قوة ، حيث كثف جيش الجمهورية الصربية من قصفه ، رغم إعلان زعماء صرب البوسنة وقف اطلاق النار مرات عديدة وتعهدهم للدبلوماسيين الروس بوقف هجماتهم .

ومرة أخرى تعدى صرب البوسنة خط تغاضى المجتمع الدولى عن العنف المنظم ضد المدنيين . وعندما ووجهت حكومة كلينتون بإذلال الأمم المتحدة والناتو فى البوسنة حصلت فى 21 أبريل على إقرار الناتو لإنذار أشبه بتهديد فبراير الذى فرض وقف الهجمات على

سراييفو . وكما حدث فى أغسطس 1993 وفبراير 1994 ، كان امتثال الصرب لمتطلبات الإنذار متردداً وناقصاً ، إلا أن القصف توقف فى نهاية الأمر ودخلت قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة جوراجده فى أواخر أبريل .

وأعقبت التطورات التى شهدتها جوراجده فى مارس وأبريل 1994 نمطا مشابهاً لما شهدته سراييفو فى فبراير . فقد اختبرت قيادة صرب البوسنة أكثر من مرة صدق عزم الناتو والأمم المتحدة ، بينما كانت تسعى إلى امتصاص غضبهما بإعلانات وقف إطلاق النار والإعراب عن النوايا فى أوقات تختارها بعناية ، بينما تكثف هجماتها على المدنيين. وكان الاستخدام المنظم للإرهاب ضد المدنيين ، بدلاً من الهزيمة العسكرية للقوات البوسنية التى تحميهم ، وراء عزم الولايات المتحدة والناتو على إصدار انذار صادق ضد قوات جيش الجمهورية الصربية المحاصرة . وجعل هذا صرب البوسنة فى وضع التفوق العسكرى الذى لا حدود له فى المنطقة ولا يمنعهم من استكمال غزوهم إلا تهديدات الأمم المتحدة والناتو .

مكاسب الحرب

لم تسفر حروب الخلافة اليوغوسلافية عن فائزين بحق . فقد عانى المنتصرون والضحايا على السواء ، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة وأشكال متباينة .

وفيما يتعلق بما تبقى من يوغوسلافيا (صربيا والجبل الأسود) و " جمهورية البوسنة والهرسك الصربية " التى أُعلنت من جانب واحد ، كان الدمار الاقتصادى ووضع المنبوذين دولياً مصاحباً للنجاح العسكرى . وجلب سلوك قواتهما فى البوسنة الإدانة الدولية والعقوبات الاقتصادية المدمرة التى فرضتها الأمم المتحدة . وابتُلى ما تبقى من يوغوسلافيا بالتضخم الذى بلغ ارتفاع معدله حداً غير معقول ، وهو حوالى مليون فى المائة شهرياً : وأعاد البنك المركزى تقويم العملة بحذف ستة أصفار من الدينار فى أكتوبر 1993 وتسعة أصفار أخرى فى ديسمبر 1993 . ووقت كتابة هذا الكلام يقوم الاقتصاد المدنى الهزيل على الماركات الألمانية والمقايضة وتهريب السوق السوداء من بلغاريا واليونان والمجر . ولكى يحصل السكان على بضع لترات من البنزين أو وقود التدفئة ، يقفون أياماً فى الطوابير .

وأصبح الجزء الخاضع للصرب من البوسنة دولة عسكرية يسيطر عليها جيش

الجمهورية الصربية ، وهو الاسم الذى اتخذه فرع جيش الشعب اليوغوسلافى فى مايو 1990 . وبعد طرد معظم السكان المسلمين فى الجزء الخاضع للصرب من البوسنة فى حملات التطهير العرقى ، فقدت هذه المنطقة الكثير من طاقتها الانتاجية . وكان تقدير زعيمها رادوفان كاراجتش فى أواخر 1993 أن الاقتصاد كان يعمل بنسبة 18٪ من معدله قبل الحرب .(32) وكان معظم الانتاج لدعم جيش الجمهورية الصربية بصورة مباشرة ، بينما كانت هناك مساهمة قليلة فيما يتعلق برفاهية السكان المدنيين . وعندما زار الصحفيون الغربيون المنطقة فى خريف 1993 ، اشتكى المقيمون فيها سراً من أنهم يخشون الأعمال التعسفية التى يقوم بها الجيش وشبهوا النظام الحاكم بالستالينية فى الاتحاد السوفيتى السابق . وبعد عشرين شهراً من الحروب ، كان جيش الجمهورية الصربية يعانى من انخفاض الروح المعنوية والهروب من صفوفه .

وخسرت جمهورية كرواتيا حوالى ثلث أراضيها لجيش الجمهورية الصربية وحلفائها الصرب فى حرب 1991 . ونجمت عن أعباء الحرب المباشرة ، إلى جانب تسبب الحرب فى وقف وصول السياح الأجانب إلى شواطىء دالماتيا وعبء إعاشة مئات الآلاف من اللاجئين ، أزمة اقتصادية تزداد حدة فى كرواتيا ، وإن كان الموقف لم يصبح ميئوساً منه ، كما هو الحال فيما تبقى من يوغوسلافيا . ورغم العون الضخم الذى قدمته كرواتيا فى صورة رجال وعتاد للقتال فى الهرسك ووسط البوسنة سنة 1993 ، فقدت القوات الكرواتية أراض استولت عليها القوات البوسنية التى قدر المراقبون الأجانب أنها مسلحة تسليحاً خفيفاً. وأدت إعاشة موجة المهاجرين من كروات البوسنة بسبب القتال إلى زيادة عبء الحكومة . وربما كان أسوأ شىء بالنسبة لكرواتيا على المدى الطويل هو ذلك التحدى الذى واجهه النظام الحاكم فى زغرب نتيجة لحركة الحكم الذاتى فى إستريا Istria ودالماتيا . ولو قُدِّر لهاتين الحركتين أن تنجحا لحُرمت كرواتيا من مناطقهما السياحية على شواطىء دالماتيا التى تدر عليها عائداً ، ولما تبقى من كرواتيا سوى مدينة زغرب وما حولها.

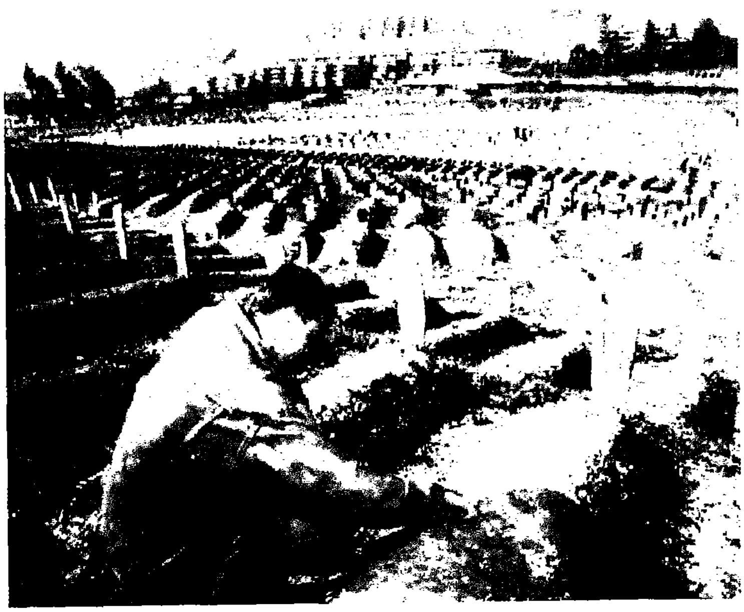
وقد أحالت الحرب التى بدأت فى أبريل 1992 المناطق الخاضعة لسيطرة الحكومة من البوسنة والهرسك إلى جزر حضرية صغيرة من الحرمان والبؤس ، يعيش من تبقى من سكانها فى ظروف لا تليق بالبشر لم تعرفها أوروبا منذ الحرب العالمية الثانية . وأصبح

---

(32) John Burns, "Bosnia Serbs Begin To Question Price of Victory," *The New York Times*, November, 14, 1993, pp . 1 and 4.

معظم سكان البوسنة عالة على جماعات الإغاثة الدولية معتمدين على شحنات المساعدات التي تصل بلا انتظام فى قوافل المساعدات الإنسانية وما تسقطه طائرات الشحن الأمريكية . وبعد اثنين وعشرين شهراً ، قدَّر أطباء الأمم المتحدة أن الشخص المتوسط فى سراييفو فقد خمسة وعشرين رطلاً من وزنه منذ بدء الحصار فى أبريل 1992 . وإذا كان توقف القصف اليومى فى 11فبراير 1994 جعل سكان سراييفو يشعرون بالراحة والتفاؤل الحذر ، فقد ظل الحصار قائماً بصورة كبيرة مع استمرار إحاطة جيش الجمهورية الصربية بالمدينة .

وبالنسبة لمعظم البوسنيين ، ظلت الحرب على ما كانت عليه من قبل ، حيث مأزق وجود آلاف المدنيين المحصورين فى المراكز الحضرية من البلاد . وقُصف مستشفى فى توزلا بالقنابل فى اليوم السابق لانتهاء إنذار الأمم المتحدة . وحتى أبريل 1994 ظل الوضع الصعب الذى يعيش فيه سكان مدن جوراجده و سربرينتسا و جبا المحاصرة فى شرقى البوسنة على نفس القدر من الخطورة . وعلاوة على ما يقدر بـ 200 ألف بوسنى لقوا حتفهم فى القتال ، أصبح أمل مليونى لاجىء بوسنى تقريباً غيرهم فى العودة لديارهم ضعيفاً .



شكل 11 - 7 رجل حزين على وفاة والدته التى قتلها أحد القناصة فى سراييفو

وما أن تدخلت الجماعة الأوروبية فى الأزمة البوسنية فى أوائل 1992 حتى اعترف وسطاء المجتمع الدولى بالأطراف الثلاثة المتناحرة اعترافاً كاملاً وتعاملوا معها كمتنازعين متساوين لهم مطالب شرعية . وحتى إذا كانت العقوبات الاقتصادية قد فُرضت على ما تبقى من يوغوسلافيا ، وخضع الرئيس الصربي ميلوشيفتش والزعيم الصربى البوسنى كاراجتش لتحقيقات جرائم الحرب ، فقد منحهما أوين و ستولتنبرج شرعية لا حد لها . وكذلك فعلا مع الزعيمين الكرواتيين فرانيو توجمان و ماتى بوبان على طاولة المفاوضات . وأدى استعداد الوسطاء الدوليين إلى قبول كل المتنازعين على أساس قوتهم العسكرية إلى إضفاء الشرعية على المكاسب الإقليمية التى حققها أقوى الأطراف . وأدى منهجهم هذا ، إلى جانب سياسة التغاضي عن حد معين من العنف القائم الذى تمارسه كل الأطراف ، إلى تشجيع استمرار حرب الاستنزاف وذلك المأزق الذى بدأ فى ربيع 1992 .

وربما كان تمزيق البوسنة والهرسك السريع على أيدى القوة العسكرية فى 1992 أشبه بأحداث 1941 ، عندما ترك زوال يوغوسلافيا الملكية البوسنة تحت رحمة قوى الاحتلال الأجنبى . ووقتها ، كما هو الحال الآن ، ساندت قوة عسكرية ذات نفوذ (ألمانيا فى 1941 وجيش الشعب اليوغوسلافى فى 1992) ، عازمة على بث الفرقة فى البوسنة ، طائفة عرقية بعينها (الكروات سنة 1941 والصرب سنة 1992) . وفى تلك الفترة ، تماماً كما يحدث فى وقتنا هذا ، تحالف المحتلون الأجانب مع محليين متواطئين معهم يشنون حملات الإبادة الجماعية ويهدفون إلى إقامة دولة متكتلة عرقياً . ولكن هذا المسعى باء بالفشل فى الفترة من 1941 إلى 1945 . وأبقى الأنصار بقيادة تيتو على أمل الأخوة القومية والوحدة عن طريق مناشدة أبناء كل القوميات العمل على طرد العدو المحتل . إلا أن التشابه يتوقف عند هذا الحد . فقد تحقق التفوق لتيتو وأنصاره بالمساعدة العسكرية التى جاءتهم من الحلفاء الغربيين والمشاركة العسكرية المباشرة للجيش الأحمر السوفيتى. وفى الأزمة البوسنية التى بدأت سنة 1990 ، لم يوقف التدخل الدولي المعتدين من غلاة القوميين بصورة فعالة ولم يوفر المساعدات اللازمة لمن يؤيدون التوصل إلى حل متعدد القوميات .

وأدى التطهير العرقى الذى مارسه الصرب والكروات والمسلمون إلى تدمير الأنماط السكانية متعددة الأعراق فى أجزاء كثيرة من البوسنة فى عامى 1992 و 1993 . ومع

استمرار الصراع وقيام المتطرفين القوميين بالقصف المستمر للعديد من المدن البوسنية ومحاصرتها ، تضاءلت الآمال فى مجتمع متعدد الأعراق أكثر وأكثر . إلا أن الجمهورية البوسنية برزت وحدها بين الأطراف المتنازعة فى الصراع بالتزامها بالمجتمع متعدد الأعراق وبمبادىء التعددية والتسامح المتبادل . وإذا كانت الحكومة البوسنية حُرمت من فرص تسليح نفسها طبقاً لحظر السلاح الذى فرضته الأمم المتحدة ، دون أن تتلقى دعماً لجهودها للحفاظ على المجتمع متعدد الأعراق أو الاعتراف بها ، فقد كانت رغم ذلك الملاذ الذى يلجأ إليه أبناء كل القوميات الذين يأملون فى وجود مجتمع بوسنى تعددى ، خاصة فى سراييفو وغيرها من المدن المحاصرة .

ورغم وجود تراث عريق من التصالح والتعايش بين الطوائف الدينية والقوميات المختلفة ، فقد خانوا ميراث البوسنة التاريخى فى ذلك الصراع الذى بدأ فى 1992 . ولكن هذا لا ينكر أن كثيرين من صرب البوسنة وكرواتها أبدوا فى جزء كبير من القرن المنصرم رغبة فى الاتحاد السياسى مع الدول المجاورة . إلا أن الأنماط التاريخية لسياسة الائتلاف والحل الوسط ، إلى جانب تقاليد التعاون والتعايش عميقة الجذور فى الحياة اليومية ، أظهرت من قبل أن الحل الوسط له الأولوية على المصالح الضيقة لأية طائفة بعينها . ولكن فى سنة 1992 ، عندما أصدر ممثلو المجتمع الدولى تهديدات لا طائل من ورائها وشوهوا طبيعة الصراع لتبرير تراخيهم ، دمر البلطجية المسلحون ومرتكبو التطهير العرقى الآثم المجتمع الذى كان يشترك فى القيم والمعتقدات ، التى تعد أساس الحياة الديمقراطية الغربية.

ببيلوجرافيا المؤلفين

العصور الوسطى (حوالى 500 - 1453)

Fine, John V. A., *The Bosnian Church: A New Interpretation* , Boulder and NewYork: East European Monographs , distributed by Columbia University Press, *1975.*

Fine, John V. A., *The Late Medieval Balkans: A Critical Survey from the Late Twelfth Century to the Ottoman Conquest,* Ann Abor : University of Michigan Press, *1987.*

Fine, John V. A.," Bosnia " Di*ctionary of the Middle Ages, II, pp. 334-41.*

Fine, John V. A.,"Bosnian Church," *Dictionary of the Middle Ages,* II, pp. 341-3.

Wenzel, Marian, "Bosnian and Herzegovinian Tombstones: Who Made Them and Why?" *Südoest-Forschungen,* XXI (1962), pp. 102-34.

Wenzel, Marian, *Ukrasni motivi na steccema / Ornamental Motifs on theTombstones from Medieval Bosnia and Surrounding Regions, Sarajevo:* Veselin Maslesa, 1965. The text is both in Serbo-Croatian and in English.

الفترة العثمانية (1453 - 1878)

Andric, Ivo, *Bosnian Story* (trans. Keneth Johnstone), London: Lincolns-Prager, 1961. A magnificent novel set in the early nineteenth-century Travnik, where the vizier resided.

Andric, Ivo. *Bridge on the Drina,* University of Chicago Press, 1977 (originally published 1959). A muti-generational novel about Visegrad in the Ottoman period.

Mackenzie G.M. (Lady Sebright) and Irby, *Travels in the Slavonic Provinces of Turkey in Europe,* 2 vols., London: 1877.

الفترة النمساوية المجرية (1878 - 1918)

Dedijer, Vladimir, *The Road to Sarajevo.* London: MacGibbon and Key, 1967.

Donia, Robert J., *Islam Under the Double Eagle: The Muslems of Bosnia and Hercegovina,* 1878-1914, Boulder and New York: East European Monographs,distributed by Columbia University Press, 1981.

Sugar, Peter F., *Industrialization of Bosnia-Hercegovin,* 1878-1918, Seattle: University of Washington Press, 1963.

الفترة اليوغوسلافية الملكية (1918 - 1941)

Banac, Ivo, *The National Question in Yugoslavia: Origins, History, Politics,* Ithaca: Cornell University Press, 1984.

Djilas, Aleksa, *The Contested Country: Yugoslav Unity and Communist Revolution,* 1919-1953, Cambridge: Harvard University Press, 1991. An insightful account that spans the royal Yugoslav, wartime, and socialist periods.

Rothschild, Joseph, *East Central Europe between the Two World Wars, Seattle:* University of Washington Press, 1974, pp. 201-80.

Tomasevich, Jozo, *Peasants, Politics and Economic Change in Yugoslavia,* Stanford University Press, 1957.

الحرب العالمية الثانية (1941 - 1945)

Auty, Phyllis, *Tito: A Biography,* Harlow, England:Longmans, 1970.

Maclean, Fitzroy, *Eastern Approaches,* London: J. Cape, 1949.

Roberts, Walter, *Tito, Mihailovic and the Allies,* New Brunswick: Rutgers University Press, 1973.

Tomasevich, Jozo, *The Chetniks: War and Revolution in Yugoslavia,* 1941-1945, Stanford University Press, 1975.

الفترة اليوغوسلافية الاشتراكية (1945 - 1991)

Radio Free Europe Research Reports.

Doder, Dusko, *The Yugoslavs,* New York: Random House, 1978.

Irvine, Jill A., *The Croat Question: Partisan Politics in the Formation of the Yugoslav Socialist State,* Boulder: Westview, 1993.

Lockwood, William, *European Moslems: Economy and Ethnicity in WesternBosnia,* New York: Acadimic Press, 1975.

Ramet, Sabrina P., *Nationalism and Federalism in Yugoslavia,* 1962-1991, 2nd edn., Bloomington: Indiana University Press, 1992.

Rusinow, Dennison, *The Yugoslav Experiment,* 1948-1974, London: C. Hurst, 1977.

Shoup, Paul S., *Commumism and the Yugoslav National Question,* New York: Columbia University Press, 1968.

Balkan War Reports. Bulletins of the Institute for War and Peace Reporting, London.

Cohen, Leonard, *Broken Bonds: The Disintegration of Yugoslavia, Boulder:* Westview, 1993.

Dizdarevic, Zlatko, *Sarajevo: A War Jornal,* New York: Fromm International, 1993.

Filipovic, Zlata, *Zlata's Diary: A Child's Life in Sarajevo,* New York: Viking, 1994.

Glenny, Misha, *The Fall of Yugoslavia: The Third Balkan War,* New York: Penguin, 1992.

Gow, James, "One Year of War in Bosnia and Herzegovina," *RFE/RL Reseach Report,* June 4, 1993, pp. 1-13.

Gutman, Roy, *A Witness to Genocide,* New York: Macmillan, 1993.

Hayden, Robert, "The Partition of Bosnia and Herzegovina. 1990-1993," *RFEIRL Reseach Report,* May 28, 1993, pp. 1-14.

Stoke, Gale, *The Walls Came Tumbling Down,* Oxford University Press, 1993, pp. 218-52.

مراجــع المترجم

* **الأصور ، خالد** : البوسنة والهرسك : حقائق وأرقام ، كتاب دعوة الحق عدد 166 ، الرياض ، شوال 1416 .

* **برجاوى ، سعيد أحمد** : الإمبراطورية العثمانية : تاريخها السياسي والعسكرى ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت 1993 .

* بهجة المعرفة ، موسوعة : الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، طرابلس- ليبيا 1983 .

* **حجازى ، د. أبو الفتح شرف الدين** : " التنظيم الإسلامى ودوره فى الحفاظ على الهوية والتراث والحضارة الإسلامية فى يوغوسلافيا السابقة " ، مجلة الدارة ، العدد الثالث – السنة العشرون ، الرياض ربيع الآخر 1415 .

* **السمارى ، د. فهد بن عبد الله** : العمل الإسلامى فى أوروبا الشرقية : التحديات والمستقبل ، جامعة الملك محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض 1992 .

* **شكرييتش ، نياز محمد** : انتشار الإسلام فى البوسنة والهرسك في القرنين الخامس والسادس عشر ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، بنغازى 1995 .

* **صغير ، د. أنطون** : محيط الشرائع ، مجلد (3) ، المطابع الأميرية ، القاهرة 1953.

* **الطرازى ، د. عبد الله مبشر** : صفحات من تاريخ البوسنة والهرسك ، رابطة العالم الإسلامى ، مكة 1992 .

* **عاشور ، د. سعيد عبد الفتاح** : أوروبا العصور الوسطى ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة 1991 .

* **عبد العزيز ، د. وسام** : البوسنة – الهرسك _ كرواتيا : قراءة في التاريخ الباكر ، دار عين للدراسات ، القاهرة 1994 .

* **على ، د. سيد رضوان** : السلطان محمد الفاتح ، الدار السعوية للنشر والتوزيع ، الرياض 1982 .

* **عفيفي ، د. محمد** : " مصر ومسلمو يوغوسلافيا " ، مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة ، مجلد 56 ، عدد 2 ، القاهرة أبريل 1996 .

* **غلاب ، د. محمد السيد و آخرون** : البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة فى العالم المعاصر ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض 1979 .

* **قفلجملى ، حكمت** : التاريخ العثمانى : رؤية مادية ، تعريب فاضل لقمان ، دار الجيل ، دمشق 1987 .

* **كولز ، بول** : العثمانيون في أوروبا ، ترجمة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، الألف كتاب الثانى (126) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1993.

* **مانتران ، روبير** : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة بشير السباعى ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة 1993 .

* **محمد ، د. جمال الدين سيد** : البوسنة والهرسك ، دار سعاد الصباح ، القاهرة 1992 .

* **المهداوى ، أشرف** : قصة البوسنة ، دار الشواف ، الرياض 1995 .

* **نصيف ، مجدى** : حرب البوسنة والهرسك ، المستقبل العربى ، القاهرة 1993

المؤلفان

روبرت ج دنيا

حصل على درجتى الماجستير والدكتوراه فى تاريخ البلقان من جامعة ميشيجان الأمريكية وأوفدته هيئة فولبرايت باحثًا فى سرايبفو عامى 1994 / 1995 . من مؤلفاته **الإسلام فى ظل النسر المزدوج** : تاريخ مسلمى *البوسنة والهرسك من 1878 إلى 1914* . وهو يعمل بالتدريس فى الجامعات الأمريكية .

جون ف أ فاين

حصل على درجتى الماجستير والدكتوراه من جامعة هارفارد الأمريكية ودرس فى جامعة سرايبفو وعمل بالتدريس فيها . وهو الآن أستاذ للتاريخ البلقانى والبيزنطى فى جامعة ميشيجان وله كتاب من جزءين عن تاريخ *البلقان فى العصور الوسطى* ودراسة عن الكنيسة البوسنية .

المترجم

يعمل حاليا رئيساً لقسم الترجمة بمجلة «كل الناس» . وهو حاصل على ليسانس الأدب الإنجليزى سنة 1973 ودبلوم الدراسات العليا فى الترجمة 1987 من كلية الآداب جامعة القاهرة . ترجم كتباً منها «الناس فى صعيد مصر» لوينفريد بلاكمان (دارعين) و«طريق الحرير» لديفيد براونستون وأيرين فرانك (المشروع القومى للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة) و«عالم ماك : المواجهة بين التأقلم والعولمة» (المشروع القومى للترجمة) . وله ترجمات فى دوريات مثل «الديمقراطية» و«الثقافة العالمية» و«كل الناس» . وهو عضو اتحاد الكتاب وحاصل على جائزة محمد بدران (1998) لأفضل كتاب مترجم عن كتابه «طريق الحرير» .

محتويات الكتاب

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٥٣٧٨ / ١٩٩٨

Bosnia and Hercegovina

ROBERT J. DONIA

JOHN V.A. FINE

يتناول هذا الكتاب التقاليد التاريخية الثرية فى البوسنة فى ضوء الصراع الذى اندلع هناك سنة 1992 . ويوضح لنا المؤلفان أصول الجماعات العرقية القومية الرئيسية فى التحولات الدينية التى شهدتها العصور الوسطى والحقبة العثمانية من تاريخ البوسنة التى كانت بمثابة مقدمة لتحول طوائفها الدينية الأساسية إلى قوميات القرن العشرين . وخلال ذلك يقدم المؤلفان دور كل من المسلمين والصرب والكروات فى تلك الأحداث التى أثرت على الشعوب اليوغوسلافية فى القرن العشرين ثم بعد تفكك يوغوسلافيا فى أوائل التسعينيات.

ولا يتفق المؤلفان مع تلك الفكرة القائلة بأن تاريخ البوسنة حافل بالعنف والكراهية القبلية التى سادت بين الصرب والكروات والمسلمين . فهما على العكس من ذلك يؤكدان على تكون تراث ثرى من التنوع والتعددية على مر القرون ، حيث ظل مزدهراً حتى وقت قريب . وهذا التراث الذى اتسمت به الحياة اليومية انعكس على السياسة من خلال الائتلافات وتكوين عادة الحلول الوسط البراجماتية . ويعرض لنا الكتاب كذلك الطريقة التى دمرت بها القوى القومية المتطرفة تراث البوسنة متعدد الأعراق . إذ حدث ذلك أول مرة إبان الحرب العالمية الثانية ثم تكرر في حرب التسعينيات . فقد انطلق المتطرفون من عقالهم يعيثون دماراً فى المجت[illegible] الكثيرين من شعب البوسنة الآمن .

تصميم الغلاف : عماد حليم